
ثلاثية نيويورك
رواية
@ketab_n
Follow Me
9.6.2014
بول أوستر
ترجمة كامل يوسف حسين
دار الآداب

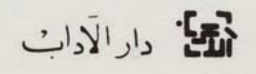
بول أوستر



ثلاثيّة نيويورك

رواية

ترجمة: كامل يوسف حسين



دار الآداب


ثلاثيّة نيويورك

الطبعة الأولى
١٩٩٣

مقدمة المترجم

يستمدّ العمل الماثل بين يدي القارىء أهميّته من عدَّة أبعاد جديرة بـالاهتمام حقّـاً، وربّما كـان في مقدمتهـا أنَّ «ثُلاثيّـة نيويـورك» تشكّل اللّقاء الأوّل بين القارئ العربي وبين مؤلِّفها الرِّوائي الأمريكي البـارز بول أوستر، وأنّها تفتح لنا من نـاحية أخـرى أفقاً جـديداً في التعـرّف عـلى جوانب شـائعة من إبـداعـات الأدب الأمـيركي الحـديث، ومن جانب ثالث فإنّنا بين يدي نموذج مدهش للاشتمال على رواية التّحرّي الأمريكيّة بمنهاج بنيويّ يستهدف فتح آفاق جديدة أمام هذا النّوع من الرِّوايات الضـاربة الجـذور في الأدب الأمريكي، ثمَّ نحن رابعـاً أمام توظيف رائع للمكان في خدمة العمل والنسيـج الروائيـين، على نحـو قلّ نظيره في الأدب العالمي.

ولو لم يكن صرح أهميَّة هـذا الكتاب قـائماً إلّا عـلى هذه الأعمـدة الأربعة لكفاه هذا وكفانـا، غير أنّـه من المحقّق أنّ من سيقرأ «ثُـلاثيّة نيويرك» بحبٍّ وتعاطفٍ سيجد الكثير من الجوانب الّتي تفـرض نفسها بقوّة ووضوح.

وإذا كان تقديم كاتب جديد للقارئ العـربي يتيح لمن يقـوم بجهد هذا التّقديم سعادة حقيقيَّة قـوامها لـذّة الاكتشاف، وفـرصة تقـديم الباهر والمتـألّق للقارئ، فـإنَّه يُلقي في الـوقت نفسه عـلى كاهله عبءَ

التعريف بجوانب هـذا الجديـد، سواء فيـما يتعلّق بالمؤلِّف، أو بعـالمه الرّوائي.

ومن المؤكّـد أنَّ تلك مهمّة ليست، في حـالة بـول أوستر و«ثُـلاثيّة نيـويورك» بـالمهّة اليسـيرة. وبغرض تبسيط هـذه المهمّة فـإننّا نتصـوّر إمكانيّة الحديث عن ثلاثة جوانب هي على التوالي: مكان بول أوسـتر على خارطة تيّارات الأدب الامريكي الحديث، وأبعاد عالمـه الرِّوائي، وجماليات المكان في «ثُلاثيّة نيويورك».

وإذا شئنا البدء بمحـاولة تحـديد مكـان أوستر عـلى خارطـة تيارات الأدب الامريكي الحديث وجدنا أنّ من واجبنـا المبادرة، عـلى الفور، إلى إيضاح أنّنا لسنا بين يـدي حديث مـطوّل عن تطوّر هـذا الأدب، فمثل هذا الحـديث على أهميّتـه ليس مكانـه مقدّمـة مثل هـذا العمل الرِّوائي.

وربّما كان بوسعنا القول إنّه بعد رحيل عملاقَي الرِّوايـة الأمريكيّـة إرنست همنجـواي ووليام فـوكنر بـدأ كثـير من النّقـاد يستعـيرَ التعبـير الشـهيرفي دراسات المسرح «موت التراجيديا» ليتنبّأ بـ «موت الـرِّواية الأمريكيّة»، ذلـك أنّ الكتابـات الرِّوائيّـة الأمريكيّـة شهدت في هـذه الفـترة رحيلاً في أرض رمـاديّة أو مسـيرة غَسَقِيّـة في منـاخ لا يستبـين النَّاقد، دع جانباً القارئ، تحت آفاقها المدلهمّـة كَفَّه، فقـد لزم جـون بـارث الصَّمت، ولم يكتب غـيره من أمثـال وليـام جـادس وتـومـاس بنشون وسالنجر إلاّ القليل، بينما غلب طابـع الكتابـة الصحافيّـة على أعمال نورمان ميللر، وكان من الصّعب القول بأنّ كتّاباً مثل سول بيلو وجيمس بـالـدوين وفيليب روث يحملون الـرِّوايـة الأمـريكيّـة عــلى

أكتـافهم، ربّما لأنّهم، في نهايـة المـطاف، يكتبـون من منـظور جـزئي متعلّق غالباً برؤية الأقلّيّات الّتي ينتمون إليها، حتّى وإن وصلت سعة أفق بعض كتاباتهم إلى حدّ منح سـول بيلو، على سبيـل المثال، جـائزة نوبل للأدب.

غير أنّ هذه المسيرة الغَسَقِيَّة لم تفـرض نفسها طـويلاً؛ فقـد برزت نـوعيّةٌ جـديدة من الكتـابات مفـارقةٌ لمـا سبق تمامـاً، فهي بعيدة عن المبـالغـة والتضخيم وتـرفض في الـوقت نفسـه النـزوع إلى الهـروب والانسحاب، وتملك الجرأة على مواجهة الآخر والذّات والوجود معاً.

وهذه الكتابات الجديدة لم تأتِ من عدم، ولم تظهر في فراغ، وإنّما كـانت التجلّي الأدبي الـذي يوازي تحـرُّكات من النّـوع نفسـه، لا في المجال الأمريكي وحده، وإنّما على مستوى العـالم كلّه، فهي تقف إلى جـوار البوب آرت والنـزعة الـطّليعيّة ومسرح الأنـدرجراونـد وسينـما الهوبو.

ولم يُقدَّر لهذا التيّار الذي جاء في أعقاب انحسار أحلام السّتّينـات الكبـيرة، وفشل المـاويّة، ووصـول انتفـاضـات الشّبـاب إلى سـاحـة الصّفـر، وتحوُّل حـركات حـرب العصابـات والمقاومـة اليسـاريّـة إلى أحزاب وحيدة في الشّارع وسدّة السّـلطة في الكثير من أرجاء العالم - لم يُقدَّر لهذا التيار أن يتبلور بين عشيّة وضحاهـا. وإنّما كـان لا بدَّ أن تنقضي سنوات طويلة على ظهور إبداعاته قبل أن يـطلق عليه بـوفورد رئيس تحـريـر مجلّة «جـرانتـا» في العـدد الثـامن من المجلّة المخصّص بكامله للكتابـات الأمريكيّـة الجديـدة اسـم «الواقعيّـة القذرة» ثمَّ لم يتـردَّد بعد ذلـك بسنوات في تخصيص العـدد التّاسـع عشر من المجلّة

لكتابات التيّار نفسه تحت عنوان «المزيد من القذارة: الرِّواية الأمريكيّة الجديدة».

وفي إطار تيّار «الـواقعيّة القـذرة » نلتقي بعمالقـة حقيقيين، وإن لم تُقـدَّر لهم، حتّى الآن عـلى الأقـلّ، الشهـرة المـدوّيـة الّتي كـانت من نصيب سـابقيهم، ومع ذلـك فإنّـه لا سبيل إلى الحـديث عن المشهـد الـرّوائي الأمـريكيّ اليـوم دون الحـديث عن روّاد هــذا التيّـار، وفي مقدّمتهم ريموند كارفر الّذي رحـل عن عالمنـا، وريتشارد فـورد الذي يتصدّى لقيادة هذا التيّار حاليّاً، وتوبياس وولف، وجين آن فيليبس، وريتشـارد روسو، وإيلين جيلكـريست، وجـوي وليـامـز، وروبـرت أولمستيد، وغيرهم.

ومن العجيب حقاً أنّه لم يُقدَّر لكلمة واحدة من إبداع كتّـاب هذا التيّار أن تترجم إلى اللّغة العربيّـة، وهو أمـر يرجـع في اعتقاد كـاتب هذه السّطور، إمّا إلى عدم متـابعة حـركة التـطوّر في المشهد الـرِّوائي العالمي، ومنه المشهد الأمريكي، من جانب حركـة التّرجمـة العـربيّـة الّتي تكاد تصل إلى مرحلة التّوقف، وإمّا إلى الطّابـع الجزئي، حتّى لا نقول التّعسّفي في اختيار ما يترجم من أعمال الأدب الأمريكي بشكـل خاصّ، وإمّا أنّ هناك توجّهات بعينها تدفع إلى حجب هذا التيّار عن عيني القارئ العربيّ، خاصّة وأنّ هذا التيّار ظلّ، ومايزال، محارباً من المؤسّسات الرسميّة الأمريكيّـة، والكثير من روائعـه منشور من خـلال دور نشر صغـيرة تصدر الأعـمال الـطّليعيّـة، في مـواجهـة الكثـير من المصاعب.

هكـذا يـدهش المرء حـين يعلم أن مجمـوعـات كـارفـر الثـلاث الرئيسيّة، وهي «سُكُوتاً من فضلكم» و«ما الّـذي نتحدّث عنه حينما

نتكلّم عن الحبّ' و«كاتدرائيّة» لم تنقل إلى العربيّة، وإن ترجمت بعض قصصها بشكل فرديّ.

والأمر نفسه ينطبق على ريتشارد فورد، إذ لم تنقل إلى العربيّة أيّ من رواياته الخمس، وهي على التوالي: «حياة وحشيّة» و«كاتب الرياضة» و«قطعة من قلبي» و«منتهى الحظّ السّعيد» و«زير النّساء»

كما لم تر النور في اللّغة العربيّة رواية توبياس وولف الجميلة «لص الثكنة». ولم يعرف القارئ العربي أعمال جين آن الفريدة، وأبرزها: «المغامرات الحقيقيّة للرولنج ستونز» و«آلة الأحلام» و«البطاقات السّوداء» و«الحواري السّريعة». ولم تنشر بالعربيّة رواية ريتشارد روسو الفاتنة «موهوك» ولا مجموعات إيلين جيلكريست المتميّزة «ممفيس» و «متيّم عشقاً» وغيرها.

وقائمة إبداعات كتّاب تيّار «الواقعيّة القذرة» ممتدّة، وقد سمحت لنفسي بإيراد نماذج منها على الأمل الواهي، أو لِنَقُلِ الحلم، المتمثّل في أن يأتي ذات يوم النّاشر العربي الّذي تواتيه الجرأة على أن يحوّل السّطور السّابقة إلى جدول أعمال يقوم عبره بنشر كلّ الإبداعات الّتي أتينا على ذكرها ويضيف إليها المزيد.

وأيّاً كان الأمر فإنّ بول أوستر لا ينتمي إلى تيّار الواقعيّة القذرة، حقّاً إنّ قارئ كتاباته سيلحظ قدراً معيّناً من التأثّر بمنجزات هذا التيّار، ولكنّ ذلك رافد واحد ضمن روافد أخرى كثيرة شكّلت عالم أوستر الإبداعي وأثّرت فيه بعمق وقوّة.

ويحرص أوستر نفسه في اللّقاءات الّتي تجري معه على أن يشير إلى أنّه ينتمي إلى تيّار لاحق لـ «الواقعيّة القذرة» يستفيد من معطياته،

ولكنّه يحرص على تجاوزه.

وكثيراً ما يشدّد أوستر على أنّه يكتب روايات تنتمي إلى روايات التحرّي، ولكنّ هذه الإشارة ربّما أطلقها أوستر مراراً استجابةً لناشريه أكثر ممّا أعلنها في معرض توصيفه لانتماء عالمه الرِّوائي، فكثيراً ما وصف النقّاد هذا العالم الرِّوائي الّذي أبدعه أوستر بأنّه يتحدّى محاولة الإحاطة والتصنيف لثرائه وتعدُّد أبعاده.

وقد يلفت النّظر هنا أنّ أوستر أشار إلى تأثُّره بعدد من كتّاب رواية التحرّي، ومنهم راشيل هاميت وريموند تشاندلر وروس ماكدونالد، ولكنّ هؤلاء الكتّاب على وجه الدقّة يشتركون في أنَّ النقّاد يربطون بينهم وبين كتابة «أدب الحركة» الرفيع المستوى ولا يستبعدونهم من المناقشة وهم يعلنون صراحة تجاهلهم لروايات التحرّي، الأمر الذي يشير إلى أكثر من معنى وأكثر من دلالة.

وإذا ما انتقلنا كذلك إلى البعد الثاني المتعلّق بعالم أوستر الرِّوائي، بادرنا كذلك إلى القول بأنّنا نستميح القارئ عذراً إذا ما وجد اختلالاً في التّركيز على جزئيات بعينها دون غيرها في غمار تلمُّسنا لملامح هذا العالم الرِّوائي، فذلك لا يعكس أهميَّة هذا الجانب دون ذاك أو هذا العمل دون غيره، بقدر ما يعكس اهتماماً شخصيّاً من جانب كاتب هذه السّطور بالأعمال الّتي يجري التّركيز عليها، ربّما كمقدِّمة للقاء جديد مع القارئ عبر تقديم ترجمة لهذه الأعمال له في وقت قد لا يكون بعيداً.

وقد ألمعنا إلى أنّ عالم أوستر الرِّوائي هو، بحسب اعتقاد الكثير من النقّاد من النّوع الّذي يتحدّى محاولات التنميط والتصنيف، وفي

اعتقادنا أنّ هذا مؤشّـر آخر على فرادة هذا العالم وزخم العبقريّـة الّتي أبدعته.

جاء أوستر إلى عالم الرِّواية من زاوية الإلمام العميق بأكثر من ثقافـة واحدة، فقد عمل بالتّرجمة عن الفـرنسيّة، واشتهـر بشعره وبـترجماتـه لبودلير وغيره من الشعراء الفرنسيِّين، وقدّم فيضاً هـائلاً من المقـالات الّتي تحـاول مدّ جسـور العلاقـة بين الفـرنسيّة والإنجليـزيّـة، ويـرى كثيرون أنّه قد تأثّر بعمق إلى جانب بودلير، بكلٍّ من كافكا وبيكيت.

ونأمل ألاّ نكـون كمن يقفز في الـظلام إذا ماذهبنـا إلى القول بـأنَّ جوهر مشروع بول أوستر هو الانطلاق بالرِّواية التجريبيّة، بالاستعانة بزاد من كافكا بشكل خاص، وبأصداء ممّا تـردّد على خشبـة بيكيت، للوصول إلى آفاق جديدة.

وقد يكون هناك من يختلف معنا، ولا يتردّد في الذهـاب إلى القول بأنَّ جوهر حركة أوستر، والكثير من أبناء جيله، هـو جوهـر سكوني، رغم حركيّته الظاهرة، وأنَّ الرِّواية التّجريبيَّة الّتي ينـطلق في غمارهـا، تردّد، في الحقيقة، صـدى صيحة «دعنـا نذهب» الّتي تنـطلق في نهاية مسرحيّـة «في انتـظار جـودو» دون أن يكـون هنـاك أثـر لحـركـة عـلى المسرح.

لكنّنا نؤثّر أن نترك الحكم في هذا الشـأن للقارئ، ليصـدره بنفسه مع انتهائه من قراءة الصّفحة الأخيرة في «ثُلاثيّة نيويورك».

وأيّاً كان الأمر فإنّـه يظلّ صحيحـاً أنَّ أوستر من أولئـك الرِّوائيّـين الّذين لا سبيل إلى ربطهم بتيّار بعينه، أو اتّجاه بذاته، ويستحيل التنبّؤ بحدٍّ أدنى بانطلاقته التالية، أو بموضوع روايته المقبلة.

لكن ذلـك لا ينفي، بالضرورة، إمكـانية الحـديث عن سـمات، أو خصائص، أو معالم عامّة في عالمه الرِّوائي، فهناك ذلك الولع المدهش بـالمـواقف المحـيِّرة التي تـطرح عـلى القـارئ فيضـاً من عـلامـات الاستفهـام، وهناك أيضـاً ذلك الافتنـان بالأشكـال الّتي يتقاطـع بهـا الصدفة والقدر، وينغمسان في توجّه رمزي حافل بالتـوتّر والغمـوض معاً.

وقـد صدرت «ثُـلاثيّة نيـويورك» في طبعتهـا الأميركيّـة مُنَجَّمة، إذ كـانت البدايـة في العام ١٩٨٥ بصـدور رواية «مـدينـة الـزجـاج» ثم أعقبتها «الأشباح» و«الغـرفة المـوصدة» في ١٩٨٦، وصـدرت الطبعـة البريطانيّة للثلاثيّة كاملة في ١٩٨٧ وحقَّقت نجاحاً فوريّاً تجلّى في إعادة طبعها من جديد في العام نفسه ثمَّ إصدار طبعـات أخرى في الأعـوام ١٩٨٩ و١٩٩٠ و١٩٩١.

ومن منظور كاتب هذه السّطور فإنّ أوّل ما يلفت النّظر في «ثُلاثيّـة نيويورك» هـو تبنّي بول أوسـتر لمعطيـات المنهاج البنيـوي وتطبيقـه على روايـة التّحرّي، وهكـذا فإنّـه خلافـاً لروايـات التحـرّي الأمـريكيّـة المألوفة، ربّما وصولاً إلى إدجار ألان بو، يترك أوسـتر الجريمـة غامضـةً، والقضايا ملتبسةً، والشّخصيّات والمواقف مُلَغَّزة، بـل إنّه لا يتـردّد في التّـلاعب بتقاليـد الكتابـة في إطار روايـات التحرّي عـلى نحوٍ يُضفي عليها تجريديّة غير مألوفة، إنّنا نواجـه الجريمـة، ولكنّنا في نهايـة النفق نلتقي بالنّفس، لا بالقاتل ولا بالمجرم.

ويحـار المرء أيّ الـروايات الثـلاث أكثر جـدارة بالاهتـمام: مدينـة الزجاج أم الأشباح أم الغرفة الموصـدة؟ ولكن علامـة الاستفهام تلك

تبـدو عبثيّة إذا أدركنـا أنّنا في الـواقع نتحـدّث عن أعضـاء مختلفـة في جسم واحد هو صميم العمل، أيّ الثُلاثيّة بكاملها.

وتلفت النـظر في عالم أوسـتر الرِّوائي كـذلك روايتـه «قصر القمر» وهي عمـل روائي يُـروي من خـلال ضمـير المتحـدّث، إذ نجـد أنَّ الرّاوية، وهو طالب في جامعة كولومبيـا، يعاني من نـزعات تـدميريّـة للذات، وقد تبنّاه، بصـورة رسميّة، عجـوز غريب الأطـوار، مستبّد الطّبع، رغم أنّه مُقْعَد، وربّما بسبب عجزه ذاك. ومـا من شيء يُحْسَم في نهايـة العمل، وكـل ما هنـالك أنَّ القمـر يعاود الإطـلال، القمـر الذي يتخلَّل نسيج العمل، في حضور وغياب يجمع بينهـما عنصر القوّة الطاغية، وعبر صياغات كثيرة تـتراوح بين اسم المـطعم الصّيني الذي يمنح الرِّواية عنوانها والرحلات الخياليّة للقمر الّتي يقوم بها سيرانو دي برجراك وجول فيرن، والهبوط الفعلي على سطح القمر في ١٩٦٩.

وربّما كان أهّم ما تتّسم به هذه الرِّواية الّتي يجذبنا راويتها الثرثار الذرب اللّسان، أنّنا نحسُّ فيها بالحضور الذي يغيب عن القارئ الفطن لأصداء من سول بيلووأبطاله الّذين لا يكفّون عن السّعيّ وراء أهدافهم بلا انتهاء.

ومن بـين روايـات أوسـتر الستّ تستقـطب روايـة «بـلاد الأشيـاء الأخيرة» اهتمامنا بتميّزها بالطّابع المستقبلي، وإن كانت لا توغل بعيداً في رحيلها إلى آفاق المستقبـل. وجوهـر العمل يتمثّـل في تلك الرحلة المدهشة الّتي تقوم بها البطلة «أنّا» بحثـاً عن أخيها في مـدينة الأشيـاء الأخيرة الحافلة بالغرائب، والتي تذكِّرنا برواية نوت هامسون الموسومة بـ «الجوع».

وقد لا يكون من قبيل الصدفة أنّ كاتب السّطور يهتم بشكل خاص بأحدث روايات بول أوستر، وهي «موسيقى الصدفة». فقد راكم أوستر في هذا العمل حصيلة خبرته في الإبداع الرِّوائي، فالرِّواية عمل أعدّت حبكته بعناية بالغة، واختزل نطاق سرده إلى أضيق الحدود، فجاء في صياغة رائعة حقّاً، ونحن نمضي مع الكاتب عبر السّطور إلى نهاية مكثّفة على قدر كبير من التوتّر والزخم معاً، ويبدو أنّ الرِّواية، في جوهرها، تطرح التساؤل المُؤرِّق: عند أيّ منعطف تلتقي الأحداث العشوائيّة والصدف وتتّخذ لها طابعاً حتميّاً؟

في بداية رواية «موسيقى الصدفة» نلتقي مع «جيم ناش» في لحظة استثنائيّة من حياته، عامرة بالفرحة الغامرة، وبالتّعاسة الحقيقيّة معاً، فهو من العاملين في إطفاء الحرائق، تهبط عليه ثروة مقدارها مائتا ألف دولار، يرثها عن أبيه الذي لم يلتقِ به أو يحادثه منذ سنوات بعيدة، ولكن هذه الثروة تصل بعد فوات الأوان حقاً.

لماذا؟

إنّ ثروة أبيه الذي لم يره منذ ثلاثين عاماً تأتي في غير موعدها؛ لأنّ زوجة ناش قد هجرته دونما رجعة، كما أنّه تخلّى لأخته عن ابنته الصغيرة لتقوم بتربيتها.

ماذا إذن؟

لن يتوقف جيم ناش أمام علامة الاستفهام هذه طويلاً، وإنّما يقرّر أن يستسلم لدفق الحرية الغامرة النّابعة من التصرّفات العفوية والانطلاق بسيّارته الجديدة من طراز «ساب» جيئة وذهاباً بلا هدى في أرجاء أمريكا إلى أن تنفد النقود.

انظر كيف يعبّر أوستر عن هذا الموقف، آنّه يقول: «إذا كان هناك ما يعكّر الصفو فهو أنّ الأمر سينتهي، وأنّه لن يستطيع مواصلة العيش على هذا النحو إلى الأبد. في البداية بدا المال بالنسبة إليه وكأنّه لا ينفد، ولكن بعد أن انطلق مرتحلاً خمسة أشهر أو ستة كان ما يزيد على نصفه قد تمّ إنفاقه، كانت المغامرة تتحوّل على نحو وثيد، وإن كان يقينيّاً، إلى لغز؛ فقد كان المال مسؤولاً عن حرّيّته، ولكن في كلّ مرَّة يستخدمه فيها لشراء قسط من تلك الحرِّيَّة، كان يحرم نفسه منها كذلك، لقد كفل له المال الانطلاق حرّاً، ولكنّه كان كذلك محرِّكاً قوامه الخسارة ينطلق به عائداً إلى حيث بدأ».

ويوغل بنا أوستر في الرحلة مع جيم ناش، فعندما تقلّص المال الذي ورثه إلى عشرين ألف دولار فحسب، التقى بشاب ضئيل البنية يُدعى جاك بوزي، وهو لاعب بوكر محترف حالفه سوء الحظ طويلاً، ويقرر ناش أن يقدِّم عشرة آلاف دولار لبوزي لخوض غمار لعبة بوكر كان الأخير قد أعدّ لها من قبل مع رجلين في منتصف عمريهما ينتميان إلى الشريحة الدنيا من الطّبقة المتوسّطة هما «ستون» و«فلاور» اللّذان كسبا ثروة طائلة عن طريق ورقه يانصيب اشترياها معاً.

وعلى الرّغم من هذا الوضوح السّافر لمحالفة الحظ لهما فإنّ بوزي ينظر إليهما باعتبارهما من النّوع الذي يسهل اصطيّاده، ويوافق على اقتسام الأرباح مناصفة مع ناش الذي ينظر إلى الأمر كله باعتباره فرصة لشراء فترة أخرى يمضيها في رحاب الحرِّيَّة.

ما الذي يحدث؟

عندما يصل ناش وبوزي إلى المزرعة المنعزلة في بنسلفانيا التي يقيم

بها المليونيران الغريبا الأطوار، يلعب أوستر لعبته الخاصَّة بسرعة هائلة، وهكذا فإنّ بطله، ناش، يُقْدِم على اتخاذ سلسلة من القرارات هي أقرب إلى الكوارث المتلاحقة منها إلى أي شيء، قرارات استهدفت دعم بوزي في لعبة البوكر، عندما خانه الحظ، وهكذا يجد ناش أنّه بدلاً من كسب قسط جديد من الحرِّيَّة فإنّه حكم على نفسه بالعبوديّة، إذ يرغمهما ستون وفلاور على بناء جدار شاهق باستخدام أحجار قلعة إيرلنديّة استورداها عبر المحيط.

وفي النّهاية تندلع سلسلة من أحداث العنف البالغة الضراوة الّتي تعيد إلى الأذهان لمحات من ضراوة فيلم من أفلام السّينما السّوداء.

ويلفت النظر بشكل خاص أنّه بينما تعتمد الأحداث في رواية «موسيقى الصدفة» في الجانب الأعظم منها على التّفاصيل الواقعيّة القريبة من نسيج الحياة اليوميّة، فإنّ حبكتها، شأن حبكات روايات أوستر الّتي سبقتها تشقّ طريقاً ملتوياً بين الممكن وغير المحتمل، دون أن تخطو إلى ما يفوق الطَّبيعة صراحة، في ابتعاد صارم ومتعمَّد عن الواقعيَّة السحريَّة، على نحو ما نجد عند جابرييل جارسيا ماركيز وتوني موريسون، على سبيل المثال.

بوسعنا، بفضل ضربات سريعة وحاذقة من ريشة أوستر، أن نتصوّر الشّخصيّات، ولكنّ سبر أغوارها ليس بالمهمَّة اليسيرة. فجيمي ناش يتبدّى لنا رجلاً دمِثاً، بل ومحبّاً، كان يمكن أن يكون قريباً أو جاراً لنا، لولا أنّ حياته انحرفت عن مسارها. وأمّا جاك بوزي فثرثار، ضائع يعتمل في أعماقه غضب لا يؤثر في الأحداث. وأمّا المليونيران، وهما محاسب واختصاصي في قياس البصر، فهما شخصيتان غريبتان تتعاظم هواياتهما ودرجات غرابة أطوارهما إلى حدّ

الوحشيّة عندما تهبط عليهما ثروة طائلة دونما انتظار.

ولا يتردّد أوستر في دعم نسيج المشاهد والتّصرُّفات من خلال تفاصيل يتمّ إحكامها بهدوء ودأب، ولا نملك إلاّ الشُّعور بأنّ الأحداث والموضوعات، بل والحوار ورسم الشّخصيّات، كلٌّ ذلك تمّ ترتيبه لخلق نوع من الحكاية الرمزيّة، إذا صحّ التّعبير، وُضِع مفتاحها في غير مكانه.

في ضوء هذا الفهم، يصحّ التساؤل على سبيل المثال، عن المغزى الحقيقيّ، للحادثة يتمّ عبر اطلاعنا على ما يسمّى «مدينة العالم» وهو نموذج ضخم، تفصيلي قام ويلي ستون بإنشائه في الجناح الذي يشغله من الدّار.

إنّنا نقرأ:

«قال فلاور: «مدينة ويلي لا تعدو كونها لعبة، إنّها تصوُّرٌ فنيّ للبشريّة، وهي تُعَدّ على نحو من الأنحاء سيرة حياة ذاتيّة، ولكنّها على نحو آخر ما يمكن أن تسمّيه بالرؤية الطوباوية ـ مكان يلتقي فيه الماضي والمستقبل معاً، وينتصر فيه الخير، في نهاية المطاف، على الشّر. وإذا ما نظرت بعناية فإنّك سترى أنّ الكثير من الشّخصيّات يمثّل ويلي نفسه. هناك، في الملعب، تراه وهو طفل، وثمّة تلمحه وهو يسحق العدسات في سنوات نضجه، وهنالك، عند ركن الشّارع ترانا ونحن نشتري معاً ورقة اليانصيب. . . ولكن كلّ هذه الأشياء وضعت في السِّياق الأكثر شمولاً، إنّها ليست إلاّ مثالاً، إيضاحاً لرحلة حياة رجل واحد، في مدينة العالم. انظر إلى قاعة المحكمة، المكتبة، المصرف، السّجن. إنّ ويلي يسمّيها بالعوالم

الأربعة للشمول. . . ».

ويمضي فلاور قائلاً:

«إذا نظرت إلى السّجن فسوف ترى أنّ كلّ المساجين يعملون بسعادة في أداء مهام مختلفة، وإنّ الابتسامات ترتسم على وجوههم جميعاً، وذلك يرجع إلى أنّهم قد عوقبوا على جرائمهم، وهم الآن يتعلّمون كيف يستردّون الطيبة الكامنة في أعماقهم من خلال الأشغال الشّاقة».

ولكنّ المتأمّل لكلمات فلاور هذه سيلاحظ، على الفور تقريباً، أنّها تنطبق بصورة ساخرة على ما سيحدث عقب ذلك. ولكنْ هل هذا هو كل شيء حقّاً؟ أم أنّ هذه الكلمات ينبغي أن توضع بدورها في سياق أكثر شمولاً؟.

ومن ناحية أخرى، بأي معنى يتعينّ أن نفهم قرار ناش بأن يقوم، فيما الآخرون عاكفون على لعبة البوكر، بالعودة إلى «مدينة العالم» لنزع تماثيل فلاور وستون الصّغيرة من النموذج ودسّها في جيبه؟.

هنا يقال لنا في نصّ «موسيقى الصدفة» إنّ جيم ناش: «لم يكن واثقاً من السّبب في قيامه بذلك، ولكنّ السبب كان آخر ما يبحث عنه وقتذاك، وحتى إذا لم يكن بمقدوره إيضاح الأمر لنفسه فإنّه كان يعلم أنَّ ذلك ضروري إلى أقصى حدّ، كان يعرف ذلك مثلما يعرف اسمه».

وبوسعنا، بالطّبع، تلمُّس كثير من التفسيرات في غمار ذلك الفعل، أو الاكتفاء بالنّظر إليه على أنّه عمل عفوي، أو على أنّه السِّرّ السِّحري الكامن وراء ضروب سوء الحظ التي ستتوالى عقب ذلك

على ناش وبوزي، ولكن مرّة أخرى ربّما كان آخر ما يجب أن نتطلّع إليه هنا هو سبب أو إيضاح.

ومن الطريف حقاً أنّ النّاقد الأمريكي روبرت تاورز لا يتردّد في أن يقترح علينا أن نقرأ رواية «موسيقى الحظّ» باعتبارها لعبة بوكر روائيَّة، بمعنى أنّ المتفرّج اللّاهي في هذه اللعبة ـ القارئ ـ يُدعى إلى ملاحظة تداخل عناصر الخيار الحرّ والضرورة والحدس والحساب والتجربة والحظّ الأعمى فيما يتمّ اللّعب بالأوراق، وأن يقوم بذلك دون اكتراث بالعواقب المتيافيزيقيّة للّعبة، فهناك لذّة تُجنى لا من نثر أوستر فحسب، وإنّما كذلك من المزيج العجيب من الابتعاد والتشويق الذي تثيره الرِّواية في نفس القارئ.

غير أنّ صحيفة «الأندبندنت» كانت شديدة التوفيق، وأصابت كبد الحقيقة فيما يتعلّق بعالم أوستر الرِّوائي بأسره عندما كتب ناقدها الأدبي في معرض التعقيب على «ثُلاثيّة نيويورك» بصفة خاصّة يقول: «تكمن قوّة أوستر في أنّه يلطم القصص معاً كالحصى الصّلد فتقعقع، وتقدح شرراً، وتتردّد أصداء الارتطام، ولكنّها لا تخرج شيئاً يسهل انتزاعه ويمكن أن نسمّيه «المعنى».

وربّما كانت تلك، على وجه الدّقة، إحدى السِّمات الّتي تميّز الأدب العظيم في كلّ زمان ومكان.

وإذا انتقلنا إلى البعد الثّالث المتعلّق بالمكان وتوظيفه في «ثُلاثيّة نيويورك» بادرنا إلى القول بأنّ المكان يشكّل محوراً من المحاور الرئيسيّة التي تدور حولها نظريّة الأدب، ولكنّ وعياً متزايداً بأهميّته واشتغالاً مكثفاً عليه في إطار الأدب العالمي مؤخّراً جعلاه يتجاوز على

نحو قاطع كونه مجرَّد خلفيّـة تقع فيهـا الأحداث الـدراميّة، كـما أنّه لم يعد معادلاً مجازياً للشخصيَّة الروائيَّة فحسب، وإنَّما أصبح يُنظر إليـه عـلى أنَّه عنصر شكـليّ وتشكيـليّ من عنـاصر العمـل الفني، وأصبح تفاعل العناصر المكانيّة وتضادّها يشكّلان بعداً جماليـاً من أبعاد النصّ الأدبي.

و«ثُلاثيّة نيويورك» تقع في صميم هذا الاتجاه، وتشكّل جـزءاً متألِّقـاً من ذلك الاشتغال.

ولست أريد الإثقال عـلى القارئ بتحـويل هـذا البعد الثـالث من أبعاد هذه المقدّمة إلى بحث مسهب في جماليات المكان، فمن الواضح أنّ هذه الصّفحات ليست المكان الأنسب له، ولكنّي أتمنى على القارئ أن يتـأمّل معي هـذه القبضة من التسـاؤلات عن المكـان في «ثُـلاثيّـة نيويورك».

● يشـير بشـلار في كتـابـه «جمـاليـات المكـان» إلى أنّـه «في بعض الأحيان نعتقد أنّنا نعرف أنفسنا من خلال الـزمن في حين أنّ كـلّ ما نعـرفه هـو تتابـع تثبيتات في أمـاكن استقرار الكـائن الإنسـاني الـذي يرفض الذوبـان، والّذي يـوّد حتّى في الماضي ـ حـين يبدأ البحث عن أحداث سابقة ـ أن يمسك بحـركة الـزمن. إنّ المكان، في مقصـوراته المغلقة التي لا حصر لها، يحتوي على الزمن مكثَّفاً، وهـذه هي وظيفة المكـان». والقارئ يـلاحظ على الفـور حساسيّـة العلاقـة بين المكـان والزمان في الثُـلاثيّة، فهي تـرفض الرّصـد الكرونـولوجي، وتتحـدّى محاولات التجزيء لتدخل في نوع من «المونتـاج» الحافـل بالتحـدِّيات.

والآن، من أين نبدأ في مواجهة هذه التحدِّيات؟

● وفقاً لتقسيم مول ورومير تعرف أربعة أنواع من الأماكن حسب السّلطة الّتي تخضع لها هذه الأماكن، وذلك انطلاقاً من أنّ المكان هو، بصفة عامّة، ملك لأحدهم، فهناك الأماكن التالية:

١ ـ «عندي» وهو المكان الذي أمارس فيه سلطتي ويكون، بالنّسبة إليّ، مكاناً حميماً وأليفاً.

٢ ـ «عند الآخرين» وهو رغم شبهه بالمكان الأوّل يختلف بالضّرورة في أنّني أخضع فيه لضغوط سلطة الغير، ولا بدّ لي من التّسليم بهذه السلطة.

٣ ـ «الأماكن العامّة» وهي ليست ملكاً لشخص بعينه، ولكنّها ملك للسّلطة العامّة النّابعة من الجماعة، والتي يمثّلها الشرطة، فالفرد هنا ليس حرّاً، ولكنّه «عند» أحد يتحكّم فيه.

٤ ـ «المكان اللاّمتناهي» ويكون بصفة عامّة خالياً من الناس، كالصّحراء، ولكن هذا النّوع من الأماكن الذي يرتبط بالمغامرة والحرّيّة والانطلاق والاكتشاف والإفلات من السّلطة وابتكار القيم الجديدة أخذ في التقلّص على نحو حادّ في عالم اليوم.

الآن، بأيّ معنى يمكن أن تطبّق هذه التقسيمات على «ثُلاثيّة نيويورك»؟ وكيف نفضّ الاشتباك بين تقاطعاتها؟ كيف نفهم «عندي» و«عند الآخرين» في «الأشباح»على سبيل المثال؟

● في إطار حديثه عن المكان الفنيّ يذهب يوري لوتمان في كتابه «بناء العمل الفنيّ» إلى القول بأنّ العمل الفنيّ مكان محدّد المساحة، فهو من جانب يشغل حيّزاً معيّناً في الكون الفسيح، ولكنّه من جانب

آخر يمثّل في هذا الحيّز المحدود حقيقة أوسع منه وأشمل هي العالم اللّامتناهي. ويشدّد لوتمان على أهمية الإدراك البصريّ للعالم، مُبْرِزاً الدّور الذي يلعبه المكان في عمليّة تشكيل المفاهيم لدى البشر، والإنسان يحاول أن يقرِّب لنفسه المجرَّدات من خلال تجسيدها في ملموسات، وأقرب هذه الملموسات هو الإحداثيّات المكانيّة. فاللّامتناهي يصبح عند معظم النّاس مكاناً هائل الاتساع، وترتبط كثير من القيم المجرَّدة بإحداثيّات المكان، فالعالي يصبح قيمةً والمنخفض عكس ذلك والقريب يرتبط بالأجمل والبعيد بالأغرب والمفتوح بالقابليّة للفهم والمغلق بالاستعصاء على الفهم وهكذا، ومثل هذه الأنساق نتاج ثقافي، في المقام الأوّل، ولكنّنا في الأعمال الفنيّة لا ينبغي أن نبحث عن الأنساق الواردة في الثّقافة بشكل عام، وإنّما عن الأنساق الخاصّة بكلّ فنّان، بل وبكلّ عمل فنيّ على حدة.

والسؤال الآن هو: إلى أيّ حدّ يمكن أن يشكّل البحث عن الأنساق مدخلاً لقراءة ناجحة وواعية لـ «ثُلاثيّة نيويورك»؟

● نتابع في «مدينة الزجاج» محاولة البطل المدهشة لترجمة الحركة في المكان إلى حروف وكلمات ومن ثمّ إلى مفاهيم.

والسؤال الذي لا يمكن إلاّ أن يخطر على البال عند رصد هذه المحاولة هو: هل يمكننا تحويل الحركة في «الثُلاثيّة» إلى قراءة في المفاهيم بهذا المعنى؟ أو إن شئت الدّقة فقل: هل يمكننا أن نلمح تخارجاً من قلب المدينة إلى الأحياء الأبعد فالضّواحي والبلدات المجاورة وأخيراً باريس وكأنّنا بين يدي دعوة غير واعية إلى مفارقة

هذا المكان ـ اللّعنـة أم أنّنا بـين يدي رحلة للفهم من خـلال الابتعاد والإدراك الأكثر شمولاً؟

. . . وبعد فهذا كاتب كبير، نقدِّمه للقارئ العربي للمـرّة الأولى، عبر كتاب نرى أنّه شديد الخصوصيَّة والتميُّز، ولا نتردّد فـي الـذهاب إلى القول بأنّ المكتبة العربيَّة لم تعرف نـظيراً لـه، منذ سنـوات. وإذا كنّا نستشعر سعـادة الارتياد لآفـاق جديـدة فإنّنـا نتمنى ألاّ نكون قـد قصّرنا في وضع خارطة هذا الارتياد في إطارها الصحيح.

المترجم


WawBooks.c

مدينة الزجاج


WawBooks.c

- ١ -

بدأ الأمر باتّصال هاتفيّ برقم خاطئ، وفي قلب اللّيل دوى رنين الهاتف ثلاث مرّات، وتناهى الصّوت من الطّرف الآخر طالباً شخصاً آخر سواه. وعقب ذلك بوقت طويل، عندما غدا بمقدوره التّفكير في الأمور التي وقعت له، كان قد توصّل إلى أنّه ما من شيء حقيقي، إلّا الصدفة. لكن ذلك حدث بعد وقت طويل. ففي البداية لم يكن هناك إلّا الحدث وعواقبه. وليس لبّ الموضوع هو ما إذا كان الأمر سيصل إلى خلاف ذلك، أم أنّ كل شيء كان مقدّراً مع الكلمة الأولى التي ندت عن فم الغريب. وإنّما يتمثّل هذا اللبّ في القصّة ذاتها، لا في كشفها عمّا إذا كانت تعني شيئاً أو لا.

ليس هناك فيما يتعلّق بكوين إلّا القليل ممّا يمكن أن نتوقف عنده، ولا يهمّ مَنْ كان ولا مِنْ أين جاء ولا ما كان يقوم به. ونحن نعرف، على سبيل المثال، أنّه كان في الخامسة والثلاثين من العمر، ونعلم أنّه كان متزوجاً، في وقت من الأوقات، وأنّه أنجب، وأنّ كلاً من زوجته وولده قد ماتا. ونعرف كذلك أنّه عكف على تأليف الكتب. ونعلم، على وجه الدّقة، أنّه كان يكتب الرّوايات البوليسيّة. وكانت هذه الأعمال تكتب تحت اسم وليام ولسون، وراح يقدّمها بمعدل رواية كلّ عام تقريباً، الأمر الذي جلب له من المال ما يكفيه للعيش بصورة متواضعة في شقّة صغيرة بنيويورك. ولأنّه لم يكن يقضي ما يتجاوز خمسة أشهر أوستة في إنجاز الرِّواية، فإنّه كان حرّاً في القيام بما يشاء باقي العام. وقد قرأ كثيراً من الكتب، وتأمّل اللوحات، وارتاد دور

العرض السّينمائي. وفي الصّيف كان يتابع مباريات البيسبول على شاشة التلفزيون، وأمّا في الشّتاء فقد راح يتردّد على دار الأوبرا. غير أنّ ما كان يحبّ القيام به أكثر من أيّ شيء أخر هو المشي. ففي كلّ يوم تقريباً، ممطراً كان أو مشرقاً، بارداً أو حارّاً، كان يغادر شقّته ليمضي متجوّلاً في أرجاء المدينة، من غير أن يقصد قطّ مكاناً بعينه، وإنّما ينطلق إلى حيث تمضي به ساقاه.

كانت نيويورك فضاء يستحيل اختراقه، متاهة من خطوات لا نهاية لها، وأيّاً كان المدى الذي ذهب إليه أو كانت إجادته معرفة الأحياء والشّوارع، فإنها كانت تتركه دائماً بشعور بأنّه قد ضلّ الطّريق. ضلّ الطريق لا في المدينة وحدها، وإنّما في داخل ذاته كذلك. وفي كلّ مرّة قام فيها بجولة ساوره شعور بأنّه كان يترك نفسه وراءه. وكان بمقدوره، بتكريس نفسه لحركة الشّوارع، وبتقليص ذاته إلى عين مبصرة، أن يهرب من الالتزام بأن يفكّر، وقد جلب له هذا، أكثر من أيّ شيء آخر درجة من السلام، وخواء صحّيّاً في الأعماق. كان العالم يقبع خارجه، حوله، أمامه، وجعلت السُّرعة التي واصل بها التغيّر من المستحيل عليه أن يركّز على أيّ شيء بمفرده وقتاً طويلاً للغاية. كانت الحركة شيئاً ينتمي إلى الجوهر، عمليّة وضع قدم أمام الأخرى والسماح لنفسه بأن يتبع انطلاقة جسمه. ومن خلال التجوّل دونما هدف، أصبحت كلّ الأماكن متساوية، ولم يَعُد موضعه شيئاً يكترث به. واستطاع في أفضل جولاته أن يشعر بأنّه في لا مكان. كانت نيويورك هي اللاّمكان الذي بناه حول نفسه، وأدرك أنّه لا يعتزم مغادرتها أبداً.

كان لكوين في الماضي طموح أكبر، وقد أصدر في صدر العمر عدّة

دواوين شعريّة، وكتب مسرحيات ومقالات في النقد، وعمل في إنجاز عدد من الترجمات الضافية، ولكنّه على حين غرّة تخلّى عن هذا كلّه تماماً. حدَّث أصدقاءه بأنّ جزءاً منه قد مات، وبأنّه لا يرغب في أن يعود هذا الجزء فيطارده. وفي ذلك الوقت حمل اسم وليام ولسون. لم يعد كوين ذلك الجزء منه الذي كان بمقدوره تأليف الكتب، وعلى الرّغم من أن كوين واصل الوجود في كثير من الجوانب، فإنّه لم يَعُدْ موجوداً بالنّسبة لأحد، إلاّ بالنّسبة لنفسه.

واصل التّأليف؛ لأنّه الشيء الوحيد الذي أحسّ أنّ بمقدوره القيام به، وبدت الرِّوايات البوليسيَّة حلاً معقولاً، ولم يُعانِ كثيراً في ابتكار القصص المركَّبة التي تقتضيها هذه الرِّوايات، وكتب بصورة جيّدة، رغماً عنه غالباً، كأنّما أتى ذلك دون الاضطرار إلى بذل جهد يذكر، ولأنّه لم يكن يعتبر نفسه مؤلِّفَ ما يكتبه، لم يساوره الشّعور بالمسؤوليّة عنه، وبالتالي لم يكن في قرارة نفسه مضطراً للدفاع عنه. فقد كان وليام ولسون، في نهاية المطاف، اختراعاً، وعلى الرّغم من أنّه وُلِد في أعماق كوين نفسه، فإنّه يحيا الآن حياة مستقلّة. وقد عامله كوين باهتمام، بل وبإعجاب في بعض الأحيان، ولكنّه لم يمضِ قطّ إلى حدّ الاعتقاد بأنّه ووليام ولسون شخص واحد، ولهذا السّبب فإنّه لم يكشف عن وجهه قناع الاسم المستعار الذي يستخدمه. كان له وكيل أدبيّ، ولكنّهما لم يلتقيا قطّ، واقتصرت اتصالاتهما على البريد، ولهذا قام كوين باستئجار صندوق مرقّم في مكتب البريد. وسرى الأمر نفسه بالنّسبة للناشر الذي كان يدفع كافَّة الأتعاب والمبالغ والعوائد عن حقوق النشر لكوين عن طريق الوكيل. ولم يتضمن أيٍّ كتاب من تأليف وليام ولسون أيّ صورة أو إشارة إلى سيرة حياة المؤلِّف؛ ولم

يُـدْرَج وليام ولسـون في أيّ دليـل للمؤلِّفـين، ولم تجـر أيّ مقـابـلات صحافيّة معه، وقامت سكرتيرةُ وكيله بـالردّ عـلى كافّـة الرسـائل التي تصله. وبقدر ما يستطيع كوين أن يرى فإنّه ما من أحد قد اطّلع على سرّه. وفي البداية، عندما علم أصدقاؤه بأنّه قـد توقّف عن الكتـابة، راحـوا يسائلونـه عن الكيفيّة التي يعـتزم بها أن يتـدبّـر أمـر حيـاتـه، فأبلغهم جميعاً بالشيء ذاته: أنّه قد ورث رصيداً موقـوفاً عن زوجتـه. ولكنَّ الحقيقة هي أنَّ زوجته لم يكن لديها مال قطّ، والحقيقة أيضاً أنّه لم يعد لديه أيّ أصدقاء.

لقد مرّ الآن على ذلك ما يزيد على خمس سنوات. ولم يعد يفكّر في ابنـه كثيراً، ولم ينـزع عن الجدار، إلاّ مؤخـراً، صورة زوجتـه. وبين الحين والآخر كان يساوره فجأة الشعور بما يعنيه احتضـان الصبيّ ذي الأعـوام الثلاثـة بين ذراعيـه، ولكنّ ذلـك لم يكن تفكيـراً عـلى وجـه الـدّقة، ولا كـان تذكُّـراً، كان شعـوراً عضويـاً، بصمةً من بصـمات الماضي تُركت على جسمه، وما كان يملك شيئاً حيالها. الآن أصبحت هذه اللّحظات تداهمه بصورة أقلّ تواتراً، وبدا في الغالب الأعمّ وكأنّ الأمور شرعت في التغيُّر بالنّسبة لـه. لم يعد يـرغب في أن يموت، وفي الوقت نفسه لا يمكن أن يقـال إنّه سعيـد بأن يكـون على قيـد الحياة، ولكنّه على الأقلّ لم يَعُدْ يضيق ذرعاً بذلك. إنّه عـلى قيد الحيـاة، وقد بدأت صلابة هذه الحقيقة تفتنه شيئـاً فشيئاً، وكـأنّما أفلح في أن يحيـا بعد موت نفسه، وكأنّما كان على نحو من الأنحـاء يعيش حياة أعقبت موته. لم يَعُدْ يغفو والمصباح مُضاء، ولم يتذكّر أيّاً من أحلامه منذ عدّة شهور.

أرخى الليل سدوله. وتمدّد كوين في فراشه وهو يدخّن سيجارة، ويصغي لوقع ارتطام المطر بالنافذة. وراح يتساءل متى تقلع السّماء، وما إذا كان سيساوره الشّعور بالانطلاق في جولة طويلة أو أخرى قصيرة في الصّباح. وكانت على الوسادة بجواره نسخة من كتاب «رحلات ماركو باولو» وقد فُتحت على صفحتين محدّدتين. كان الشّعور بالوهن يساوره، منذ انتهى من أحدث روايات وليام ولسون، قبل أسبوعين. وقد قام راويته التحرّي الخاصّ «ماكس ورك» بحلّ سلسلة متشابكة من الجرائم، وعانى في غمار خوضه عدداً من مواقف التعرّض للضرب والإفلات بعد لأيٍ من المآزق. وأحسّ كوين على نحو ما بأنّ جهود بطله قد استنفدت قواه. فمع مضيّ السنين أصبح ماكس ورك قريباً جدّاً من كوين. وبينما ظلّ وليام ولسون شخصيّة مجرّدة، بالنّسبة إليه، فإنّ الحياة قد تدفقت في عروق ماكس ورك على نحو متزايد. وفي ثُلاثيّ الذوات الذي أصبح عليه حال كوين فإنّ ولسون قد غدا نوعاً من الشّخص المتكلّم من بطنه. وكان كوين نفسه دمية، وأمّا ورك فهو الصَّوت المتحرّك الذي يجعل للمشروع هدفاً يسعى وراءه. ولئن كان ولسون وهماً فإنّه رغم ذلك قام بتبرير حياتَي الآخَرَيْن، ولئن كان بلا وجود فإنّه مع ذلك كان الجسر الذي سَمح لكوين بأن يعبر من ذاته إلى ورك، وشيئاً فشيئاً أصبح ورك وجوداً في حياة كوين، شقيقه القابع في أعماقه، رفيقه في العزلة.

التقط كوين كتاب ماركو باولو، وشرع في قراءة الصفحة الأولى من جديد «لسوف نطرح الأمور الّتي رأيناها رأيَ العينِ باعتبارها مرئيّة،

والّتي تناهت إلى أسماعنا باعتبارها مسموعة، لكي يكون كتابنا سجلاً دقيقاً خالياً من أيّ نوع من التلفيق، ولكـلّ من يقرأ هـذا الكتاب أو يستمع إليه أن يقوم بذلك بكامل الثّقة لأنّه لا يضم شيئاً إلا الحقيقـة».

وفيما شرع كوين في تأمُّل معنى هذه الجمل وفي تقليب تأكداتيها الهشّة في ذهنه، دوى رنين الهاتف. وبعد ذلك بوقتٍ طويلٍ ، وعندما غـدا بمقـدوره أن يعيد تصـوُّر أحداث تلك اللّيلة، سيتـذكّـر أنّـه نـظر إلى السّاعة، ورأى أنّها قد تجاوزت الثانية عشرة، وراح يتسـاءل عن السرّ في أن يتّصل به شخص هـاتفيّاً في تلك السّـاعة. وحـدَّث نفسه بـأنَّ الأمر الّذي يتجاوز مجرّد الاحتمال هو أنَّ أنباء سيِّئة في طـريقها إليـه. ونهض من الفراش، ومضى عاريـاً إلى الهاتـف، والتقط السـمّاعة عنـد الرنين الثاني.

ـ نعم؟

سـاد صمت طويـل على الـطّرف الآخـر من الخطّ، وللحـظة ظنَّ كوين أنَّ المتّصل قد أنهى المكالمـة. ثمَّ تناهى وقـع صوت، كأنّما مـن مسافة بعيـدة، لا يشبه أيّ صـوت سبق له أن سمعـه. كان في وقت واحد صوتاً آليّاً ومترعاً بـالانفعال، ولا يتجـاوز حدّ الهمس، غـير أنّه مـع ذلك مسمـوع تمـامـاً، ثمّ بنغمـة عجـز كـوين عن تحـديـد مـا إذا كانت تنتمي لرجلٍ أو لامرأةٍ قال الصوت:

ـ مرحبا!

تساءل كوين:

ـ من المتحدِّث؟

قال الصوت من جديد:

ـ مرحباً؟

قال كوين:

- إنّني أصغي. من المتحدّث؟

تساءل الصوت:

- هل هذا بول أوستر؟ إنّني أودُّ الحديث مع السيِّد بول أوستر.

- ليس من أحدٍ هنا بهذا الاسم.

- بول أوستر، من وكالة أوستر للتحرّيات الخاصّة.

قال كوين:

- آسف، لا بدّ أنّك قد اتصلت برقم خاطئ.

قال الصوت:

- هذا موضوع مُلِحّ للغاية.

قال كوين:

- ليس هناك ما يمكنني القيام به لك، فليس مِنْ بول أوستر هنا.

قال الصوت:

- إنّك لا تتفهم الأمر، الوقت يمضي سريعاً في طريق النفاد.

- إذن، أقترح عليك معاودة الاتّصال، فهذه ليست وكالة تحريّات خاصّة.

أعاد كوين السّمّاعة إلى موضعها. ووقف هناك على الأرضيّة الباردة، متطلّعاً إلى قدميه، وركبتيه، وعضوه المرتخي. وللحظة ساوره الشعور بالنّدم على أنّه كان جازماً في حديثه مع المتّصل على هذا النحو، وحدَّث نفسه بأنّه ربّما كان أمراً مثيراً للاهتمام لو أنّه سايره قليلاً، لربّما أستطاع أن يكتشف شيئاً، فيما يتعلّق بالقضيَّة، وربّما قدّم المساعدة بشكل من الأشكال، وحدَّث نفسه قائلاً: «ينبغي أن أتعلّم التّفكير بسرعة أكبر خلال وقوفي».

لم يكن كوين، شأنه شأن معظم النّاس، يعرف شيئاً تقريباً عن الجريمة، ولم يحدث قطّ أن قام بقتل أحد، ولا سرق شيئاً، ولم يكن من بين معارفه من اقترف ذلك، بل إنّه لم يدخل مخفراً من مخافر الشّرطة قطّ، ولم يلتقِ بتحرٍّ خاصّ، ولم يتبادل الحديث مع مجرم، وأيّاً كان ما يعرفه عن هذه الأمور فقد عرفه من الكتب والأفلام والصحف. غير أنه لم يعتبر ذلك أمراً مُعوِّقاً له. ولم يكن ما يثير اهتمامه فيما يتعلّق بالقصص الّتي يكتبها متمثّلاً في علاقتها بالعالم، وإنّما في علاقتها بالقصص الأخرى. وكان كوين، حتّى قبل أن يصبح وليام ولسون، قارئاً نَهِماً للرِّوايات البوليسيَّة، وعرف أنَّ معظمها كان سيّئ التّأليف، وأنَّ أغلبها لا يصمد حتّى لأكثر أنواع التدقيق التباساً، ولكنّها كانت مع ذلك تندرج في الشّكل الأدبي الّذي يروق له، وما كان يرفض إلّا قراءة الرِّواية البوليسيَّة النّادرة، السَّيِّئة على نحو يستعصي الحديث عنه، في حين كان ذوقه فيما يتعلّق بالكتب الأخرى متشدِّداً، ومدقِّقاً، ربّما إلى حدّ ضيق الأفق. وأمّا فيما يخصّ هذه الأعمال فلم يُظْهِر أيَّ تمييز من أيّ نوع، على وجه التّقريب. وإذا ما كان في حالة مزاجيّة مناسبة فإنّه لا يواجه صعوبة تُذْكَر في قراءة عشر روايات أو اثنتي عشرة رواية من هذا النّوع إحداها وراء الأخرى. وكان ذلك نوعاً من الجوع يستبدّ به، توقاً إلى طعام خاصّ، وما كان يتوقّف إلّا بعد الوصول إلى حدّ الامتلاء.

تمثّل ما أحبَّه في هذه الكتب فيما تثير من شعور بالكمال وبالاقتصاد، ففي الرِّواية البوليسيَّة الجيِّدة ما من شيء يجري تبديده، وليست هناك جملة واحدة أو كلمة واحدة تفتقر إلى الأهمِّيَّة، وحتّى إذا

لم تكن لها أهميّتها فإنّها تحظى بإمكانيّة أن تكون مهمّة، وهو ما يعني الأمر ذاته. فعالم الكتب تدبّ فيه الحياة، ويغلي بالاحتمالات والأسرار والمتناقضات. ولّما كان أيّ شيء يقال أو يرى، وحتّى أهون الأشياء وأقلّها شأناً، يمكن أن تكون له صلة بختام القصّة، فإنّه ما من شيء يجب تجاهله. وكلّ شيء يصبح جوهراً، وينتقل مركز الكتاب مع كلّ حدث يدفعه قدماً إلى الأمام. فالمركز، إذن، هو في كلّ مكان، وما من محيط يمكن رسمه إلاّ بعد أن يصل الكتاب إلى نهايته.

إنّ التحرّي هو من يرى، من يصغي، من يتحرّك عبر مستنقع الأشياء والأحداث هذا، بحثاً عن الخاطرة، الفكرة الّتي ستضمّ كلّ هذه الأمور معاً، وتستخرج منها معنى. وبالفعل فإنّ الكاتب والتحرّي يمكن أن يتبادلا المواقع. والقارئ يرى العالم بعيْنَي التحرّي، ويعايش اتّساع نطاق تفاصيله كأنّما للمرّة الأولى. ولقد استيقظ في مواجهة الأشياء الّتي تحيط به وكأنّها قد تحادثه، وكأنّما هي قد تشرع، بسبب الالتفات الّذي جلبه الآن لها، في حمل معنى آخر بخلاف الحقيقة البسيطة الخاصّة بوجودها. واصطلاح «العين الخاصّة» الّذي يُطلَق على التحرّي كان يحمل بالنّسبة لكوين معنى ثلاثيّاً. لم يقتصر الأمر على حرف «I»، الّذي يعادل «المحقّق» وإنّما كان حرف «I» في أسمى أوضاعه، بُرْعُم الحياة الصغير المغروس في جسم الذّات الّتي تتردّد أنفاسها. وفي الوقت نفسه كانت كذلك العين العضويّة للكاتب، عين الإنسان الذي يتطلّع من ذاته إلى العالم، ويطالب بأن يكشف العالم عن ذاته له. وعلى امتداد خمس سنوات كان كوين يعيش في قبضة هذا التّلاعب اللّفظي.

كـان، بالـطّبع، قـد توقّف منـذ فترة طـويلة عن التّفكير في نفسـه بـاعتبـارهـا حقيقيّـة. ولئن كـان يعيش الآن في رحـاب الـدّنيـا عـلى الإطلاق، فإنَّ ذلك لم يكن إلاَّ من خلال انتقـال واحد تمَّ من خـلال شخص مـاكس ورك الخيـاليّ. وتعـينّ بـالضرورة أن يكـون تحـرّيـه حقيقيّاً، فقد اقتضت طبيعة الكتب ذلك. وإذا كـان كوين قـد سمح لنفسه بأن يختفي، وبأن ينسحب إلى طيَّات حياة غريبة ومتقشّفة فـإنّ ورك قد واصل الحياة في عالم الآخرين، وكلّما بدا أنَّ كوين يختفي على نحو أكبر، أصبح وجود ورك في ذلك العالم أكثر إلحاحـاً. وبينما مـال كـوين إلى الشّعور بـأنّه في غـير موضعـه وهـو في إهـابـه، غـدا ورك عـدوانيّـاً، ولاذع اللّسـان، وفي مكـانــه الـطّبيعي، في أيّ مــوضـع يتصـادف أن يجد نفسـه فيه. والأشيـاء عينهـا الّتي تسبّب المشكـلات لكوين، ينظر إليها ورك باعتبـارها أمـوراً مسلّماً بها، وينـطلق في غمار حشد مغامراته في يسر وبـلامبالاة تـركت أثرهـا دائماً في نفس مبـدعه. ولم يكن قـوام الأمر عـلى وجه الـدقّـة أنَّ كـوين يـرغب في أن يكـون ورك، أو حتّى في أن يكون شبيهاً به، ولكنّه كان يبعث الثّقة في نفسه أن يتظاهر بـأنّه ورك، وهـو عاكف عـلى تأليف كتبـه، وأن يعرف أنَّ بمقدوره أن يكون ورك إذا ما اختار القيام بذلك، ولو حتّى في خـاطره فحسب.

في تلك اللّيلة، وفيما هو يدلف أخيراً إلى رحـاب النّعاس، حـاول أن يتصـوَّر ما كـان يمكن أن يقولـه ورك للغريب، عـبر الهاتف. وفي الحلم الّذي تراءى له، ونسيه عقب ذلك، ألفى نفسه وحيداً في غرفة وهو يطلق نيران مسدّس على حائط أبيض لا يعلوه شيء.

أخذ كوين على غِرّة في اللّيلة التالية. وكان قد ظنّ أنّ الحادثة قد انتهت، ولم يتوقّع أن يعاود الغريب الاتّصال. وقد تصادف أنّه كان يقتعد المرحاض، في غمار التخلّص من غائط متصلّب، عندما دوى رنين الهاتف. كان ذلك في وقت متأخّر إلى حدّ ما عن اللّيلة الماضية، ربّما في حوالي الواحدة إلاّ عشر دقائق، أو اثنتي عشرة دقيقة. وقد وصل لتوّه إلى الفصل الّذي يتناول رحلة ماركو باولو من بكّين إلى آموي، وكان الكتاب مفتوحاً على حجره، وهو ماضٍ لما جاء له في الحمّام الصغير. جاء دوي رنين الهاتف كعنصر ضيق واضح. فالردّ عليه عاجلاً سيعني النهوض دون أن ينظّف نفسه، وقد كره السير عبر الشقّة على تلك الحالة. ومن ناحية أخرى فإنّه إذا فرغ ممّا هو بشأنه بسرعته العاديّة فلن يصل إلى الهاتف في الوقت المناسب. وعلى الرّغم من ذلك ألفى كوين نفسه متردّداً في التحرّك، فلم يكن الهاتف من أدواته الأثيرة، وقد فكّر أكثر من مرّة في التخلّص منه. وما كرهه أكثر من أيّ شيء آخر كان طغيان هذا الجهاز. فلم يكن يحظى بسلطة مقاطعته رغماً عن إرادته فحسب، وإنّما كان من المحتّم أن يذعن لأمره. وقد قرّر هذه المرّة أن يقاوم. ومع دوي الرنين الثالث كان قد أفرغ أمعاءه، وأفلح لدى الرنين الرابع في تنظيف نفسه، ومع الرنين الخامس اجتذب سرواله إلى أعلى، وترك الحمّام، وسار في هدوء مجتازاً الشّقّة، ورفع السّمّاعة مع الرنين السّادس، ولكن لم يكن هناك أحد عند نهاية الطرف الآخر، فقد أعاد القائم بالاتّصال السمّاعة إلى موضعها.

في اللّيلة التالية، كان على أهبّة الاستعداد. تمدّد في فراشه، ومضى يطالع صفحات جريدة «ذاسبورتنج نيوز»، وراح ينتظر قيام الغريب

بالاتّصال للمرّة الثالثة. وبين الفينة والأخرى، عندما كانت تخونه أعصابه، كان ينهض واقفاً، ويذرع أرجاء الشقّة. ووضع على جهاز التّشغيل أوبرا هايدن «الإنسان في القمر» وراح يستمع إليها، من البداية إلى النهاية، وينتظر، ويواصل الانتظار. وفي الثانية والنّصف استسلم أخيراً، ودلف إلى عالم الأحلام.

انتظر في الليلة التالية، والليلة الّتي أعقبتها كذلك. وفيما كان يوشك على التخلّي عن مشروعه، مدركاً أنَّ الصواب قد جافى كلّ افتراضاته، دوى رنين الهاتف من جديد. كان ذلك في التّاسع عشر من أيّار (مايو). ولسوف يتذكّر ذلك التّاريخ لأنَّه يوافق ذكرى زواج والديه ـ أو كان حريّاً به أن يكون كذلك لو أنَّ أبويه كانا مايزالان على قيد الحياة ـ وقد أبلغته أمّه ذات مرّة بأنَّها قد حملت به في ليلة زفافها. وقد احتذبته تلك الحقيقة على الدوام ـ لمقدرته على أن يحدِّد اللحظة الأولى لوجودٍ ما. وعلى امتداد الأعوام احتفل بينه وبين نفسه بعيد ميلاده في ذلك اليوم. وفي هذه المرّة دوى رنين الهاتف أبكر ممّا في اللّيلتين الأخريين ـ إذ لم تبلغ السّاعة بعد الحادية عشرة ـ وفيما هو يمدّ يده ليتلقط سمّاعة الهاتف افترض أنَّ الاتّصال من شخص آخر.

قال:

ـ مرحباً؟

من جديد ساد صمت عند الطّرف الآخر من الخطّ، فعرف كوين في التوّ أنَّ المتّصل هو الغريب.

قال من جديد:

ـ مرحبا؟ ما الّذي أستطيع القيام به لك؟

قال الصّوت أخيراً، بالهمس الآليّ نفسه، واللّهجة اليائسة عينها:

ـ نعم، نعم، الحاجة ماسَّة إليه الآن، دونما تأخير.
ـ ما الّذي تمسّ الحاجة إليه؟
ـ الحديث. الآن توّاً، الحديث الآن توّاً، نعم.
ـ ومع من ترغب في الحديث؟
ـ الرّجل نفسه، دائماً. أوستر. ذلك الذي يدعو نفسه بول أوستر.

لم يتردّد كوين هذه المرّة، فقد كان يعرف ما سيقوم به، والآن وقد حان الوقت، فقد قام به.

قال:
ـ إنّني المتحدّث، ها أنذا بول أوستر.
ـ أخيراً، عثرتُ عليك أخيراً.

كان بمقدوره أن يستمع إلى تنهيدة الارتياح في الصوت، الهدوء الملموس الّذي بدا فجأة أنّه يغلب عليه.

قال كوين:
ـ ذلك صحيح، أخيراً.

لزم الصّمت للحظة، ليدع الكلمات تستقرّ في الوعي، سواء وعيه أو وعي الطرف الآخر، وأضاف:
ـ ما الّذي أستطيع القيام به لك؟

تناهى الصوت:
ـ إنّني بحاجة للمساعدة. هناك خطر داهم، وهم يقولون إنّك خير من يقوم بهذه الأمور.
ـ ذلك يعتمد على نوعيّة الأمور التي تقصدها.
ـ أعني الموت. أعني الموت والقتل.

قال كوين:

ـ ذلك ليس تخصّصي، على وجه الدِّقَّة، فأنا لا أمضي متجوّلاً لقتل الناس.

تناهى الصوت، مشاكساً:

ـ لا، إنّني أعني العكس.

ـ هل سيقوم أحدهم بقتلك؟

ـ نعم، قتلي. ذلك صحيح، لسوف أتعرَّض لجريمة قتل.

ـ وتريد مني حمايتك؟

ـ حمايتي، نعم، وأن تعثر على الرّجل الّذي سيقترف الجريمة.

ـ ألست تعرفه؟

ـ أعرفه. بلى. بالطّبع، أعرفه، ولكنّي لا أعرف مكانه.

ـ هل بمقدورك إبلاغي به؟

ـ ليس الآن، ليس عبر الهاتف، ففي ذلك خطر كبير. يجب أن تأتي إلى هنا.

ـ ما رأيك في أن نلتقي غداً؟

ـ طيِّب، غداً، في وقت مبكر غداً، في الصّباح.

ـ العاشرة؟

ـ طيِّب. العاشرة.

تناهى عنوان عبر الصوت: الشّرق، الشّارع التّاسع والستُّون.

ـ لا تنسَ، يا سيِّد أوستر، لا بدّ من مجيئك!

ـ اطمئن، سأحضر.

استيقظ كوين في صباح اليوم التالي مبكّراً عمّا اعتاده في عدَّة أسابيع. وفيما هو يحتسي قهوته، ويضع الزبد على خبزه المحمَّص، ويلقي نظرة على نتائج مباريات البيسبول في الصحيفة (خسر فريق الميتز مباراته من جديد، اثنان لقاء واحد، بسبب خطأ تاسع في المرحلة الأخيرة) ولم يخطر بباله أنَّه بسبيله إلى التوجّه لموعده. بل إنَّ هذا التّعبير «موعده» بدا له غريباً. لم يكن موعده، وإنَّما هو موعد بول أوستر. ولم يكن يدري مَنْ عساه يكون ذلك الشّخص.

ومع ذلك، وبمرور الوقت، ألفى نفسه يقوم بتقليد جيِّد لرجل يستعدّ للخروج. حمل أطباق طعام الإفطار بعيداً عن المائدة، وألقى بالصحيفة على الأريكة، ومضى إلى الحمّام، حيث أخذ حمَّاماً، وحلق ذقنه، ومضى إلى غرفة النوم، وقد التفّ بمنشفتين، وفتح خزانة ثيابه، والتقط الثياب الّتي سيرتديها اليوم. ووجد نفسَه ميَّالاً لارتداء سترة ووضع ربطة عنق. ولم يكن قد وضع ربطة عنق منذ جنازتيْ زوجته وابنه، بل إنَّه لم يكن بمقدوره تذكّر ما إذا كان مايزال يمتلك ربطة عنق. ولكن ها هي ذي تتدلّى وسط ما بقي من خزانة ثيابه. غير أنَّه استبعد سترة بيضاء، باعتبارها رسميَّة أكثر ممَّا ينبغي، واختار بدلاً منها سترة تجمع مربّعاتها الصّغيرة بين اللّونين الرماديّ والأحمر، لتتناسب مع ربطة العنق الرماديَّة، وارتداها، وأحكم ربطة العنق، كما لو كان يخوض نوعاً من الغيبوبة.

لم يبدأ في التشكّك فيما يقوم به إلاَّ بعد أن وضع يده على مقبض الباب. قال محدِّثاً نفسه: «يبدو أنَّني بسبيلي إلى الخروج. ولكن إذا

خرجت فإلى أين أمضي على وجه الدِّقّة». وبعد ساعة، وفيما هو يترجّل من الحاملة رقم ٤ في تقاطع الشّارع السّبعين مع فيفث أفنيو، لم يكن قد أجاب على هذا السّؤال. امتدّت إلى جانبه حديقة تألّقت خضرتها تحت شمس الصّباح، مع ترامي ظلال حادّة، عابرة، وإلى الجانب الآخر كان «الفريك» وقد بدا أبيض صارماً، كأنّما جرى التخلّي عنه للموتى. حلّق ذهنه للحظة إلى لوحة «الجندي والفتاة المبتسمة» لفيرمير[1]، محاولاً تذكُّر الوضع الّذي كانت عليه يداها على وجه الدِّقّة، وهما تلتفّان حول القدح، والخلفيّة الحمراء للرّجل الّذي بدا وكأنّه بلا ملامح. ولمح بعينيْ خياله لمحة سريعة من الخريطة الزرقاء على الجدار، وسنى الشّمسِ وهو ينهلّ من خلال النافذة، وهو يشبه إلى حدّ كبير سنى الشّمس الّذي يلفّه الآن. ومضى يغذّ السّير، وراح يعبر الشّارع، وينعطف شرقاً، وعند ماديسون أفنيو انعطف يميناً، وأوغل بمقدار كتلة مبانٍ باتّجاه الجنوب، ثمّ انعطف

---

(١) فيرمير، جان (١٦٣٢ ـ ١٦٧٥): يعدّه كثير من النقّاد العالميين أعظم رسّام هولندي في كلّ العصور، بعد رمبرانت، وقد سجّل بمزيد من الحبّ والتعاطف حياة الطّبقة المتوسّطة في هولندا، في أعقاب النضال الطويل من أجل الاستقلال عن إسبانيا، وقد ولد في مدينة دلفت الهولنديّة، وليست هناك تفاصيل كثيرة معروفة عن حياته. دارت لوحاته الأولى حول موضوعات دينيّة وأسطوريّة، وكانت أكبر في نطاقها وطموحها من لوحاته الأخيرة التي تدور كلّها حول الحياة المنزليّة، وانهماك النّاس في أعمالهم اليوميّة. ومن أشهر لوحاته، بالإضافة إلى اللّوحة المذكورة في المتن، لوحات: منظر من دلفت، خادم تصبّ الحليب، امرأة تحمل وعاء للماء، تتميّز كلّها، شأن اللّوحة المشار إليها، بالرؤية الصّافية، والحسّ المرهف باللّون، ولعلّه من سخرية القدر أن فيرمير ورمبرانت ماتا غارقين في الدّيون بينما لوحاتهما اليوم بعشرات الملايين من الدولارات.

(هـ . م.)

يساراً، وعرف الموضع الّذي هو فيه. حدّث نفسه قائلاً: «يبدو أنّني قد وصلت». وقف أمام المبنى، ولفّه الصّمت. لم يَعُدِ الأمر فجأة يبدو كما لو كان يعنيه. وفيما هو يفتح الباب الّذي من شأنه أن يُفضي به إلى البهو، أسدى لنفسه كلمة نصح أخيرة؛ قال: «إذا كان هذا كلّه يحدث حقّاً، فمن الخير لي، إذن، أن أُبقي عينيَّ مفتوحتين».

فتحت امرأة باب الشقّة لكوين، ولسبب من الأسباب لم يكن يتوقّع ذلك، فأدخل عليه بعض التشوُّش. كانت الأشياء تحدث بسرعة بالغة بالفعل. وقبل أن تُتاح له الفرصة لاستيعاب وجود المرأة، ووصْفِها لنفسه، وتكوين انطباعاته، مضت تحادثه، مرغمة إيَّاه على الاستجابة. ومن هنا فإنَّه حتّى في تلك اللّحظات الأولى خسر أرضاً، وشرع في التعثّر وراء ذاته. وفيما بعد، عندما يُتاح له الوقت لتأمُّل هذه الأحداث، سيُفلِح في تجميع جزئيات هذا اللّقاء مع المرأة. ولكن ذلك كان عملاً من إنجاز الذاكرة، وكان يعرف أنَّ الأمور المتذكّرة تميل إلى تخريب ما يجري تذكُّره، وكنتيجة لذلك، فإنّه ما كان بوسعه قطّ أن يتأكَّد من أيّ منها.

لاحت المرأة في الثلاثين من عمرها، وربّما في الخامسة والثلاثين، تحظى بأفضل متوسّط للطول يمكن أن تتمتَّع به امرأة، وردفاها أعرض بلمسة ممَّا ينبغي، وإلاّ فإنّها ـ وهذا يرجع إلى حُكمك ـ شهوانيَّان؛ شعر فاحم، وعينان سوداوان، وترتسم في هاتين العينين نظرة تجمع بين كبح جماح النّفس والإغواء على نحو ملتبس في الوقت نفسه. وكانت ترتدي رداء أسود، وتضع على شفتيها أحمر شفاه متوهِّج الحمرة.

بدت على شفتيها ابتسامة متردِّدة، ومال رأسها قليلاً بصورة تحمل معنى التساؤل، وهي تقول:

ـ السيِّد أوستر؟

قال كوين:

ـ ذلك صحيح، إنَّني بول أوستر.

شرعت المرأة في الحديث:

ـ أنا فرجينيا ستلمان، زوجة بيتر، وهو في انتظارك منذ السّاعة الثامنة.

قال كوين، ملقياً نظرة عجلى على ساعته، فألفاها العاشرة تماماً:

ـ ولكن الموعد هو العاشرة.

أوضحت المرأة الموقف:

ـ لقد كان شديد الاهتياج، ولم يسبق لي قطّ أن رأيته على هذا النحو من قبل، ولم يكن بوسعه الانتظار، إلاَّ بمشقَّة.

فتحت الباب لكوين. وفيما هو يعبر العتبة، ويدخل الشِّقّة، استطاع الشّعور بنفسه وهو يصاب بالتشوّش القريب من الذهول، وكأنَّما أوصد مخّه أبوابه فجأة. كان قد أراد استيعاب تفاصيل ما يوشك أن يراه، ولكن هذه المهمّة كانت على نحو من الأنحاء بعيدة من مطاله في تلك اللّحظة، فقد امتدّت الشقّة من حوله كأنَّها نوع من الامتداد الضبابي. أدرك أنَّها شقَّة رحبة، ربّما كانت تضمّ خمس حجرات أو ستاً، وأنَّها مؤثَّثة على نحو مترف، يزيّنها عدد من الأعمال الفنيَّة، ومنافض السجائر الفضيَّة، واللّوحات المؤطّرة بشكل محكم على الجدران. ولكن ذلك هو كلّ ما هناك، ولا شيء يتجاوز مجرّد

انطباع عام، على الرّغم من أنّه كان هناك يتطلّع إلى هذه الأشياء بملء عينيه.

ألفى نفسه جالساً على أريكة، وحده، في غرفة الجلوس. وقد تذكّر الآن أنَّ السيِّدة ستلمان قد طلبت منه الانتظار هناك، ومضت لاستدعاء زوجها. ولم يكن بمقدوره تحديد الوقت الذي انتظر خلاله. ومن المؤكّد أنّه لم يمتد إلاّ دقيقة أو دقيقتين. ولكن بدا من الطّريقة التي ينهلّ بها الضوء من النوافذ كما لو كان الوقت هو منتصف النهار، غير أنّه لم يخطر بباله أن يلقي نظرة على ساعته، فقد حوَّم حوله أريج عطر فرجينيا ستلمان، وشرع في تخيّل ما يمكن أن تكون عليه، وهي مجرَّدة من ثيابها، ثمَّ فكّر فيما يمكن أن يجول بخاطر ماكس ورك، لو أنّه كان هناك. وقرَّر أن يشعل سيجارة، ونفث الدّخان في الغرفة. وأدخل السرور على نفسه أن يرقبه وهو يخرج من فمه في صورة نفثات، ويتبدّد، ويتّخذ هيئة جديدة والضوءُ ينهلّ عليه.

سمع صوت شخص يلج الغرفة وراءه، فنهض عن الأريكة، والتفت متوقِّعاً أن يرى السيِّدة ستلمان. ولكنَّه بدلاً من ذلك رأى شابّاً يرتدي ثياباً بيضاء بالكامل، وشعره يشبه شعر طفل أشقر، يميل إلى البياض. فكّر كوين، على نحو رهيب، في تلك اللّحظة الأولى في ابنه الرّاحل، ثمَّ تبدّدت هذه الخاطرة فجأة مثلما أقبلت.

أقبل بيتر ستلمان وجلس في مقعد وثير مكسوّ بالقطيفة الحمراء، قبالة كوين. ولم يفه بكلمة وهو يشقّ طريقه إلى المقعد، كما لم يُلقِ بالاً إلى وجود كوين. بدا أنَّ عمليَّة الانتقال من مكان إلى آخر تقتضي كل انتباهه، وكأنَّ عدم الانتباه إلى ما يقوم به سيفضي به إلى الجمود.

ولم يسبق لكوين أن رأى قطّ أحداً يتحرّك على هذا النحو، وأدرك في الحال أنَّ هذا هو الشّخص الذي اتّصل به هاتفيّاً. تصرّف الجسم تماماً على نحو ما فعل الصّوت، بدا شبه آليّ، يراوح بين الإيماءات البطيئة، والسّريعة، ويجمع بين التصلّب والتّعبير عن الأفكار والمشاعر، وكأنَّ التّشغيل خارج عن السيطرة، ولا يتوافق تماماً مع الإرادة الّتي تكمن خلفه. لاح لكوين أنَّ جسم ستلمان لم يستخدم منذ وقت طويل، وأنَّ كلّ وظائفه قد أعيد تعلّمها من جديد، بحيث أنَّ كلّ حركة أصبحت عمليّةً واعيةً وتمَّ تفتيتها إلى حركاتها الفرعيَّة المكوِّنة لها، الأمر الّذي نجم عنه فقدان كلّ الانطلاق والعفويّة. بدا الأمر مثل مراقبة دمية تحاول السّير دونما خيوط.

كان كلّ ما يتعلّق ببيتر ستلمان أبيض اللّون. قميص أبيض، مفتوح عند العنق، وسروال أبيض، وحذاء أبيض، وجوارب بيضاء. وفي مواجهة لمعة بشرته، كانت هناك خفّة شعره الشّبيه بالتّبن، وكان أثر ذلك شفّافاً على وجه التّقريب، وكأنّما بمقدور المرء أن يرى عبره العروق الزرقاء لبشرة وجهه. وهذه الزرقة كانت تحاكي تقريباً زرقة عينيه: زرقة حليبيَّة بدا أنّها تنحلّ إلى مزيج من السّماء والسّحب. ولم يستطع كوين تصوُّر نفسه وهو يوجّه كلمة واحدة إلى هذا الشّخص. ولاح كأنَّ وجود ستلمان هو أمر بالتزام الصّمت.

استقرّ ستلمان، على مهل، في مقعده، وحوَّل انتباهه آخر الأمر إلى كوين. وفيما التقت أعينهما ساور كوين فجأة الشّعور بأنَّ ستلمان قد غدا خفيّاً، لا تدركه العين. كان بوسعه رؤيته جالساً أمامه على

المقعد، ولكنّه في الوقت نفسه شعر بأنًه ليس هناك. وخطر لكوين أنّ ستلمان قد يكون ضريراً، ولكن لا، لم يبد ذلك أمراً ممكناً، فقد كان الرّجل ينظر إليه، بل ويتمعّن فيه، وإذا كان التعرّف لم يتوهّج على ملامحه فقد ارتسم على تلك الملامح ما يتجاوز النظرة المنطفئة. لم يَدْرِ كوين ما عساه يقوم به، فجلس في مقعده متحيِّراً، وهو يبادل ستلمان النظر. وانقضى وقت طويل.

قال الشّاب، أخيراً:

ـ لا توجِّه أسئلة من فضلك! نعم، لا، أشكرك.

صمت للحظة، وأضاف:

ـ أنا بيتر ستلمان، وأقول هذا بملء إرادتي الحرّة. نعم، ليس ذلك اسمي الحقيقي. لا، بالطّبع، ليس ذهني على كلّ ما ينبغي أن يكون عليه، ولكن ما من شيء يمكن القيام به في هذا الصّدد. لا، في هذا الصّدد، لا، لا، ليس بعد الآن.

إنَّك تجلس هنالك، وتحدّث نفسك: من هذا الشّخص الّذي يحادثني؟ ما هذه الكلمات الّتي تندّ عنه؟ لسوف أقول لك. أو بالحري لن أقول لك. نعم، ولا. ليس ذهني على كلّ ما ينبغي أن يكون عليه. إنّني أقول هذا بملء إرادتي الحرَّة. ولكنّي سأحاول، نعم، ولا، سأحاول أن أقول لك، حتّى إذا كان ذهني يتكبَّد من أمره عنتاً. شكراً لك.

اسمي بيتر ستلمان، ربّما سمعت بي، ولكن الغالب أنَّك لم تسمع بي. لا أهميَّة لذلك، فذلك ليس اسمي الحقيقي. وليس بمقدوري تذكّر اسمي الحقيقي، ليس بمقدوري التذكُّر. عفواً. ليست لذلك

أهميّةً، أقصد لم يعد بمقدوري بعد الآن التذكُّر.

هـذا هـو مـا يسمّى بـالحـديث، أعتقـد أنَّ هـذا هـو الاصـطلاح المنـاسب. عنـدمـا تخـرج الكلمات، تُحلِّق في الهـواء، تحيـا للحـظة، وتموت. غريب. أليس كذلك؟ أنا نفسي ليس لي رأي. لا، لا، مرّة أخـرى. ولكن مع ذلـك هناك كلمات ستحتـاج إلى امتلاك ناصيتها. هنـاك الكثير منهـا. ملايـين كثيرة عـلى ما أظن. ربّمـا ثلاثـة أو أربعة فقط، عفواً، ولكنّني في حالـة طيّبة اليـوم، أفضل كثيـراً من المعتاد. وإذا استطعت أن أقدِّم لك الكلمات الّتي تحتاجها فسوف يكـون ذلك فوزاً كبيراً. شكراً لك، شكراً لك ملايين المرّات.

منذ زمن طويل، كان هناك أم وأب. ولست أذكر أيّـاً منهما. وهم يقولون إنَّ الأمّ ماتت، وأمّا من هم فليس بمقدوري أن أحدِّد ذلـك. عفواً! ولكن هذا ما يقولونه.

لا أمّ، إذن، ها ها. ضحكي عـلى مثل هـذا النحو الآن. بـطني مليء بالكـلام غير المفهـوم الّذي ينـدفع منـه. ها هـا ها. قـال الأب الكبير: لا أهميَّة للأمر. بالنّسبة لي. أعني بالنّسبة للأب الكبير. الأب الكبير ذو العضلات الكبيرة والبوم بوم بوم! لا تـطرح أسئلة الآن من فضلك!

إنَّني أقـول ما يقـولونـه؛ لأنَّني لا أعرف شيئـاً. إنَّني لست إلَّا بيتر ستلمان المسكين، الفتى الّذي لا يستطيع التذكُّر. بـو! هو! شـاء المرء أم أبى. المغفّل السّاذج. عفـواً. يقولـون، يقولـون. ولكن ما الّـذي يقوله بيتر الصّغير المسكين؟ لا شيء. لا شيء. ليس بعد الآن.

كان هنالك هذا. الظلام. الظلام الدّامس. ظلام يشبه الظلام الدّامس. يقولون: تلك كانت الغرفة. وكأنَّ في وسعي الحديث عن ذلك. الظلام، أقصد. شكراً لك.

ظلام. ظلام. يقولون لتسعة أعوام. ليست هناك حتّى نافذة. يا لبيتر ستلمان المسكين! البوم، بوم، بوم. وأكوام البراز. بحيرات البول. نوبات الإغماء. عفواً. الخدر والعُري. عفواً. ليس بعد الآن.

هناك الظلام، إذن. ظلام دامس. أقول لك. كان هناك طعام في الظلام، نعم، طعام طريّ، لا شكل له، في الغرفة المظلمة، الصامتة. يتناول طعامه بيديه. عفواً. أعني أنَّ بيتر كان يتناول طعامه بيديه. ولئن كنت بيتر، فهذا أفضل. أعني، هذا أسوأ. عفواً. أنا بيتر ستلمان، ذلك ليس اسمي الحقيقي. شكراً لك.

يا لبيتر ستلمان المسكين! كان فتى صغيراً. يكاد ينطق كلمات قليلة، ثمَّ تخونه الكلمات، ثمَّ لا أحد، ثمَّ لا، لا، لا. ليس بعد الآن.

عفواً، يا سيِّد أوستر. أرى أنّني أُدخِل الحزن على نفسك. لا تطرح أسئلة من فضلك! اسمي بيتر ستلمان. ذلك ليس اسمي الحقيقي. اسمي الحقيقي هو السيِّد «حزين». ما هو اسمك يا سيِّد أوستر؟ ربّما كنت أنت السيِّد «حزين» الحقيقي، وأنا لا أحد.

بو هو! عفواً! هكذا بكائي ونواحي. بو هو! نحيب، نحيب. ما الّذي فعله بيتر في تلك الغرفة؟ ما من أحد يستطيع قول ذلك. بعضهم يقول: لا شيء. أمّا فيما يتعلّق بي فإنّني أعتقد أنَّ بيتر لم يكن

بوسعه التّفكير. هل مضى ينظر طارفاً بعينيه؟ هل راح يشرب؟ هل مضى يتعفّن؟ ها ها ها. عفواً! في بعض الأحيان أبدو غريباً للغاية.

ومبل كليك كرامبلتشو بيلو. كلاك كلاك بدراك. نمب نويز، فلاكلمتش، تشومانا. يا، يا، يا. عفواً! إنّني الوحيد الذي يفهم هذه الكلمات.

فيما بعد، وفيما بعد، وفيما بعد. هكذا يقولون. أوغلت طويلاً بحيث ما عاد يمكن لبيتر أن يكون مستقيم الذهن. لن يكون كذلك ثانية أبداً. لا، لا، لا. يقولون إنّ أحدهم عثر عليَّ. لست أتذكّر. لا. لست أتذكّر ما حدث عندما فتحوا الباب ودخل النّور. لا، لا، لا. ليس بمقدوري أن أقول شيئاً عن أيّ من هذا. ليس بعد الآن.

لوقت طويل وضعت عوينات قاتمة. كنت في الثانية عشرة. أو هكذا يقولون. عشت في مستشفى. وشيئاً فشيئاً علّموني أن أكون بيتر ستلمان. قالوا: أنت بيتر ستلمان. قلت: شكراً لكم، يا، يا، يا. قلت: شكراً لكم، وشكراً لكم.

كان بيتر طفلاً صغيراً. اضطروا لتعليمه كلّ شيء. وكما تعرف، كيف يمشي. كيف يأكل، كيف يتبرّز ويتبوّل في المرحاض. لم يكن أمراً سيّئاً. وحتّى عندما عضضتهم، لم يفعلوا البوم، بوم، بوم. بل إنّني توقّفت عن تمزيق ملابسي.

كان بيتر صبيّاً طيّباً. ولكن كان من الصّعب تعليمه الكلمات. فلم يكن فمه يعمل بالصّورة المناسبة. وبالطّبع، لم يكن متمالكاً لكافّة قدراته الذهنيّة. قال: با با با. ودا دا دا. ووا وا وا. عفواً! استغرق

الأمر المزيد والمزيد من السنوات. والآن يقولون لبيتر: يمكنك الذهاب الآن، ليس هنالك المزيد مما يمكننا القيام به لك. قالوا: بيتر ستلمان، أنت كائن بشري، إنّه أمر طيّب أن يصدِّق المرء ما يقوله الأطبَّاء. شكراً لكم. شكراً جزيلاً لكم.

أنا بيتر ستلمان. ذلك ليس اسمي الحقيقي. اسمي الحقيقي هو بيتر رابيت (أرنب). في الشتاء اسمي السيِّد وايت (الأبيض)، وفي الصيف اسمي السيِّد جرين (الأخضر). انظر إلى هذا حسبما يحلو لك، فأنا أقوله بملء إرادتي الحرّة. ومبل كليك كرامبلتشو بيلو. إنّه جميل. أليس كذلك؟ إنّني أنحت كلمات على هذا النحو طوال الوقت. ذلك أمر لا سبيل إلى تجنّبه، إنَّ الكلمات تتقافز خارجة من فمي فحسب من تلقاء ذاتها، وليس بالوسع ترجمتها.

اسأل، واسأل، لا جدوى من ذلك. ولكنّي سأحدّثك بالأمر. فلست أرغب في أن تكون حزيناً، يا سيِّد أوستر. إنّ لك وجهاً رقيقاً للغاية. وأنت تذكّرني بلَغْوٍ أو بتأوُّه، لست أدري أيّهما. وعيناك تطلّان عليَّ. نعم، نعم. بمقدوري أن أراهما. ذلك جيّد للغاية. شكراً لك.

ذلك هو السّبب في أنّني سأحدّثك بالأمر. لا تطرح أسئلة من فضلك! إنّك تتساءل عن كل الباقي. أي عن الأب. الأب الرهيب الذي اقترف كلّ هذه الأمور حيال الصغير بيتر. اطمئن. لقد مضوا به إلى مكان مظلم. لقد سجنوه، وتركوه هناك. ها ها ها. عفواً. في بعض الأحيان أبدو غريباً للغاية.

يقولون ثلاثة عشر عاماً. ربّما كان ذلك وقتاً طويلاً. ولكنّي لا

أعرف شيئاً عن الوقت. إنّني جديد كلّ يوم. إنّني أولد عندما استيقظ في الصّباح، وأكبر خلال النّهار، وأموت في اللّيل عندما أمضي للنوم. ليست تلك غلطتي. إنّني في حالة طيّبة اليوم. وأنا في حالة أفضل ممّا كنت عليه في أيّ وقت من قبل.

لمدّة ثلاثة عشر عاماً غاب الأب بعيداً. واسمه بيتر ستلمان أيضاً. غريب. أليس كذلك؟ أن يحمل شخصان اسماً واحداً؟ لست أعرف ما إذا كان ذلك هو اسمه الحقيقي. لكنّني لا أظنّه ذاتي. إنّنا معاً بيتر ستلمان. ولكن بيتر ستلمان ليس اسمي الحقيقي. ولذا فقد لا أكون في نهاية المطاف بيتر ستلمان.

أقول ثلاثة عشر عاماً. أو يقولون. لا فرق. لست أدري شيئاً عن الوقت. لكن هذا هو ما يخبرونني به. غداً نهاية ثلاثة عشر عاماً. ذلك أمر سّيئ. على الرّغم من أنّهم يقولون إنّه ليس كذلك. إنّه أمر سّيئ. ولا يفترض أن أتذكّر. ولكنّي أتذكّر بين الحين والآخر، على الرّغم ممّا أقوله.

لسوف يجيء. أقصد أن الأب سيجيء. وسيحاول قتلي. شكراً لك. ولكنّي لا أريد ذلك. لا، لا. ليس بعد الآن. بيتر يعيش الآن. نعم. ليس كلّ شيء على مايرام في رأسه، ولكنّه مع ذلك يحيا. وذلك شيء يعتدّ به. أليس كذلك؟ بمقدورك أن تراهن على هذا بآخر دولار في جيبك. ها ها ها.

إنّني شاعر الآن، في معظم أوقاتي. أجلس كلّ يوم في غرفتي، وأكتب قصيدة أخرى، وأصوغ كلّ الكلمات بنفسي، تماماً مثلما كنت أحيا في الظّلام. أبدأ بتذكّر الأشياء على هذا النحو، وبالتظاهر بأنّني

قد عدّت إلى الظّلام من جديد. وأنا الوحيد الذي يعرف ما تعنيه هذه الكلمات. وليس من الممكن ترجمتها. وستجعلني هذه القصائد شهيراً. اضرب المسمار على رأسه. يا، يا، يا. قصائد جميلة. جميلة للغاية حتّى إنّ العالم بأسره سيبكي تأثُّراً.

ربّما قمتُ بشيء آخر فيما بعد. بعد أن أنتهي من كوني شاعراً. إن عاجلاً أو آجلاً ستنفد الكلمات منيٍّ، لعلّك تدرك هذا. والجميع بداخلهم هذا القدر على وجه التّحديد من الكلمات، وعندئذٍ أين تراني سأكون؟ أحسب أنّني سأرغب في أن أكون، بعد ذلك، من رجال مكافحة الحرائق، وأن أصبح عقب ذلك طبيباً. فلا فرق. وآخر ما سأكونه هو لاعب السير على الحبال العالية. وعندما يوغل بي العمر في مسيرته وأكون قد تعلّمت أخيراً كيف أسير كالآخرين، عندئذٍ سأرقص على الحبال، وسيحسّ النَّاس بالذهول، حتّى الأطفال الصِّغار. هذا هو ما أحبّ أن أفعل، أن أرقص على الحبال حتّى أموت.

ولكن لا تهتم، فلا فرق، بالنّسبة إليّ. إنّني رجل غني، كما يمكنك أن ترى. وليس عليَّ أن أقلق. لا، لا. ليس على هذا الأمر. يمكنك أن تراهن على هذا بآخر دولار في جيبك. وقد كان الأب غنيّاً، وحصل بيتر الصغير على المال كلّه بعد أن سجنوا الأب في الظّلام. ها ها ها. اعذرني لضحكي. في بعض الأحيان أبدو غريباً للغاية.

إنّني الأخير من آل ستلمان. وقد كانوا عائلة كبيرة، أو هذا ما يقولونه. من بوسطن العتيقة، قد تكون سمعت بها. إنّني الأخير في

سلالتهم. ليس هناك آخرون. إنّني نهاية الجميع. الرّجل الأخير. وهذا أفضل، فيماأعتقد. وليس أمراً مؤسفاً أن ينتهي كلّ شيء الآن. من الخير للجميع أن يكونوا أمواتاً.

ربّما لم يكن الأب رجلاً سيّئاً. إنّني أقول ذلك الآن على الأقلّ. فقد حظي برأس كبير. كبير إلى حدّ الضخامة البالغة، الأمر الذي كان معناه أنّ هناك مجالاً كبيراً، هناك في داخله. أفكار كثيرة في رأسه الضخم ذاك. ولكن يا لبيتر المسكين! ألم يكن مسكيناً؟ وفي ظروف عسيرة حقاً. بيتر الذي لم يكن يستطيع الرؤية أو الحديث، الذي لم يستطع التّفكير ولا الإقدام. بيتر الذي لم يكن يستطيع. لا. لا شيء على الإطلاق.

إنّني لا أعرف شيئاً عن هذا. كما لا أفهم شيئاً. زوجتي هي التي تحدّثني بهذه الأمور. وهي تقول إنّ من المهم بالنّسبة إليّ أن أعرف، حتّى وإن لم أفهم. ولكن حتّى هذا لا أفهمه. ولكي تعرف ينبغي أن تفهم. أليس الأمر كذلك؟ لكنّي لا أعرف شيئاً. ربّما كنت بيتر ستلمان، وربّما لست كذلك. اسمي الحقيقي هو بيتر نوبودي (لا أحد). شكراً لك. وما هو رأيك في ذلك؟

إنّني أحدّثك إذن عن الأب. إنّها قصّة جيّدة، حتّى وإن لم أتفهّمها. وبمقدوري أن أحدّثك بها لأنّني أعرف الكلمات. وذلك أمر يُعتدّ به، أليس كذلك؟ أقصد معرفة الكلمات. في بعض الأحيان أكون شديد الفخر بنفسي! عفواً. هذا ما تقوله زوجتي. وهي تقول إنّ الأب قد تحدّث عن الربّ. تلك كلمة غريبة بالنّسبة إليّ. وعندما تعيد كتابتها معكوسة فإنّها تعطيك معنى آخر مختلفاً عمّا يقصد بها في

صورتها الأولى. أليس كذلك. ووف. ووف. باو واو. أحسب أنّ هذه الكلمات جميلة. بالغة الجمال وصادقة. مثلما الكلمات التي أقوم بصياغتها.

على أيّ حال كنت أقول إنّ الأب قد تحدّث عن الربّ. أراد أن يعرف ما إذا كانت للربّ لغة. لا تسلني عمّا يعنيه ذلك. إنّني أحدّثك بذلك لأنّني أعرف الكلمات فحسب. ظنّ الأب أن الطّفل الوليد قد يتحدّث هذه اللّغة إذا لم يرَ أحداً من الناس. ولكن أيّ طفل كان في هذا الوضع؟ الآن، بدأت تدرك الأمر. ليس عليك أن تشتري الطّفل. بالطّبع كان بيتر يعرف بعض الكلمات التي تتردّد على ألسنة الناس، ذلك أمر لا سبيل إلى تجنّبه. ولكن الوالد حدّث نفسه بأنّ بيتر قد ينساها. بعد فترة. ولهذا كان هناك الكثير من البوم بوم بوم. وكلّ مرة يتفوّه فيها بيتر بكلمة كان أبوه يبادره بالدويّ. وفي نهاية المطاف تعلّم ألاّ يقول شيئاً. يا يا يا. شكراً لك.

احتفظ بيتر بالكلمات في أعماقه. كلّ تلك الأيّام والشهور والأعوام. هناك في الظّلام يقبع بيتر الصّغير وحيداً، الكلمات تحدث ضجيجاً في رأسه، وتشاركه وحدته. وهذا هو السّبب في أنّ فمه لا يعمل على النحو الصّحيح. يا لبيتر المسكين! بو هو! هكذا هي الدّموع. الفتى الصّغير الذي لا يمكنه أن يكبر أبداً.

بوسع بيتر أن يحادث النّاس الآن. ولكنّه مازالت في رأسه الكلمات الأخرى. إنّها لغة الربّ، وما من أحد آخر يستطيع التحدّث بها. إنّها تستعصي على الترجمة. وهذا هو السرّ في أن بيتر يحيا قريباً للغاية من الربّ، ذلك هو السرّ في أنّه شاعر شهير.

كلّ شيء جيّد الآن بالنّسبة إليّ، وبمقدوري القيام بأيّ شيء أريده. في أيّ وقت، وأيّ مكان. بل إنّ لي زوجة. وبمقدورك أن ترى هذا. وقد أتيت على ذكرها من قبل. وقد تكون التقيت بها. إنّها جميلة. أليست كذلك؟ واسمها فرجينيا، وذلك ليس اسمها الحقيقي، ولكنّ ذلك أمر لا يُكْتَرَث به، بالنّسبة إليّ.

وأيّاً كان الوقت الذي أطلب ذلك فيه، فإنّ زوجتي تجلب لي فتاة. إنّهن عاهرات. أضع لولبي فيهنّ، فيتأوّهن. كان هناك الكثيرات منهنّ. ها ها. يجئن إلى هنا، وأضاجعهن، المضاجعة تثير إحساساً طيّباً. تعطيهن فرجينيا النقود، وتغمر السّعادة الجميع، يمكنك أن تراهن على ذلك بآخر دولار في جيبك. ها ها.

يا لفرجينيا المسكينة! إنّها لا تحبّ أن تضاجع. أعني لا تحب أن أضاجعها. ربّما هي تضاجع شخصاً آخر. من يدري؟ لست أعرف شيئاً عن هذا. الأمر ليس جديراً بالاكتراث. ولكن إذا أحسنت التصرّف مع فرجينيا فقد تَدَعُكَ تضاجعها. سيجعلني ذلك سعيداً، من أجلك، شكراً لك.

وهكذا فإنّ هناك أموراً عديدة عظيمة، وأنا أحاول أن أحدّثك بها. أعرف أنّ كلّ شيء ليس على مايرام في رأسي. وأنّه صحيح، وأنا أقول هذا بملء إرادتي الحرّة، أنّني في بعض الأحيان أصرخ وأصرخ، دونما سبب وجيه، وكأنّما يتعيّن أن يكون هناك سبب، ولكن دونما وجود سبب أستطيع تبيّنه، أو يستطيع أيّ شخص آخر تبيّنه. لا. ثمّ هناك الأوقات التي لا أقول فيها شيئاً. على امتداد أيّام وأيّام تمتدّ بلا انتهاء. لا شيء، لا شيء لا شيء. أنسى كيفية جعل

الكلمات تخرج من فمي، ثمّ يغدو من الصّعب عليّ أن أحير حراكاً. يـا يا. أو حتّى أن أرى. ذلـك هو الـوقت الـذي أصبـح فيـه السيّـد «حزين».

مازلت أحـب أن أكون في الظلام. في بعض الأحيان عـلى الأقلّ، فذلك يجعلني في حـالة أفضـل، فيما أعتقـد. وفي الظّلام أتحـدّث لغة الـربّ ومـا من أحــد يمكنـه سـماعي. لا تغضب، أرجـوك، فليس بمقدوري تجنّب ذلك.

وأفضــل شيء هو أنّ الهـواء هناك. نعم. وشيئـاً فشيئاً تعلّمتُ أن أحيا داخله. الهواء والنّور، نعم، ذلك أيضاً، النّور الذي يشعّ فـوق كلّ الأشياء ويضعها هنالك لكي تراها عيناي. هنـاك الهواء والنّـور، وهـذا أفضل الأشيـاء. عفواً. الهـواء والنّور. نعم. وعنـدمـا يكـون الـطّقس صحواً، أحبّ الجلوس قـرب النـافـذة المفتـوحـة. في بعض الأحيـان أتطلّع إلى الخـارج وأرقب الأشياء الـواقعة أسفـل النّافـذة. الشّارع والنّاس جميعاً، الطلّاب والسيّـارات أحجار الأبنيـة في الجانب الآخــر من الـطريق. ثمّ هنــاك الأوقـات التي أغمض فيهــا عينيّ، وأجلس هناك، والنسيم ينساب على محيّاي، والنّور يسكن قلب الهواء حواليَّ، وفيما وراء عينيّ، وتكسو الحمرة الـدنيا بـأسرها، حمـرة جميلة داخل عينيّ، والشّمس تتألّق عليّ وعلى عينيّ.

صحيح أنّني نادراً ما أخرج، فذلك أمر شاقّ بـالنّسبة إليّ، ولست ممّن يـوثق بهم على الـدّوام، ففي بعض الأحيـان أصرخ. لا تغضب منّي أرجوك، فليس ذلك ممّا يمكنني التغلّب عليه. وتقول فرجينيا إنّني ينبغي أن أتعلّم كيف أتصرّف في مــلأ من النّـاس. ولكنّني في بعض

الأحيان لا أستطيع كبح جماح نفسي، فتدوّي الصّرخات منطلقة منيّ.

ولكنّني أحبّ الخروج إلى الحديقة بالتّأكيد، فهناك الأشجار والهواء والنّور. وهنالك خير من ذلك كلّه. أليس كذلك؟ ومع ذلك، أتحسّن في أعماقي شيئاً فشيئاً. بمقدوري الشّعور بهذا. وحتّى دكتور فيشنجرادسكي يقول هذا. إنّي أعرف أنّني مازلت الفتى الدمية. فذلك أمر لا سبيل إلى تجنّبه. لا، لا، ليس بعد الآن. ولكنّني في بعض الأحيان أحسب أنّني سأكبر، في نهاية المطاف، وأغدو حقيقيّاً.

مازلت في الوقت الراهن، بيتر ستلمان. ذلك ليس اسمي الحقيقي. وليس بمقدوري القول من عساني أكون غداً. فكلّ يوم جديد، وكلّ يوم أولد مرّة أخرى، وأرى الأمل في كلّ مكان، حتّى في الظلام، أغدو ربّاً عندما أموت.

هناك كلمات كثيرة إضافية ينبغي الحديث عنها، ولكنّني لا أحسب أنّني سأنطقها. لا. ليس اليوم. فقد نال التّعب من فمي. وأعتقد أنّ وقت ذهابي قد حان. وبالطّبع، فأنا لا أعرف شيئاً عن الوقت. ولكنّ الأمر لا يدعو للاكتراث، بالنّسبة إليّ. شكراً جزيلاً لك. أعرف أنّك ستنقذ حياتي، يا سيّد أوستر، وأنا أعتمد عليك. ولعلّك تدرك أنّ الحياة يمكن أن تدوم طويلاً. وكلّ شيء آخر هو في الغرفة، مع الظّلام، مع لغة الربّ، مع الصرخات. ها أنذا المنتمي إلى الهواء، شيء جميل يسطع عليه النّور. قد تتذكّر ذلك. أنا بيتر ستلمان. ذلك ليس اسمي الحقيقي. شكراً جزيلاً لك.

انتهى الخطاب، وما كان في وسع كوين أن يحدّد الوقت الذي استغرقه، فقد أدرك الآن فحسب، بعد أن توقّفت الكلمات، أنّهما يجلسان في الظّلام. لقد انقضى يوم بأسره، فيما يبدو. وقد غربت الشّمس، منجابة عن الغرفة، خلال حديث ستلمان المنفرد، ولكنّ كوين لم يلحظ ذلك. وأمّا الآن فقد كان بمقدوره الشّعور بالظّلام والصّمت، وقد راحا يطنّان في رأسه. انقضت عدّة دقائق. وحدَّث كوين نفسه بأنّ قول شيء ما الآن هو أمر منوط به، ولكنّه لم يستطع التيقّن من ذلك. كان بمقدوره سماع صوت تنفّس بيتر ستلمان على نحو ثقيل في موضعه عبر الغرفة. وبخلاف ذلك لم تتردّد أيّة أصوات. ولم يستطع كوين حسم أمره فيما يتعلّق بما يقوم به. وفكّر في عدّة احتمالات، ولكنّه مالبث أن نحّاها من ذهنه واحداً إثر الآخر. جلس هنالك في مقعده، في انتظار ما سيحدث عقب ذلك.

قطع وقع ساقين ملتفّتين في جوربين عبر الغرفة الصّمت أخيراً. وتناهت القرقعة المعدنيَّة النّاجمة عن إضاءة المصباح، وفجأة غمر الضوء الغرفة. التفتت عينا كوين تلقائيّاً نحو مصدر الضوء، وهنالك إلى يسار مقعد بيتر حيث كان مصباح مائدة، رأى فرجينيا ستلمان واقفة. كان الشابّ يحدّق أمامه مباشرة وكأنّه كان نائماً وعيناه مفتوحتان. وانحنت السيّدة ستلمان، ولفّت ذراعها حول بيتر، وهمست بنعومة في أذنه.

قالت:

- حان الوقت الآن، والسيّدة سافيدرا في انتظارك.

تطلّع بيتر إليها، وابتسم. قال:

ـ الأمل يملأ جوانحي.

قبّلت فرجينيا ستلمان وجنة زوجها، برقّة، وقالت:

ـ عليك بوادع السيّد أوستر.

نهض بيتر، أو بالأحرى بدأ المغامرة الحزينة، البطيئة، المتمثّلة في المناورة لإخراج جسمه من المقعد، وشقّ طريقه على قدميه. وعند كلّ مرحلة كانت هناك تراجعات وتداعيات وانطلاقات إلى الوراء، مصحوبة بنوباتٍ مفاجئة من الجمود ونَخَراتٍ وكلماتٍ لم يستطع كوين تبينّ معناها.

وأخيراً استقام بيتر في وقفته، وانتصب أمام مقعده، وقد ارتسم تعبير الفوز على محيّاه، وحدّق في عَيْنَيِ كوين، ثمّ ابتسم ابتسامة عريضة، ودونما وعي بالذّات.

قال:

ـ إلى اللّقاء.

ـ إلى اللّقاء، يا بيتر!

لوّح بيتر تلويحة صغيرة متشنّجة بيده، ثمّ استدار، وسار عبر الغرفة. ترنّح في مشيته، وجنح إلى اليمين أوّلاً، ثمّ إلى اليسار، وساقاه تنفكّان وتنعقدان بالتناوب. وفي أقصى الغرفة وقفت في دهليز مضاء امرأة في منتصف العمر ترتدي زيّ الممرّضات الأبيض. وافترض كوين أنّها السيّدة سافيدرا. وتابع بييتر ستلمان بناظريه، إلى أن اختفى الشابّ عبر الباب.

جلست فرجينيا ستلمان قبالة كوين، في المقعد الذي كان زوجها

يشغله قبل قليل.

قالت:

كان باستطاعتي أن أوفّر عليك عناء ذلك كلّه، ولكنّي قدّرت أنّه من الأفضل أن تشاهد الأمر بأمّ عينك.

قال كوين:

- إنّني أفهم ما تعنينه.

قالت المرأة بمرارة:

- لا، لا أظنّ أنّك تفهمه، ولا أظنّ أنّ في وسع أحد فهمه.

ابتسم كوين ابتسامة تُفصح عن تقدير الموقف، وقال:

- ليس الأمر الجوهري هو ما يمكنني أو لا يمكنني فهمه. لقد استعنت بي للقيام بمهمّة، وكلّما عجّلت بإيضاحها لي كان ذلك أفضل. وممّا استوعبته أستطيع القول بأنّ القضيّة ملحّة. ليست لديّ أيّة مزاعم بشأن فهم بيتر، أو ما عانيت منه. الأمر المهم هو أنّني على استعداد للمساعدة. وأحسب أنّ عليك تقدير هذه المساعدة حقّ قدرها.

الآن، راح الدفء ينساب في أعماقه، وحدّثه شيء ما بأنّه قد التقط النغمة الصّحيحة، وانبثق من قراره نفسه شعور مفاجئ بالسّرور، وكأنّه أفلح لتوّه في عبور حدود داخلية في قلب كيانه.

قالت فرجينيا ستلمان:

- إنّك على حقّ. بالطّبع، أنت على حقّ.

صمتت المرأة، والتقطت نفساً عميقاً، ثمّ عاودت الصمت من جديد، وكأنّها تراجع في ذهنها الأشياء التي توشك على قولها. ولاحظ

كوين أنّ يديها تقبضان بإحكام على ذراعي المقعد.

واصلت حديثها قائلة:

ـ إنّني أدرك أنّ معظم ما يقوله بيتر مثير للحيرة إلى حدّ بعيد، ولاسيّما في المرّة الأولى التي تستمع إليه فيها. كنت أقف في الغرفة المجاورة أصغي إلى ما يقوله لك. لا ينبغي أن تفترض أنّ بيتر يقول الحقيقة على الدّوام. ومن ناحية أخرى فإنّ من الخطأ الاعتقاد بأنّه يكذب.

ـ تقصدين أنّني ينبغي أن أصدّق ما يقول، وألاّ أصدّق بعضه الآخر.

ـ ذلك هو، على وجه الدّقّة، ما أعنيه.

قال كوين:

ـ إنّ عاداتك الجنسية أو الافتقار إليها لا تعنيني، يا سيّدة ستلمان، وحتّى إذا كان ما يقوله بيتر صحيحاً فإنّه لا يدعو إلى الاكتراث. ففي نوعيّة العمل الذي أمارسه تلتقين بقليل من كلّ شيء، وإذا لم تتعلّمي التوقّف عن إصدار الأحكام فإنّ ذلك سيؤدي بك إلى أن تضلّي طريقك. إنّني معتاد على سماع أسرار الناس، كما أنّني معتاد على إمساك لساني. وإذا لم تكن حقيقةٌ ما ذاتَ تأثير على القضيّة فلا شأن لي بها.

تضرّجت وجنتا السيّدة ستلمان احمراراً:

ـ كلّ ما في الأمر أنّني أردت أن تعرف أنّ ما قاله بيتر ليس صحيحاً.

هزّ بيتر كتفيه، وأخرج سيجارة، وأشعلها، وقال:

ـ سواء أكان هذا أو ذاك، فالأمر ليس مهمّاً. وما يعنيني هو الأمور الأخرى التي قالها بيتر، وأحسب أنّها صحيحة، وإذا كانت كذلك فإنّني أودّ سماع ما لديك بشأنها.

ـ نعم، إنها صحيحة.

قالتها فرجينيا ستلمان، وقد خفّفت قبضتها المحكمة حول المقعد، ووضعت يدها اليمنى تحت ذقنها. وبدت ساهمة وكأنّها تبحث عن موقف قوامه صدق لا سبيل إلى زعزعته، وأضافت:

ـ لبيتر طريقة طفولية في الحديث عن الأمر، ولكن ما قاله صحيح.

ـ حدّثيني عن الأب. عن أيّ شيء تعتقدين أنّ له أهمية.

ـ والد بيتر من عائلة ستلمان المستقرّة في بوسطن. وأنا على يقين من أنّك سمعت بهذه العائلة؛ فقد كان منها كثير من حكّام الولايات في القرن التّاسع عشر، وعدد من الأساقفة البروتستانت، ومن السفراء وأحد رؤساء جامعة هارڤارد. وفي الوقت نفسه كسبت العائلة أموالاً طائلة، في ميادين صناعة المنسوجات والنقل بالسّفن، والله وحده يعلم في أيّ مجالات أخرى أيضاً. والتفاصيل لا أهمّيّة لها مادمتَ قد ألممتَ بفكرة عن خلفيّة الموضوع.

ذهب والد بيتر إلى جامعة هارڤارد، شأن جميع أفراد العائلة، ودرس الفلسفة والدّين، وكان رجلاً عبقريّاً بكلّ المعايير، وكتب أطروحته عن التفسيرات اللاّهوتية في القرنين السّادس عشر والسّابع عشر للعالم الجديد، ثمّ تولّى وظيفة في قسم الدراسات الدينيّة في جامعة كولومبيا. وبعد وقت قصير من هذا تزوّج والدة بيتر، ولست

أعرف الكثير عنها. وكانت، على نحو ما يبين من الصور التي رأيتها، امرأة جميلة للغاية، ولكنّها رقيقة التكوين، تشبه بيتر قليلاً، وتتمتّع بهاتين العينين الشاحبتي الزرقة وبهذه البشرة البيضاء. وعندما ولد بيتر بعد سنوات قليلة، كانت العائلة تقطن شقّة كبيرة في ريفرسايد درايف. وكان عمل ستلمان الأكاديمي في ازدهار، فقد أعاد كتابة رسالته، وحوّلها إلى كتاب ـ حقّق انتشاراً طيباً ـ ورُقّي إلى درجة الأستاذيّة، وهو في الرابعة والثلاثين أو الخامسة والثلاثين من عمره، ثمّ توفيت أم بيتر. وكلّ ما يتعلّق بهذه الوفاة يشوبه الغموض، وقد زعم ستلمان أنّها ماتت وهي نائمة، ولكنّ الأدلّة أشارت، فيما يبدو، إلى الانتحار، شيء له علاقة بجرعة كبيرة من الأقراص المنوّمة، ولكن لم يكن في الوسع إثبات شيء، بالطّبع، بل دار بعض الحديث عن قتله إيّاها ولكن تلك الأقاويل لم تكن إلاّ شائعات لم تسفر عن شيء، وتمّ إسدال ستار من الكتمان على الأمر بأسره.

كان بيتر في الثانية من عمره، في ذلك الوقت، طفلاً عادياً تماماً. وبعد وفاة أمّه لم تبقَ لستلمان، فيما يبدو، علاقة تُذْكَر به، وتمّت الاستعانة بمربّية، وطوال الأشهر السّتّة التالية، أو نحو ذلك، تولّت رعاية بيتر بشكلٍ كامل، ثمّ قام ستلمان، دونما مقدمات، بإنهاء عملها، وقد نسيتُ اسمها، وأحسب أنّها كانت تُدعى الآنسة باربر، ولكنّها أدلت بشهادتها خلال المحاكمة. ويبدو أنّ ستلمان كان قد عاد إلى الدّار ذات يوم، وأبلغها بأنّه سيتولّى أمر تربية بيتر. وقد بعث باستقالته إلى جامعة كولومبيا، وقال للمسؤولين فيها إنّه يترك الجامعة ليكّرس وقته بالكامل لرعاية ابنه. ولم يكن المال عائقاً، بالطّبع، ولم

يكن في وسع أحد القيام بشيء حِيال هذا الأمر.

وبعد ذلك اختفى بشكل أو بآخر. وظلّ في الشقّة نفسها، ولكنّه كان يكاد يغادرها. ولا يعرف أحد حقاً ما الذي حدث، وأحسب أنّه ربّما بدأ بالإيمان ببعض الأفكار الدينيّة المتطرّفة التي كان قد كتب عنها، فجعلته مجنوناً، معتوهاً تماماً. وليست هناك طريقة أخرى لوصف الأمر. لقد سجن بيتر في إحدى غرف الشقّة، وقام بتغطية النوافذ، وأبقاه هناك تسعة أعوام. حاول أن تتخيّل الأمر، يا سيّد أوستر! تسعة أعوام. طفولة بأسرها قُضِيت في الظّلام، وفي عزلة عن الدّنيا، دونما اتصال بالبشر، إلاّ لدى ضربه بين الحين والآخر. إنّني أحيا مع نتيجة تلك التجربة، وبمقدوري القول بأنّ الضرر كان رهيباً. إنّ ما رأيته اليوم هو بيتر في أفضل أحواله. وقد اقتضى الأمر ثلاثة عشر عاماً للوصول به إلى هذا الحدّ، ولسوف تحلّ بي اللّعنة إذا تركت أحداً يؤذيه من جديد.

توقّفت السيِّدة ستلمان لتلتقط أنفاسها. وأحسّ كوين بأنّها على وشك التّداعي، وأنّ كلمة واحدة تجعلها على شفير الهاوية. وكان عليه أن يبادر بالحديث الآن، وإلاَّ أفلت الحوار من يديه.

سألها:

ـ كيف اكتُشِف بيتر في نهاية الأمر؟

تخلَّصت المرأة من بعض التوتّر الذي أصابها، وتنهّدت على نحو مسموع، وحدَّقت في عَيْنَي كوين.

قالت:

ـ شبَّ حريق.

ـ حريق شبَّ عرضاً، أو حريق تمَّ إشعاله عمداً؟
ـ لا أحد يدري.
ـ وماذا تعتقدين أنَّه حدث؟
ـ أعتقد أنَّ ستلمان كان في مكتبه، فهو يحتفظ بسجلّات تجربته هناك. وأحسب أنَّه أدرك أخيراً أنَّ الفشل كان مآل عمله. لست أقول إنَّه قد شعر بالنَّدم على أيّ شيء أتاه، ولكن حتّى إذا نظرنا إلى الأمر من منظوره فإنَّه كان يعرف أنَّه قد فشل. أعتقد أنَّه قد وصل في تلك اللّيلة إلى نقطة قوامها الاشمئزاز من نفسه، وقرَّر أن يحرق أوراقه. ولكنَّ النار خرجت عن سيطرته، واحترق الجانب الأكبر من الشِّقَّة. ومن حسن الحظّ أنَّ غرفة بيتر كانت في الطرف الآخر من قاعة طويلة، ووصل رجال مكافحة الحرائق إليه في الوقت المناسب.
ـ وعندئذٍ؟
ـ استغرق تبيّن حقيقة كلّ شيء شهوراً طويلة، فقد أتت النّار على أوراق ستلمان، الأمر الّذي كان معناه أنَّه ليس هناك دليل حاسم. ومن ناحية أخرى فقد كانت هناك حالة بيتر، والغرفة التي أودع فيها، وتلك العوارض الفظيعة على النّوافذ، وبالفعل قامت الشّرطة بتجميع جزئيات القضيَّة. وتمَّ أخيراً تقديم ستلمان للمحاكمة.
ـ ماذا حدث في المحكمة؟
ـ صدر الحكم بجنون ستلمان، وجرى إبعاده.
ـ وبيتر؟
ـ تمَّ إرساله بدوره إلى أحد المستشفيات، وبقي هناك إلى ما قبل عامين مضيا.
ـ هل التقيته هناك؟

ـ نعم. في المستشفى.
ـ كيف؟
ـ كنت المتولية لعلاج طريقته في الحديث. وعملت معه يوميّاً، طوال خمس سنوات.
ـ لست أقصد التطفّل، ولكن كيف أدّى ذلك على وجه الدقّة إلى الزواج؟
ـ الأمر معقّد.
ـ هل يضايقك أن تحدّثيني عنه؟
ـ لا يضايقني في الواقع. ولكنّي لا أحسبك ستفهم جليّة الموضوع.
ـ هناك طريقة واحدة لتبيُّن ما إذا كنت سأفهم أو لا.
ـ طيِّب، لنعبّر عن الأمر بشكل بسيط، دعنا نَقُلْ إنَّ تلك كانت خير طريقة لإخراج بيتر من المستشفى، ومنحه الفرصة لكي يعيش حياة طبيعيَّة بصورة أكبر.
ـ ألم يكن من الممكن جعلك الوصيَّة القانونيَّة عليه؟
ـ كانت الإجراءات شديدة التعقيد. وفضلاً عن ذلك فإنَّ بيتر لم يكن بعدُ قاصراً.
ـ ألم تكن تلك تضحية هائلة بالنّفس من جانبك؟
ـ ليس بصورة حقيقيَّة. فقد تزوّجت مرّة من قبل، وكان زواجاً أقرب إلى الكارثة. لم يعد الأمر شيئاً أريده لنفسي. وعلى الأقلّ فإنَّ هناك، بوجود بيتر، هدفاً لحياتي.
ـ هل صحيح أنّه سيُطلق سراح ستلمان من المستشفى؟
ـ غداً. لسوف يصل إلى محطّة جراند سنترال في المساء.

ـ وأنت تشعرين بأنَّه قد يأتي لمهاجمة بيتر. هـل هذا شعـور حدسي قويّ أم أنّ لديك دليلاً؟

ـ قليل من الأمرين معـاً. قبل عـامين كـانوا سيُخـرجون ستلمان، ولكنّه كتب رسالـة إلى بيتر، وأطلعت السّلطات عليهـا، فتقرَّر أنـه لم يكن مُهَيَّأً بعدُ للخروج، في نهاية المطاف.

ـ أي نوع من الرسائل كانت؟

رسالة مجنونة. وصف فيها بيتر بأنَّه فتى شيـطاني، وأنّه سـوف يأتي يوم لتصفيّة الحساب.

ـ هل مازلت تحتفظين بالرِّسالة؟

ـ لا، لقد قدّمتها للشّرطة منذ عامين.

ـ ولا نسخة منها؟

ـ آسفة. هل تعتقد أنَّها مهمَّة؟

ـ قد تكون كذلك.

ـ بمقدوري محاولة الحصول على نسخة عنها، إذا رغبت في ذلك.

ـ أحسب أنّه لم يَرِدْ منه المزيد من الرسائل، بعد تلك الرِّسالة.

لم يَرِدِ المزيـد من الرسـائل. وهم الآن يشعـرون بأنَّ ستلمان مُهَيَّـأً لـلإخراج من المستشفى. تلك هي وجهـة النَّـظر الـرسميَّـة عـلى أيَّـة حال، وليس هناك ما أستطيع القيام به لإيقافهم. غير أنَّ ما أفكِّر فيه هو أنَّ ستلمان قد وعى الدّرس الذي تلقّـاه. وقد أدرك أنَّ الـرسائـل والتّهديدات من شأنها أن تؤدِّي إلى استمرار إبقائه في المستشفى.

ـ وهكذا، فإنَّك مازِلت تشعرين بالقلق؟

ـ ذلك صحيح.

ـ ولكنْ ليست لديك فكرة دقيقة عمّا يمكن أن تكون عليه خطط ستلمان.

ـ تماماً.

ـ ما الّذي تريدين منّي القيام به؟

ـ أريدك أن تراقبه بعناية، وأريدك أن تكتشف ما هو بصدده، وأريدك أن تُبْعِده عن بيتر.

ـ وبتعبير آخر مهمَّة تتبُّع على نطاق كبير.

ـ أعتقد ذلك.

أحسب أنَّه ينبغي أن تدركي أنَّه ليس في وسعي منع ستلمان من القدوم إلى هذا المبنى. وما أستطيع القيام به هو أن أحذِّرك، فيما يتعلّق بهذا الأمر، وبمقدوري أن أجعل من صميم عملي المجيء معه.

ـ إنَّني أتفهّم هذا مادام هناك نوعٌ من الحماية.

ـ طيِّب. كم عدد المرَّات التي ترغبين في أن أطلعك من خلالها على ما وصلت إليه؟

ـ أودّ أن تقدِّم لي تقريراً كلّ يوم. ولنقل اتّصالاً هاتفيّاً في المساء، حوالي السّاعة العاشرة، أو الحادية عشرة.

ـ لا بأس.

ـ هل هناك شيء آخر؟

ـ مجرّد أسئلة أخرى قليلة. فأنا فضولي، على سبيل المثال، فيما يتعلّق باكتشافك أنَّ ستلمان سيأتي إلى الجراند سنترال غداً مساءً.

ـ لقدَ جلعت معرفة ذلك همّي، يا سيِّد أوستر، فما يتعرّض للمخاطر هنا هو أكثر، بالنّسبة إليّ، من أن أدع الأمر للمصادفة.

وإذا لم يتمّ تعقُّب ستلمان منذ لحظة وصـوله فـإنَّ بمقدوره الاختفـاء في يسر من غير أن يترك وراءه أثراً، ولا أريد أن يحدث ذلك.

ـ أيّ قطار سيستقلّ؟

قطار السّابعة إلاَّ الثلث، الّذي يصل من پاوكيپسي.

ـ أحسب أنَّ لديك صورة فوتوغرافيَّة لستلمان؟

ـ نعم، بالطّبع.

ـ هناك أيضاً مسألة بيتر، وأودّ أن أعرف السرّ في أنَّك أبلغته هـذا كلّه في المقام الأوّل. ألم يكن من الأفضل التزام الصّمت بهذا الشأن؟

ـ لقـد أردت ذلك، لكن تصـادف أن رفـع بيـتر سـمّاعـة الهـاتف الإضافي عندما تلقّيت نبأ إخراج أبيه من المستشفى. ولم يكن هناك ما يمكنني القيـام به في هـذا الشأن، ذلـك أنَّ بيتر يمكن أن يكـون بالـغ العناد، وقد تعلّمت أنه من الأفضل ألاَّ أكذب عليه.

ـ سؤال أخير، من الّذي أشار عليكما باللجوء إليَّ؟

ـ مايكل، زوج السيِّـدة ساڤيـدرا. وكان يعمـل شرطيًّاً، وقـد قام ببعض التحرّيات واكتشف أنَّك أفضل رجل في المدينة في هذا النّـوع من الأعمال.

ـ أخجلتِ تواضعي.

ـ ممَّا رأيته منك حتّى الآن، يا سيِّد أوستر، فإنَّني على يقين من أنَّني قد عثرت على الرّجل المناسب.

حمل كوين هذا على أنَّه إشعار له بالنهوض. وجاء هذا بمثابة نجدة لإراحة ساقيه في النّهايـة. ولقد سـارت الأمور عـلى مايـرام، وأفضل

كثيراً ممّا توقّع. وسرى في جسمه صدى إرهاق لم يعرفه خلال سنوات، ولو أنّه واصل الجلوس أكثر من ذلك لتداعى بالتّأكيد.

قال:

- أتعابي هي مائة دولار يوميّاً، يُضاف إليها المصاريف. وإذا كان في وسعك إعطائي مبلغاً على سبيل المقدّم فإنَّ ذلك سيكون برهاناً على أنّي أعمل لحسابك، الأمر الّذي سيكفل لنا علاقة محقّق بزبونه تتّصف بالتميُّز. وذلك يعني أنَّ كلّ ما نتداوله بيننا سيكون طيّ الكتمان التّام.

ابتسمت فرجينيا سلتمان وكأنّها تشارك في نكتة من نوع خاصّ بها، أو لعلّها كانت تستجيب فقط للمعنى المزدوج المُحْتَمَل لعبارته الأخيرة. وشأن كثير من الأمور التي حدثت له خلال الأيّام والأسابيع التي أعقبت ذلك، لم يستطع كوين التيقّن من أيّ من الأمرين.

سألته:

- كم تريد؟

- لا يهمّ، سأترك ذلك لك.

- خمسمائة؟

- سيكون ذلك أكثر من كافٍ.

- طيّب، سأمضي لجلب دفتر شيكاتي.

قالتها فرجينيا ستلمان وهي تنهض مبتسمة لكوين، وأضافت:

- سأجلب لك صورة والد بيتر أيضاً، أحسب أنّي أعرف مكانها.

شكرها كوين، وقال إنّه سينتظر. وراح يرقبها وهي تغادر الغرفة. ومن جديد ألفى نفسه يتصوَّر ما ستبدو عليه إذا تجرّدت من ثيابها.

وراح يتساءل: هل هي بسبيلها إلى الاقتراب منه على نحو ما أم أنَّ ذهنه يحاول أن يفسد عليه عمله فحسب؟ وقرَّر أن يؤجِّل تأمّلاته، وأن يعود إلى هذا الأمر من جديد، فيما بعد.

عادت فرجينيا ستلمان إلى الغرفة، وقالت:

ـ هوذا الشِّيك. آمل أن أكون قد حرّرته بشكل صحيح.

حدَّث كوين نفسه وهو يفحص الشِّيك: نعم، نعم، كلّ شيء على خير مايرام. كان سعيداً بحذقه. وقد حُرِّر الشِّيك بالطّبع باسم بول أوستر، الأمر الذي كان معناه أنَّه لن يكون هناك بالإمكان تحميل كوين مسؤوليَّة انتحال شخصيَّة تحرٍّ خاصّ من غير ترخيص. وأعاد إليه الثِّقة بنفسه علمه بأنَّه وضع نفسه على نحوٍ ما في موضع لا مجال فيه للاتِّهام. ولم تضايقه الحقيقة القائلة بأنَّه لن يكون بمقدوره صرف قيمة الشِّيك أبداً. وفهم، حتّى في ذلك الوقت، أنَّه لا يقوم بهذا من أجل المال. ودسَّ الشِّيك في جيب سترته الدّاخلي.

قالت فرجينيا ستلمان:

ـ آسفة لعدم وجود صورة أكثر حداثة. وهذه الصّورة تعود إلى أكثر من عشرين عاماً، ولكنَّني أخشى أن تكون أفضل ما في وسعي بَذْلُه.

تطلّع كوين إلى صورة وجه ستلمان، آملاً في ظهور مفاجئ، اندفاع فجائي لمعرفة باطنيَّة تساعده في فهم الرّجل. ولكنَّ الصّورة لم تفصح له عن شيء، فلم تكن أكثر من صورة رجل. وتأمّلها للحظة أخرى، وخلص إلى أنَّها يمكن في يُسْرٍ أن تكون صورة أيّ شخص.

قال، وهو يضعها في الجَيب الذي استقرّ فيه الشِّيك:

ـ لسوف أنظر إليها بمزيد من الإمعان، عندما أصل إلى الدّار. وأنا على يقين من أنّه سيكون باستطاعتي تمييزه في المحطّة غداً واضعاً في الحُسبان قضيّة مرور الزّمن.

قالت فرجينيا ستلمان:

ـ آمل ذلك، فهو أمر مهمّ للغاية، وأنا أعتمد عليك.

قال كوين:

ـ اطمئنّي بالاً، فلم يسبق لي أن خذلت أحداً.

صحبته إلى الباب. ووقفت عنده عدّة ثوان ملتزمة الصّمت، من غير أن تدري ما إذا كان هناك ما يُضاف، أو ما إذا كان الوقت قد حان ليتبادلا التّحيّة. وفي تلك البرهة القصيرة الفاصلة احتضنته فجأة، وسعت بشفتيها إلى شفتيه، وقبّلته في نهم، دافعة بلسانها عميقاً داخل فمه. وأُخِذ كوين على غِرة، حتّى أوشكت متعة اللّقاء أن تفوته.

وعندما استطاع أن يتنفّس من جديد، أمسكت به السيّدة ستلمان على امتداد ذراع منها، وقالت:

ـ كان ذلك لكي أبرهن لك أنَّ بيتر لم يكن يُخبرك بالحقيقة، وأنّه من المهمّ أن تصدّقني.

قال كوين:

ـ إنّني أصدّقك، وحتّى إذا لم أصدّقك، فلا أهميّة للأمر حقّاً.

ـ أردتك أن تعرف فقط ما أنا قادرة على إتيانه.

أمسكت يمناه بيديها وقبّلتها، قائلة:

ـ شكراً لك، يا سيّد أوستر، إنّني أعتقد حقّاً أنّك الشّخص الذي يفي بالغرض.

وعـدها بـالاتّصال بهـا في اللّيلة التاليـة، ثمَّ وجد نفسـه يخرج من الباب، ويهبط بالمصعد، ويغادر المبنى. وعندما مسّت قدمه الطّريق في بداية الانطلاق كان اللّيل قد انتصف.

سبق أن سمع كوين بحالات مماثلة لحالة بيتر ستلمان. فخلال عيشه في ظلّ شخصيَّته الأخرى، وبعد وقت لم يمتدّ طويلاً من ميلاد ابنه، كتب عرضاً لكتاب عن فتى أفيرون المتوحّش، وقام ببعض الأبحاث حول الموضوع في ذلك الوقت. وبقدر ما يسعه التذكّر فإنَّ أوّل صورة مكتوبة لمثل هذه التّجربة قد تضمّنتها كتابات هيرودوتس: فقد قام الفرعون پسماتيك بعزل طفلين وليدين في القرن السابع قبل الميلاد، وأمر الخادم المسؤول عنهما بألّا يتفوّه بكلمة أبداً في حضورهما. ويقول هيرودوتس، وهو مؤرّخ سيّئ الصِّيت فيما يتعلّق بعدم إمكان الاعتماد على ما يَذْكُر، إنَّ الطّفلين قد تعلّما الحديث، وأنَّ أوّل كلمة نطقا بها هي الكلمة الفريجيَّة التي تعني الخبز. وفي العصور الوسطى، كرَّر الأمبراطور المقدَّس الروماني فريدريك الثّاني هذه التّجربة، على أمل اكتشاف «اللّغة الطبيعيَّة» الحقَّة للإنسان، وذلك باستخدام أساليب مماثلة، ولكنّ الطّفلين ماتا قبل أن ينطقا بأيَّة كلمة. وأخيراً، وفيما كان بلا شكّ مجرّد زعم لا صحَّة له، فإنَّ ملك اسكتلندا في أوائل القرن السادس عشر، جيمس الرّابع، ذهب إلى أنَّ أطفالاً عزلوا بالطّريقة ذاتها وانتهى بهم الأمر إلى الحديث «بلغّة عِبْريّة جيِّدة».

غير أنَّ المتهوّسين والمنظِّرين الإيديولوجيين لم يكونوا وحدهم في اهتمامهم بهذا الموضوع. فحتى رجل حكيم ومتشكّك مثل مونتاني[1]

---

(١) مونتاني، ميشال إيكيم (١٥٣٣ ـ ١٥٩٢): الكاتب الأخلاقي الفرنسي الشهير، أبرز =

درس المسألة بعناية، وكتب في أهمّ مقال له تحت عنوان «دفاع عن ريموند سيبوند» يقول: «أعتقد أنَّ طفلاً رُبّي في عزلة تامّة، بعيداً عن كلّ اتّصال (وتلك ستكون تجربة يصعب القيام بها) سيكون لديه نوعٌ من الكلام، ليعبّر به عن أفكاره. وليس ممّا يمكن أن يصدِّق أنَّ الطّبيعة قد أنكرت علينا هذا المورد الذي منحته لكثير من الحيوانات الأخرى... ولكنّه أمر ليس معروفاً بعد نوع اللّغة التي سيتحدّثها هذا الطفل، وما قيل عنها على سبيل التّخمين ليس له الكثير من مظهر الحقيقة».

وفيما وراء مثل هذه التجارب كانت هناك كذلك حالات العزلة بطريق الصدفة، أي حالات أطفال ضلّوا في الغابات، وبحّارة جنحت بهم السّفن إلى جزر، وأطفال قامت الذئاب بتربيتهم، وكذلك حالات الآباء القساة، الساديين، الذين سجنوا أطفالهم، وقيّدوهم بسلاسل إلى أسِرَّتهم، وضربوهم داخل خزّانات، وعذّبوهم لا لسبب إلاَّ خضوعاً لنوبات جنونهم، وقد قام كوين بقراءة في الأدبيّات الهائلة المكرَّسة لهذه القصص. كان هناك البحّار

= أعماله هو كتاب «المقالات» الذي صدرت طبعته الأولى في بوردو عام ١٥٨٠ م، والمقال المشار إليه في المتن جزء من هذا الكتاب، ويُعَدّ من أكثر مقالاته إسهاباً، وفيه دفاع مجيد عن نزعة الشّك، وكان له تأثير بالغ في عدد من المفكِّرين والفلاسفة، مثل بيكون وديكارت. ومن المحقّق أنَّ وصف أوستر لمونتاني بأنّه «رجل حكيم ومتشكِّك» لا يمكن إلاَّ أن يثير الابتسام، فقد كان الشّك أكثر من مجرّد صفة تلصق بمونتاني، لقد كان في الواقع جوهر موقفه الفكري، فقد استعرض مذاهب الفلاسفة القدماء ووجد في النّهاية أنَّ أحراها بالقبول هو مذهب الفورونيين، أتباع فورون مؤسِّس مدرسة الشّكّ في اليونان، والقائل بأنَّ الإنسان عاجز في قرارته وخاوٍ وضعيف.

(هـ. م.)

الاسكتلندي ألكسندر سيلكـريك (يعتقـد البعض أنَّه النّمـوذج الذي صيغ على غراره روبنسون كـروزو) الذي عـاش حوالي أربـع سنوات وحيداً في جزيرة أمام ساحل تشيلي، والذي قـال قبطان السّفينـة التي أنقـذته في ١٠٧٨ م إنَّـه: «نسي إلى حدّ كبـير لغَّته لعـدم استخدامـه إيَّـاها، بحيث أنَّنـا بـالكـدّ استطعنـا فهم ما يقـول». وبعـد أقـلّ من عشرين عاماً، جلب بيـتر الهانـوڤري، وهـو صبيٌّ متوحّش في حـوالي الرابعة عشرة من عمـره تمّ اكتشافـه صامتـاً وعاريـاً، في غابـة خارج مدينة هـانوفـر الألمانيَّـة، إلى محكمة إنجليـزيَّة، وفقـاً لقانـون الحمايـة الخـاصَّة الـذي أصدره الملك جـورج الأوّل. ومنح كـلّ من سويفت وديفو فرصة لقائـه، وأدّت هذه التّجـربة إلى إصـدار كتيب من تأليف ديفو في ١٧٢٦ م بعنوان «التأكّيد على الطّبيعـة المحض». غير أنَّ بيـتر لم يُقدَّر له أن يتعلّم الحديث قط، وبعد عدّة أشهر أُرْسِـل إلى الرِّيف حيث عاش حتّى بلغ السّبعين من عمره، دونما اهتمام بالجنس أو المال أو أيَّة موضوعات دنيويّة أخـرى. ثمَّ كانت هنـاك حالـة فيكتور، فتى أڤـيرون المتوحِّش، الـذي عُثر عليـه في ١٨٠٠ م. وفي ظـلّ العنـايـة الـدائبة والصّبـورة من قبل دكتـور إيتارد، تعلّم فيكتـور بعض مبادئ الحديث، ولكنَّه لم يتقدّم قطّ إلى ما يتجاوز مستوى طفل صغير. وقـد عُرِف على نحو أكبر من فكيتور الفتى كاسبـار هاوسر، الـذي ظهر في أصيل أحد الأيَّام في نورمبرج عام ١٨٢٨ م مرتديّـاً زيّاً فـظيعاً، وبدا بمشقّةٍ قادراً عـلى نطق صـوت يمكن تمييز معنـاه، وقد تمكَّن من كتـابة اسمه، ولكنَّه في كـافَّة المجـالات الأخرى تصرّف كـطفل وليـد. وقد تبنّته المدينة، وعهدت به إلى مدرِّس محـلّي، وأمضى أيَّامـه جالسـاً على

الأرض يلهـو بدمى عـلى شكل جيـاد، من غـير أن يتنـاول إلاّ الخبـز والماء، ومع ذلك فقد تطوّر كاسبار، وأصبح فارساً رائعاً، نظيفـاً على نحو استحواذي، مولعاً بـاللونين الأحمـر والأبيض، وأظهر ذاكـرة فذّة بكلّ المعايير، ولاسيّما بالنّسبة إلى الأسماء والوجـوه، ورغم ذلك فقـد فضّل البقاء داخـل الدّار، وآثـر الابتعاد عن الضّـوء الباهـر، ولم يُبْدِ شأن بيتر الهانوفري، اهتماماً قطّ بالجنس أو المال، ومع استرداده لكافّة ذكريات الماضي تدريجيّـاً تمكّن من تذكّـر كيفيّة قضـائه سنـوات طويلة جالساً على أرضيّة غرفة مظلمة، يقدِّم له طعـامه فيهـا رجل لم يحـادثه قطّ ولم يتـح لـه أن يـراه. وبعـد وقت محــدود من الكشف عن هـذه الأسرار قتـل كاسبـار على يـد رجل مجهـول طعناً بخنجـر في حـديقـة عامّة.

انقضت سنـوات منـذ أن سمـح كـوين لنفسـه بـالتّفكـير في هـذه القصص. فقد كان موضوع الأطفال مؤلماً للغاية بالنّسبة إليه، ولاسيّما الأطفال الذين تعرّضوا للمعاناة أو لسـوء المعاملة، ولقـوا حتفهم قبل أن يكـبروا. وإذا كان ستلمان هـو الرّجـل حامـل الخنجر، وقـد عـاد لينتقم لنفسه من الفتى الّذي سبق أن دمّر حياتـه، فقد أراد كـوين أن يكون هناك لإيقافه. وقد عرف أنّه لا يستطيـع إعادة ابنـه إلى رحاب الحياة، ولكن بمقدوره على الأقلّ أن يحـول دون موت ابن آخـر. لقد أصبـح بمقدوره أخيـراً القيـام بهـذا. وإذ وقف الآن في الشّـارع فقـد لاحت له فكرة ما ينتظره وكأنّها حلم رهيب. فكّر في التابوت الصّغير الّـذي احتوى جثـمان ولده، وكيف رآه في يـوم الجنازة وهـو يُدلّى إلى بـاطن الأرض. وقال لنفسـه إنّ تلك كانت العـزلة، وإنّ ذلـك كـان الصّمت. وربّما لم يكن مصدر عون له أنّ اسم ابنه كان بيتر أيضاً.

- ٥ -

عند ناصيـة الشّارع الثـاني والسّبعين استـوقف سيّارة أجـرة، وفيما كانت السيّارة تنطلق مقعقعة عبر الحديقـة نحو الـوست سايـد، تطلّع كوين إلى خارج النّافذة وراح يتساءل عمّا إذا كانت هذه الأشجار هي ذاتها الأشجار التي رآهـا بيتر ستلمان لـدى خروجـه إلى الهواء والنّور. تساءل عمّا إذا كان بيتر قد شاهـد الأشياء عينهـا التي تقع عليهـا عيناه هو، أو ما إذا كان العالم قد بدا مكاناً مختلفاً بالنّسبة إليه. وإذا لم تكن شجرةً ما هي شجرة حقّاً فقد تساءل عمّا عساها كانته بالفعل.

بعد أن ترجّل كوين من السيّارة، أمام بيته، أدرك أنّه جـائع، فلم يكن قد تناول شيئاً منذ طعام الإفطار في الصّباح الباكر وحدّث نفسـه بأنّه من الغريب أن يمرّ الوقت سريعاً على هذا النّحو في شقّة ستلمان. وإذا صحّت تقديراتـه فإنّـه أمضى هناك أربـع عشرة ساعـة، غير أنّـه أحسّ في أعماقه بأنّه قد بقي هناك ثلاث ساعات أو أربعاً، على أقصى تقدير. وهزّ كتفيه إزاء هـذا التضارب وقـال لنفسه: لا بـدّ لي من أن أتعلّم النّظر إلى ساعتي أكثر ممّا أفعل».

استدار على عقبيه ماضياً في الشّارع مائة وسبعـة، وانعطف يسـاراً عنـد برودواي، وشرع في السّـير مبتعداً عن قلب المـدينة، بـاحثاً عن مكان مناسب يتناول فيه طعامه. لم يرقه اللّيلةَ تناول الطّعام في حانـة ـ الأكل في الظّلام، وضغط الثرثرة السكرى ـ على الرّغم من أنّه كـان من الممكن عادة أن يرحّب بذلك. وفيـما هو يعـبر الشّارع مـائة واثني عشر، رأى أنّ مـطعم «هـايتس» لتنـاول الـوجبـات الخفيفـة مـازال مفتوحاً، وقرّر دخوله. كان مكاناً كئيباً، رغم أنّه بـاهر الإضـاءة، به

رفّ على أحد الجدران عليه مجلّات تضمّ صور فتيات في مقتبل العمر، ومساحة مخصَّصة للتزويد بالأدوات المكتبيَّة، ومساحة أخرى للصّحف، وموائد عديدة للزبائن الدّائمين، ومنضدة طويلة مكسوَّة بالفورمايكا وأمامها مقاعد دوّارة. وقف رجل طويل القامة من أبناء بورتوريكو، يعتمر قبّعة طهاة مصنوعة من الورق المقوّى، وراء المنضدة. وكان عمله إعداد الطّعام الذي يتألّف بصفة أساسيَّة من فطائر هامبرجر مليئة بالغضاريف، وشطائر هشَّة محشوَّة بالطماطم الشّاحبة اللّون، والخسّ الذابل، بالإضافة إلى الفواكه المخفوقة مع اللّبن، والزبد المخفوق مع البيض، والكعك. وإلى يمينه، محشوراً وراء مسجِّل المدفوعات النقديَّة، كان صاحب المطعم، وهو رجل صغير الجِرْم، أصلع، يبدو ما تبقّى من شعره مجعَّداً، ويبدو رقم إيداع بمعسكر اعتقال منقوشاً بطريق الوشم على ساعده، ويطلّ مهيمناً على مملكته الخاصَّة من السّجائر، والغلايين وأنواع السيجار. وقد قبع هنالك في سلبيّة، يقرأ الطّبعة اللّيليَّة من صحيفة «ديلي نيوز» التي تصدر مبكّرة، قبل سائر الطّبعات الصّباحيَّة لليوم التالي.

لاح المكان مقفراً تقريباً في تلك السَّاعة. وحول المائدة الخلفيَّة جلس عجوزان يرتديان ثياباً مهلهلة، أحدهما بدين للغاية، والآخر شديد النحول، وقد عكفا بمزيد من الاهتمام على قراءة تشكيلات سباق الخيل، واستقرّ قدحا قهوة فارغان بينهما على المائدة. وفي الجزء الأمامي، في مواجهة رفّ المجلّات، وقف طالب شابّ وفي يديه مجلّة مفتوحة، وهو يحدِّق في صورة امرأة عارية. جلس كوين قبالة المنضدة، وطلب هامبرجر وقهوة. وإذ تحرَّك رجل المنضدة لتلبية طلبه فقد خاطبه متلفتاً:

ـ هل شاهدت مباراة اللّيلة؟
ـ لقد فاتتني. هل هناك أخبار طيِّبة؟
ـ ماذا تعتقد؟

على امتداد سنوات طويلة كان كوين يتبادل الحوار نفسه مع هذا الرّجل الذي لم يكن يعرف اسمه. فقد تحادثا، عندما دخل المطّعم للمرّة الأولى، عن البيسبول، والآن، في كلّ مرّة يدخل فيها كوين المكان، يواصلان الحديث والذكريات. وخلال الموسم يدور الحديث دائماً حول أحدث المباريات. وكانا معاً من مشجّعي فريق الميتس، وقد خلق عدم التخلّي عن هذه الهواية رابطة مشتركة بينهما.

هزّ رجل المنضدة رأسه، وقال:

ـ أوّلاً، هناك مرّتان من مرّات الانطلاق قدماً، وقد أطلق «كينجمان» كرتين صاروخيتين بمجهود فردي. بوم. بوم. يا لهما من رميتين ـ كأنّهما قطعتا الطّريق إلى القمر! ولمرّة يقوم جونز بالرِّماية بصورة طيّبة، ولا تبدو الأمور شديدة السُّوء. النتيجة اثنان لواحد، بعد الرمية التّاسعة. يحصل بيتسبرج على الرّجال في التغيير الثاني والثّالث، وبعد القيام بالتغيير الأوّل، ولذا يمضي فريق الميتس إلى مكان الاحتياطي لدفع «آلان» للّعب. وينطلق باعتباره الرّجل التالي ليدفع الفريق قدماً. ويقلب فريق الميتس الدّنيا رأساً على عقب لتشكيل قوّة على أرضه، أو ربّما يكون بمقدورهم إنجاز اللّعبة المزدوجة، إذا ما ألقيت الكرة في المنتصف. يتقدَّم «بينا» وما يلبث أن يتراجع على نحوٍ مخجل، ويمضي اللّعين بين ساقي كينجمان. يسجّل رجلان أهدافاً، وذلك كلّ ما هناك، ووداعاً يا نيويورك!

قال كوين، وهو يقضم الهامبرجر:

ـ ديف كينجهان سيّئ للغاية.

قال رجل المنضدة:

ـ ولكن حذار من فوستر!

قضم كوين طعامه بعناية، متلمِّساً بطرف لسانه ما إذا كانت هناك بعض البقايا المتناثرة، وقال:

ـ لقد مضى فوستر مع التيّار، وأصبح في عداد الماضي، مجرّد سكّير وضيع الملامح، ينبغي عليهم شحنه وإعادته إلى سينسناتي بالبريد السّريع.

قال رجل المنضدة.

ـ نعم، ولكنّهم سيكونون أشدّاء، أفضل من العام الماضي على أيّة حال.

قال كوين، متناولاً قضمة أخرى:

ـ لا أدري. يبدو الأمر جيّداً على الورق. ولكن ماذا لديهم حقّاً؟ إنّ «ستيرنز» يصاب دائماً، ولديهم لاعبون من الدوري الأقلّ درجة في الاحتياطي ولسدّ العجز. و«بروكس» لا يستطيع التّركيز على اللّعب. «موكي» لاعب جيِّد، ولكنّه لم يُصْقَل بعد، وهم ليس في وسعهم حسم رأيهم فيما يتعلّق بمن يوضع في المكان الصّحيح. ومايزال هناك «راستي» بالطّبع، ولكنّه أكثر ترهُّلاً من أن يعدو. وأمّا فيما يتعلّق بالرّماية فينبغي أن تنسى الأمر، فمبقدورنا معاً أن نمضي إلى شيا غداً ونحصل على عقدين، باعتبارنا اللاّعبين الرئيسيين اللّذين يستهلاّن اللّعب.

قال رجل المنضدة:

ـ قد أجعل منك مديراً، ويمكنك أن تقول لهؤلاء الملاعـين إلى أين يمكنهم الذّهاب.

قال كوين:

ـ تستطيع أن تراهن على ذلك بآخر دولار في جيبك.

بعـد أن انتهى كـوين من تنـاول طعـامـه مضى إلى رفّ الأدوات الكتابيّة وكانت شحنة من الكرّاسات الجديدة قد وصلت، وبدا شكل الكومة مؤثّراً، في صورة حشد من الألوان الزرقاء والخضراء والحمراء والصفراء. والتقط كرّاسة فرأى أنّ الصّفحات تضمّ السّطور الضيِّقة التّسطير التي يفضّلها. وكان ينجز كلّ كتابـاته بـالقلم، ولا يستخدم الآلة الطّابعة إلاّ في إعداد المخطوط النّهائي، وكان يبحث على الدّوام عن كرّاسات جيِّدة، متقاربة السّطور. والآن، وقد استهلّ العمـل في قضيّـة ستلمان، فقـد شعـر أنّ شراء كـرّاسـة جـديـدة سيكـون من مقتضيات الحال، وسيكـون ممّا يعـاونه عـلى ترتيب أفكـاره أن يوجـد موضع منفصل يسجّل فيه خواطره وملاحظاته وأسئلته. وقد لا تخرج الأمور بهذه الطّريقة عن سيطرته.

ألقى نظرة على كـومة الكـرّاسات محـاولاً الوصـول إلى قرار بشـأن الكرّاسة التي سيأخذها. وشعر فجأة، لأسباب لم يُقَـدَّر لها أن تتضـح قطّ، بدافع لا يقاوم لالتقاط كـرّاسة حمـراء بعينها مـوجودة في أسفـل الكومة. وانتزعها من مـوضعها، وراح يفحصهـا، متصفّحاً إيّـاها في نشـاط بإبهـامه. وعجـز عن أن يوضّـح لنفسه السبب في أنّـه يجـدهـا جذّابة للغاية على هذا النحو. كانت كرّاسة من النّوع القياسي الـذي

يبلغ طوله إحدى عشرة بوصة، وعرضه ثماني بوصات ونصف البوصة، ويضمّ مائة صفحة. ولكن شيئاً ما فيها قد اجتذبه، فيما يبدو، وكأنّما كان قدرها الوحيد في الدّنيا أن تضمّ الكلمات التي يسطّرها قلمه. وإذ أوشك على الشّعور بالحرج حِيال حدّة مشاعره، فقد دسّ الكرّاسة تحت ذراعه، ومضى إلى مسجّل المدفوعات النقديّة، وابتاعها.

إثر عودة كوين إلى شقّته، بعد ذلك بربع السّاعة، أخرج صورة ستلمان والشيك من جيب سترته، ووضعهما بعناية على مكتبه. وأزاح البقايا عن سطح المكتب - أعواد ثقاب مستخدمة، أعقاب سجائر، نثار رماد، أنابيب حبر مستنفدة، بضع قطع عملة معدنيّة، أَرُومات بطاقات سفر، رسوم عابثة صورت خلال الاستغراق في التّفكير، منديل متّسخ - ووضع الكرّاسة الحمراء في الوسط. التقط قلمه وكتب الحروف الأولى من اسمه، د. ك (اختصاراً لدانييل كوين) على الصّفحة الأولى. كانت تلك هي المرّة الأولى، طوال ما يزيد على خمس سنوات، التي كتب فيها اسمه على إحدى كرّاساته. ثمّ توقّف لحظة يتأمّل هذه الحقيقة، ولكنّه مالبث أن نحّاها جانباً، باعتبارها لا أهميّة لها. وقلب الصّفحة، وراح يدرس بياضها للحظات، متسائلاً عمّا إذا لم يكن أحمق بلا حدود. ثمّ دفع بقلمه إلى السّطر الأعلى، وكتب المادّة الأولى في الكرّاسة:

وجه ستلمان. أو: وجه ستلمان على نحو ما كان قبل عشرين عاماً. من المستحيل معرفة ما إذا كان الوجه سيحاكيه غداً أو لا. غير أنّه من المؤكّد أنّه ليس وجه مجنون. أم أنّ هذا ليس إيضاحاً قانونيّاً؟

بالنّسبة لعيني على الأقلّ يبدو الوجه بعيداً عن الإيحاء بالخطر، إن لم يكن رقيقاً بصورة جليّة، بل إنَّ هناك لمسة من الرّقة تحيط بالفم. وأكثر من محتمل أنَّ العينين زرقاوان، تميلان إلى التندّي بالدّمع. وشعر ناحل حتّى ذلك الوقت، ربّما وصل إلى حدّ الصلع الآن، وما بقي منه غدا رماديّاً وربّما أبيض. وهو يبدو مألوفاً، على نحوٍ غريبٍ، من النّوع الذي يميل إلى التأمّل، مشدود الأعصاب، شخص قد يتعثّر في حديثه، يجالد نفسه لقمع فيضان الكلمات الذي يتدفّق من فمه.

بيتر الصّغير. هل من الضّروري بالنّسبة إليَّ أن أتخيّل الأمر، أم أنَّ بمقدوري تقبّله على علّاته؟ الظّلام. أن أفكّر في نفسي، وقد قبعتُ في تلك الغرفة صارخاً. إنّني متردّد حِيال الأمر. بل لا أحسب أنّني أرغب في فهمه. سعياً وراء أيّة غاية؟ تلك ليست القصّة، في نهاية المطاف. إنّها حقيقة، شيء يحدث في الدّنيا، ويفترض أن أقوم بمهمّة، أمر واحد محدود، وقد قلت نعم، سأنجزه. وإذا مضى كلّ شيء على مايرام فسيكون الموضوع بسيطاً للغاية، فلم تتمّ الاستعانة بي لكي أفهم، وإنّما لكي أعمل فحسب. هذا شيء جديد، ينبغي وضعه موضع الاعتبار بأي ثمن.

ومع ذلك، ما هذا الذي يقوله دوبين عند پو[1]؟ «تطابق ذهن المتأمّل مع ذهن خصمه». ولكن ها هو هذا القول ينطبق على ستلمان الأب، وهو أمر قد يكون أسوأ كثيراً.

---

(١) پو، إدجار آلان (١٨٠٩ ـ ١٨٤٩): القاصّ والشّاعر والنّاقد الأمريكي أصدر ديوانه الأوّل «تيمورلنك وقصائد أخرى» من ١٨٢٧ م وديوانه الثاني «الأعراف» في ١٨٢٩ م =

أمَّا فيما يتعلّق بفرجينيا فإنّني في حيرة من أمرى. لا يرجع ذلك إلى القبلة وحدها، وقد يمكن تفسيرها بأيّ عدد من الأسباب، ولا ما قاله بيتر عنها، وهو ما لا أهميّة له. زواجها؟ ربّما. عدم التوافق الكـامل. ترى هل يمكن أن تكون ضالعة في الأمر من أجل المال؟ أم أنّها تعمل على نحو من الأنحاء بالتواطؤ مع ستلمان؟ ذلك من شأنه أن يغيّر كـلّ شيء. ولكن ذلك، في الوقت نفسه، لا معنى له. لمـاذا استعانت بي؟ لكي يكون لديهـا دليل عـلى نوايـاها الحسنـة الواضحـة؟ ربّما. ولكن ذلـك يبدو شـديد التعقيـد. ومع ذلـك: لماذا أشعـر بـأنّها ليست من النّوع الذي يوثَق به؟

وجه ستلمان، مرّة أخرى. فكّرت في خلال الدّقائق القليلة في أنّني سبق لي أن رأيته. ربّما قبل سنوات في الحي، قبـل وقت إلقاء القبض عليه.

أن أتذكّر الشّعور الناجم عن ارتـداء ملابس الآخـرين. أعتقد أنّ البدء يكون بذلك. أحسب أنّـه لا بدّ من ذلـك. في الأيّام الخـوالي، قبـل ثمانيـة عشر أو عشرين عامـاً، عندمـا لم يكن لديّ مـال، وكـان

= والثّـالث «الغُداف وقصـائد أخـرى» في ١٨٤٥ م. ضمّت مجموعتـه القصصيّة الأولى قصصـاً نشرت في المجلّات مـا بين عـاميّ ١٨٣٩ و١٩٤٠ م وهي بعنوان «حكـايات الغرائب والعربسـات» ومن أشهر أعماله كذلك «فلسفة التّأليف» الصـادر في ١٨٤٦ م و«المبدأ الشّعري» الصـادر في ١٨٥٠ م. نال شهـرة مدويـة ولاسيّما بعـد وفاتـه، وكان من المعجبين به: بودلير، وايلد، روستي، بيتل، فرويد، وغيرهم. والكتاب المقتطف من المتن «دوبـين» صدر في العـام ١٨٤١ م، ولفت الأنظار بغـرابة الغـازه، وإحكـام نسج قصص التحرّي بشكل خاص.

(هـ. م.)

الأصـدقاء يمنحـونني ملابس لأرتـديها. معـطف «جي»، عـلى سبيـل المثـال، في الكليّة. والشّعـور الغريب الـذي يساورني بـأنّني أتسربـل بجلده. ربّما كانت تلك البداية.

ثمَّ الأمر الأهمّ: تذكـر من أكون. «تـذكُّر من يُفـترض أن أكون. لست أحسب أنَّ تلك لعبة. ومن ناحيـة أخرى، مـا من شيء يستمرّ بـالوضـوح. على سبيـل المثال: من عسـاك تكون؟ وإذا كنت تحسب أنّـك تعرف لمـاذا تواصـل الكـذب فيـما يتعلّق بـالأمـر؟ ليست لـديّ إجابة. وكـلّ ما أستـطيع قـوله هـو ما يـلي: أَصغِ إليَّ! اسمي بـول أوستر، وذلك ليس اسمي الحقيقي.

- ٦ -

أمضى كـوين صباح اليـوم التالي في مكتبـة كـولـومبيـا مـع كتـاب ستلمان. وصل مبكراً، وكان أوّل شخص هناك لـدى فتح الأبـواب. وأدخل الصّمت الذي ساد القاعات المرمريّة الارتياح إلى نفسه، وكأنّه سمح له بدخول سرداب للنسيان. وبعد أن قام، على نحـوٍ عاجـل، بإطلاع المشرف، الجالس إلى مكتبه وقـد أخذه النعـاس، على بـطاقة تخرّجه، التقط الكتاب من أكداس الكتب، وعاد إلى الطّابق الثّالث، ثمَّ استقرّ في مقعد جلدي أخضر، وثير، في إحدى قاعات التـدّخين. وتألّق صباح أيَّار (مايو) المنير في النـماذج وكأنَّـه إغواء ودعـوة للتجوّل دونما هدف في الهـواء الطلق، ولكنَّ كـوين قاومـه وأدار المقعد بحيث جعل ظهره إلى النّافذة، وفتح الكتاب.

كان كتاب «الفـردوس والبرج: التصـوّرات الأولى للعالم الجـديد» مقسَّـماً إلى قسمين متسـاويين في الـطّول، على وجـه التّقريب، همـا: «أسطورة الفردوس» و«أسطورة بابـل». وتركّـز الأوّل على اكتشـافات المكتشفـين، ابتـداء من كـولـومبس واستمـراراً حتّى راليـج. وذهب ستلمان إلى القول بأنَّ أوّل من زاروا أمـريكا كـانوا يعتقـدون أنّهم قد عثروا مصادفـة على الفـردوس، على «جنَّة عدن» ثـانية. فعـلى سبيل المثـال كتب كولـومبوس في سرده لـرحلته الثّـالثة يقـول: «ذلـك أنّني أعتقد أنَّ الفردوس المفقود يقع هنا، وما من أحد يستطيـع دخولـه إلاّ بـأمر الـربّ». وأمّا فيـما يتعلّق بأهـل هـذه الأرض فـإنَّ بيـتر مـارتـير سيكتب في وقت مبكر يعود إلى عام ١٥٠٥ قائلاً: يبدو أنّهم يقـطنون

في ذلك العالم الذهبيّ الذي يتحدَّث عنه الكتَّاب القدامى كثيراً، والذي يحيا فيه البشر ببساطة وبراءة من غير تطبيق للقوانين، ولا قضاة لحسم المنازعات، ولا منازعات قضائيَّة، قانعين بإرضاء الطّبيعة». أو على نحو ما سيكتب مونتاني الدّائم الحضور، بعد ذلك بأكثر من نصف قرن: «في رأيي أنَّ ما نراه بالفعل في تلك الأمم لا يتجاوز كلّ الصور التي رسمها الشّعراء عن العصر الذّهبي فحسب، وكلّ ابتكاراتهم الممثِّلة للحالة السّعيدة عندئذٍ للبشريَّة، وإنَّما كذلك مفهومَ الفلسفة ذاتها ورغبتَها». ويقول ستلمان إنَّه منذ البداية نفسها فإنَّ اكتشاف العالم الجديد كان الدّافعَ المعجِّل بالفكر الطوباوي، والشرارةَ التي منحت الأمل لقابليَّة الحياة الإنسانيَّة للكمال، من كتاب توماس مور الصّادر في ١٥١٦ حتّى نبوءة جيرونيمو دي ميندييتا القائلة بأنَّ أمريكا ستصبح دولة ثيوقراطيَّة مثاليّة، مدينة حقيقيَّة للربّ.

غير أنَّ هناك وجهة معارضة. وإذا كان بعض النّاس ينظرون إلى الهنود باعتبارهم يعيشون في براءة ما قبل السّقوط، فقد كان هناك آخرون حكموا عليهم بأنَّهم حيوانات متوحِّشة، وشياطين في إهاب بشر. ولم يؤدِّ اكتشاف أكلة لحوم البشر في الكاريبي إلى التخفيف، من حدّة هذا الرأي، واستخدم الإسبان هذا الاكتشاف كمُبرِّر لقيامهم باستغلال السكّان المحلّيين بلا رحمة، تحقيقاً لأغراضهم التّجاريَّة، ذلك أنَّك إذا لم تعتبر الإنسان الماثل أمامك كائناً بشريّاً، فلن تكون هناك إلاَّ كوابح محدودة تسيطر على سلوكك نحوه. ولم يتمّ اعتبارُ الهنود بشراً حقيقيين لهم أرواح إلاَّ في عام ١٥٣٧ مع المرسوم البابوي الذي أصدره البابا بولس الثّالث. ورغم ذلك فقد استمرّ الجدال

طوال عدّة مئات من السِّنين، ووصل من ناحية إلى ذروته في «المتوحِّش النّبيل» عند لوك وروسو ـ الأمر الذي أرسى الأسس النظريَّة للديمقراطيَّة في أمريكا مستقلة ـ ومن ناحية أخرى الحملة الرّامية إلى القضاء على الهنود، وفي الاعتقاد الذي لم يمت بأنَّ الهنديّ الجيِّد الوحيد هو الهنديّ الميت.

واستهلّ القسم الثاني من الكتاب بتمحيص جديد لفكرة السّقوط. وذهب ستلمان، معتمداً إلى حدّ كبير على ميلتون[1] والصّورة التي رسمها في «الفردوس المفقود» ـ باعتبارها تمثّل الموقف التطهُّريّ الأصليّ ـ إلى القول بأنَّ الحياة البشريَّة على نحو ما نعرفها لم تظهر للوجود إلاَّ بعد السّقطة فحسب، ذلك أنَّه إذا لم يكن هناك شرّ في

(١) ميلتون، جون (١٦٠٨ ـ ١٦٧٤ م): الشّاعر البريطاني الشّهير، ولد في بريد ستريت، بتشيبسايد، وتلقّى تعليمه في مدرسة سانت بول وكريست كوليج في جامعة كامبردج. يتردَّد أنَّه أنجز رائعته المشار إليها في المتن «الفردوس المفقود» في العام ١٦٦٣ م، ولكن من الثابت أنَّه لم يوقّع عقد حقوق عوائد نشرها إلاَّ في ١٦٦٧ م، وإن كان من المعروف أنَّه قد أطلع ابن أخيه على مقاطع من الكتاب الرّابع منها في العام ١٦٤٢ م، وتشير كرّاساته إلى أنَّه فكّر في تأليف عمل إبداعيّ شامل من هذا النّوع في وقت أكثر تبكيراً من ذلك. وعلى الرّغم من الاعتراف المبكّر به كعبقري في الشّعر والنثر على حدّ سواء، إلاَّ أنَّ شهرته تستند أساساً إلى «الفردوس المفقود». وقد تأثّر به شعراء القرن الثامن عشر ونقّاده، ولكن حتى في تلك الفترة كانت هناك انتقادات عديدة له ولها، وقد ردَّد تي. إسّ. إليوت صدى انتقادات جونسون وأديسون في ١٩٣٦ م، عندما هاجم ميلتون بضراوة، إلى حدّ القول بأنَّ نزعته الحسيَّة أودت بها قراءاته، وقضى عليها عماه، وأنَّه كان يكتب الإنجليزيَّة كلغة ميتة، وقد عدّل وجهات نظره تلك في وقت لاحق، ومازال ميلتون يثير الخلاف حتى اليوم، وربّما كان هذا هو الدّليل الأقوى على عبقريّته الحقيقيَّة.

(هـ. م.)

الجنَّة فليس هناك أيّ خير. وكما عبّر ميلتون بنفسه «من قشرة تفّاحة واحدة جرى تذوُّقها ظَهَر الخير والشرّ في الدّنيا، كتوأمين ملتصقين».

وقد جاء تعليق ستلمان على هذه الجملة مسهباً إلى حدّ كبير. فهو إدراكاً منه لإمكانيّة استخدام التوريات والتّلاعب بالكلمات أوضح كيف أنَّ كلمة «تذوّق Taste» هي بالفعل إشارة إلى الكلمة اللاتينيَّة «Sapere» التي تعني في آن واحد «يتذوّق» و«يعرف» ومن هنا فإنَّها تتضمّن إشارة باطنيَّة إلى شجرة المعرفة: مصدر التفّاحة التي جلب مذاقها المعرفة إلى العالم، وهو ما يعني الخير والشرّ. وركَّز ستلمان كذلك على أحجية كلمة «Cleave يلتصق» التي تعني «الاتّصال» و«الانقسام» وتجسّد على هذا النحو معنيين متساويين ومتعارضين، الأمر الذي يجسّد بدوره وجهة نظر في اللّغة وجد ستلمان أنَّها ماثلة في كلّ أعمال ميلتون. ففي «الفردوس المفقود» على سبيل المثال لكلّ كلمة رئيسيَّة معنيان، معنى قبل السّقوط وآخر بعده. وليوضح ستلمان ما يقصده قام بعزل كثير من تلك الكلمات: Sinister وتعني شرّير أو منحوس، Serpentine وتعني أفعواني أو شيطاني، delicious وتعني مبهج أو شهيّ ـ وأوضح أنَّ استخدامها السّابق للسقوط كان خالياً من الإشارات الأخلاقيَّة، بينما استخدامها بعد السّقوط كان واقعاً في الظِّلال، وملتبساً، وترفده المعرفة بالشرّ. ولقد كانت مهمّة آدم الوحيدة في الجنَّة هي أن يخترع اللّغة، وأن يخلع على كلّ مخلوق أو شيء اسمه. وفي حالة البراءة تلك فإنَّ لسانه كان يمضي قدماً ليواكب العالم في سرعته. ولم تكن كلماته لصيقة فقط بالأشياء التي يراها، وإنَّما كشفت كذلك جوهر هذه الأشياء، وجلبتها إلى رحاب الحياة بالمعنى

الحرفيّ. فالشيء واسمه أمران يمكن أن يحلّ أحدهما محلّ الآخر. وبعد السّقوط لم يعد هذا صحيحاً، وإنّما انفصلت الأسماء عن الأشياء، وانتقلت الكلمات إلى مجموعة من العلامات التعسّفيّة، إذ فُصلت اللّغة عن الربّ. ومن هنا فإنّ قصّة الفردوس لا تسجّل فقط سقوط الإنسان، وإنّما سقوط اللّغة أيضاً.

وفي أواخر سِفْر التّكوين هناك قصّة أخرى عن اللّغة. ويقول ستلمان إنّ قصّة برج بابل هي إعادة صياغة دقيقة لما حدث في الفردوس، ولكن مع توسيع نطاقها وجعلها عامّة في مغزاها لتشمل البشريّة بأسرها. وتتخذ القصّة معنى خاصّاً عندما يتمّ تدبّر موضعها في السِفْر: الإصحاح الحادي عشر من سِفْر التّكوين الآيات من الأولى إلى التّاسعة. وهذه هي الحادثة الأخيرة، على وجه التّحديد، من حوادث ما قبل التّاريخ في الإنجيل. فبعد ذلك يأتي العهد القديم ليكون حصراً سرداً لقصص العبرانيين. وبتعبير آخر فإنّ برج بابل ينهض باعتباره الصّورة الأخيرة قبل البداية الحقّة للعالم.

واستمرّت تعليقات ستلمان صفحات كثيرة، وقد بدأ بمسح تاريخيّ للتقاليد التفسيريّة الكثيرة المتعلّقة بالقصّة، وفصّل القول فيما يتعلّق بالأخطاء الكثيرة في القراءة التي دارت حولها، وانتهى بإيضاح مطوّل للأساطير ابتداء من «أجّاده» (وهي خلاصة وافية من التّفسيرات الحاخاميّة لا ترتبط بالموضوعات القانونيّة). وكتب ستلمان يقول إنّه جرى بصفة عامّة القبول بأنّ البرج قد بني في حوالي عام ١٩٩٦ بعد الخلق. أيّ مجرّد ثلاثمائة وأربعين عاماً بعد الفيضان «لئلا نتبدّد على

وجه كلّ الأرض»[1]. وقد جاء العقاب الذي أنزله الله كاستجابة لهذه الـرّغبة التي تنـاقضت مع وصيّـة وردت قبل ذلـك في سِفْـر التّكـوين «أثمروا واكثروا وامـلأوا الأرض وأخضعوهـا» وذلك بتـدمير الـبرج، ومن ثمّ فإنّ الربّ قد قضى على الإنسان بطاعة وصيّته. غـير أنّ قراءة أخرى رأت في البرج تحدّياً للربّ. وقد حُدِّد نمرود، أوّل حاكم للعالم بأسره، باعتباره مصمّم البرج: فقد أريد لبابل أن تكـون مزاراً يـرمز إلى شموليّة سلطته. وقد كانت تلك هي الرؤية البروميثيـوسيّة للقصّـة، وهي معلّقـة على العبـارات التاليـة: «هلمّ نبنِ لأنفسنا مـدينة وبـرجاً رأسـه بالسّماء» و«نصنع لأنفسنـا اسماً» وأصبـح بنـاء الـبرج الـرّغبـة الاستحواذيّة الجـارفة التي سيـطرت على البشر، وغـدت أكثر أهمّيّـة، حتى من الحيـاة ذاتهـا. وأصبحت كتـل الآجـرّ أعـلى من البشر. ولم تتـوقّف النسوة العـاملات عن العمـل، حتى لـولادة أطفـالهنّ، وإنّمـا أودعن الأطفـال المولـودين لتـوّهم في ميـدعـاتهنّ، وواصلن العمـل. وكانت هناك فيـما يبدو ثـلاث مجموعـاتٍ مختلفةٍ عـاكفةٍ عـلى العمل: أولئك الّذين رغبوا في أن يقطنوا السّماء، وأولئـك الّذين رغبـوا في أن يحاربوا الربّ، وأولئك الّذين أرادوا عبادة الأصنام. وفي الوقت نفسه فقد اتّحدت المجموعات الثـلاث في جهودهـا، «وكانت الأرض كلّهـا لساناً واحـداً ولغة واحـدة» وأثارت القـوّة الباطنيّـة للبشريّـة الموحّـدة سخط الربّ «وقال الربّ هو ذا شعب واحد ولسان واحـد لجميعهم،

(١) ترجمت كافّة النصوص من الكتـاب المقدّس بمـراجعة طبعـة جمعيّة الكتـاب المقدّس في الشرق الأدنى، الصادرة في ١٩٧٧ م.

(هـ.م.)

وهـذا ابتداؤهم بـالعمـل، والآن لا يمتنـع عليهم كـلّ مـا ينـوون أن يعملوه». وهذا الطّرح هو صدى واعٍ لكلماتِ الرّب لدى طرده لآدم وحوّاء من الفردوس «وقال الرّب الإلهُ هو ذا الإنسان قد صار كواحد منّـا عارفـاً الخير والشّر، والآن لعلّه يمـدّ يده ويـأخذ من شجـر الحياة أيضاً ويأكل ويحيا إلى الأبد فأخرجه الرّب الإله من جنّـة عدن» ورغم ذلك فقد ذهبت قراءة أخرى إلى أنَّ القصَّـة قد قصـد بها فحسب أن تكـون طريقـة لإيضاح تنـوّع الشّعوب واللّغـات. ذلك أنّـه إذا كـان البشر جميعـاً قـد انحــدروا من آدم ومن بنيـه، فكيف يمكن تعليــل الخلافات الكبـيرة بين الثّقـافات؟ وذهبت قـراءة مماثلة إلى أنَّ القصَّـة كانت تفسيراً لوجود الوثنيَّة وعبـادة الأصنام ـ ذلـك أنَّه حتى الـوصول إلى هــذه القصَّـة يتمّ بتقـديم البشر جميعــاً بحسبــانهم من معتنقي التّـوحيد. وأمّـا فيما يتعلّق بـالبرج ذاتـه فإنَّ الأسـطورة تذهب إلى أنَّ ثلث البناء قد غاص في الأرض، وأنَّ الحريق قد أتى على ثلث آخـر، وترك ثلثاً قـائماً. وقـد هاجمـه الرّب بـطريقتين؛ لإقنـاع الإنسان بـأنَّ الدّمارعقاب إلهيّ، وليس ناجماً عن المصادفة. ومع ذلـك فإنَّ الجـزء الباقي كان من الارتفاع بحيث تبدو شجرة النّخيل من أعـلاه جندبـاً صغيراً. وقد قيل كذلك إنَّ في وسع الشّخص أن يسـير ثلاثـة أيَّام في ظلّ البرج دون أن يغادره. وأخيراً ـ وقد ركّز ستلمان على ذلك كثيراً ـ فـإنَّ من كان يتـطلّع إلى أطلال الـبرج كان يعتقـد أنَّـه ينسى كـلّ مـا عرفه.

لم يستطع كوين أن يحدِّد علاقة هذا كلّه بالعالم الجـديد. ولكن في ذلك الموضوع بدا فصل جديـد. وعلى حـين غِرَّة راح ستلمان ينـاقش

حياة هنري دارك، وهو قسّ من قسس بوسطن، ولد في لندن عام ١٦٤٩ م (في اليوم الذي تمّ إعدام تشارلز الأوّل خلاله) وقدم إلى أمريكا في ١٦٧٥ م، ولقي حتفه في الحريق الذي شبَّ في كامبردج بولاية ماساشوستس في ١٦٩١ م.

يقول ستلمان إنَّ هنري دارك عمل في شبابه سكرتيراً خاصّاً لجون ميلتون - من ١٦٦٩ م حتى وفاة الشّاعر، بعد ذلك بخمس سنوات. وكان ذلك أمراً جديداً بالنّسبة لكوين، فقد بدا له أنّه يتذكّر أنّه قرأ في أحد المواضع أنَّ ميلتون الضّرير كان يُملي أعماله على إحدى بناته. وعلم أنَّ دارك كان بيوريتانيّاً مشتدِّداً درس اللاّهوت وكان من أنصار أعمال ميلتون المتحمِّسين. وبعد أن قابل بطله في ملتقى صغير في إحدى الأمسيات، دُعي لزيارة دار ميلتون في الأسبوع التالي، وأدّى ذلك إلى المزيد من الزيارات، إلى أن بدأ ميلتون بالفعل يثق في دارك، ويعهد إليه ببعض المهامّ اليسيرة، مثل كتابة ما يُملي عليه، أو المضيّ بالشّاعر الضّرير في شوارع لندن، أو قراءة أعمال القدماء على مسامعه. وفي خطاب يرجع إلى عام ١٦٧٢ م كتبه دارك إلى شقيقته في بوسطن أتى على ذكر مناقشات دارت مع ميلتون حول النقاط الأكثر دقّة في تفسيرات الإنجيل، ثمَّ مات ميلتون، وشعر دارك بحزن قاهر. وبعد ستّة أشهر، وإذ ألفى إنجلترا صحراء قاحلة بالنّسبة له، وأرضاً لا تقدّم له شيئاً، فقد قرَّر الهجرة إلى أمريكا. ووصل إلى بوسطن في صيف ١٦٧٥ م.

لم يُعرف الكثير عن سنواته الأولى في العالم الجديد. وقد تكهّن ستلمان بأنّه ربّما كان قد رحل غرباً، منطلقاً إلى أرض لم توقّع على

خرائط، غير أنّه لم يمكن العثور على برهـان حاسم يؤيِّـد وجهة النّـظر هذه. ومن ناحية أخرى فإنَّ إشارات معيَّنة في كتابات دارك قد لّمحت إلى معرفة وثيقة بعادات الهنود، الأمر الذي مضى بستلمان إلى النظريّة القائلة بأنَّ دارك يحتمل أن يكون قد عاش بين ظهراني إحـدى قبائـل الهنود لفترة من الوقت، ولكنْ مهما كان الأمر، فيما يتعلّق بذلك، فلم تكن هنـاك إشارة علنيَّـة لدارك حتى ١٦٨٢ م عنـدما أُدرج اسمـه في سجلّ الزوّاج في بـوسطن بـاعتباره متـزوِّجاً بمن تُـدعى لوسي فيتس. وبعد عامين أُدرج في السجلّات باعتباره متولّياً رئاسة تجمُّع بيوريتـاني في أطـراف المدينـة، وقد أنجب الـزّوجان كثيـراً من الأطفـال ولكنّهم جميعـاً ماتـوا في طفولتهم. غـير أنَّ طفلاً يُـدعى جون، وقـد ولـد في ١٦٨٦ م قـد بقي على قيـد الحياة. ولكنَّـه ذُكر في عـام ١٦٩١ م أنَّـه سقط في حادثة من نافذة بـالطّابق الثـاني، وتُوفّي. وبعـد ذلك بشهـر واحـد التهمت ألسنـة اللّهب الـدّار بـأسرهـا، ولقي كـلٌّ من دارك وزوجته حتفهما في الحريق.

كـان يمكن أن يذهب هنـري دارك في تضـاعيف الغمـوض الـذي يحيط بمستهلّ الحياة الأمريكيَّة لـولا أنَّ شيئاً واحـداً أنقذه من ذلـك: إصدار كتيِّب في عام ١٦٩٠ م بعنوان «بابل الجديدة». ويقول ستلمان إنَّ هذا العمل المحدود الذي لا يتجـاوز أربعاً وستّـين صفحة، كـان أبرز الأعمال الرؤيويّة التي صوّرت القارّة الجديدة، حتى وقت كتابته، ولو أن دارك لم يمت بعد إصداره بوقت قصـير لكان تـأثيره أعـظم بلا شـكّ. ذلك أنَّـه قُدِّر كـما اتّضح لمعـظم نسـخ الكتيِّب أن تُـدمَّـر في الحريق الذي لقي دارك مصرعه خلالـه. وقد تمكّن ستلمان نفسـه من اكتشاف نسخة واحدة، وذلك بمحض الصّـدفة، في علّيـة دار عائلتـه

في كـامبردج. وبعـد سنوات من البحث الـدائب وصـل إلى استنتـاج مُفاده أنَّ هذه النسخة هي الوحيدة التي ماتزال موجودة.

دافع كتيِّب «بابل الجديدة» المكتوب بنـثر ميلتونيّ جـريء عن قضيَّة جعـل أمريكـا فردوسـاً. وعلى العكس من الكتّـاب الآخـرين الّـذين تناولوا هذا الموضوع، فإنَّ دارك لا يفـترض أنَّ الفردوس مكـان يمكن أن يُكتشَف، فلم تكن هنـاك خـرائط يمكن أن تؤدّي إليـه، وليست هناك أدوات ملاحة يمكن أن تُرشِد الإنسان إلى سواحله، وإنَّما وجوده ملازم بالحـري لأعماق الإنسـان، فكرة مـا وراءٍ قد يـأتي يوم يتمّ فيـه خلقه في الـ «هُنا» و«الآن». وكما أوضح دارك فإنَّ اليوتـوبيا لا وجـود لها في أيّ مكان، بل إنَّها ليست موجودة حتى في «صياغتها اللّفظيَّة». ولو أنَّه كان بمقدور الإنسان أن يجلب هذا المكان الذي طالما حلم به، فإنَّ ذلك لن يكون إلاَّ من خلال إقامة صرحه بيديه.

وقـد بنى دارك هذه الخـلاصة التي وصلت إليهـا على قـراءة لقصَّة بابل بحسبهـا عملاً أقـرب إلى النبوءة. وبـالاعتماد إلى حـدّ كبير عـلى تفسير ميلتون للسقوط، قام باتّباع خطى معلِّمه في تعليق أهميَّـة فائقـة على دور اللّغة. ولكنَّـه مضى بأفكـار الشّاعـر خطوة أبعـد. وإذا كان سقـوط الإنسان يقتضي بـالتبعيَّـة سقـوط اللّغـة، أفليس من المنـطقي الافتراض بأنَّه سيكون من الممكن قهر السّقوط وقلب آثاره من خلال قهر سقوط اللّغة، وبذل قصـارى الجّهد لإعـادة خلق اللّغة التي كـان يجري الحديث بها في جنّة عـدن؟ وإذا كان بمقـدور الإنسان أن يتعلّم لغة البراءة الأصليّة تلك، أفلا يترتّب على ذلـك أنَّه يستـطيع بمقتضى الأمـر استرداد حـالة الـبراءة في أعماقـه؟ وذهب دارك للقول بـأنَّه مـا علينـا إلاَّ أن ننظر إلى مثـال المسيح لكي نـدرك أنَّ الأمر كـذلك. ألم

يكن المسيح إنساناً مخلوقاً من لحم ودم؟ ألم يتحدّث لغة ما قبل السّقوط؟ وفي «الفردوس المفقود» لميلتون يتحدّث الشيطان «بخداع مزدوج المعنى» بينما المسيح «أعماله لكلماته صنو/كلماته تمنح قلبه الكبير ما يطابقه من القول، وقلبه/يضمّ من الخير والحكمة والعدل/الشّكل الأكمل» والربّ ألم «يرسل الآن بشارته الحيَّة/إلى الدّنيا ليعلِّم الإرادة النِّهائيَّة/ويرسل روحه الحقَّة من الآن فصاعدا لتستقرَّ/في القلوب الورعة، بشارة كامنة/لكلّ ما تقتضي الحقيقة معرفته منيّ»؟ وبسبب المسيح ألم ينته السّقوط نهاية بهيجة؟ وذهب دارك إلى القول بأنَّه ينبني على هذا أنَّه سيكون من الممكن بالنّسبة إلى الإنسان أن يتحدّث لغة البراءة الأصليَّة، وأن يستردّ الحقيقة في أعماق كاملة، ودونما مساس بها.

وقام دارك، في غمار عكوفه على قصَّته بابل عقب ذلك، بتفصيل القول في خطّته، وأعلن رؤيته للأشياء التي ستقع لاحقاً. واقتطف من الآية الثانية من الإصحاح الحادي عشر من سِفر التّكوين «وحدث في ارتحالهم شرقاً أنَّهم وجدوا بقعة في أرض شنعار وسكنوا فيها». وذكر دارك أنَّ هذه الفقرة تثبت الحركة المتّجهة غرباً التي تقوم بها الحياة والحضارة البشريتان، ذلك أنَّ مدينة بابل ـ أو بابليون ـ كانت تقع في بلاد ما بين النّهرين، بعيداً إلى الشّرق من الأرض التي نزل بها العبرانيّون، وإذا كانت بابل تقع إلى الغرب من أيّ شيء فإنَّ هذا الشيء هو جنَّة عدن، الموقع الأصلي للبشريَّة. وواجب الإنسان هو أن يتفرّق في الأرض بأسرها استجابة لوصيّة الربّ القائلة «أثمروا واكثروا واملأوا الأرض» الأمر الذي سيمضي به حتماً إلى الانتقال غرباً. وما هي الأرض الأكثر إيغالاً باتّجاه الغرب بالنّسبة إلى أراضي

المسيحيَّة بأسرها؟ تساءل دارك: أليست هي أمريكا؟ ومن ثمَّ فإنَّ حركة المستوطنين الإنجليز للعالم الجديد يمكن قراءتها باعتبارها تحقيقاً للوصيَّة القديمة. لقد كانت أمريكا هي الخطوة الأخيرة في هذه العمليَّة. وما إن تمتلئ القارّة حتى يحين الوقت لتغيير مصير البشريَّة. والعائق الذي يحول دون بناء البرج - أي حتميَّة ملء الإنسان للأرض - ستتمّ إزالته. وفي تلك اللّحظة سيكون من الممكن مجدَّداً أن تتحدّث الأرض بأسرها لغة واحدة ولساناً واحداً، وإذا ما قدِّر لذلك أن يحدث فإنَّ الفردوس لا يعود بعيداً.

وتنبّأ دارك بأنَّه كما جرى بناء برج بابل بعد الفيضان بثلاثمائة وأربعين عاماً فإنَّه بعد ثلاثمائة وأربعين عاماً من وصول السّفينة «ماي فلاور» إلى بلايموث ستُنَفَّذ الوصيَّة، ذلك أنَّه من المؤكَّد أنَّ البيوريتان، شعب الله المختار الجديد، هم الّذين يمسكون مصير البشريّة ين أيديهم. وعلى العكس من العبرانيين الّذين خذلوا الربّ، برفض تقبُّل ابنه، فإنَّ هؤلاء الإنجليز الّذين نُقِلوا إلى الأرض الجديدة، سيكتبون الفصل الأخير في التّاريخ قبل أن تلتقي السّماء والأرض آخر الأمر. وشأن نوح في فُلْكه، سيكونون قد قطعوا الفيضان المحيطيّ الهائل ليقوموا بمهمّتهم المقدّسة.

وفقاً لتقديرات دارك فإنَّ ثلاثمائة وأربعين عاماً كان معناها أنَّه في عام ١٩٦٠ م سيكون الجزء الأوّل من عمل المستوطنين قد تمّ إنجازه، وسيكون الأساس قد أُرسي للعمل الحقيقي الذي سيعقب ذلك: بناء بابل الجديدة. وكتب دارك يقول إنَّه يرى بالفعل مؤشِّرات مشِّجعة في مدينة بوسطن، ذلك أنَّه هناك، وعلى نحو لا يماثله أيّ مكان في العالم، يُعَدّ الآجرّ مادّة البناء الرئيسيَّة، وهي المادّة التي

حُدِّدت، على نحو ما هو موضح في الآية الثّالثة من الإصحاح الحادي عشر من سِفْر التّكوين، باعتبارها مادّة بناء بابل. وذكر دارك بمزيد من الثّقة أنّه في ١٩٦٠ م ستبدأ بابل الجديدة في التّصاعد، ويشمخ هيكلها نحو السّماء كرمز لبعث الرّوح الإنسانيّة. وستعاد كتابة التّاريخ على نحوٍ معكوس، فما تهاوى سيُرفع عماده، وما تحطّم سيعود كاملاً. ولدى اكتمال البرج سيكون من الضّخامة بحيث يستوعب جميع سكّان العالم الجديد. وستكون هناك غرفة لكلّ شخص، وبمجرّد دخوله تلك الغرفة فإنّه سينسى كلّ شيء كان يعرفه، وبعد أربعين يوماً وأربعين ليلة، سيخرج إنساناً جديداً يتحدّث لغة الربّ، متأهّباً لسكنى الفردوس الثاني الدائم.

هكذا انتهى تلخيص ستلمان لكتيِّب هنري دارك المؤرَّخ في ٢٠ ديسمبر ١٦٩٠ م، أي الذكرى السّبعين لرسوّ السّفينة ماي فلاور.

بدت تنهيدة قصيرة عن كوين، وطوى الكتاب. كانت غرفة القراءة خاوية، فانحنى إلى الأمام، وأسند رأسه على كفّيه، وأغمض عينيه، وقال بصوت عال: «١٩٦٠ م». وحاول أن يتخيَّل صورة لهنري دارك، ولكنَّ شيئاً لم يَرِد على مخيّلته، فلم ترتسم على مرآة ذهنه إلاَّ نيران وحريق يلتهم كتباً، ثمَّ فقد أثر خواطره والموضوع الذي كانت تقوده إليه، وتذكّر فجأة أنَّ ١٩٦٠ م كان العام الذي سجن ستلمان ابنه فيه.

فتح الكرّاسة الحمراء ووضعها معتدلة على حِجْره. وفيما كان يوشك على أن يسطّر شيئاً فيها، قرَّر أنَّه قد نال كفايته، فطوى الكرّاسة، ونهض من المقعد، وأعاد كتاب ستلمان إلى المكتب الأمامي. وأشعل سيجارة، في أسفل الدّرج، وغادر المكتبة، وخرج إلى أصيل أيّار (مايو).

وصل إلى محطّة الجراند سنترال، قبل موعده بوقت طويل. ولم يكن من المنتظر وصول القطار الذي يستقلّه ستلمان حتى السّاعة السّادسة والدقيقة الحادية والأربعين، ولكن كوين أراد أن يتاح له الوقت لدراسة جغرافيَّة المكان، للتيقُّن من أنَّه لن يكون بمقدور ستلمان أن يروغ منه. وعندما خرج من النّفق وولج القاعة الهائلة، أدرك من خلال إلقاء نظرة على السّاعة أنّها لم تتجاوز الرابعة إلاَّ بقليل. وكانت المحطّة قد بدأت بالفعل تمتلئ بجمهور ساعةِ الذروة. فشقَّ طريقه عبر ضغط الأجسام المقبلة، وقام بجولة في البوّابات المرقّمة، متطلّعاً إلى السلالم الخبيئة، والمخارج غير المشار إليها، والتجاويف المحفورة في الجدران الّتي يغمرها الظلام. وخلص إلى أنَّه إذا صمَّم رجل على الاختفاء فإنَّ بمقدوره القيام بذلك في يُسر، وعليه أن يعلِّق الآمال على أنَّ ستلمان لم يتلقَ تحذيراً بأنَّه سيكون في انتظاره. وأمَّا إذا كانت الحالة كذلك، وأفلح ستلمان في الروغان منه، فإنَّ ذلك سيعني أنَّ المسؤوليّة تقع على كاهل فرجينيا ستلمان، وما من أحد غيرها. وأدخل العزاء على نفسه أن يعرف أنَّ لديه خطّة بديلة، إن لم تسر الأمور على مايرام. فإذا لم يظهر ستلمان فإنَّ كوين سيمضي مباشرة إلى الشّارع التّاسع والستّين، ويواجه فرجينيا ستلمان بما عرفه.

وبينما هو يتجوّل في أرجاء المحطّة ذكَّر نفسه بمن يفترض أن يكونه، وقد بدأ في تعلُّم أنَّ تأثير كونه بول أوستر ليس بالتّأثير السّيئ تماماً. وعلى الرّغم من أنَّه كان مايزال له الجسم نفسه، والذهن عينه، والخواطر ذاتها، إلاَّ أنّه شعر وكأنَّه انتزع من نفسه على نحوٍ من

الأنحاء، وكأنّه لم يعد مضطراً إلى السير حاملاً وقر وعيه. ومن خلال حيلة ذكيّة من حيل الذِّهن، تغيير صغير حاذق في الأسماء، أحسَّ بأنَّه أكثر خفّة وتحرُّراً، على نحوٍ لا سبيل إلى مقارنته. وعرف في الوقت نفسه أنَّ الأمر بأسره ليس إلاَّ وهماً، ولكنّ راحة معيَّنة كمنت في قرار ذلك، فهو لم يفقد ذاته حقّاً، وإنَّما هو يتظاهر فحسب، وبمقدوره أن يعود إلى كونه كوين حينما يشاء. وشكّلت الحقيقة القائلة بأنَّ هناك الآن هدفاً من وراء كونه بول أوستر ـ وهو هدف تتزايد أهميّته الآن بالنسبة له ـ شكّلت نوعاً من التبرير الأخلاقيّ لهذه التمثيليّة التحزيريّة، وأعفته من الاضطرار إلى الدّفاع عن نفسه، ذلك أنَّ تصوّر نفسه باعتباره أوستر أصبح مرتبطاً في ذهنه بالقيام بالخيِّر من الأعمال في هذا العالم.

راح يضرب في أرجاء المحطّة، إذن، وكأنّه في إهاب بول أوستر، منتظراً ظهور ستلمان. وتطلّع إلى سقف القاعة الهائلة المقنطر، وراح يتأمّل جداريّة الأبراج السماويّة. كانت هناك مصابيح تمثّل النجوم ورسوم خطيّة للأشكال السماويّة. ولم يكن كوين قد تمكّن من إدراك الصلة بين الأبراج وأسمائها قطّ، وكان في مرحلة الصبا قد أمضى ساعات عديدة تحت السّماء الملتفّة باللّيل، محاولاً مطابقة نثار الأضواء الدّقيقة مع أشكال الدببة والثيران والرماة والدلاء. ولكنّ ذلك لم يُفضِ إلى شيء قطّ، وساوره شعور بالغباء، وكأنّما هناك بقعة عمياء في مركز مخه. وراح يتساءل عمّا إذا كان أوستر في يفاعته أفضل حالاً منه في هذا الشأن.

عَبَر الطّريق، وبعرض الجزء الأكبر من الحائط الشّرقي للمحطّة،

كانت هناك لوحة عرض صور كوداك، بألوانها الوهّاجة التي لا تبدو منتمية إلى الأرض. وقد ضمّ مشهد هذا الشهر شارعاً في إحدى قرى الصيّد في نيوإنجلاند، وربّما كانت قرية نانتيكين. وتألّق سنى ربيعيّ جميل على الأحجار التي رصف بها الشّارع، ولاحت زهور متعدّدة الألوان في أصص النّوافذ، على امتداد واجهات الدّور، وبعيداً في الأسفل، عند نهاية الشّارع، امتدّ المحيط بأمواجه الشّهباء ومياهه الزّرقاء، الزّرقاء. وتذكّر كوين زيارته لنانتيكيت مع زوجته، منذ وقت، خلال الشّهر الأوّل لحملها، عندما كان ابنه لا يتجاوزر حجم لوزة صغيرة في بطنها. ووجد من المؤلم التّفكير في ذلك الآن، وحاول أن يقهر الصّور التي راحت تتشكّل في رأسه. قال لنفسه: «انظر إلى الأمر من خلال عَيْنَيْ أوستر، ولا تفكّر في أي شيء آخر!». وحوّل انتباهه من جديد، وأحسّ بالارتياح؛ إذ وجد أفكاره تدور حول موضوع الحيتان، والرّحلات التي انطلقت من نانتيكيت في القرن الماضي. وحول ملفيل[1] والصّفحات الاستهلاليّة من «موبي ديك». ومن هناك انطلق ذهنه إلى الصّور التي قرأها عن ملفيل في السّنوات الماضية، العجوز الصموت الذي يعمل في مبنى جمارك نيويورك، دونما قرّاء، وقد نسيه الجميع، ثمّ فجأة أو بوضوح بالغ، ودقّة شديدة، رأى واجهة بارتلباي والجدار المبنيّ بالآجر أمامها.

---

(١) ملفيل، هرمان (١٨١٩ ـ ١٨٩١ م): الرّوائي، والشّاعر الأمريكي، ولد في نيويورك ابناً لعائلة عريقة تمتهن العمل بالتّجارة، وبعد تعرّض عمل والده لمشكلات جسيمة ووفاة هذا الوالد في ١٨٣٢ م اضطر إلى وقف الدّراسة وبدء حياته العمليّة، وعمل على تعليم نفسه، ملتهماً شكسبير، والكتاب المقدّس، وكتّاب القرن السّابع عشر

ربت أحدهم على ذراع كوين، فالتفت ليواجهه، ورأى رجلاً قصيراً، صامتاً، ممسكاً بقلمٍ جافٍ، يجمع بين اللّونين الأحمر والأخضر، وقد غُرس فيه عَلَمٌ ورقيٌّ صغير أبيض كُتِب على أحد جانبيه: «هذه المادّة الجيِّدة مجاملة من أصمّ أخرس. ادفع أيّ سعر. شكراً لمساعدتك». وعلى الجانب الآخر من العلم كان هناك رسم للأبجديَّة اليدويَّة - تعلّم الحديث مع أصدقائك - التي توضح أوضاع اليد لكلّ حرف من الحروف الستّة والعشرين. دسّ كوين يده في جيبه، وأعطى الرّجل دولاراً. وأومأ الرّجل الأصمّ مرّة واحدة بإيجاز، ثمّ مضى تاركاً كوين والقلم في يده.

تجاوزت السّاعة الآن الخامسة. ورأى كوين أنّه سيكون أقلّ تعرّضاً للاكتشاف في بقعة أخرى، فانتقل إلى قاعة الانتظار. وكانت تلك القاعة بصفة عامّة مكاناً جهماً، مليئاً بالغبار والنّاس، ولكنّها الآن، وقد بلغت ساعة الذروة أشدّها، امتلأت بالرّجال والنّساء الّذين يحملون الحقائب والكتب والصّحف. ولقي كوين مشقّة في

= التأمّليين من أمثال سيرتي. براون، وكثيراً من كتّاب التّاريخ والأنثروبولوجيا الّذين شكّلوا دعماً لأعماله، في وقت لاحق. وتُعَدّ رائعته الورادة في المتن والصّادرة في العام ١٨٥١ م أقرب نقطة بلغتها الولايات المتحدة في إبداع نثرها الملحميّ الخاصّ. والإشارة إلى عمل ملفيل بجمارك نيويورك صحيحة، فقد أصدر روايته الأخيرة «رجل الثّقة» في العام ١٨٥٧ م ومنيت جولة قام بها لإلقاء المحاضرات بالفشل، فعمل بجمارك نيويورك، وظلّ حتى نهاية حياته نموذجاً للكاتب العملاق الذي لم يفهمه عصره، ولم يقدّره، وطاردته الرّقابة وموجات الإهمال والنسيان، ولم تعرف أعماله الشّهرة الحقيقيّة إلاّ ابتداء من عشرينيات القرن الحالي. ولعلّ القارئ لا تغيب عنه الإشارة إليه في نهاية الثلاثيّة.

(هـ. م.)

العثور على مقعد. وبعد البحث دقيقتين أو ثلاث دقائق، وجد أخيراً موضعاً على إحدى الأرائك، فجلس فارضاً نفسه بين رجل يرتدي حلّة زرقاء وشابّة ممتلئة القوام. وكان الرّجل عاكفاً على قراءة القسم الرياضيّ في صحيفة «نيويورك تايمز»، فاختلس كوين النّظر من فوق كتفه ليقرأ تغطية المباراة التي هُزِم فيها البارحة فريق المينس، ووصل إلى الفقرة الثّالثة أو الرّابعة، عندما التفت الرّجل ببطء نحوه ورمقه بنظرة غاضبة، ونحّى الصّحيفة بعيداً عن ناظريه.

وحدث بعد ذلك شيء غريب. فقد تحوّل كوين بانتباهه إلى الفتاة الجالسة إلى يمينه ليرى ما إذا كانت هناك مادّة يمكن قراءتها في ذلك الاتّجاه. وخمّن كوين أنَّ عمرها حوالي العشرين. وكانت هناك عدَّة بثور على وجنتها اليسرى أخفتها بلمسة من مادّة تجميليَّة حمراء ورديَّة، وراحت تدير قطعة من العلكة في فمها. غير أنَّها كانت تقرأ كتاباً، كتاباً ورقيّ الغلاف، لونه متوهّج كالنّار، وانحنى كوين إلى يمينه قليلاً ليلقي نظرة على العنوان. وخلافاً لكلّ توقّعاته، كان الكتاب من تأليفه بعنوان «مأزق الانتحار» تأليف وليام ولسون، أوّل رواية يظهر فيها ماكس ورك. وكان كوين قد تصوّر هذا الموقف كثيراً: السرور المفاجئ وغير المتوقّع النّابع من لقاء قرّائه. بل إنّه تخيّل الحوار الذي سيعقب ذلك: سيبدو حيّياً ومتواضعاً، على نحوٍ رقيقٍ، فيما الغريب يُشيد بالكتاب، ثمَّ بمزيد من التردّد والتواضع يوافق على أن يكتب إهداء موقّعاً على الغلاف الدّاخليّ، قائلاً: «مادمتَ تصرّ». ولكنّه الآن، وفيما المشهد يحدث، شعر بخيبة أمل بالغة، بل وبالغضب. لم تَرُقْ له الفتاة الجالسة إلى جواره، وأثار ضيقه أنّها لم تتجاوز

الصّفحات التي كبّدته الكثير من الجهد. وأحسَّ بدافع يحدوه إلى انتزاع الكتاب من يديها والانطلاق عدواً عبر المحطّة به.

تطلّع إلى محيّاها من جديد، محاولاً الاستماع إلى الكلمات التي تردّدها في ذهنها، مراقباً عينيها وهما تتقافزان جيئة وذهاباً عبر الصّفحة. ولا بدّ أنّه كان يحدّق فيها بشدّة؛ لأنّها بعد لحظة التفتت إليه، وقد بدا الضّيق على ملامحها، وقالت:

- هل هناك مشكلة، يا سيِّد!؟

ابتسم كوين متراجعاً، وقال:

- لا مشكلة هناك. كنت أتساءل فقط عمّا إذا كان الكتاب قد أعجبك.

هزّت الفتاة كتفيها، وقالت:

- قرأت ما هو أفضل، وما هو أسوأ.

أراد كوين إيقاف الحديث عند هذا الحدّ، ولكنّ شيئاً في أعماقه ألحّ عليه، وقبل أن يتمكّن من النهوض والمغادرة كانت الكلمات قد انسابت من فمه:

- أتجدينه ممتعاً؟

هزّت الفتاة كتفيها؛ وأطلقت صوتاً عالياً بكلماتها:

- نوعاً ما. هناك الجزء الذي يصل فيه التحرّي إلى الطّريق، وهو مخيف إلى حدّ ما.

- هل هو تحرٍّ ذكيّ؟

- نعم، إنّه ذكيّ، ولكنّه يتحدّث أكثر ممّا ينبغي.

- أتحبّين المزيد من الحركة والإثارة؟

ـ أعتقد ذلك.

ـ إذا لم يكن يعجبك فلماذا تواصلين القراءة؟

ـ لست أدري.

قالتها الفتاة، وهزّت كتفيها مجدّداً:

ـ إنّه يساعد في قضاء الوقت، فيما أحسب، على أيّة حال، ليس بالأمر المهمّ. إنّه كتاب لا غير.

كان على وشك إبلاغها بهويّته، ولكنّه ما لبث أن أدرك أنّ الأمر لا يدعو للاكتراث. فالفتاة تدعو لليأس، وقد احتفظ على مدى خمس سنوات بهوية وليام ولسون سرّاً، وهو لن يقدم الآن على الكشف عنها لغريبة لا شأن لها. ومع ذلك فقد كان الأمر مؤلماً، وجالد نفسه يائساً للحفاظ على كبريائه. وبدلاً من أن يلكم الفتاة في وجهها، وقف، على حين غِرّة، ومضى بعيداً.

في السّادسة والنّصف اتّخذ موضعاً أمام البوابة الرّابعة والعشرين. وكان من المتوقّع أن يصل القطار في موعده المحدّد، وقدّر أنّه من موقعه المتقدّم، وسط الطّريق إلى باب الخروج، ستكون فرصته في رؤية ستلمان جيّدة. وأخرج الصّورة من جيبه، وراح يمعن النّظر فيها مجدّداً، مبدياً اهتماماً خاصّاً بالعينين. وتذكّر أنّه قد قرأ في أحد المواضع أنّ العينين هما الملمح الذي لا يتغيّر في الوجه أبداً. فهما تظلّان على ما هما عليه، منذ الطّفولة إلى الشّيخوخة، والإنسان الذي يهتمّ بهذا الجانب يمكن نظرياً أن يتطلّع إلى عَيْنَيْ صبيّ في صورة، ويتعرّف على الشّخص نفسه، وهو في شيخوخته. وكانت لكوين شكوكه حيال ذلك، ولكن هذا كان كلّ ما لديه كمنطلق لمسيرته،

الجسر الوحيد الذي يربطه بالحاضر. غير أنَّ وجه ستلمان لم يُفصح من جديد عن شيء يُذْكَر

بلغ القطار المحطّة، وشعر كوين بالضّجة التي أحدثها تخترق جسمه: جلبة بدت كأنَّها تخالط نبضه، وتضخّ دمّه في دفقات صاخبة. وعندئذٍ امتلأ رأسه بصوت بيتر ستلمان، دفقاً من اللّغو يرتطم بجدران جمجمته، وحدَّث نفسه بأنَّ عليه الاعتصام بالهدوء، ولكن ذلك لم يُحسِّن الوضع إلاّ قليلاً، وعلى الرّغم ممّا كان يتوقّعه من نفسه في هذه اللّحظة فقد ساوره شعور بالانفعال الحادّ.

كان القطار مزدحماً، وفيما بدأ الرّكاب يملأون الطّريق المنحدر، ويقبلون نحوه، غدوا حشداً هائلاً، وراح كوين يلطم فخذه الأيمن في عصبيّة بالكرّاسة الحمراء، ووقف على أطراف أصابع قدميه. كان هناك رجال ونساء، أطفال وكهول، مراهقون وأطفال حديثو الولادة، أثرياء وفقراء، رجال سود ونساء بيضاوات، رجال بيض ونساء سوداوات، شرقيُّون وعرب، رجال يرتدون ثياباً بنيَّة ورماديّة وزرقاء وخضراء، ونسوة ترتدين ثياباً حمراء وبيضاء وصفراء وورديّة، أطفال ينتعلون أحذية رياضيّة، وأطفال ينتعلون أحذية عاديّة، وأطفال ينتعلون أحذية رعاة البقر، أناس بدينون، وأناس ناحلون، قوم طوال، وقوم قصار، كلّ منهم مختلف عن الآخرين كافّة، وكلّ منهم هو ذاته على نحوٍ يستعصي على التقليص. راح كوين يرقبهم جميعاً، وهو واقف في موضعه، وكأنَّه نفى كيانه بأسره إلى عينيه. وكان في كلّ مرّة يقترب خلالها رجل متقدّم في العمر يتوقّع أن يكون ستلمان. وكانوا يقبلون ويمضون على نحو أسرع من أن يدع له مجالاً للشّعور

بخيبة الأمل، ولكنّه بدا وكأنَّه يجِد في كلّ وجه أوغل صاحبه في العمر لمسة ممّا سيكون عليه ستلمان الحقيقي، ومضى ينقّل توقّعاته مع كلّ وجه جديد، وكأنَّ تراكم الموغلين في العمر يعجِّل بالوصول الوشيك إلى ستلمان نفسه. وحدَّث كوين نفسه للحظة قصيرة قائلاً: «هذا هو إذن ما عليه عمل التحرّي». ولكنَّه بخلاف ذلك لم يفكّر في شيء آخر. ومضى يراقب. وقف بلا حراك وسط جمع غفير متحرِّك، وأخذ يمعن في المراقبة.

وبمرور حوالي نصف الركّاب، الآن، لمح كوين ستلمان للمرّة الأولى. بدا التشابه مع الصّورة ممّا لا تخطئه العين. لا، لم يدركه الصّلع، على نحو ما اعتقد كوين أنَّه يمكن أن يحدث له. كان شعره أبيض اللّون، وقد تراكم فوق رأسه، من غير أن يمتدّ إليه مشط، في خصلات ترتفع هنا وهناك. كان طويل القامة، ناحلاً، وقد تجاوز الستّين من عمره، دونما شكّ، وبدا محدودباً بعض الشيء، وقد ارتدى، على نحو لا يناسب هذا الوقت من العام، معطفاً بنيّاً نال منه البلى، ومضى يجرّ قدميه في سيره. وبدا التّعبير المرتسم على وجهه هادئاً، في موضع وسطٍ بين الإغفاء والغرق في التّفكير، ولم يلقِ نظرة على الأشياء من حوله، كما لم يَبْدُ أنَّها كانت تثير اهتمامه. وكان يحمل من المتاع حقيبة واحدة، كانت جميلة ذات يوم، ولكنّ جلدها لاح الآن مهترئاً. وفيما كان يمضي صعداً في الطّريق الصاعد، وضع الحقيبة مرّة أو مرّتين على الأرض والتقط أنفاسه للحظة. وبدا أنَّه يتحرّك بعناء، وقد نحّاه الجمع في سيره قليلاً، ولم يكن متيقّناً ممّا إذا كان عليه أن ينطلق قدماً، أو أن يدع الآخرين يتجاوزونه.

تراجع كوين عدّة أقدام واضعاً نفسه في موضع ينطلق منه سريعاً، إلى اليمين أو إلى اليسار، بحسب ما يحدث. وفي الوقت نفسه أراد أن يكون بعيداً بما فيه الكفاية، بحيث لا يشعر ستلمان بأنَّ هناك من يتبعه.

عندما وصل ستلمان إلى عتبة المحطّة، وضع حقيبته على الأرض مجدّداً، ووقف صامتاً. وفي تلك اللّحظة سمح كوين لنفسه باختلاس نظرة إلى يمين ستلمان، مُحملقاً في سائر الحشد ليتأكّد تماماً من أنَّه لم يرتكب أيّ خطأ. وما حدث عندئذٍ تحدّى التّفسير، فوراء ستلمان مباشرة لاح للعيان، على بعد بوصات قليلة من كتفه اليمنى، رجل آخر، توقّف وأخرج قدّاحة من جيبه وأشعل سيجارة. كان وجهه نسخة طبق الأصل من وجه ستلمان. ولثانية خُيِّل لكوين أنَّه خداع بصريّ، نوع من الهالة التي أحدثتها التيّارات الكهرومغناطيسيَّة المنبعثة من جسم ستلمان. ولكن لا، فقد تحرّك ستلمان الآخر هذا، وتنفّس، وأغمض عينيه وفتحهما، وكانت تحرّكاته مستقلّة على نحو جليّ عن تحرّكات ستلمان الأوّل. ولقد حظي ستلمان الثاني بما يوحي بالرفاهيّة، فقد كان يرتدي حلّة زرقاء فاخرة، وبدا حذاؤه ملتمعاً، وشعره الأسود مرجّلاً، وفي عينيه ارتسمت النظرة المتمرِّسة التي يحظى بها رجل عركته الدُّنيا. وكان بدوره يحمل حقيبة واحدة هي حقيبة أوراق سوداء، أنيقة، في حوالي حجم حقيبة ستلمان الآخر.

جمد كوين في موضعه، فلم يكن هناك شيء يمكن أن يقوم به الآن ولا يدخل في نطاق الخطأ. وأيّاً كان الخيار الذي سيقوم به ـ وقد كان عليه أن يختار ـ فإنّه سيكون خياراً اعتباطيّاً، خضوعاً للمصادفة.

ولسـوف يطارده الشـكّ حتى النّهايـة. وفي تلك اللّحـظة بـدأ ستلمان الأوّل والثاني في شقّ طريقهما من جديد. فانعطف الأوّل يميناً والثـاني يسـاراً. وتاق كـوين إلى أن يكون لـه جسم أميبـا، رغبـة منـه في أن يقسم نفسه إلى قسمين، وينـطلق في اتّجاهـين، في وقت واحد. قـال لنفسه: «افعل شيئاً، افعل شيئاً الآن أيّها الأبله»!.

دونما سبب محدَّد يدعوه لذلك مضى كوين إلى اليسار، وراء ستلمان الثاني. وبعد تسع خطوات أو عشر توقّف. حدّثه شيء ما بأنّه سيندم طوال حياته على ما يقوم به الآن، وكان يتحرّك رغماً عنه مدفـوعاً إلى معاقبة ستلمان الثاني على تشويشه إيّاه. والتفت إلى الوراء نحو ستلمان الأوّل فألفاه يجرّ قدميه جرّاً، مبتعـداً في الاتجاه الآخـر. من المؤكّد أنّ هذا هو الرّجل المنشود. هذا المخلوق الرّث، المحطَّم تماماً، والمنفصل عمّا حولـه هو يقينـاً ستلمان المجنون. تنفّس كـوين الصعداء، بصـدر مرتجف، والتقط أنفاسـه من جديـد. لم يكن هناك من سبيـل لمعرفـة الحقيقة، لا هذه الحقيقة، ولا أيّ حقيقة أخرى. ومضى وراء ستلمان الأوّل، مبطئاً من مسيرته لتتوافق مع مشية العجوز، وتبعه إلى النفق.

بلغت السّاعة الآن السّابعة، على وجه التّقريب، وشرعت الحشود في الانحسار. وعلى الرّغم من أنّ ستلمان بدا كمن يسير في الضّباب، إلّا أنّه كان يعـرف إلى أين يمضي. فقد تـوجّه الـبروفسور مبـاشرة إلى دَرَج النفق، ودفع أجرة البطاقة في الكشك المخصّص لذلـك، وانتظر في هدوء على رصيف القطار الذّاهب إلى تـايمز سكـوير. وبـدأ خوف كوين من أن يتمّ اكتشافه ينجاب عنه، فلم يسبق له أن رأى من قبل قطُّ أيّ شخص مستغرق بكلّيته في أفكارهِ على هـذا النّحو. وحتّى لـو

وقف كوين مباشرة أمام ستلمان، فإنّه يشكّ في أنّ هذا الآخير سيكون قادراً على رؤيته.

انطلقا بالقطار إلى الوست سايد، وسارا عبر ممّرات الشّارع الثاني والأربعين الشّديدة الرطوبة، وهبطا مجموعة أخرى من السّلالم إلى قطارات السِّكك الحديديّة الدوليّة. وبعد سبع دقائق أو ثمانٍ استقلّا قطار برودواي السَّريع، ومضيا بعيداً عن مركز المدينة محطّتين ممتدّتين، وترجّلا في الشّارع السّادس والتّسعين، وصعدا على مهل السلالم النهائيّة، وتوقّفا عدّة مرّات مع وَضْعِ ستلمان حقيبته على الأرض والتقاطه لأنفاسه. وخرجا إلى السّطح، عند المنعطف، وأطلّا على المساء المكتسي بالزُّرقة النيليّة. ولم يتردّد ستلمان، ودونما توقّف لاستجماع شتاته شرع في السّير صعداً في برودواي على امتداد الجانب الشّرقيّ من الشارع. ولعدّة دقائق داعب كوين الاعتقاد المجافي للمنطق بأنّ ستلمان يمضي إلى منزله الكائن في الشّارع مائة وسبعة. ولكن قبل أن يستطيع الانغماس في الذُّعر بكامل أبعاده حيال هذه الفكرة، توقّف ستلمان عند ركن الشّارع التّاسع والتّسعين، وانتظر تغيّر إشارة المرور من الضّوء الأحمر إلى الضّوء الأخضر، وعبر إلى الجانب الآخر من برودواي. وعند منتصف كتلة المباني كان هناك فندق رخيص ممّا يُرتاد للمتعة العابرة، هو فندق «هارموني»، وقد مرّ به كوين مرّات كثيرة من قبل، واعتاد مرأى السكّيرين والمشرّدين الّذين يمكثون في هذا المكان. وأدهشه أن يرى ستلمان يفتح الباب الأمامي ويدخل البهو. وقد افترض من قبل على نحو من الأنحاء أنّ العجوز سيجد مقرّاً مريحاً له على نحو يفوق هذا. ولكن فيما وقف

كـوين خـارج البـاب الـزجـاجي ورأى العجـوز يمضي إلى مكتب الاستقبال، ويكتب ما كـان من المحقّق أنّه اسمـه في سجلّ النـزلاء، ويلتقط الحقيبـة، ويختفي داخل المصعـد، أدرك أنّ هـذا هـو المكـان الذي قصد ستلمان النزول فيه.

انتظر كوين خارج الفندق، على امتداد السّاعتين التاليتين، قـاطعاً الرصيف أمام كتلة المباني، جيئة وذهاباً، معتقداً أنّ ستلمان ربّما خـرج بحثاً عن طعام العشاء في أحد المقاهي القريبة. ولكن لم يَبْدُ للعجـوز أثر، وفي النِّهاية توصّل كوين إلى أنّه قد أوى إلى فراشه. واتّصـل من كشك الهاتف عند المنعطف بفرجينيا ستلمان مقدِّماً لها تقريراً كاملاً عمّا حدث، ثمّ اتجه إلى داره في الشّارع مائة وسبعة.

في صباح اليوم التالي، وفي أيّام كثيرة أعقبته، احتلّ كوين موقعاً لنفسه على أريكة في الجزيرةِ المخصّصة لفصل اتجاهات المرور في برودواي والشّارع التّاسع والتّسعين. وكان يصل مبكّراً في موعد لم يتجاوز السّابعة قطّ، ويجلس هناك مع قدح قهوة ممّا يُباع للمارّة وشريحة معجّنات بالزبد، وقد وضع صحيفة على حِجْره، وعكف على مراقبة باب الفندق الزّجاجي. وفي حوالي الثّامنة كان ستلمان يخرج على الدّوام وقد ارتدى معطفه البنيّ الطويل، حاملاً حقيبة كبيرة عتيقة الطراز من النّوع السجّاديّ الذي يعلّق على الجنب، متدلّياً من الكتف. ولم يتغيّر هذا النّمط الثابت على امتداد أسبوعين. ثمّ يمضي العجوز ضارباً في الشّوارع بالحيّ، متقدّماً على مهل، ومحقّقاً في بعض الأحيان أبطأ تقدّم يمكن تصوّره، متوقّفاً، ومعاوداً السّير من جديد، ومتوقّفاً مجدّداً، وكأنّ كلّ خطوة ينبغي أن تقدّر وتقاس قبل أن يمكن انجازها، في إطار المجموع الكليّ للخطوات. وكان التحرّك على هذا النحو صعباً بالنّسبة إلى كوين، فقد اعتاد السّير في حدّة ونشاط، وقد بدأ هذا الانطلاق والتوقّف وجرّ القدم يُثْقِل على أعصابه، وكأنّ إيقاع جسمه يجري تشويشه. لقد كان الأرنب في السباق مع السّلحفاة، واضّطر لتذكير نفسه مراراً وتكراراً بأنّ عليه التراجع في مشيته.

ظلّ ما يقوم به ستلمان في هذه الجولات أقرب إلى أن يكون لغزاً بالنّسبة إلى كوين. إنّه يستطيع، بالطّبع، أن يرى بأمّ عينه ما يحدث، وقد سجلّ كلّ هذه الأمور بدأب في كرّاسته الحمراء. ولكن مغزى

هذه الأمور واصل مراوغته. فلم يبدُ قطُّ أنّ ستلمان ذاهب إلى جهة بعينها، كما لم يبدُ أنه على معرفة بمكان وجوده. ومع ذلك فقد واصل، كما لو كان من خلال تصميم واعٍ، المضيّ في منطقة محدَّدة بشكل ضيّق، مقتصرة على الشّارع مائة وعشرة شمالاً والشّارع الثاني والسّبعين جنوباً وحديقة ريفر سايد غرباً وأمستردام أفنيو شرقاً. وبغضّ النّظر عن العشوائيَّة التي بدا أنّ رحلاته تتّسم بها فإنّه لم يحدث قطّ أن عبر هذه الحدود. وقد أثارت هذه الدّقة حيرة كوين لأنّ ستلمان بدا في كافّة الجوانب الأخرى وكأنّه يضرب على غير هدى.

لم يكن ستلمان ينظر إلى ما أمامه، وهو ماضٍ في سيره، وكانت عيناه مركّزتين على الرّصيف دوماً، وكأنّه عاكفٌ على البحث عن شيء. وبين الحين والآخر كان ينحني حقّاً، ويلتقط شيئاً من الأرض، ويفحصه عن كثب، ويقلّبه في يده مراراً وتكراراً، وذكّر ذلك كوين بباحث آثاري يتفقّد كِسرة من فخّار في موقع للآثار يعود إلى ما قبل التاريخ. وبين الفينة والأخرى، وبعد العكوف على شيءٍ بهذه الطّريقة، كان ستلمان يُلقي به إلى عُرْض الطّريق مجدّداً، ولكنّه كان في أغلب الأحوال يفتح حقيبته ويضع الشيء برفق داخلها، ثمّ يدّس يده في أحد جيوب معطفه، ويخرج كرّاسة حمراء ـ مماثلة لكرّاسة كوين، ولكنّها أصغر منها ـ ويكتب فيها بتركيز كبير، للحظة أو لحظتين. وبعد أن يكمل هذه العمليّة يعيد الكرّاسة إلى جيبه، ويلتقط حقيبته، ويواصل سيره.

بقدر ما يستطيع كوين أن يحدِّد فإنّ الأشياء التي راح ستلمان يجمعها لم تكن لها أيّة قيمة، فقد بدا أنّها لا تتجاوز أشياء مكسورة

ألقي بها جانباً، قطعاً من النفايات. وخلال الأيّام الماضية لاحظ شمسيَّة متهاوية جرِّدت من قماشها، ورأس دمية مطّاطيّة مقطوعاً، وقفازاً أسود، والجزء السّفلي من مصباح كهربائي مكسور، وقطعاً كثيرة من مواد مطبوعة (مجلاّت متّسخة، صحف ممزّقة) وصورة ممزّقة، وقطعاً مجهولة من أجزاء ماكينات، وقطعاً أخرى من أشياء مختلفة لم يستطع تحديدها. وأثارت اهتمام كوين الحقيقة القائلة بأنّ ستلمان يحمل هذا النثار التّافه محمل الجدّ، ولكنّه لم يستطع القيام بشيء إلاّ المراقبة وتسجيل ما يراه في الكرّاسة الحمراء، والتحويم في بلاهة على سطح الأمور. وأسعده في الوقت نفسه أن يعرف أنّ لدى ستلمان بدوره كرّاسة حمراء، كما لو كان ذلك يشكّل رابطة سرّية بينهما. وتشكّك كوين في أن كرّاسة ستلمان تحتوي على إجابات على الأسئلة التي تتراكم في ذهنه، وشرع في إعداد خطط لسرقتها من العجوز، ولكنّ الوقت لم يكن قد حان بعد للقيام بمثل هذه الخطوة.

لم يبدُ أنّ ستلمان يقوم بأيّ شيء آخر، بخلاف التقاط الأشياء من الطّريق. ومن وقت لآخر كان يتوقّف في أحد المواضع لتناول وجبة طعام. وبين حين وآخر يصطدم بأحد الأشخاص، ويدمدم باعتذار عن ذلك. وذات مرّة أوشكت سيّارة أن تدهسه وهو يعبر الشّارع. ولم يحادث أحداً، فلم يمضِ إلى أيّ متجر، ولم يبتسم. ولم يكن يبدو حزيناً ولا سعيداً. وحدث مرتين، وقد بدا أنّ حمولته التي قام بالتقاطها أكبر من المعتاد، أن عاد إلى الفندق في منتصف اليوم ثمّ ما لبث أن ظهر مجدّداً بعد دقائق معدودات بحقيبة خاوية. وفي معظم الأيّام كان يقضي عدّة ساعات على الأقلّ في حديقة ريفر سايد، ماضياً بصورة

منهجيّة على امتداد طرق المشاة المرصوفة بالحصباء، أو يشقّ طريقه بين الأشجار منحّياً فروعها بعصا، ولم يتراجع بحثه عن الأشياء وسط الخضرة. أحجار، أوراق أشجار، أغصان، كلّ ذلك شقّ طريقه إلى حقيبته، بل لقد لاحظ كوين ذات مرّة أنّه انحنى على فضلات كلب جافّة، واشتّمها بحرص، واحتفظ بها. وكان كذلك ينال قسطه من الرّاحة في الحديقة. وفي الأصائل، وغالباً بعد أن يتناول طعام غدائه، كان يقتعد أريكة، ويحدّق باتّجاه نهر الهدسون. وذات يوم حارّ، على نحو خاصّ، رآه كوين متمدّداً على النجيل يغطّ في نومه. وعندما يحلّ الظّلام، كان ستلمان يتناول عشاءه في مقهى أبوللو، على ناصية الشّارع السّابع والتّسعين وبرودواي، ثمّ يعود إلى فندقه لقضاء اللّيل. ولم يحدث مرّة واحدة أن حاول الاتّصال بابنه. وقد أكّدت فرجينيا ستلمان ذلك لكوين الذي كان يتّصل بها هاتفيّاً بعد عودته إلى الدّار.

كان الشيء الجوهري هو البقاء في إطار من الاهتمام، فقد بدأ كوين يشعر شيئاً فشيئاً بأنّه معزول عن مقاصده الأصليّة،وراح الآن يتساءل عمّا إذا لم يكن قد انطلق في مشروع عبثيّ. لقد كان من الممكن بالطّبع أن ينفق ستلمان وقته في الوصول بالعالم إلى اللاّمبالاة قبل أن يوجّه ضربته. ولكن ذلك يعني افتراض أنّه مدرك لوجود من يراقبه، وقد شعر كوين بأنّ ذلك ليس بالأمر المحتمل. لقد أدّى عمله على مايرام حتّى الآن، وظلّ على مسافة معقولة من العجوز، مختلطاً بحركة المرور في الشّارع من غير أن يلفت الأنظار إليه أو يتّخذ إجراءات متطرّفة لإبعاد نفسه عن الأنظار. وقد كان من الممكن من ناحية أخرى أن يكون ستلمان قد علم أنّه سيكون طوال الوقت

موضع مـراقبة ـ بـل علم بذلـك مسبقاً ـ ومن ثمّ لم يكـترث بمعرفـة من يراقبه على وجه التحديد. وإذا كان من المؤكّد أنّـه موضـع مراقبـة فما أهميّة ذلك؟ ففي الإمكان دائماً استبدال المراقِب بآخَر إذا مـا انكشف أمره.

هذه الرؤية للموقف جعلت كوين يحسّ بالارتياح، وقرّر تصديقها على الرّغم من أنّه لا يملك الأسس للتصديق. فـإمّا أن يكـون ستلمان عارفاً ما يقوم به وإمّا ألاّ يكون. وإذا لم يكن من العارفين فإنّ كـوين سيتخبّط ويهدر وقته سدى. ولشدّ ما هو أفضل أن يعتقد أنّ خـطواته تحقّق بالفعل غرضاً بعينـه. وإذا كان هـذا التّفسير يقتضي معـرفة من جـانب ستلمان فإنّ كـوين سيتقبّل هـذه المعرفـة بـاعتبـارهـا مـوضعـاً للتصديق، في الوقت الحاضر على الأقلّ.

بقيت مشكلة كيفيّـة شغل ذهنـه وهو يتعقّب العجـوز. ولقد كـان معتاداً على التجوّل، وعلّمته جولاته عبر المدينة أن يفهم الاتّصال بين الـداخل والخـارج. وباستخـدام الحركـة دونما هـدف كأسلوب لقلب الأمـور كان بمقـدوره في أفضل أيّـامه أن يجلب الخـارج إلى أعـماقـه، ويغتصب عـلى هذا النحـو سيـادة البـاطني. ومن خـلال غمـر نفسـه بـالأمور الخـارجيّة، وإغـراقها في مـا هو خـارجي فقد أفلح في تحقيق درجة محدودة من السّيـطرة على نـوبات يـأسه. ومن ثمّ كـان التجوال نـوعاً من الغيـاب الذهني. ولكنّ تتبّـع ستلمان لم يكن تجـوالاً. كـان بمقدور ستلمان التجوّل والتخبّط كضرير من بقعة لأخرى، ولكنّ ذلك كان ميْزة حرم منها كوين، وذلك أنّه الآن مرغم على التّركيـز على مـا يفعله، حتّى إذا كـان ما يفعله تـافهاً للغـاية. ومـراراً وتكراراً بـدأت

أفكاره في الشّرود بعيداً، وما أسرع ما كانت تحذو خطاه حذوها. وكان معنى ذلك أنّه معرَّض باستمرار لخطر الإسراع في خطاه والارتطام بستلمان من الوراء. وتحسّباً لهذه الورطة ابتكر كثيراً من الأساليب لتحقيق البطء في السّير. واستهدف ذلك أن يحدّث نفسه بأنّه لم يعد دانييل كوين، وإنّما هو الآن بول أوستر، ومع كلّ خطوة يخطوها كان يحاول التأقلم على نحو مريح بصورة أكبر مع مقتضيات هذا التحوُّل. ولم يكن أوستر أكثر من أسم بالنّسبة إليه، قشرة خارجيّة بلا مضمون. وأن يكون أوستر معناه أن يكون إنساناً لا داخل له، إنساناً بلا أفكار. وإذا لم تكن هناك أفكار متاحة له، وإذا ما غدت حياته الدّاخليّة بعيدة عن متناوله، فليس هناك، إذن، مكان يتراجع إليه. وباعتباره أوستر فإنّه لم يكن بمقدوره استدعاء أيّة ذكريات، أو مخاوف، أيّة أحلام، أو متع، وذلك لأنّ كلّ هذه الأشياء، وهي خاصّة بأوستر، كانت خاوية وغائمة بالنّسبة إليه. وكان عليه بناء على هذا أن يظلّ على السّطح وحده، متطلّعاً إلى الخارج لمواصلة التّماسك. ومن هنا فإنّ إبقاء ستلمان تحت ناظريه لم يكن مجرّد إبعاد لنفسه عن ركب خواطره، وإنّما كان الخاطرة الوحيدة التي سمح لنفسه بأنّ تطرأ على ذهنه.

حقّق هذا الأسلوب، على امتداد يوم أو يومين، نجاحاً معتدلاً، ولكن حتّى أوستر شرع في التهاوي من فرط الملل. وأدرك كوين أنّه بحاجة إلى شيء إضافي لشغل أفكاره، مهمّة صغيرة تصحبه، فيما هو يواصل عمله. وفي النّهاية كانت الكرّاسة الحمراء هي التي أتاحت له الخلاص، وبدلاً من تدوين بضعة تعليقات عرضيّة، على نحو ما

فعـل في الأيّام القليلة الأولى، قـرّر أن يسجّل جميـع التّفـاصيـل التي يستطيعها فيـما يتعلّق بستلمان. وباستخـدام القلم الذي حصـل عليه من الأصمّ الأخـرس انـطلق في مهمّتـه بحـماس. لم يـدوّن إيمـاءات ستلمان فقط، وإنّما وصف كلّ شيء يختاره ليدسّه في حقيبته، أو ينبـذه بعيداً عنها، ووضع جدولاً زمنيّاً دقيقاً للأحداث كافّة، ووضع بعنايـة بـالغة مخـطّطاً دقيقاً لمسـيرات ستلمان، راصداً كـلّ شارع يمضي فيـه، وكلّ انعطافة يقوم بها، وكلّ توقّف يحدث. وبالإضافة إلى شغل بـال كـوين فإنّ الكـرّاسة الحمـراء أدّت إلى الإبطاء من حـركته، ولم يعـد خطر الارتطام بستلمان من الخلف قائماً. وإنّما كانت المشكلة بالأحرى مسـايـرتـه واللّحـاق بـه، والتيقّن من أنّـه لم يختفِ، ذلـك أنّ السّـير والكتابة ليسا بالنشاطين اللذين يسهل الجمع بينهـما. وإذا كان كـوين قـد أمضى السّنوات الخمس السّـابقة محـاولاً القيام إمّـا بهذا الأمـر وإما بذاك فإنّـه يحاول الآن القيـام بهما معـاً، في وقت واحد. وفي البـداية ارتكب كثيـراً من الأخطاء. وكـان من الصّعب، بصفة خـاصّـة، أن يكتب دون النّظر إلى الصّفحة، واكتشف أنّه كتب غالباً سطرين، بل ثـلاثة أسـطر، بعضهـا فـوق البعض الآخـر، مفـرزاً كتلة متشـابكـة تستعصي على القراءة. غير أنّ النّظر إلى الصّفحة كان معنـاه التوقّف. وهذا من شأنه زيادة إمكانيّة فقدانه أثر ستلمان. وبعد انقضـاء بعض الوقت وصل إلى أنّ الأمر هو بصفة أساسيّة مسألـة الوضـع المتّخذ في الكتابة. وجرّب الكتابة والكرّاسة أمامه بزاوية خمس وأربعين درجـة، ولكنّه سرعان ما وجد أنّ مِعصمه الأيسر قد ناله التعب. وبعـد ذلك جرّب إبقاء الكرّاسة مباشرة أمام وجهه وعيناه تحـدّقان عـبرها، ولكن ثبت أنّ هـذا الأسلوب غـير عمـليّ. وعقب ذلـك حـاول أن يسنـد

الكرّاسة على ذراعه اليمنى فوق مرفقه بعدّة بوصات، مع إسناد ظهر الكرّاسة براحة يده اليسرى، ولكنّ هذا آلم يده التي يكتب بها، وجعل الكتابة في النصف السفليّ من الصّفحة شيئاً مستحيلاً. وأخيراً قرّر إسناد الكرّاسة على وركه الأيمن، تماماً كما يفعل الفنّان بحاملة ألوانه، وقد شكّل هذا تحسّناً، فلم يعد حمل الكرّاسة يشكّل عبئاً، وأصبح بمقدور يده اليمنى حمل القلم دون أن تثقلها واجبات أخرى. وعلى الرّغم من أنّ هذا الأسلوب كانت له سلبياته كذلك، فإنّه بدا خير تدبير، من حيث توفير الرّاحة، عبر مسافة طويلة، ذلك أنّ كوين غدا قادراً الآن على أن يوزّع انتباهه بصورة متساوية تقريباً بين ستلمان وكتابته، ملقياً بنظرة على هذا وبعد قليل بأخرى على تلك، ومشاهداً الشيء وكاتباً عنه بدفق الحركة ذاته. ومضى كوين متتبّعاً ستلمان تسعة أيّام أخرى وقلم الأصمّ الأخرس بيده اليمنى والكرّاسة على وركه الأيسر.

كانت أحاديثه الهاتفيّة اللّيليّة مع فرجينيا ستلمان موجزة. وعلى الرّغم من أنّ ذكرى القبلة كانت ماتزال ماثلة بقوّة في ذهنه، فإنّه لم تحدث أيّ تطورات عاطفيّة أخرى. وفي البداية كان كوين يتوقّع أن يحدث شيء، فقد شعر بأنّه بعد هذه البداية الواعدة سيجد السيّدة ستلمان بين ذراعيه، لكنّ صاحبة المهمّة المنوطة به سرعان ما تراجعت، وراء قناع العمل، ولم تشر مرّة واحدة إلى لحظة توهّج العاطفة المنفردة تلك. وربمّا كان كوين قد ضلّ الطّريق في عقده الآمال، وخلط مؤقتاً بين نفسه وبين ماكس ورك، وهو رجل لم يحدث قطّ أنّه لم يستفد من مثل هذه المواقف. أو ربّما كان الأمر قوامه أنّ

كوين بدأ يحسّ بوحدته على نحو أكثر حـدّة. لقد انقضى وقت طـويل منـذ تمدّد جسم دافئ إلى جـواره، ذلـك أنّـه في حقيقـة الأمـر بـدأ في اشتهـاء فرجينيـا ستلمان في لحظة رؤيتـه لهـا، وقبـل أن تحـدث القبلة بوقت طويل، كما لم يمنعـه حجبهاالحـالي للتشجيع من مـواصلة تخيّلها عـارية. وراحت صـور داعرة تنـداح في رأس كوين كـل ليلة، وعلى الرّغم من أنّ فرص تحوّلها إلى واقع بدت بعيدة، إلاّ أنّها ظلّت ترفيهاً بهيجاً. وعقب ذلك بوقت طويل، وبعد أن فات الأوان بكثير، أدرك أنّه كان في أعماقه يغذّي الأمل الفروسي في حلّ القضيّة على نحو بالغ الذكاء وإبعاد الخطر عن بيتر ستلمان بسرعة كبيرة وعلى نحـو لا رجعة فيه بحيث يظفر برغبة السيّدة ستلمان طوال الوقت الذي يريـده. وقد كـانت تلك غلطة، بـالـطّبـع، ولكنّهـا، من بـين كـلّ الغلطات التي ارتكبها من البداية إلى النّهاية، لم تكن الأسوأ.

كان ذلك في اليوم الثّالث عشر على بدء القضيّـة. وقد عـاد كوين إلى البيت في ذلك المساء منحرف المزاج، وكان يحسّ بالإحباط، وعلى تمام الأهبّة للتخلّي عن كلّ شيء. فعلى الرّغم من اللّعبة التي لعبها مع نفســه، ورغـماً عن القصص التي اختلقهــا لإقنـاع نفســه بمـواصلة المسـيرة، فقد بـدا أنّ القضيّة لا أسـاس لهـا. كـان ستلمان عجـوزاً، خرفاً، نسي ابنـه، ويمكن مراقبتـه حتّى نهاية الـزّمان، ومـع ذلك فلن يحدث شيء. ورفع كوين سمّاعة الهاتف، وأدار القرص على رقم شقّة ستلمان.

قال لفرجينيا ستلمان:

ـ أصبحت على أهبّة الاستعداد لطيّ صفحـة الموضـوع، فمن كلّ ما رأيته يتضّح أنّه ليس هناك تهديد لبيتر.

ردّت المرأة قائلة:

- هذا هو على وجه الـدّقة مـا يرغب في أن نعتقـده، فلست تدري مدى حذقه ومدى صبره.

- ربّما كان صبـوراً، ولكنّي لست كـذلـك. أعتقـد أنّـك تبـددين مالك، وأنا أهدر وقتي.

- هل أنت واثق من أنّه لم يرك؟ على هذا يتوقّف الكثير.

- لن أراهن بحياتي على هذا، ولكن نعم، إنّني واثق من ذلك.

- ما قولك إذن؟

- أقـول إنّه ليس لـديك مـا يدعـو للقلق، عـلى الأقـلّ في الـوقت الحالي، وإذا ما حدث أيّ شيء، في وقت لاحق، فاتّصـلي بي. سآتي عَدْواً، عند أوّل إشارة لوقوع مشكلة.

قالت فرجينيا ستلمان، بعد فترة صمت:

- قد تكون على حقّ.

وبعد فترة صمت أخرى، أضافت:

- أتسـاءل عمّا إذا كـان في وسعنا الـوصول إلى حـلٍّ وسط، لمجـرّد إدخال قليل من الطمأنينة على نفسي.

- ذلك يعتمد على ما تفكّرين فيه.

- لا شيء إلاّ هـذا: دع الأمر يـأخذ مجـراه، أيّـامـاً قليلة أخـرى، للتأكّد بصورة مطلقة.

قال كوين:

- بشرطٍ واحدٍ، عليك تركي أقوم بذلك بطريقتي الخـاصّة، دونمـا مزيد من الضوابط، ويتعيّن أن تكون لي حرّيّة محادثته وتوجيه الأسئلة إليه، للوصول إلى لبّ الموضوع، بصورة نهائيّة.

ـ ألن يكون هذا أمراً حافلاً بالمخاطرة؟

ـ ليس عليك أن تقلقي، فلن أكشف عن وجودنا، ولن يخمِّن حتّى من أكون، أو ما أسعى إليه.

ـ كيف ستحقّق ذلك؟

ـ هذا أمر منوط بي، فلديّ كافّة أنواع الحيل التي تملأ جعبتي، وما عليك إلاَّ الثّقة بي.

ـ ليكن، سأوافق على ذلك، فلا أحسب أنَّ هناك ضيراً من ورائه.

ـ طيِّب. سأتيح للأمر عدّة أيّام أخرى، ثمَّ نرى إلى أين مضى بنا ذلك.

ـ سيِّد أوستر!

ـ نعم؟

ـ إنَّني ممتنة كثيراً لك. فقد كان بيتر في حالة طيِّبة، في الأسبوعين الأخيرين، وأنا أعلم أنَّ ذلك يرجع الفضل فيه إليك. وهو يتحدّث عنك طوال الوقت. أنت تشبه... لا أعرف... تشبه بطلاً، بالنّسبة إليه.

ـ وما هو شعور السيِّدة ستلمان؟

ـ ذلك هو شعورها أيضاً.

ـ يسعدني سماع ذلك، ربّما سمحت لي ذات يوم بأن أشعر بالامتنان نحوها.

ـ كلّ شيء ممكن، يا سيِّد أوستر. عليك أن تتذكّر ذلك.

ـ سأتذكّره، وسأكون أحمق، إن لم أتذكّره.

أعدّ كوين عشاءً خفيفاً مؤلّفاً من البيض المخفوق وشرائح الخبز، واحتسى زجاجة جعة، ثمَّ جلس إلى مكتبه، وعكف على الكرّاسة الحمراء. كان قد أمضى عدّة أيّام في الكتابة فيها، مسوِّداً صفحة وراء أخرى، بيدٍ متوتّرةٍ، عجلى، ولكنّه لم يشعر بالميل حتّى الآن إلى قراءة ما كتب. وأمّا الآن، وقد لاحت النّهاية في الأفق، فقد حدَّث نفسه بأنّ في إمكانه المخاطرة بإلقاء نظرة.

كان معظم ما كتبه ممّا تتعذّر قراءته، وخاصّة في المقاطع الأولى، وعندما أفلح في التوصّل إلى معاني الكلمات، لم تبدُ له جديرة بالعناء. «يلتقط قلماً وسط مجموعة مبانٍ، يفحص أشياء، يتردّد، يضعها في الحقيبة... يشتري شطيرة من ركن للأطعمة السّريعة الإعداد... يجلس على أريكة في حديقة ويقرأ في الكرّاسة الحمراء». بدت له هذه الجمل غير جديرة بأن تُكتب.

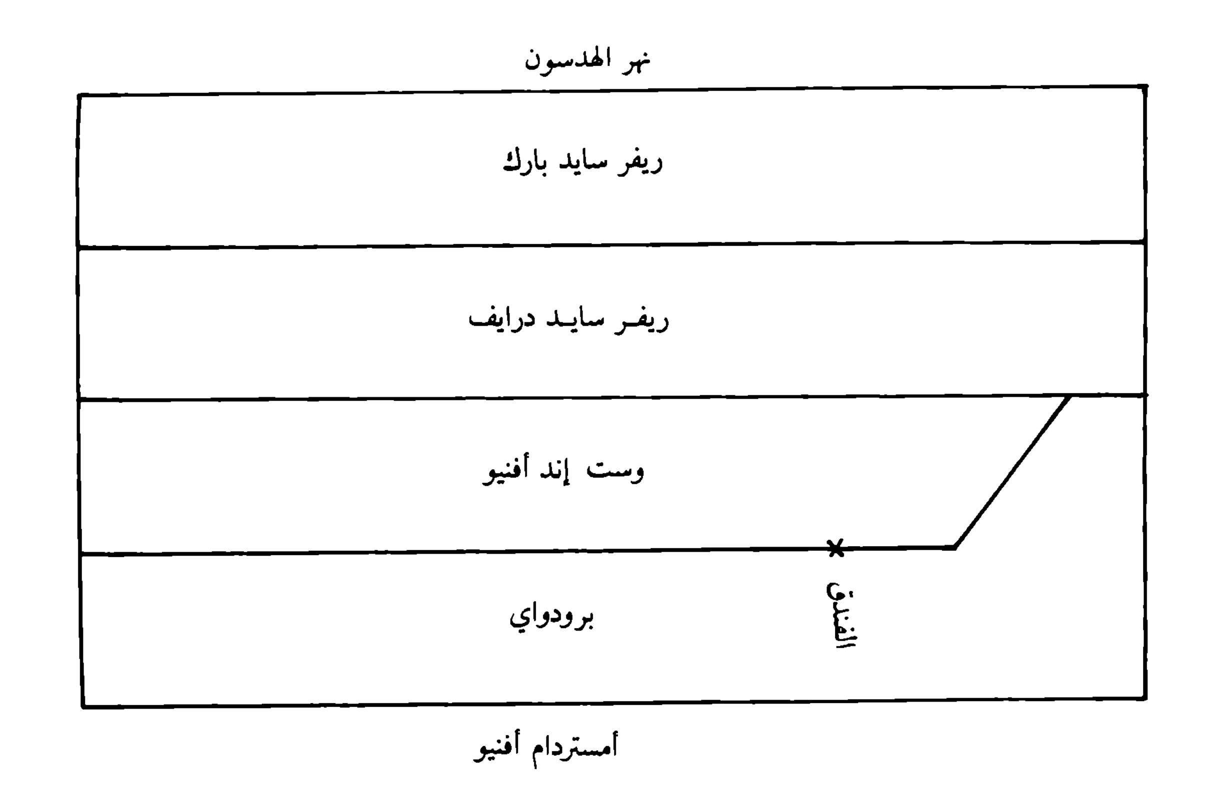
كان الأمر بأسره متعلّقاً بالأسلوب. فإذا كان الهدف هو فهم ستلمان، ومعرفته بصورة جيِّدة، بما يكفي للتنبّؤ بما سيقوم به، بعد ذلك، فإنَّ ستلمان يكون قد أخفق. لقد بدأ بمجموعة محدودة من الحقائق: خلفيّة ستلمان ومهنته، وسجن ابنه، اعتقاله وإيداعه المصحّ، كتاب يضمّ رؤية فكريّة ملتبسة، كُتِبَ في وقت يفترض أنّه كان خلاله مايزال عاقلاً، وفي المقام الأوّل يقين فرجينيا ستلمان من أنّه الآن بين يدي محاولة إلحاق الأذى بابنه، ولكن بدا أنَّ لا علاقة بحقائق الماضي بحقائق الحاضر. وساور كوين شعور عميق بخيبة

الأمل، إذ كان قد تصوّر على الدّوام أنَّ مفتاح عمل التحرّي الجيِّد يتمثَّل في المراقبة الدّقيقة للتفاصيل، وكلّما زاد التمحيص دقَّة جاءت النتائج أكثر نجاحاً. وكان الافتراض الضمني هو أنَّ السلوك الإنساني يمكن فهمه، وأنَّه تحت الواجهة اللّامتناهية للإيماءات والأصوات المتتابعة وضروب الصّمت كان هناك في نهاية المطاف تماسك، نظام، مصدر للتّحفيز. ولكن بعد المجالدة لاستيعاب كلّ هذه المؤشِّرات المنتمية إلى السّطح، أحسّ كوين بأنَّه ليس أقرب إلى ستلمان ممّا كان عليه عندما بدأ في تتبّعه. لقد عاش حياة ستلمان، وسار بخطاه، ورأى كلّ ما شاهده، والشيء الوحيد الذي يشعر به الآن هو استحالة النفاذ إلى أعماق الرّجل، وبدلاً من تضييق المسافة التي تفصله عن ستلمان أحسّ بالعجوز ينزلق مبتعداً عنه، حتى وهو مايزال ماثلاً أمام عينيه.

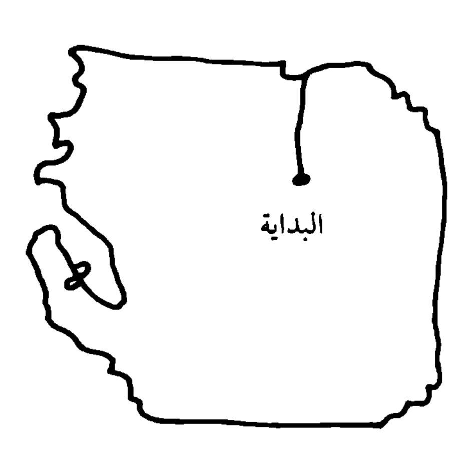
ودونما سبب محدّد يعيه، قلب صفحة جديدة من الكرّاسة الحمراء، ورسم خريطة صغيرة للمنطقة التي يضرب ستلمان في أرجائها.

ثمَّ شرع، مستطلعاً ملاحظاته بعناية، في تعقّب الحركات التي قام بها ستلمان في يوم واحد هو اليوم الأوّل الذي احتفظ فيه بسجلّ كامل لجولات العجوز، وحدّد هذا التعقّب بالقلم. وكانت النتيجة كالتّالي:

ذهل كوين حِيال الطّريقة التي طاف بها ستلمان حول حافّة المنطقة، دون أن يغامر مرّة واحد بالتوغُّل إلى المركز، وبدا الشّكل


نهر الهدسون
ريفر سايد بارك
ريفر سايد درايف
وست إند أفنيو
الفندق
برودواي
أمستردام أفنيو

المرسوم أمامه وكأنّه يشبه قليلاً خريطة ولاية خياليّة من ولايات الغرب الأوسط، وباستثناء كتل المباني الإحدى عشرة صعداً في برودواي، عند البداية، وسلاسل الأشكال اللّولبيّة التي مثّلت جولات ستلهان في ريفر سايد بارك، ماثلت الصّورة مستطيلاً. ومن ناحية أخرى، وفي ضوء الشّكل الخاصّ لشوارع نيويورك الذي يحاكي ربع دائرة فقد يكون كذلك صفراً أو حرف «o» باللغة الإنجليزية.



انتقل كوين إلى اليوم التّالي، وصمّم على أن يرى ما سيحدث، ولم تكن النتائج مماثلة على الإطلاق:

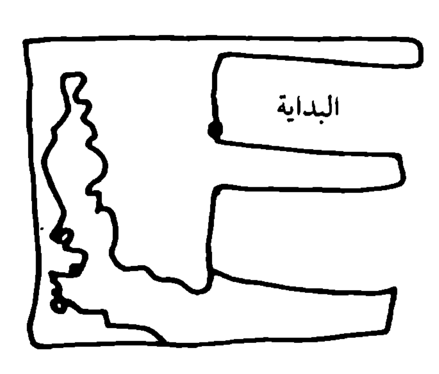
وقد ذكّرت هذه الصّورة كوين بطائر، وربّما بطائر من النّوع الذي يُصاد، وقد مدّ جناحيه، وحلّق في الهواء عالياً. وبعد لحظة بدت هذه القراءة له بعيدة الاحتمال. اختفى الطائر، وبدلاً منه كان هناك شكلان مجرّدان يرتبطان بالجسر الصّغير الذي شكّله ستلهان بالسّير



غرباً على امتداد الشّارع الثّالث والثمانين. وتوقّف كوين لحظة ليتأمّـل ما يقوم به، أتراه كان يخطّ لغواً؟ أكان يهدر المساء متهافت الـذّهن أم هـو يحاول العثـور عـلى شيء؟ أدرك أنَّ أيّـاً من الـردّين لا سبيـل إلى قبوله. وإذا كان يقتل الوقت فلماذا اختار مثـل هذه الـطّريقة المـرهقة للقيام بذلـك؟ هل كـان مشوّشـاً للغايـة بحيث لم تعد لـديه الشّجـاعة للتّفكـير؟ ومن ناحيـة أخرى، إذا لم يكن يـزجي الـوقت فحسب فـما الـذي يقوم بـه بالفعـل؟ بدا لـه أنَّه يبحث عن عـلامـة، كـان يقـوم بـالتّفتيش في سديم حـركات ستلمان، بحثـاً عن تألّق التعـرّف. وقـد يتضمَّن ذلـك شيئاً واحـداً: أنَّه قـد واصل رفض تصـديق عشـوائيّـة تصرّفـات ستلمان. أراد أن يكون هنـاك معنى لهـا، مهـما كـان مـدى غموضه. وقد كان هذا في ذاته شيئاً غير مقبـول، ذلك أنَّـه كان يعني أنَّ كـوين يسمح لنفسـه بإنكـار الحقائق، وكـان هذا، عـلى نحو مـا يعرف حقّ المعرفة، أسوأ شيء يمكن لتحرٍّ أن يقوم به.

ورغم ذلك فقد قرَّر المضيّ قدماً في الأمر. لم يكن الوقت متأخّـراً، بل لم تكن السّاعة قد بلغت الحادية عشرة بعد، وفي حقيقة الأمر فإنَّ

ذلك ما كان ليُحْدِث ضرراً. ولم تحمل نتائج الخريطة الثّالثة شبها بالأُخرَيَيْن.



لم يعد هناك مجال للتساؤل عمّا يجري، فقد أحسَّ كوين باليقين من أنّه إذا نحّى جانباً الخربشات من الحديقة فإنّه سيكون أمام حرف إي «E» باللّغة الإنجليزية. وبافتراض أنَّ الشّكل الأوّل قد مثّل في حقيقة الأمر حرف «O» فإنّه يبدو عندئذٍ من المشروع الافتراض بأنَّ جناح الطّائر المنتمي للشّكلِ الثاني قد شكّل حرف «W». وبالطّبع فإنَّ الحروف O - W.E تشكّل هجاء كلمة، ولكنّ كوين لم يكن على استعداد للتوصّل إلى أيّ استنتاجات. فهو لم يبدأ عمليّة جردة إلاّ باليوم الخامس من جولات ستلمان، وهويّة الحروف الأربعة الأولى هي موضع للتخمينات. وساوره الشّعور بالنّدم لعدم البدء قبل ذلك، وقد أصبح الآن يعرف أنَّ لغز تلك الأيّام الأربعة لا سبيل لاستعادة ملامحه. ولكن ربّما سيكون بمقدوره أن يعوّض الماضي بالانطلاق قدماً، فقد يمكنه، بالوصول إلى النّهاية، أن يحدس البداية.

بدا أنَّ شكل اليوم التّالي يُسْفِر عمّا يحاكي حرف «R». وكما هو الحال بالنّسبة للحروف الأخرى فقد كان معقّداً من خلال مجموعة من ضروب عدم الانتظام وعمليّات التّقريب والأشكال التجميليَّة المزخرفة في الحديقة. وحاول كوين، وهو مايزال يتشبّث بما يشبه الموضوعيّة، أن ينظر إليه، وكأنَّه لم يكن يتوقّع حرفاً من حروف الهجاء. وقد اضطر إلى الاعتراف بأنَّه ليس هناك ما هو يقينيّ: فهو يمكن بالمثل أن يكون مجرّداً من المعنى. وربّما كان يتطلّع إلى صور من السّحاب، على نحو ما فعل وهو طفل صغير. ومع ذلك فإنَّ المصادفة كانت أبرز من أن يتمّ تجاهلها. ولو أنَّ خريطة واحدة قد شابهت حرفاً، بل وربّما خريطتان شابهتا حرفين، لنحّى الأمر كلّه باعتباره مصادفة عجيبة، ولكنّ انطباق ذلك على أربع خرائط على التوالي كان مُضيّاً بالأمر إلى آفاق بالغة النَّأْي.

أسفر اليوم التالي عن حرف «O» مشذَّب الجانب، ككعكة مسحوقة عند أحد الجانبين مع ثلاثة أو أربعة خطوات خشنة تبرز الجانب الآخر إلى الخارج قليلاً، ثمّ جاء حرف«F» منمّقٌ مصحوبٌ بالتموّجات المعتادة، المنتمية إلى فنّ الروكوكو إلى أحد الجانبين. وبعد ذلك كان هناك حرف«B» وقد بدا كصندوقين وضعا أحدهما فوق الآخر كيفما اتّفق، مع خروج مادة النشارة المستخدمة في حزم الصندوقين عن الحواف. وعقب ذلك كان هناك حرف«A» متمايل يشبه السلّم بشكل من الأشكال مع سلالم متدرِّجة عند كلّ خطوة إلى أعلى. وأخيراً كان هناك حرف«B» آخر يميل على نحو مهتزّ على نقطة واحدة مقلوبة، كهرم مقلوب رأساً على عقب.

ثمّ نسخ كوين الحروف على التوالي: «OWEROFBAB» وبعد تقليبها ربعَ ساعة، وتبديلها، وإبعادها بعضها عن البعض الآخر وإعادة ترتيب سياقها، عاد إلى التّرتيب الأوّل وكتبها بالطّريقة التّالية: «OWER OF BAB». بدا الحلّ غريباً للغاية، بحيث أنّ أعصابه كادت أن تخونه. فمع التّسليم بكلّ العواقب المترتّبة على حقيقة ضياع الأيّام الأربعة الأولى منه، وأنّ ستلمان لم يتّم ما بدأه بعد، بدت الإجابة على نحو لا مهرب منه: THE TOWER OF BABEL أيّ «برج بابل».

حلّقت خواطر كوين إلى الصّفحات الأخيرة من كتاب أ. جوردون بيم، وإلى اكتشاف الكتابات الهيروغليفيّة على الجدار الداخليّ للصدع. حروف كتبت في أغوار الأرض ذاتها، وكأنّما كان كاتبوها يحاولون قول شيء ما عاد من الممكن فهمه. ولكن مع إعادة التّفكير في الأمر لم يبدُ ذلك مناسباً للمقام، ذلك أنّ ستلمان لم يترك رسالته في أيّ مكان، وصحيح أنّه قد خلق الحروف بحركات خطاه، ولكنّها لم تكتب. كان ذلك شبيهاً برسمك لوحة في الهواء بإصبعك، فالصّورة تختفي خلال إنجازك لها. وليست هناك نتيجة، ولا أثر يميّز ما قمت به.

ومع ذلك فقد وجدت الصّورة بالفعل، لا في الشّوارع، حيث تمّ رسمها، وإنّما في كرّاسة كوين الحمراء. وراح يتساءل عمّا إذا كان ستلمان قد جلس في كلّ ليلة في غرفته، ومضى يرسم خطّ سيره لليوم المقبل، أمّ أنّه قد حسّن أسلوبه من خلال مواصلة ما يقوم به. وكان من المستحيل معرفة ذلك. وراح كذلك يتساءل عن الهدف الّذي

حققته هذه الكتابة في ذهن ستلمان. أتراها كانت مذكّرة كتبها لنفسه، أم أنّها قصد بها أن تكون رسالة لآخرين؟ وخلص كوين إلى أنّها على الأقلّ قد عنت أنّ ستلمان لم ينسَ هنري دارك.

لم يرغب كوين في أن يستسلم للذعر. وفي غمار جهد بذله للسيّطرة على نفسه، حاول أن يتصوّر الأمور في أسوأ ضوء ممكن، فربّما من خلال النّظر إلى الجانب الأسوأ لا يبدو سيّئاً كما حسبه. وقد طرح هذا الجانب على النحو التالي. أولاً: كان ستلمان عاكفاً حقّاً على تدبير شيء ضدّ بيتر. الاستجابة: كان هذا هو الافتراض الأوّل على أيّة حال. ثانياً: عرف ستلمان أنّه ستتّم مراقبته، وعرف أنّ حركاته سترصد، وأنّ رسالته ستفتح مغاليقها. الاستجابة: ذلك لم يغيّر من الحقيقة الجوهريّة: أنّه يتعينّ حماية بيتر. ثالثاً: ستلمان أخطر كثيراً ممّا كان متصوِّراً من قبل. الاستجابة: ذلك لا يعني أنّ بمقدوره الإفلات بفعلته.

وقد ساعده ذلك على نحو من الأنحاء. ولكنّ الحروف واصلت إفزاعه. كان الأمر بأسره بالغ القتام، وشديد الوحشيّة في دورانه حول المعاني، حتّى إنّه لم يرغب في تقبّله، ثمّ حلّت الشكوك، وكأنّما جرى استدعاؤها، وملأت رأسه بأصوات ساخرة، منغّمة. كان قد تصوّر الأمر بأسره. لم تكن الحروف حروفاً على الإطلاق، وهو لم يرها إلّا لأنّه أراد رؤيتها، وحتّى إذا كانت الرسوم تكوِّن حروفاً فإنّها ليست إلّا رمية من غير رام، ولا شأن لستلمان بها. كان كلّ شيء أمراً عرضيّاً، حيلة دبّرها بحقّ نفسه.

قرّر المضيّ إلى فراشه، ونام نوماً متقطِّعاً، واستيقظ ، وعكف على الكتابة في الكرّاسة الحمراء نصف ساعة، وعاد إلى الفراش من جديد. وكانت آخر خاطرة دارت في رأسه قبل النعاس هي أنّه ربّما كان أمامه يومان آخران، إذ إنّ ستلمان لم يكمل رسالته بعد. فقد تبقّى الحرفان الأخيران، وهما «E» و«L». ومضى ذهن كوين بعيداً، ووصل إلى أرض مستحيلة من النثار، مكانٍ يحفل بالأشياء المجرّدة من الكلمات والكلمات المجرّدة من الأشياء، ثمّ مجالداً سُباته لمرّةٍ أخيرة، حدّث نفسه بأنّ «إيل» هو الاسم العبري للرّب.

وفي غمرة حلمه الّذي نسيه فيما بعد، ألفى نفسه في مجمَّع فضلات مدينة طفولته، وهو يبحث في جبل من النفايات.

جرى أوّل لقاء مع ستلمان في ريڤر سايد بارك. وكان ذلك في منتصف أصيل يوم سبت من النّوع الّذي يحفل بالدرّاجات، ومن يقومون بجولات مع كلابهم، وبالأطفال. وكان ستلمان جالساً بمفرده على أريكة، محدِّقاً في اللاّشيء، والكرّاسة الصغيرة الحمراء في حجره. وغمر الضِّياء المكان بأسره، ضياءٌ هائل بدا وكأنّه يشعّ من كلّ شيء تقع عليه العين، وفوق الرؤوس من أغصان الأشجار، وواصل النّسيم انسيابه وهو يهزّ الأوراق بوشوشة مفعمة حباً، وبصعودٍ وهبوط يواصلان التنفّس وكأنّهما انديا‍ح الأمواج وتراجعها.

خطّط كوين تحرّكاته بعناية فجلس على الأريكة إلى جوار ستلمان، متظاهراً بأنّه لم يَره، وعقد ذراعيه على صدره، وراح يحدِّق في الاتجاه الّذي يحدِّق فيه العجوز. ولم يَفُهْ أيّ منهما بكلمة. ووفقاً لحسابات كوين التي قام بها في وقت لاحق، فإنّ هذا الوضع استمرّ ربع السّاعة أو ثلثها، ثمّ، ودونما سابق إنذار التفت نحو العجوز، وتطلّع إليه مباشرة، وثبّت في عناد عينيه على الملمح الجانبيّ للوجه المجعّد، وركّز كلّ قوته في عينيه، كما لو كان بمقدوره أن يبدأ في إحداث ثقب عن طريق الحرق في جمجمة ستلمان. واستمرّ هذا التّحديق مدّة خمس دقائق.

التفت ستلمان إليه آخر الأمر وقال له بصوت صادح، على نحو مدهش:

ـ آسف، لكنّه لن يكون من الممكن أن أحادثك.

قال كوين:

ـ لم أقل أيّ شيء.

قال ستلمان:

ـ ذلك صحيح، ولكن عليك أن تدرك أنّني لست معتاداً على محادثة الغرباء.

ـ أكرّر القول بأنني لم أقل أيّ شيء.

ـ نعم، لقد سمعتك في المرّة الأولى، ولكن ألست مهتمّاً بمعرفة السبب؟

ـ أخشى ألّا أكون مهتمّاً بذلك.

ـ أحسنت القول، بمقدوري أن أرى أنّك رجل حصيف.

هزّ كوين كتفيه، رافضاً الرّد، وقد غدا كلّ كيانه الآن يشعّ باللّامبالاة.

ابتسم ستلمان ابتسامة مشرقة حيال هذا، ومال نحو كوين، وقال بصوت يوحي بالتواطؤ:

ـ أعتقد أنّنا بسبيلنا إلى التّفاهم.

قال كوين، بعد فترة صمت طويلة:

ـ ذلك أمر لم يتحقّق بعد.

ضحك ستلمان ضحكة قصيرة مدويّة «هوه» ثمّ واصل الحديث:

ـ لا يرجع الأمر إلى أنّني أكره الغرباء باعتبارهم كذلك، وإنّما كلّ ما هنالك أنّني أفضّل عدم محادثة أيّ شخص لا يقدّم نفسه إليّ، فلكيّ أبدأ لا بدّ أن يكون لديّ اسم.

ـ ولكن ما إن يعرّفك إنسان باسمه حتّى يكفّ عن أن يكون غريباً.

ـ تماماً، ذلك هو السّبب في أنّني لا أحادث غرباء أبداً.

كان كوين متأهّباً لمواجهة هـذا، ويعرف كيف يـردّ عليه، ولم يكن بالّذي يدع نفسه للسقوط في الشرَك. ولمّا كان من النّاحية الفنّية بـول أوسـتر، فإنّ ذلـك هو الاسم الّـذي وجب عليه حمـايتـه، وكـلّ شيء آخـر، بما في ذلـك الحقيقة سيكـون تلفيقاً، وقنـاعـاً يحجبـه ويضمن سلامته.

قال:

ـ في تلك الحالة يُسعدني أن أرضيك. اسمي كوين.

قال ستلمان متأمّلاً، ومشيراً برأسه:

ـ آه، كوين.

ـ نعم، كوين. كاف. واو. ياء، نون.

ـ فهمت، نعم، نعم، فهمت، كـوين، إحم. نعم، أمـر مثـير للاهتمام للغاية. كوين، اسم له رنين شائق، يتناغم مع توين. أليس كذلك؟

ـ ذلك صحيح، توين.

ـ وسين كذلك، إذا لم أكن مخطئاً.

ـ لست مخطئاً.

ـ إحم، أمر مثير للاهتمام للغاية، أرى هناك كثيراً من الإمكـانيات لهـذه الكلمـة، كـوين هـذه، هـذه. . . وعـلى سبيـل المثـال كوينتاسنس. . . أوف كويدتق، كويك. وكويل، وكـواك، وكويـرك. إحم، تتناغم مع جـرين، دع جانبـاً كين. إحم. أمـر مثير لـلاهتمام للغـايـة، دوين، وفـين، ودين، وجـين، وبـين، وتـين، وبـين، بـل ويتناغم مع جين. إحم وإذا ما نـطقتها بـالصّورة الصَّحيحـة تناغمت

مـع بيين. إحم. نعم، أمـر مثـير جـدّاً لـلاهتـمام. إنَّني أحبّ اسمـك كثيراً، يا سيّد كوين، فهو يحلّق في اتّجاهات كثيرة في وقت واحد.

- نعم، لقد لاحظت ذلك بنفسي كثيراً.

- معـظم النَّـاس لا يكـترثـون بمثـل هـذه الأمـور، وينـظرون إلى الكلمات عـلى أنّها أحجار، أشيـاء كبيرة لا سبيـل إلى تحـريكهـا، ولا تدّب الحياة فيها، كعنصر لا يتغيّر أبداً.

- الأحجـار يمكن أن تتغيّر، فـالرِّيـح أو المـاء يمكن أن ينحتـاهـا، ويمكن أن تتـآكـل، ويمكن أن تسحق، وفي وسعــك أن تحـوّلهـا إلى هشيم، أو إلى حصى، أو غبار.

- بـالضبّط، كـان بمقـدوري، في التـوّ، أن أعــرف أنّـك رجــل حصيف، يـا سيّد كـوين. لو أنّـك تعلم فقط كيف أسـاء الكثـيرون فهمي. وقد عانى عملي من ذلك، عانى على نحو فظيع.

- عملك؟

- نعم عملي، مشروعاتي، أبحاثي، تجاربي.

- آه.

- نعم، ولكن رغم النكسات فإنّ ذلـك لم يَفُتَّ في عضدي. ففي الوقت الحالي، على سبيل المثال، أعكف على أمر من أهمّ الأمور التي أنجزتها على الإطلاق. وإذا سار كلّ شيء عـلى مايـرام، فأعتقـد أنني سأمسك بمفتاح سلسلة من الاكتشافات.

- مفتاح؟

- نعم. مفتاح. شيء يفتح الأبواب المغلقة.

- آه.

ـ آه، بالطّبع، إنني أقوم، في الوقت الحالي، بجمع البيانات فقط، وبتعبير آخر بحشد الأدلّة، ثمّ سيتعين عليّ ترتيب مكتشفاتي. إنه عمل مرهق إلى حدّ كبير، لن تصدّق مدى صعوبته، وخاصّة بالنّسبة لرجل في مثل سنّي.

ـ بمقدوري التخيّل.

ـ ذلك صحيح. هناك الكثير ممّا يتعينّ القيام به، ووقت محدود للغاية لإنجازه. وفي كلّ يوم أنهض في الفجر، ويتعينّ عليّ الخروج في كافّة أشكال الطّقس، وأن أتنقّل على الدّوام، سائراً، وكأنّما إلى الأبد، على قدميّ، ماضياً من مكان إلى آخر، وذلك يرهقني كثيراً، وفي وسعك التيقّن من ذلك.

ـ ولكنّ الأمر يستحقّ ذلك.

ـ إنّه يستحقّ أي شيء في الحقيقة. وما من تضحية تفوقه قدراً.

ـ حقاً.

ـ ما من أحد أدرك ما أدركته، إنني الأوّل، وأنا الفريد في بابي. وذلك يُلقي على كاهلي عبْ مسؤوليّة كبيرة.

ـ العالم على كتفيك.

ـ نعم، بمعنى من المعاني، العالم، أو ما بقي منه.

ـ لم أدرك أنّ الأمر بهذا السّوء.

ـ إنّه بهذا السّوء، وربّما أسوأ من ذلك.

ـ آه.

ـ العالم، يا سيّدي، تحوّل إلى شظايا، ومهمّتي أن أعيده إلى ما كان عليه.

ـ لقد تحمّلتَ مسؤوليّة كبيرة.

ـ إنّني أدرك ذلـك، ولكنّني لا أنـظر إلاّ إلى المبـدأ. ذلـك بمقـدور إنسان واحد. لو أنّي استطعت إرساء الأسس، فإن أيدٍ أخرى يمكنها القيـام بمهمّة إعـادة البناء ذاتِهـا. والشيء المهمّ هو المنـطلق، الخـطوة النّظريَّة الأولى. ومن سوء الطَّالع أنّه ليس هنـاك شخص آخر يمكنـه القيام بذلك.

ـ هل أحرزت تقدّماً كبيراً؟

ـ خطوات عملاقة هائلة. وفي الحقيقة فإنّني أحسّ بأنّني على وشك تحقيق إنجاز كبير.

ـ يسعدني سماع ذلك.

ـ نعم، إنّها فكرة تُدْخِل الطّمأنينة عـلى النّفس، وكلّ ذلـك بسبب مهارتي، ووضوح ذهني المتألّق.

ـ لست أشكّ في ذلك.

ـ لقد أدركت الحاجة إلى أن أضع لنفسي حدوداً، إلى أن أعمل في حدود مجال صغير بما يكفي لجعل النتائج كلّها حاسمة.

ـ مقدّمةُ المقدِّمةِ، إذا صحّ التّعبير.

ـ ذلـك صحيح تمـاماً، مبـدأ المبدأ، منهـاج العمل. لقـد تشـظّى العالم، يا سيِّدي، لم نفقد شعورنا بالهدف فحسب، وإنّما فقدنـا اللّغة التي يمكننـا بها الحـديث عنه. وتلك بـلا شكّ مـوضوعـات روحيّـة، ولكنّها لها ما يناظرها في العالم المادّي. وقد تمثّلت ضربتي العبقريّـة في أن أقصر نفسي عـلى الأمور العضـويّة، عـلى المبـاشر والملمـوس. إنّ دوافعي سامية، ولكنّ عملي يحدث في دنيـا الحياة اليـوميّة. وهـذا هو

السّبب في أنّني أتعرّض كثيراً لإساءة الفهم، ولكن لا أهمّيّة لذلك فقد تعلّمت كيف أنحّي هذه الأشياء جانباً.

ـ استجابة جديرة بالإعجاب.

ـ إنّها الاستجابة الوحيدة، الوحيدة التي تليق برجل له مكانتي. إنّي في غمار عمليّة ابتكار لغة جديدة. ومع وجود عمل كهذا يتعيّن عليّ القيام به، لا يمكنني الاكتراث بسخف الآخرين. وعلى أيّة حال فإنّ هذا كلّه جزء من المرض الّذي أحاول إيجاد علاج له.

ـ لغة جديدة؟

ـ نعم، لغة ستقول أخيراً ما يتعيّن علينا قوله، ذلك أنّ كلماتنا لم تعد تطابق العالم. فعندما كانت الأشياء كلّاً واحداً، كنّا نشعر بالثّقة في أنّ كلماتنا ستعبّر عنها، ولكنْ شيئاً فشيئاً تحطّمت هذه الأشياء، تمزّقت، انهارت، تحوّلت إلى فوضى، ومع ذلك ظلّت كلماتنا على حالها، ولم تؤقلم ذاتها مع الواقع الجديد. ومن هنا فإنّنا في كلّ مرّة نحاول الحديث فيها عمّا نراه نتحدّث بشكل زائف، ونشوّه الشيء الّذي نحاول أن نطرحه، وقد حوّل ذلك كلّ شيء إلى ركام مضطرب. ولكنّ الكلمات كما تفهمها أنت نفسك قادرة على التغيّر. والمشكلة هي في كيفيّة إظهار ذلك، وذلك هو السّرّ في أنّني أعمل بأبسط السبل الممكنة، وهي مِن البساطة بحيث أنّ الطفل نفسه يمكنه أن يستوعب ما أقوله. تأمّل كلمة تشير إلى شيء، «المظلّة» على سبيل المثال، وعندما أقول كلمة «مظلّة» فإنّك ترى الشيء في ذهنك، ترى نوعاً من العصيّ، وقوائم معدنيّة من النّوع الّذي يُطوى في أعلاها تشكّل هيكلاً يحمل قماشاً لا ينفذ منه الماء ولا يلتصق به، وعندما

يفتح فإنّه يحميك من المطر. وهذه الجزئيّة الأخيرة مهمّة، فالشّمسيَّة ليست مجرّد شيء، وإنّما هي شيء يؤدّي وظيفة، وبتعبير آخر يعبّر عن إرادة الإنسان. وعندما تتمهّل لتتأمّل الأمر فإنّك تجد أنّ كل شيء مماثل للمظلّة، من حيث أنّه يؤدّي وظيفة، فالقلم للكتابة، والحذاء للانتعال، والسيّارة للانتقال. والآن، السّؤال الّذي أطرحه هو ما يلي: ماذا يحدث عندما يكفّ شيء عن أداء وظيفته؟ أهو مايزال الشيء أم أنّه غدا شيئاً آخر؟ عندما تنزع القماش عن المظلّة هل ماتزال المظلّة مظلّة؟ إنّك تفتح القوائم المعدنيّة، وترفعها فوق رأسك، وتمضي في المطر، وتبتلّ حتّى النّخاع. هل من الممكن الاستمرار في تسمية هذا الشيء بالمظلّة؟ إنّ النّاس يقومون بهذا بصفة عامّة. وعند الحدّ الأقصى سيقولون إنّ المظلّة قد كُسرت. وبالنّسبة إليّ فإنّ هذا خطأ خطير، ومصدر كلّ المشكلات، فالشّمسيّة لأنّها لم تعد تستطيع أداء وظيفتها كفّت عن أن تكون مظلّة، ربّما كانت كذلك في وقت من الأوقات، ولكّنها الآن تغيّرت إلى شيء آخر. غير أنّ الكلمة بقيت على حالها، ومن ثمّ فإنّها لم تعد تستطيع التّعبير عن الشيء، إنّها غير دقيقة، إنّها زائفة، وهي تخفي الشيء الّذي يفترض أن تكشف عنه. وإذا لم يكن بمقدورنا تسمية أداة عاديّة تنتمي للحياة اليوميّة شيئاً نمسكه في أيدينا، فكيف يمكن أن نتوقّع الحديث عن أشياء تهمّنا بصورة حقيقيّة؟ وما لم يكن بمقدورنا البدء في تجسيد مفهوم التغيّر في الكلمات الّتي نستخدمها فإنّنا سنواصل الضياع.

- وعملك؟

- عملي بسيط للغاية. لقد جئت إلى نيويورك لأنّها أكثر الأماكن

بؤساً واستدعاءً للقنوط، فالانكسار في كلّ مكان، والاضطراب شامل. وما عليك إلّا أن تفتح عينيك لترى ذلك. النّاس المحطّمون، والأشياء المكسورة، والأفكار المهشّمة. المدينة بأسرها كومة نفاية. إنّها تتّفق مع أغراضي على نحو مثير للإعجاب. وأجد الشّوارع مصدراً لا ينتهي للمادّة، ومستودعاً لا ينفد للأشياء المهشّمة. وفي كلّ يوم أنطلق بحقيبتي، وأجمع الأشياء الّتي تبدو جديرة بالتقصيّ، وتُقدَّر عيّناتي الآن بالمئات، من المكسور إلى المحطّم، من المنبعج إلى المدهوس، من المسحوق إلى الفاسد.

ـ وماذا تصنع بهذه الأشياء؟

ـ أطلق عليها أسماء.

ـ أسماء؟

ـ أخترع كلمات تتطابق مع الأشياء.

ـ آه، الآن أدرك جليّة الأمر. ولكن كيف تقرّر ذلك؟ كيف تعرف ما إذا كنت قد وجدت الكلمة الصّحيحة؟

ـ إنّني لا أخطئ أبداً، وتلك دلالة على عبقريّتي.

ـ هل يمكنك أن تضرب لي مثلاً؟

ـ على إحدى كلماتي؟

ـ نعم.

ـ آسف، لكنّ ذلك لن يكون ممكناً، لعلّك تدرك أنّ هذا هو سرّي. وبمجرّد قيامي بنشر كتابي فسوف تعرف، ومعك العالم كلّه. ولكنّي، في الوقت الحاضر أحتفظ بالأمر لنفسي.

ـ معلومات محظورة التّداول.

ـ ذلك صحيح . سريّة للغاية .

ـ إنّني آسف .

ـ ينبغي ألّا تشعر بخيبة الأمل . فلن يطول الوقت قبل قيامي بترتيب مكتشفاتي، ثمَّ تبدأ أمور عظيمة في الحدوث سيكون ذلك أهمّ حدث في تاريخ البشريّة .

* * *

تمّ اللّقاء الثّاني بعد السّاعة التّاسعة بقليل، في صباح اليوم التالي . وكان يوم أحد، وقد خرج ستلهان متأخراً ساعة عن موعده المألوف . وقطع المسافة المقابلة لكتلتَي المباني الّتي اعتاد أن يقطعها في طريقه إلى المكان الّذي درج على تناوَل طعام الإفطار فيه، وهو مقهى ماي فلاور، وجلس إلى مائدة بين مقعدين طويلين في أحد الأركان في مؤخّرة المقهى . وتبع كوين، وقد ازدادت الآن جرأته، العجوزَ إلى المقهى وجلس إلى المائدة نفسها في مواجهته تماماً . ولدقيقة أو دقيقتين بدا أنَّ ستلهان لم يلاحظ وجوده، ثمَّ رفع وجهه عن قائمة المأكولات الّتي كان يمسك بها، وراح يدقّق النظر في ملامح كوين بطريقة تجريديّة، وبدا أنّه لم يتعرّف عليه باعتباره صاحب لقاء الأمس .

تساءل :

ـ هل تعارفنا من قبل؟

قال كوين :

ـ لا أعتقد ذلك . اسمي هنري دارك .

أومأ ستلهان برأسه، قائلاً :

ـ آه، رجل يبدأ بالأمور الأكثر أهميّة، يعجبني ذلك .

قال كوين:

ـ لستُ من النّوع الّذي يدور حول الموضوع.

ـ الموضوع؟ أي نوع من الموضوعات عساه يكون؟

ـ الموضوعات الّتي تحترق، بالطّبع.

ـ آه، الموضوعات الّتي تحترق، بالطّبع.

تطلّع ستلمان إلى وجه كوين، بمزيد من التدّقيق الآن، ولكن بما بدا كذلك أنّه حَيْرة مؤكّدة، وواصل حديثه:

ـ آسف، لكنّني لا أذكر اسمك. أتذكر أنّك ذكرته لي منذ وقت قريب، ولكّنه يبدو الآن وقد تبدّد من ذاكرتي.

قال كوين:

ـ هنري دارك.

ـ هذا هو، إذن، لقد عاد الآن إلى ذاكرتي، هنري دارك.

صمت ستلمان للحظة طالت، ثمّ هزّ رأسه قائلاً:

ـ من سوء الطّالع أنّ ذلك ليس بالأمر الممكن، يا سيّدي!

ـ ولِمَ لا؟

ـ لأنّه ليس هناك هنري دارك.

ـ طيّب، ربّما كنت هنري دارك آخر، في مقابل ذلك الّذي لا وجود له.

ـ إحم، نعم، إنّني أتفهّم وجهة نظرك. صحيح أنّه في بعض الأحيان يحمل شخصان اسماً واحداً. من المحتمل تماماً أن يكون اسمك هنري دارك، ولكنّك لست «هنري دارك».

ـ أهو صديق لك؟

ضحك ستلمان، كما لو كان الأمر نكتة جيِّدة، وقال:

ـ لم تصب كبد الحقيقة. لم يحدث أن كان هناك قطّ شخص يدعى هنري دارك. لقد اختلقته، ابتكرته ابتكاراً.

قال كوين، مصطنعاً عدم التّصديق:

ـ لا!

ـ نعم، إنّه شخصيّة وردت في كتاب قمت بتأليفه ذات يوم، وهي مختلقة تماماً.

ـ أجد أنّ ذلك ممّا يصعب تقبُّله.

ـ وكذلك وجده الجميع، لقد خدعتهم جميعاً.

ـ مدهش. لِمَ بحق السماء قمت بذلك؟

ـ كنت بحاجة إليه، فقد كانت لديَّ في ذلك الوقت أفكار معيّنة، بالغة الخطورة، ومحطُّ اختلاف الآراء؛ ولذا تظاهرت بأنّ مصدرها يعود إلى شخص آخر، كانت تلك طريقة لحماية نفسي.

ـ كيف استقرّ رأيك على اسم هنري دارك؟

ـ إنّه اسم جيّد. ألا تعتقد ذلك؟ إنّني أحبّه كثيراً، فهو مليء بالغموض، ومناسب تماماً في الوقت نفسه. وقد ناسب أغراضي بصورة جيِّدة، وفضلاً عن ذلك فإنّ له معنى سريّاً.

ـ الإشارة إلى الظّلام؟

ـ لا، لا، لا شيء على هذا القدر من الوضوح. السرّ يكمن في الحرفيْن الأوليْن، هـ. د.، كان ذلك أمراً مهمّاً لغاية.

ـ كيف ذلك؟

ـ ألا تريد أن تخمّن؟

ـ لا أعتقد ذلك.

ـ آه. حاول! قم بثلاثـة تخمينات، فـإذا لم توفّق فـإنّني سأحـدّثك بجليّة الأمر.

صمت كوين للحظة، محاولاً بذل قصارى جهده، وقال:

ـ هـ. د. إنّهما ينصرفان إلى هنري ديفيد، كما في حالة هنري ديفيد ثورو.

ـ ذلك ليس حتّى بالتّخمين القريب من الصّواب.

ـ ماذا عن هـ. د. ببساطة ونقاء؟ اختصـاراً لاسم الشّاعـرة هيلدا دوليتل.

ـ تخمين أسوأ من الأوّل.

ـ ليكن، تخمـين آخـر. هـ د. هـ و د... لحـظة واحـدة... مـا رأيك... لحظة واحدة... آه... نعم، ها قـد وصلنا. هـ. تـرمز للفيلسـوف البـاكي، هـيراقليـطس... ود. للفيلسـوف الضّـاحـك ديموقريطس. هيراقليطس وديموقريطس... قطبا الجدل.

ـ إجابة حاذقة.

ـ هل حالفني الصّواب؟

ـ لا، بالطّبع. ولكنّها إجابة حاذقة رغم ذلك.

ـ ليس بمقدورك القول بأنّني لم أحاول.

ـ لا، ليس ذلك بمقدوري، وذلـك هو السّبب في أنّني سـأكافئـك بالإجابة الصّحيحة؛ لأنّك حاولت. هل أنت على استعداد؟

ـ على استعداد.

ـ الحرفان هـ. د. في الاسم هنري دارك يشيران إلى «همتي دمتي».

ـ من؟

ـ همتي دمتي.

ـ من؟

ـ همتي دمتي. تعرف من أقصد. البيضة.

ـ كما في الأنشودة «همتي دمتي جلس على الحائط»؟

ـ بالضّبط.

ـ لست أدرك ما تعنيه.

ـ همتي دمتي: أنقى تجسيد للوضع الإنساني. أَصْغِ بعناية، يا سيِّدي، ما هي البيضة؟ إنّها ذلك الّذي لم يولد بعد. لغز. أليس كذلك؟ ذلك أنّه كيف يمكن أن يكون همتي دمتي حيّاً دون أن يكون قد وُلد؟ ومع ذلك فإنّه حيّ، لا تخطئ في هذا الصدد. ونحن نعرف ذلك لأنّ بمقدوره الحديث. وأكثر من هذا أنّه فيلسوف من فلاسفة اللّغة. لقد قال همتي دمتي بلهجة ساخرة للغاية: «عندما استخدم كلمة، فإنّها تعني ما اخترتُ أن تعنيه تماماً، لا أقلّ ولا أكثر». قالت أليس: «السؤال المطروح هو ما إذا كان في وسعك أن تجعل الكلمات تعني كثيراً من الأشياء المختلفة». قال همتي دمتي: «السّؤال المطروح هو أيّها يكون السيّد. ذلك هو كلّ ما في الأمر».

ـ لويس كارول.

ـ «من خلال الزجاج الشفّاف» الفصل السّادس.

ـ أمر مثير للاهتمام.

ـ إنّه أكثر من مثير للاهتمام، يا سيّدي. إنّه أمر جوهري. أصغِ بعناية، فقد تتعلّم شيئاً. في خطابه القصير الّذي ألقاه على مسامع أليس يرسم همتي دمتي مستقبل الآمال الإنسانيّة، ويقدّم المفتاح

المُفْضي إلى خلاصنا: أن نصبح سادة الكلمات الّتي نتحدّث بها، أن نجعل اللغة تلبّي احتياجاتنا. لقد كان همتي دمتي عرّافاً، رجلاً عرّافاً بالحقائق الّتي لم يكن العالم على استعداد لها.

ـ رجل؟

ـ عفواً! إنّها زلّة لسان. أعني أنّه كان بيضة. لكنّ زلّة اللّسان تلقي ضوءاً، وتساعد في إثبات وجهة نظري. ذلك أنّ كلّ البشر هم بَيْض، على سبيل المجاز. إنّنا نوجد، ولكنّنا لم نحقّق بعدُ الهيئةَ الّتي هي قدرنا. إنّنا احتمال محض خالص، مثال لما لم يصل بعد، ذلك أنّ الإنسان مخلوق ساقط، ونحن نعرف ذلك من سفْر التكوين. وهمتي دمتي مخلوق ساقط كذلك. إنّه يسقط عن حائطه، وما من أحد يستطيع أن يعيده مجدّداً، لا الملك، ولا جياده، ولا رجاله. ولكن ذلك هو ما يتعيّن علينا جميعاً الآن أن نكافح لإنجازه، إنّه واجبنا كبشر: أن نلملم البيضة من جديد ونعيدها إلى موضعها، ذلك أنّ كلامنا، يا سيّدي، هو همتي دمتي، ومساعدته هي مساعدة لأنفسنا.

ـ حجّة مقنعة.

ـ من المستحيل العثور على شائبة تشوبها.

ـ أو تصدُّعات في البيضة.

ـ بالضّبط.

ـ وهي في الوقت نفسه أصل هنري دارك.

ـ نعم، ولكن في الأمر ما يفوق ذلك. بيضة أخرى في واقع الأمر.

ـ هناك أكثر من بيضة؟

ـ يـا للسّماء! نعم، هنـاك الملايـين من البَيْض. ولكنّ البيضة الّتي أعنيهـا شهـيرة، عـلى نحـو خـاص. وربمـا كـانت أبـرز بيضــة عـلى الإطلاق.

ـ لقد بدأت تحيّرني في أمري.

ـ إنّني أتحدّث عن بيضة كولومبوس.

ـ آه، نعم، بالطّبع.

ـ أتعرف القصّة؟

ـ الجميع يعرفها.

ـ إنّها قصّـة جذّابـة. أليس كذلـك؟ فعندمـا جابهتـه مشكلة كيفيّة إيقاف البيضة على حافّتها، ضغط قليلاً عـلى الأسفل، وشرخ القشرة بما يكفي لإيجاد تسطّح معين يسند البيضة عندما يُبْعِد يده.

ـ لقد نجح هذا الأسلوب.

ـ بالطّبع نجح، فقد كان كولومبوس عبقريّاً، وقد سعى للوصـول إلى الفردوس، واكتشف العالم الجديد. ولم يمضِ بعدُ أوانُ تحوُّلِـه إلى فردوس.

ـ حقاً.

ـ أعترف بأنّ الأمور لم تمضِ على مـايرام تمـاماً بعـد. ولكنّ الأمل مايزال قائماً. ولم يفقد الأمريكيّون رغبتهم في اكتشاف عوالم جديـدة. هل تذكر ما حدث في ١٩٦٩؟

ـ أتذكّر كثيراً من الأشياء. ما الذي تعنيه؟

ـ سير البشر على القمر. فكِّر في ذلك، يا سيِّدي العزيز. لقد سار البشر على القمر.

ـ نعم، أتذكَّر. وقد قال الرّئيس: لقد كان ذلك أعظم حدث منذ بدء الخليقة.

ـ كـان على حقّ. الشيُ الـوحيد الّـذي قالـه ذلك الـرجل. ومـاذا تعتقد أنّ القمر يشبه؟

ـ ليست لديَّ فكرة.

ـ هلّم! هلّم! فكِّر مجدَّداً!

ـ آه، نعم. الآن أدرك ما تقصده.

ـ أسلِّم بـذلك. التشـابه ليس تـامّـاً. ولكن من الصّحيـح أنَّـه في فترات معيَّنة، وخـاصَّة في اللّيـالي الصّافيـة، يبدو القمـر مماثـلاً تمامـاً لبيضة.

ـ نعم، مماثل للغاية.

في تلك اللّحظة، أقبلت نادلة حاملة إفطار ستلمان، ووضعته عـلى المائدة أمامه فرمق العجوز الطّعام بابتهاج، ورفع السكّين عـلى النحو اللّائق بيده اليمنى، وكسر قشرة البيضة المسلوقة سلقاً خفيفاً، وقال:

ـ وكما يمكنك أن تـرى، يا سيِّـدي، فإنّني لا أتـرك حجراً دون أن أقلبه.

جرى اللّقاء الثّالث في وقت لاحق من اليوم نفسـه. كان الأصيـل قد أوغل في مسيرته: الضّياء يبدو مثل شاش امتـدّ على قـوالب الآجرّ وأوراق الشّجر، والظّلال تمتدّ متطاولة. ومن جديد لاذ ستلمان بريفـر سايد بارك، وبحافتها هذه المرّة، ناشداً قسطه من الـرّاحة عـلى نجيل نامٍ على هضبةٍ مستديرة في الشّارع الرّابع والثمانين تُعرف باسم مونت توم. وكان إدجار الآن پو قد أمضى في هذه البقعة ذاتها صيفَيْ عـاميْ

١٨٤٣ و١٨٤٤ م ساعات طويلة محدِّقاً في نهر الهدسـون. وقد عـرف كوين هذا لأنَّه دأب على معرفة مثل هذه الأمـور. وقُدِّر لـه أن يجلس هناك كثيراً بدوره.

ساوره قليـل من الخـوف ممَّـا يتعـيَّن عليـه القيـام بـه. دار حـول الصَّخرة مرتين أو ثلاثاً، ولكنَّه لم يفلح في اجتذاب اهتمام ستلمان، ثمَّ جلس بجوار العجوز وحيَّاه، فلم يتعرَّفـه العجوز عـلى نحو يستعصي على التَّصديق. وكـانت تلك هي المرَّة الثَّـالثة التي يقـدّم كوين نفسـه فيها، وفي كلّ مرّة حدث ذلـك كما لـو كان كـوين شخصاً آخـر. ولم يستـطع أن يقرِّر مـا إذا كان ذلـك مؤشِّـراً جيِّـداً أو سيّئاً. وإذا كـان ستلمان يدّعي فإنَّه ممثّل لم يعرف له العـالم نظيـراً. ففي كلّ مـرَّة ظهر فيها كوين قام بذلك على نحوٍ مفاجئً. ومع ذلك، لم يطرف لستلمان جفن. ومن ناحية أخرى فإنَّه إذا كان ستلمان لم يتعرّفه حقّاً، فما الذي يعنيـه هذا؟ هـل يمكن لأحد أن يكـون غير متقبِّـل للأمـور على هـذا النّحو؟

سأله العجوز عمَّن يكون.

قال كوين:

ـ اسمي بيتر ستلمان.

ردّ ستلمان:

ـ ذلك اسمي، إنَّني بيترستلمان..

قال كوين:

ـ إنَّني بيتر ستلمان الآخر.

ـ آه، تقصـد ابني. نعم، ذلـك ممكن، إنَّـك تبـدو مثله تمـامـاً.

بالطّبع، بيتر أشقـر وشعرك فـاحم السّواد. لست هنـري دارك، وإنَّما شعرك فاحم السّواد. لكنَّ النّاس يتغـيَّرون. أليس كذلـك؟ في لحظة أنت شيء، ثمَّ في اللّحظة التالية أنت شخص آخر.

تماماً.

ـ لقـد تساءلت كثيـراً عن جليَّة أمـرك، يـا بيـتر، وحـدّثت نفسي مرّات كثيرة بقولي: «ترى ما هو حال بيتر».

ـ إنَّني أفضل كثيراً الآن. شكراً لك.

ـ يسعدني سماع ذلك. لقد قـال أحدهم إنّـك لقيت حتفك. وقـد أحزنني ذلك للغاية.

ـ لا، لقد شُفيتُ تماماً.

ـ بمقـدوري رؤية ذلـك. تبدو في خـير حـال، وتتحـدّث بـطلاقـة كذلك.

ـ يمكنني استخـدام كـلّ الكلمات الآن، وحتّى الكلمات التي تبـدو عسيرة لمعظم الناس، بمقدوري نطقها كلها.

ـ إنّني فخور بك، يا بيتر!

ـ كلّ ذلك بفضلك.

ـ الأطفال هبة كبيرة. لقد قلت ذلـك على الـدّوام. هبة لا يعـادلها شيء.

ـ إنّني على يقين من ذلك.

ـ أمّا بالنّسبة إليّ فهناك أيّام طيّبة وأيّـام سيّئة. وعنـدما تحـلّ الأيّام السيّئة أفكّر في الأيّام التي مرّت رخاءً. الذاكـرة هبة كبـيرة، يا بيـتر، إنّها ثاني أفضل شيء بعد الموت.

ـ بلا شكّ.

ـ بالطّبع، علينا أن نعيش في الحاضر أيضاً. وعلى سبيل المثال فإنّني موجود حالياً في نيويورك. وغداً قد أكون في موضع آخر، فأنا أسافر كثيراً. اليوم هنا، وغداً راحل. ذلك جزء من عملي.

ـ لا بد أنّه عمل مجدِّد للنّشاط.

ـ نعم، إنّه يجدِّد نشاطي للغاية. وذهني لا يكفّ عن العمل.

ـ يطيب لي سماع ذلك.

ـ صحيح أنّ السنين تثقل كاهلي. ولكن لدينا الكثير ممّا نشعر بالامتنان لوجوده. الزمن يوغل بنا في العمر، ولكنّه يمنحنا كذلك اللّيل والنّهار، وعندما نموت فإنّ هناك دائماً من يحلّ محلّنا.

ـ إننّا جميعاً نوغل في العمر.

ـ عندما تكبر سنّك فقد يكون لديك ابن يخفّف عنك.

ـ أتمنّى ذلك.

ـ عندئذٍ ستكون محظوظاً على نحو ما كنت. تذكّر، يا بيتر، أنّ الأطفال هبة كبرى.

ـ لن أنسى ذلك.

ـ وتذكّر أيضاً أنّك لا ينبغي أن تضع كل ما لديك من بيض في سلّة واحدة. وبالمقابل لا تُحْصِ دجاجاتك قبل أن تفقس من بيضها.

ـ لا، سأحاول أخذ الأمور في موعدها.

ـ وأخيراً، لا تقل أبداً شيئاً تعرف في قرارة نفسك أنّه ليس صحيحاً.

ـ لن أفعل ذلك.

ـ الكـذب شيء سيّئ، فهو يجعلك تـأسف حتّى عـلى كـونـك قـد وُلدت. وألاّ تكون قد وُلدت فتلك لعنة. إنّك محكوم عليك بـأن تحيا خارج الزّمن، وعندما يحدث ذلك لا يكـون هناك ليـل ولا نهار، بل ولا تُتاح لك الفرصة حتّى للموت.

ـ أدرك ما تعنيه.

ـ الكذبة لا يمكن إلغاؤها أبداً. وحتّى الحقيقة ليست كافية لذلك، إنّني أب، وأعـرف هذه الأمـور. تذكّـر ما حـدث لأبٍ بلادنـا. لقـد أجتثّ شجـرة الكرز، ثمّ قـال لأبيه: «ليس بمقـدوري أن أكـذب». وعقب ذلك بوقت قصير ألقى قطعـة نقد معـدنية عـبر النّهر. وهـاتان القصّتـان حدثـان مهـمّان في التّـارخ الأمـريكي. فقـد اجتثّ جـورج واشنطن الشّجرة وألقى بطقعة النّقد. أتفهم؟ لقد كـان يبلّغنا حقيقـة جوهريّة، أيّ أنّ المال لا ينبت الشّجر. وهذا ما جعل بلادنا عظيمة، يا بيتر، والآن تحتـلّ صورة جـورج واشنطن كـلّ دولار. هناك درس مهمّ ينبغي تعلّمه من هذا كلّه.

ـ أتّفق معك.

ـ بالطّبـع، من سوء الحظ أنّ الشّجـرة قد اجتُثّت. تلك الشّجـرة كانت شجرة الحياة، وكان يمكن أن تجعلنا محصّنين ضدّ الموت. والآن نرحّب بالموت بأذرع مفتوحة، وخاصّة عندما يتقدّم العمر بنـا. وذلك معنى العبارة القائلة: «الحياة هي وعاء الكرز». فلو أنّ الشّجرة ظلّت قائمة لكُتِبَتْ لنا حياة خالدة.

ـ نعم، إنّني أدرك ما تعنيه.

ـ في رأسي أفكار من مثل هذا النّوع، فذهني لا يكفّ عن العمل. وقد كنت على الدّوام طفلاً ماهراً، يا بيتر، ويسعدني أنّك تفهم ما أعنيه.

ـ بمقدوري تتبُّع ما تقصده على وجه الدّقة.

ـ ينبغي على الأب دوماً أن يعلِّم ابنه الدروس التي تعلّمها. وبتلك الطّريقة تنقل المعرفة من جيل إلى جيل ونغدو أكثر حكمة.

ـ لن أنسى ما حدّثْتَني به.

ـ الآن، يا بيتر، سيكون بمقدوري أن ألقى حتفي سعيداً.

ـ إنِّني سعيد.

ـ ولكن ينبغي ألاّ تنسى أيّ شيء.

ـ لن أنسى، يا أبي، أعدك بذلك.

في صباح اليوم التالي كان كوين أمام الفندق في موعده المألوف. وكان الطّقس قد تغيّر في النّهاية. وبعد أسبوعين من تألّق الأفق تقاطر الرذاذ الآن على نيويورك، وامتلأت الشّوارع بصوت إطارات السيّارات المبتلّة المنطلقة في طريقها. جلس كوين على الأريكة ساعة، وهو يحمي نفسه من الرذاذ بمظلّة سوداء، معتقداً أنّ ستلمان سيظهر في أيّ لحظة، وعكف على كعكته وقهوته، وقرأ تقريراً عن هزيمة فريق الميتس في مباراة الأحد، ومع ذلك لم يبدُ أثر للعجوز. وحدّث نفسه بأنّ عليه الالتزام بالصّبر، وشرع في مطالعة باقي الصّحيفة. ومرّت أربعون دقيقة. وصل إلى القسم المالي من الصّحيفة وكان على وشك قراءة تحليل لدمج الشركات عندما اشتدّ

المطر. نهض عن الأريكة متردِّداً، ودفع نفسه إلى مدخل إحدى الدور على الجانب الآخر من الشّارع أمام الفندق. وقف هناك بحذائه المبتلّ ساعة ونصف السّاعة. ومضى يتساءل: هل مرض ستلمان؟ وحاول أن يتخيّله راقداً في فراشه، وقد كساه عرق الحمّى، وقد يكون العجوز قد لقي حتفه خلال اللّيل، ولم يُكتشف جثمانه بعدُ. وحدّث نفسه بأنّ مثل هذه الأشياء تحدث للناس.

كان اليوم هو الذي ينبغي أن يحسم الأمر، وقد أعدَّ له كوين خططاً مفصَّلة بذل فيها جهداً كبيراً. وأمّا الآن فإنَّ تقديراته وصلت إلى طريق مسدود. وأزعجه أنّه لم يأخذ هذا الظّرف الطّارئ في الحسبان.

ورغم ذلك فقد تردّد. وقف هنالك تحت المظلّة يرقب المطر وهو يتحدّر عنها في قطيرات بديعة. وفي السّاعة الحادية عشرة شرع في التوصّل إلى قرار، وبعد ذلك بنصف ساعة عبر الشّارع وسار أربعين خطوة بمحاذاة كتلة المباني، ودخل فندق ستلمان. كان المكان يفوح برائحة طارد الصراصير والسّجائر المسحوقة في المنافض. وجلس عدد قليل من النزلاء الذين لم يكن لديهم مكان يذهبون إليه، في البهو، وقد تمدّدوا على مقاعد بلاستيكيّة صفراء. وبدا المكان موحشاً، جحيماً من صنع الأفكار المبتذلة.

جلس رجل أسود عظيم الجِرم وراء مكتب الاستقبال، وقد شمّر عن ساعديه ووضع أحد مرفقيه على النضد، وأسند رأسه على كفّه المفتوح، وبيده الأخرى راح يقلّب صفحات صحيفة شعبيّة، من غير أن يكاد يتوقّف إلّا لقراءة الكلمات. وقد بدا ضجراً كما لو كان قد أمضى حياته بأسرها هناك.

قال كوين:

ـ أودّ أن أترك رسالة لأحد نزلائكم.

قال الرجل:

ـ لا نزلاء هنا، نحن ندعوهم بالمقيمين.

ـ لأحد المقيمين لديكم، إذن، أودّ أن أترك رسالة.

ـ ومن عساه يكون يا فتى!؟

ـ ستلمان، بيتر ستلمان.

تظاهر الرّجل بالتّفكير للحظة، ثمّ هزّ رأسه:

ـ لا، لا أستطيع تذكّر أيّ شخص بذلك الاسم.

ـ أليس لديك سجلّ.

ـ بلى، عندنا دفتر، لكنّه في الخزانة.

ـ الخزانة؟ عمّ تتحدّث؟

ـ أتحدّث عن الدفّتر، يا فتى، فالرّيس يحب الاحتفاظ به في الخزانة.

ـ لا أفترض أنّك تعرف مجموعة أرقام فتحها؟

ـ آسف، فالرّيس هو الوحيد الذي يعرفها.

تنهّد كوين، ودسّ يده في جيبه، وأخرج ورقة مالية من فئة الخمسة دولارات، ووضعها على النضد مبقياً يده فوقها.

أتساءل:

ـ لا أفترض أنه تصادف أنّ لديك نسخة من الدفتر. هل لديك؟

قال الرجل:

ـ ربّما، سيتعينّ عليّ البحث في مكتبي.

رفع الرّجل الصّحيفة التي وضعت مفتوحة على النضد، وتحتها بدا السجلّ.

قال كوين رافعاً يده عن الورقة الماليّة:

ـ صدفة سعيدة.

ردّ الرجل، ساحباً الورقة الماليّة على امتداد النضد، جاذباً إيّاها إلى خارج الحافّة ومنتهياً بها إلى جيبه:

ـ نعم، أحسب أنني محظوظ اليوم. ما هو اسم صديقك الذي ذكرته؟

ـ ستلمان. عجوز أشيب.

ـ السيّد الذي يرتدي المعطف؟

ـ صحيح.

ـ إننّا نسمّيه البروفسور.

ـ هذا هو الرّجل المطلوب. هل لديك رقم غرفته، لقد نزل بالفندق منذ أسبوعين.

فتح الكاتب السجلّ، وقلّب صفحاته، ومرّ بإصبعه على عمود من الأسماء والأرقام، وقال:

ـ ستلمان، الغرفة ٣٠٣. لم يعد موجوداً هنا.

ـ ماذا؟

ـ غادر الفندق.

ـ عمّ تتحدّث؟

ـ استمع، يا فتى، أقول لك ما هو مدوّن هنا. ستلمان غادر الفندق البارحة ولم يعد له وجود هنا.

ـ هذا أكثر ما سمعته جنوناً.

ـ لا يعنيني ما هو. فهو مكتوب ومدوًّن هنا.

ـ هل سجّل عنواناً يُرْسَل إليه بريده لاحقاً؟

ـ أتمزح؟

ـ في أيّ وقت غادر الفندق؟

ـ عليك أن تسأل لوي، الكاتب اللّيلي، وهو يأتي في السّاعة الثامنة.

ـ هل يمكنني مشاهدة الغرفة؟

ـ آسف. فقد أجرّتها هذا الصباح. والرّجل نائم فيها.

ـ ما هو شكله؟

ـ مقابل خمسة دولارات تطرح أسئلة كثيرة.

قال كوين ملوِّحاً بيده في يأس:

ـ دع عنك الأمر، فلا أهميّة له.

سار عائداً إلى شقّته تحت مطر منهمر، وابتلّ رغم المظلّة. وقال محدّثاً نفسه: يا لها من وظيفة رائعة! لقد كفاني من معاني الكلمات! وألقى بالمظلّة باشمئزاز على أرض غرفة الجلوس، ثمّ نزع سترته، وطوّح بها إلى الحائط، فتناثر رذاذ الماء في كلّ مكان.

اتّصل هاتفياً بفرجينيا ستلمان، وقد استبدّ به الحرج، بحيث لم يفكّر في أيّ شيء آخر. وفي لحظة ردّها أوشك أن يعيد السمّاعة إلى موضعها.

قال:

ـ لقد فقدت أثره.

ـ أواثق أنت من ذلك؟

ـ لقد غادر حجرته البارحة. ولست أدري أين هو.

ـ إنّني خائفة يا بول!

ـ هل اتّصل بكما؟

ـ لست أدري. أعتقد ذلك، ولكنّي لست متأكّدة.

ـ ما الّذي يعنيه ذلك؟

ـ لقد ردّ بيتر على نداء الهاتف، صباح اليوم، خلال وجودي بالحمّام. وهو يرفض إبلاغي بهويّة المتحدِّث. ومضى إلى غرفته، وأغلق مصاريع النّافذة، وامتنع عن الحديث.

ـ لكنّ ذلك حدث من قبل.

ـ نعم، وهذا هو السِّرّ في عدم تأكّدي. ولكنّه لم يحدث منذ وقت طويل.

ـ يبدو الأمر سيّئاً.

ـ هذا ما أخشاه.

ـ لا تقلقي، فلديّ بضع أفكار، وسأعكف على تنفيذها فوراً.

ـ كيف أتّصل بك؟

ـ سأحادثك هاتفيّاً كلّ ساعتين، في أيّ مكان كنت.

ـ أتَعِدُ بذلك؟

ـ أجل، أعِدك.

ـ إنّني خائفة للغاية، ولا أستطيع احتمال ذلك.

ـ الخطأ كلّه يقع على كاهلي. لقد ارتكبت خطأ أبله، وإنّي آسف.

ـ لا، لا لوم عليك، فليس هناك أحد يستطيع مراقبة شخص على مدار أربع وعشرين ساعة يوميّاً. ذلـك مستحيل، لسـوف تضطّر إلى أن تسكن في إهابه.

ـ تلك هي المشكلة، لقد ظننّت أننّي داخلَ إهابه.

ـ لم يَفُتِ الآوان بعد. أليس كذلك؟

ـ كلا. مايزال هناك متّسع من الوقت. لا أريدك أن تقلقي.

ـ سأحاول ألاّ أقلق.

ـ طيّب. سأتّصل بك.

ـ كلّ ساعتين؟

ـ كلّ ساعتين.

أنهى المكالمة، على نحو بـديع للغـاية. وعـلى الرّغم من كـلّ شيء فقـد أفلح في إبقاء فـرجينيا ستلمان عـلى هدوئهـا، ووجد من المتعـذّر تصديق ذلك، ولكنّها ماتزال، فيما بدا، تثق به. غير أنّ ذلك مـا كان ليعينـه على شيء، ذلـك أنّه في حقيقـة الأمر كـذب عليها، فلم تكن لديه بضع أفكار. لم تكن لديه حتّى فكرة واحدة.

ها قد مضى ستلمان الآن. أصبح العجوز جزءاً من المدينة. كان نقطة، علامة ترقيم، حجراً في حائط لا نهائيّ من الأحجار. بمقدور كوين المضيّ عبر الشّوارع كلّ يوم طوال ما بقي من عمره، ومع ذلك فلن يعثر له على أثر. لقد تدنّى كلّ شيء إلى مستوى المصادفة، إلى كابوس من الأرقام والاحتمالات، ولم تكن هناك أيّة مفاتيح للغز، أيّة خيوط للحلّ، أيّة خطوات للقيام بها.

عاد كوين بذهنه إلى بداية القضيّة. لقد كانت مهمّته حماية بيتر، لا مراقبة ستلمان، فهذه المراقبة كانت وسيلة، طريقة لمحاولة التنبّؤ بما سيحدث. وكانت النّظرية أنّه من خلال مراقبة ستلمان سيعلم بنواياه نحو بيتر. وقد تبع العجوز لمدّة أسبوعين، فما الّذي يمكنه إذن أن يستنتجه؟ ليس كثيراً. فقد كان سلوك ستلمان أشدّ غموضاً من أن يوحي بأيّة إيماءة.

كانت هناك، بالطّبع، إجراءات مُتشدِّدة معيَّنة يمكنهم القيام بها. فمقدوره أن يقترح على فرجينيا ستلمان الحصول على رقم هاتف غير مدرج في الدّليل، وذلك من شأنه أن يكفل التخلّص من المكالمات المزعجة، على الأقلّ بصورة مؤقّتة، وإذا لم يؤدِّ ذلك إلى نتيجة فبمقدورهما الانتقال إلى مكان آخر، بوسعهما مغادرة الحيّ، وربّما ترك المدينة كليّة. وفي أسوأ الأحوال يمكنهما اتّخاذ هويّات جديدة، والعيش بأسماء مختلفة.

ذكّرته هذه الخاطرة الأخيرة بشيء مهمّ، فقد أدرك أنّه حتى الآن لم يضع موضع التساؤل بجدِّيّة ظروف الاستعانة به لأداء هذه المهمّة،

فقد حدثت الأمور بصورة سريعة للغاية، وسلّم بأنّه سيحلّ محل بول أوستر. وبمجرّد أن قفز إلى الاسم فقد كفّ عن التّفكير في أوستر نفسه. فإذا كان هذا الرّجل تحرّياً جيّداً، على نحو ما اعتقد آل ستلمان، فقد يكون بمقدوره أن يقدّم يد المساعدة في حلّ القضيّة. وسينفض كوين يده منها، ويغتفر له أوستر ما قام به، وسيعملان معاً لإنقاذ بيتر.

تصفّح الصّفحات الصّفراء في دليل الهاتف بحثاً عن وكالة أوستر للتحرّيات. فلم يجدها مدرجة فيها. غير أنّه عثر في الصّفحات البيضاء على الاسم. كان هناك بول أوستر واحد في مانهاتن، يقطن في ريفرسايد درايف، غير بعيد عن مسكن كوين، ولم يكن هناك ذكر لوكالة تحرّيات خاصة، ولكنّ ذلك لم يكن يعني أيّ شيء. وربّما كان معناه أن أوستر لديه عمل كثير، بحيث لم تكن به حاجة للإعلان عن وكالته. التقط كوين سمّاعة الهاتف، وكان على وشك أن يطلب الرّقم، عندما خطرت بباله فكرة أفضل، فهذا الأمر أكثر أهميّة من أن يترك لمحادثة هاتفيّة. ولم يرغب في التعرّض لمخاطرة التملّص منه. ولّما لم يكن لأوستر مكتب فمعنى ذلك أنّه يعمل في المنزل. ولسوف يمضي كوين إلى هناك، ويحادثه وجهاً لوجه.

ها قد أقلعت السّماء الآن، وعلى الرّغم من أنّها كانت ماتزال متّشحة باللّون الرماديّ، إلاّ أنّه كان في وسع كوين أن يرى إلى الغرب أعمدة من الضّياء تتسرّب عبر السّحب. وفيما سار صعداً في ريفر سايد درايف تناهت إلى وعيه الحقيقة القائلة بأنّه لم يعد منهمكاً في مراقبة ستلمان، وساوره شعور بأنّه فقد نصف نفسه، فعلى امتداد

أسبوعين قيّده خيط خفيّ إلى العجوز. وأيّاً كان ما فعله ستلمان فإنّه قد فعل هو مثله، وحيثما ذهب ستلمان فإنّه حذا حذوه. لم يعتدْ جسمه هذه الحرّيّة الجديدة، وعلى امتداد كتل المباني القليلة الأولى سار بإيقاع جرِّ العجوز لقدميه. لقد انتهت الرّقية السّحريّة، ومع ذلك فإنَّ جسمه لم يُحِطْ بذلك علماً.

كان المبنى الذي يقيم فيه أوستر واقعاً في منتصف كتلة المباني الطويلة الممتدّة بين الشّارعين المائة والسّادس عشر والمائة والتّاسع عشر، جنوب كنيسة ريفر سايد ومقبرة جرانت مباشرة. كان مكاناً يحظى بالرِّعاية، متألّق المقابض، نظيف الزّجاج، تحيطه تلك الرصانة البورجوازيَّة التي نالت إعجاب كوين في تلك اللّحظة. وكانت شقّة أوستر في الطّابق الحادي عشر. وضغط كوين على زرّ النّداء الدّاخلي متوقِّعاً سماع صوت يحادثه عبر جهاز الاتّصال الدّاخلي. ولكن زرّ النّداء الدّاخلي استجاب له دون أيّ حوار، ففتح كوين الباب بدفعه إلى الداخل، وسار عبر البهو، واستقلّ المصعد إلى الطّابق الحادي عشر.

فتح رجل الباب. كان طويل القامة، أسمر البشرة، في منتصف الثلاثينات، يرتدي ملابس مجعَّدة، وبدا أنَّه لم يحلق لحيته منذ يومين، وأمسك في يده اليمنى قلم حبر لم يُرَدّ إليه غطاؤه، وقد استقرّ بين إبهامه والإصبعين الأوّل والثاني المقابلين له، ومازال في وضع الكتابة. وبدا الرّجل مندهشاً؛ إذ ألفى غريباً أمامه.

ـ تساءل متردِّداً:

ـ نعم؟

ردّ كوين بأقصى ما استطاع من تهذيب:

ـ هل كنت تتوقّع شخصاً آخر؟

ـ زوجتي، في الواقع، وهذا هو السّبب في ضغطي للزّر، دون السّؤال عن هويّة الطّارق.

قال كوين، معتذراً:

ـ آسف لإزعاجك، ولكنّني أبحث عن بول أوستر.

قال الرّجل:

ـ إنّني بول أوستر.

ـ ترى هل أستطيع الحديث معك. الأمر مهمّ للغاية.

ـ يتعينّ أن تخبرني بموضوع الحديث أوّلاً.

ـ تطلّع كوين إلى الرّجل بجدّية، وقال:

ـ إنّني أكاد أعرفه، وأخشى أن يكون معقّداً، معقّداً للغاية.

ـ ما هو اسمك؟

ـ آسف، اسمي كوين.

ـ كوين ماذا؟

ـ دانييل كوين.

بدا أنّ الاسم يذكّر أوستر بشيء، وصمت للحظة شارداً، وكأنّه يبحث في تلافيف ذاكرته. ودمدم محدّثاً نفسه: «كوين، إنّني أعرف ذلك الاسم من مكان ما». وعاد إلى الصّمت ثانية، مركّزاً على نحو أكبر للوصول إلى ردّ، وقال:

ـ إنّك لست شاعراً، هل أنت كذلك؟

قال كوين:

ـ كنت كذلك، لكنّي لم أكتب قصائد منذ زمن طويل.

ـ لقد أنجزت ديواناً، منذ سنوات طويلة. أليس كذلك؟ أحسب أنّ عنوانه كان «مهمّة لم تنتهِ». ديوان صغير الحجم، له غلاف أزرق.

ـ نعم، أنا من قام بتأليفه.

ـ لقد أعجبني كثيراً، وعلّقت الآمال على رؤية المزيد من أعمالك، بل وتساءلت عمّا عساه حدث لك.

ـ إنّني مازلت موجوداً، بشكل من الأشكال.

وسّع أوستر فتحة الباب وأومأ لكوين بالدّخول إلى الشقّة. كانت مكاناً بهيجاً من الدّاخل، غريب الشّكل، به عدد من الممرّات الممتدّة، وقد تناثرت الكتب في كلّ مكان، واعتلت الجدران لوحات لفنّانين لم يعرفهم كوين، وتناثرت على الأرض لعب أطفال ـ شاحنة حمراء، دبّ بنّي اللّون، وحش فضائي أخضر. ومضى به أوستر إلى غرفة الجلوس، وقدّم له مقعداً مكسوّاً بغطاء، وقد نال منه البلى. ومضى إلى المطبخ لإحضار بعض الجعة، وعاد حاملاً زجاجتين وضعهما على الصّندوق الخشبيّ الذي يستخدم كمائدة صغيرة لتقديم القهوة وجلس على الأريكة أمام كوين.

استهلّ أوستر الحديث بقوله:

ـ أكان شيئاً متعلّقاً بالأدب ذلك الذي أردت محادثتي بشأنه؟

قال كوين:

ـ كلا. أتمنّى لو أنّه كان كذلك. ولكن هـذا الموضـوع لا شأن لـه بالأدب.

ـ كان متعلّقاً بماذا إذن؟

صمت كوين وراح يُجيل بصره في أرجـاء الغرفـة من غير أن يـرى شيئاً، وحاول البدء بالحديث:

ـ يساورني شعور بأنَّ هناك خطأ فظيعـاً. لقد جئت إلى هنـا باحثـاً عن بول أوستر، التّحري الخاصّ.

ـ لماذا؟

ضحك أوستر، فانفجر كـلّ شيء في تلك الضحكة، متحـوِّلاً إلى نثار. وأدرك كوين أنَّ حديثه لم يكن إلاَّ لغـواً، فقد كـان يمكنه بـالمثل أن يسأل عن «الثّور الـرئيسي الجالس»، فـما كان الأثـر الذي سيـتركه ليختلف عن الأثر الذي أحدثته كلماته.

كرّر بصوت رقيق:

ـ التّحري الخاصّ.

ـ أخشى أن تكون قد قابلت بول أوستر غير المقصود.

ـ إنّك الوحيد المدرج اسمه في دليل الهاتف.

قال أوستر:

ـ قد يكون ذلك صحيحاً، لكنّني لست تحرّياً.

ـ من أنت إذن؟ ما هو عملك؟

ـ إنّني كاتب.

ـ كاتب؟

قالها كوين وكأنَّ الكلمة نحيب.

قال أوستر:

ـ آسف. ولكن هذا هو ما أعمله.

ـ إذا كان ذلك صحيحاً فلا أمل إذن، والأمر بأسره كابوس.

ـ لست أدري عمّ تتحدّث.

حدّثه كوين بالأمر. بدأ من البداية، ومضى سارداً القصّة بكاملها، خطوة فأخرى، فقد كان الضّغط يتصاعد بداخله منذ اختفاء ستلمان في صباح ذلك اليوم، وانسرب منه الآن في صورة دفق منهمر من الكلمات. تحدّث عن المكالمات الهاتفيّة الموجّهة إلى بول أوستر، وعن قبوله للقضيَّة الذي يستعصي على التّفسير، وعن لقائه بيتر ستلمان، وعن حواره مع فرجينيا ستلمان، وعن قراءته كتاب ستلمان، وعن تتبّعه ستلمان ابتداءً من محطّة الجراند سنترال، وعن جولات ستلمان اليوميَّة، وعن الحقيبة السجّاديّة والأشياء المكسورة، وعن الخرائط المزعجة التي شكّلت الحروف، وعن أحاديثه مع ستلمان، وعن اختفاء ستلمان من الفندق، وعندما بلغ النّهاية، قال:

ـ أتعتقد أنّني مجنون؟

قال أوستر الذي أصغى بانتباه إلى حديث كوين:

ـ كلا، لو أنّني كنت في موضعك فلربما قمت بالشيء نفسه.

حلّت هذه الكلمات برداً وسلاماً على كوين، وكأنّ العبء لم يَعُدْ، بعد طول انتظار، واقعاً على كاهله وحده. وشعر بأنّه يودّ أن يعانق أوستر، معلناً له صداقته مدى الحياة.

قال كوين:

ـ إنّني لا أصطنع الأمر، بل إنّ لديَّ دليلاً على ما أقول.

أخرج حافظة نقوده، واستلّ منها الشيك ذا الخمسمائة دولار الذي حرَّرته فرجينيا ستلمان، قبل أسبوعين. وسلّمه إلى أوستر، قائلاً:

ـ كما ترى، فهو محرَّر باسمك.

تطلّع أوستر إلى الشيك باهتمام، وأومأ برأسه:

ـ يبدو أنَّه شيك مطابق تماماً للأصول.

قال كوين:

ـ طيّب، إنَّه لك. أريدك أن تأخذه.

ـ ليس بمقدوري تقبُّله.

ـ لا جدوى منه، بالنّسبة إليّ.

قالها كوين ناظراً حوله في أرجاء الشقّة، وأضاف مشيراً على نحو غامض:

ـ اشترِ لنفسك المزيد من الكتب، أو بضع ألعاب للأطفال.

لزم أوستر الصّمت لحظة، وقال:

ـ أنت من كسب هذا المال، وهو من حقّك. ومع ذلك فهناك شيء واحد سأقوم به من أجلك. بما أنَّ الشيك محرَّر باسمي، فسوف أحصل لك على قيمته النقديَّة، سأمضي به إلى مصرفي غداً صباحاً، وأودعه في حسابي، وأعطيك المال لدى تحصيله.

لم يحر كوين ردّاً.

قال أوستر:

ـ ليكن؟ هل اتّفقنا؟

قال كوين، بعد لأْي:

ـ ليكن، لسوف نرى ما يحدث.

وضع أوستر الشيك على مائدة القهوة، وكأنّما ليقول إنَّ الأمر قد حسم، ثمَّ استند بظهره إلى الأريكة، وحدّق في عَيْنَيْ كوين. وقال:

- هناك أمر أكثر أهميّة من الشيك. حقيقة إدراج اسمي في هذا الأمر. لست أفهم ذلك على الإطلاق.

- لقد تساءلت عمّا إذا كنت قد صادفت بعض المشكلات مع هاتفك مؤخّراً، فالخطوط تتشابك في بعض الأحيان. ويحاول شخص الاتّصال برقم، وعلى الرّغم من أنّه يطلب بشكل صحيح فإنَّه يتّصل بشخص آخر.

- نعم، حدث ذلك لي من قبل، ولكن حتّى لو تحطّم هاتفي تحطيماً فإنَّ ذلك لا يفسرّ المشكلة الحقيقيَّة. إنّه يحدّثنا بالسرّ في أنّ المكالمة قد وصلت إليك، وليس بالسرّ في أنَّهم أرادوا محادثتي في المقام الأوّل.

- هل من الممكن أن تكون على معرفة بالأشخاص المعنيّين بالأمر؟

- لم يسبق لي أن سمعتُ قطّ بآل ستلمان.

- ربّما أراد أحدهم أن يوقعك في مأزق ضاحك.

- لست أتعامل مع هذه النّوعيّة من النّاس.

- ليس في وسعك أن تتوقّع أبداً ما يمكن أن يحدث.

- ولكن الحقيقة أنَّ الأمر ليس مزحة، إنّها قضيَّة حقيقيَّة تتعلّق بأناس حقيقيين.

قال كوين، بعد فترة صمت طويلة:

- نعم، إنّي أدرك ذلك.

وصلا إلى نهاية ما يمكنهما الحديث عنه. وفيما وراء هذه النّقطة لم يكن هناك شيء: الخواطر العشوائيّة لأناس لا يعرفون شيئاً. وأدرك كوين أنّ عليه الانصراف. فقد مكث هناك قرابة السّاعة، وقد حان وقت اتّصاله بفرجينيا ستلمان. ورغم ذلك فقد تردّد في النهوض. كان المقعد مريحاً، وتصاعد تأثير الجعة قليلاً إلى الرّأس. وكان أوستر هو أوّل شخص على جانب من الذّكاء والثّقافة يقابله منذ وقت طويل، فقد قرأ أعمال كوين القديمة، وأعجب بها، وتطلّع إلى المزيد منها. وعلى الرّغم من كلّ شيء فقد كان من المستحيل على كوين ألاّ يشعر بالسّعادة من جرّاء هذا.

جلسا هنالك وقتاً قصيراً دون أن يقولا أيّ شيء. وفي النّهاية هزّ أوستر كتفيه هزّة خفيفة بدت وكأنّها إقرار بأنّهما قد وصلا إلى نقطة مسدودة. ثمّ نهض وقال:

ـ كنت أوشك على إعداد طعام غداء لنفسي، وليس جعله لاثنين بالمشكلة.

تردّد كوين. وبدا الأمر كما لو أنّ أوستر قد قرأ أفكاره، ووصل إلى الشيء الذي تاق إليه أكثر من غيره، أن يأكل، أن يكون لديه عذر للبقاء قليلاً. قال:

ـ ينبغي عليّ الانصراف حقّاً، ولكن نعم، أشكرك، قليل من الطّعام لا يضرّ.

ـ هل يروقك البيض باللحم؟

ـ يروقني كثيراً.

انصرف أوستر إلى المطبخ لإعداد الطّعام، وكان كوين يودّ لو عرض عليه مساعدته، ولكنّه لم يستطع التزحزح من موضعه، وأحسّ كأنَّ جسمه من حجر. وفي ضوء غياب أيّة فكرة أخرى، أغمض عينيه. وفي الماضي كان ممّا يريحه أن يجعل العالم يختفي عن ناظريه. غير أنّه في هذه المرّة لم يجد داخل رأسه ما يثير الاهتمام. وبدا كأنّ الأشياء وصلت إلى حدّ التوقّف هناك، ثمَّ بدأ يسمع في الظّلام صوتاً، صوتاً أبله ينشد مردِّداً الجملة ذاتها مراراً وتكراراً: «ليس بمقدورك إعداد البيض المخفوق دون كسر البيض». فتح عينيه لكي يجعل الكلمات تتوقّف.

كان هناك خبز وزبد، والمزيد من الجعة، وسكّينان وشوكتان، وملح وفلفل، ومناديل مائدة، وبيض مخفوق، طبقان من البيض المخفوق يترجرجان في الصحنين الأبيضين. وتناول كوين طعامه بتركيز ونهم، ملتهماً الوجبة في ما بدا أنّه ثوانٍ قليلة. وبعد ذلك بذل جهداً كبيراً ليظلّ هادئاً. وقد جثمت الدّموع على نحوٍ غامضٍ وراء عينيه، وبدا صوته وكأنّه يرتجف وهو يتحدّث، ولكنّه أفلح علىٰ نحوٍ ما في إمساك أعصابه. وليبرهن على أنّه ليس ناكراً للجميل تتمحور أفكاره حول ذاته شرع في طرح أسئلة على أوستر عن كتاباته. وكان أوستر متحفِّظاً قليلاً بشأن هذا الموضوع، ولكنّه أقرّ أخيراً بأنّه يعكف على تأليف كتاب يضمّ عدداً من المقالات. وكان المقال الذي يعكف حالياً على كتابته يدور حول «دون كيخوته».

قال كوين:

ـ إنّه أحد كتبي المفضّلة.

ـ نعم، وهو من كتبي المفضّلة كذلك. ليس هناك ما يماثله.
سأله كوين عن المقال.
ـ أحسب أنّك تستطيع أن تصفه بأنّه مقال تأمّلي، إذ إنّني لا أستهدف حقّاً البرهنة على شيء. وفي حقيقة الأمر فإنّني لم أبذل فيه جهداً كبيراً. إنّه قراءة تأمّليّة حسبما يمكنك القول.
ـ ما هو جوهر المقال؟
ـ إنّ له علاقة أساساً بتأليف الكتاب: مَنْ كتبه، وكيف تمّت كتابته.
ـ هل هناك سؤال تطرحه في هذا الشأن؟
ـ بالطّبع، لا. ولكنّني أقصد الكتاب الموجود داخل الكتاب الذي ألّفه سرفانتس[1]، الكتاب الذي تخيّل أنّه يقوم بكتابته.
ـ آه.
ـ الأمر بسيط للغاية. فسرفانتس، إذا كنت تتذكّر، يبذل جهوداً كبيرة لإقناع القارئ بأنّه ليس المؤلّف، وهو يقول إنّ الكتاب ألّفه

---

(١) سرفانتس، ميجيل دي (١٥٤٧ ـ ١٦١٦ م) الرّوائي والكاتب الدرامي الإسباني الذائع الصيت، ولد في الكالا إبناً لعائلة عريقة وإن عضّها الفقر بأنيابه وقد جُرح وشُلّت يسراه في معركة ليبانتو في ١٥٧١ م، وأُسر في ١٥٧٥ م وأمضى السنوات الخمس التالية سجيناً في الجزائر، ثمّ أمضى ما بقي من عمره في كفاح مرير لكسب عيشه من الأدب ومن عمل حكومي متواضع. صدرت أولى محاولاته الرّوائيّة في ١٥٨٥ م وصدر الجزء الأوّل من رائعته الواردة بالمتن «دون كيخوته» في ١٦٠٥ م والجزء الثاني في ١٦١٥ م وكتب عدداً من المسرحيّات بقيت لنا منها ١٦ مسرحيّة، وأصدر مجموعة قصصيّة متميّزة في ١٦١٣ م.

(هـ.م.)

بـاللّغة العـربيّة السيِّـد حميد بن نجـلي، ويصف سرفـانتس كيف أنَّـه اكتشف المخطوط بالمصادفة ذات يوم في سوق طليـطلة، وأنَّه يستعـين بخدمات أحـدهم ليترجمـه له إلى اللّغـة الإسبانيّـة، وبعد ذلـك يقدِّم نفسه باعتبـار أنَّه لا يعـدو أن يكون محـرِّراً للترجمة. وفي حقيقـة الأمر فإنَّه لا يستطيع أن يشهد بدقّة الترجمة ذاتها.

قال كوين:

ـ ومع ذلك فإنَّه يمضي إلى القول بأنَّ صياغة السيِّـد حميد بن نجـلي لقصَّة دون كيخوته هي الصّياغة الوحيدة الحقيقيَّة، وكـلّ الصّياغـات الأخرى مزوّرة كتبها مدّعون، وهو يشدّد على أنّ كلّ شيء في الكتاب قد حدث حقّاً في الدنيا.

ـ تمـامـاً، لأنَّ الكتـاب هـو في نهايـة المطاف هجـوم عـلى أخـطار الإيهام، وما كان بمقدوره عـلى نحو جيّـد للغايـة أن يطرح عمـلاً من أعمال الخيال للقيام بذلك. أكان بوسعه ذلك؟ كان عليه أن يزعم أنَّه عمل حقيقيّ.

ـ ومع ذلك فقد تشكّكت على الدّوام فإنَّ سرفانتس قد التهم كـلّ تلك القصص العاطفيّة القديمة. فـلا يمكنك أن تكـره شيئاً بمثـلِ هذا العنف ما لم يكن جزء منك يحبّه كـذلك. وبمعنى من المعـاني فإنَّ دون كيخوته لم يكن إلاّ بديلاً لنفسه.

ـ أوافقـك الرأي. أي صـورة يمكن أن تكون أفضـل لكـاتب من إظهار رجل سحرته الكتب؟

ـ تماماً.

ـ ولمّا كـان يُفترض في حالتي أن يكـون الكتاب حقيقيّـاً فإنّـه ينبني على ذلك أنَّه يجب أن يكتب القصّة شاهد عيان للأحداث التي وقعت فيـه. ولكنَّ السيِّد حميـد، المؤلِّف المعترف بـه، لا يظهـر قطّ. فهو لا يزعم مرّة واحدة أنَّه كان حاضراً ما حدث. وهكذا فإنَّ السؤال الذي أطرحه هو هذا: من هو السيِّد حميد بن نجلي؟

ـ نعم، إنِّني أدرك ما تقصده.

ـ النظريّة التي أطرحها في المقال قوامها أنَّه تجميع لأربعة أشخـاص مختلفين. سانشو بانزا هو، بالطّبع، الشّاهد. ليس هناك مرشّح آخـر لأنَّه الوحيد الذي يرافق دون كيخوته في كلّ مغامراته. ولكن سانشـو لا يستطيع القراءة أو الكتابة، ومن هنا فإنَّه ليس المؤلِّف. ومن نـاحية أخرى فإنّنا نعرف أنَّ سانشو يحظى بموهبة عظيمـة فيما يتعلّق بـاللّغة. وعـلى الرّغم من إسـاءة استعمال الألفـاظ التّـافهـة من جـانبـه، فـإنَّ بمقدوره الحديث بلا انتهاء عن كـلّ شخص آخر في الكتـاب. ويبدو لي أنَّ من المحتمل تماماً أنَّه أمـلى القصَّة عـلى شخص آخر، أي عـلى الحلّاق والقسّ، صديقَيْ دون كيخوته الطيّبينْ. وقد وضعا القصَّـة في الشّكـل الأدبي المنـاسب ـ بـاللّغـة الإسبـانيّـة ـ ثمَّ سلّما المخـطوط إلى سيمون كاراسكو، العَزَب من سالامانكا الذي يمضي لترجمته إلى اللّغة العربيّة. ويعثر سرفانتس على الترجمـة، ويجعلها تـترجم إلى الإسبانيّـة ثمَّ ينشر الكتاب «مغامرات دون كيخوته».

ـ ولكن لماذا يتكلّف سانشو والآخرون كلّ هذا العناء؟

ـ لشفاء دون كيخوتـه من جنونـه، فهم يريـدون إنقاذ صـديقهم. تذكّر أنَّهم في البداية يحـرقون كتب الفـروسيّة الخـاصَّة بـه، ولكن ذلك

لا يُفْضي إلى نتيجة، ذلك أنَّ الفارس لا يتخلّى عمّا يسلب لبّه، ثمَّ في وقت أو آخر، يمضون للبحث عنه متنكّرين في أشكال مختلفة ـ كامرأة تواجه محنـة، كفارس المـرايا، كفـارس القمر الأبيض ـ لكي يجتـذبوا دون كيخوته إلى الدّار من جديد. وفي نهاية المطاف يُكلّلون بالنّجـاح بـالفعل. وكـانت الفكرة هي الإمسـاك بمرآة في مـواجهة جنـون دون كيخوته، لتسجيل كلّ انطلاقة عبثيّـة ومثيرة للسخـرية من انـطلاقات خياله، بحيث أنّه عندما يقرأ الكتـاب، في نهاية المـطاف، يرى خـطأ الأساليب التي يلجأ إليها.

ـ يعجبني ذلك.

ـ نعم، ولكن هناك انعطافة أخيرة، فدون كيخوته لم يكن في رأيي مجنوناً حقّاً، وإنّما كان يتظاهر بأنّه كذلك. وفي حقيقة الأمـر فقد دبّـر الأمر كلّه بنفسه. تذكّر أنّـه على امتـداد الكتاب تشغله مسـألة الجيـل المقبل، فهو يتساءل مراراً وتكراراً عن مدى دقّة كاتب سيرة حياتـه في تسجيل مغامراته. وهذا يفترض معرفة من جانبه، فهـو يعرف مسبّقـاً بوجود من يسجّل سيرة حيـاته، ومن عسـاه يكون غـير سانشـو بانـزا التّابع الأمين، ذلك الذي اختاره دون كيخوته لهذا الغرض عـلى وجه الدّقة؟ وبالطّريقـة نفسها اختـار الثلاثـة الآخرين للقيـام بالأدوار التي حدّدها لهم. فلقـد كان دون كيخـوته هـو الذي دبّـر أمر ربـاعيٍّ ابن نجـلي. ولم يختر المؤلّفـين فحسب، وإنّما ربّمـا كـان هـو الـذي تـرجم المخـطوط العربي إلى الإسبـانيّة إذ لا ينبغي أن نتصـوّر أنّ ذلـك أمـر يتجاوز قدرته. وبالنّسبة إلى رجل بالغ البراعة في فنّ التنكّـر، ويجعل بشرته تميل إلى اللّون الأسمر، ويرتدي الملابس العربيّة، فإنّ ذلك لا

يمكن أن يكون أمراً بالغ الصّعوبة، وأحبّ أن أتخيَّل ذلك المشهد في سوق طليطلة، فسرفانتس يستعين بدون كيخوته ليكشف مغاليق قصّة دون كيخوته نفسه. وذلك أمر بالغ الجمال.

ـ ولكنّك لم توضح بعد السرّ في أنَّ رجلاً مثل دون كيخوته يقطع استمراريّة حياته الهادئة لينغمس في مثل هذه الخدعة المعقّدة.

ـ ذلك هو الجانب الأكثر إثارة للاهتمام. ففي اعتقادي أنَّ دون كيخوته كان يُجري تجربة. لقد أراد أن يختبر مدى قابليّة رفاقه للانخداع. إذ راح يتساءل: هل من الممكن الوقوف أمام العالم بأقصى قدر من الثّقة بالنّفس وإطلاق الأكاذيب واللّغو؟ هل من الممكن القول إنَّ طواحين الهواء هي فرسان مسلّحون وأنَّ حوض الحلّاق هو غطاء واقٍ للرأس وأنَّ الدّمى بشر حقيقيّون؟ هل سيكون من الممكن إقناع الآخرين حتى بإقرار ما قاله على الرّغم من أنَّهم لا يصدّقونه؟ وبتعبير آخر إلى أي مدى سيتحمَّل النَّاس الهرطقات إذا كانت مصدر تسلية لهم؟ والإجابة واضحة. أليست كذلك؟ إلى أي مدى يمكن تصوّره. ذلك أنَّ البرهان على ذلك هو أنَّنا مازلنا نقرأ الكتاب، ومايزال مسلّياً إلى حدٍّ كبير بالنّسبة إلينا، وذلك هو في نهاية المطاف ما يريده، أيّ شخص من كتّاب ـ أن يُسلّيه.

تراجع أوستر مستنداً إلى الأريكة، وابتسم بسرور ساخر، وأشعل سيجارة. وقد كان من الواضح أنَّ الرّجل يستمتع بوقته، ولكنّ الطّبيعة المحدَّدة لذلك السّرور راوغت كوين. فلقد بدا أنَّه نوع من الضّحك بلا صوت، نكتة توقّفت قبل نقطة التّفجير الضّاحك للموقف، مرح معمّم لا هدف له. وكان كوين على وشك أن يقول

شيئاً في معرض الردّ على نظريّة أوستر، ولكنَّه لم يمنح الفرصة لذلك. فعندما فتح فمه ليتحدَّث قاطعته صلصلة مفاتيح عند الباب الأمامي، وتردَّد صوت فتح الباب ثمَّ إغلاقه، واندفاعة فجائيَّة لمجموعة من الأصوات. وأضاء وجه أوستر بالبهجةِ لدى سماعه الصوت، ونهض من مقعده، واستأذن من كوين، وانطلق مسرعاً نحو الباب.

سمع كوين ضحكاً يتردَّد في الدّهليز، صادراً عن امرأة أوّلاً، ثمَّ عن طفلٍ ـ وقد تردَّد الصّوت أعلى فأعلى، ثمَّ تقطّع في نثار مُدَوٍّ ـ ثمَّ انطلاقة جهيرة لضحكات أوستر. وتحدَّث الطّفل، قائلاً:

ـ أبي، انظر ماذا وجدت!

ثمَّ أوضحت المرأة أنَّ ما عثر عليه الطّفل كان ملقى في الشّارع، ولِمَ لا؟ إنَّه يبدو جيِّداً تماماً. وبعد لحظة سمع الطّفل يعدو نحوه مقبلاً من الدّهليز. واندفع الطّفل نحو غرفة الجلوس، ولمح كوين، وتجمَّد في موضعه. كان فتى أشقر الشّعر، في حوالي الخامسة أو السّادسة من العمر.

قال كوين:

ـ مساء الخير.

انكمش الطّفل مسرعاً، واعتصم بالخجل، وأفلح في الردّ بما لا يتجاوز «مرحباً» خافتة. وكان يمسك في يده اليمنى بشيء أحمر لم يستطع كوين تبيّنه. فسأله عمّا عساه أن يكون.

ردّ باسطاً يده ليريه إيَّاه:

ـ إنَّه يويو، وجدته في الطّريق.

ـ هل هو سليم؟

هزّ الطّفل كتفيه في إشارة صامتة مبالغ فيها.

ـ لا أعرف. سِيري لا تستطيع تشغليه، وأنا لا أعرف كيفيّة القيام بذلك.

سأله كوين عمّا إذا كان بمقدوره أن يجرّبه، فسار الطّفل نحوه، ووضعه في يده. وفيما هو يفحص اليويو كان بمقدوره سماع صوت تنفّس الطّفل إلى جواره وهو يرقب كلّ حركة يأتيها. كان اليويو من النّوع المطاطيّ، مشابهاً للأنواع التي كان يلهو هو بها قبل سنوات، ولكنّه أكثر تعقيداً بشكل من من الأشكال، فهو من إبداعات عصر الفضاء. وقام كوين بتوسيع الأنشوطة الموجودة في نهاية الخطّ حول إصبعه الأوسط، ونهض واقفاً، وجرّب اليويو، فندّ عنه وهو يهبط صوت صفير منغّم، وانطلقت داخله شرارات. وشهق الطّفل من المفاجأة، ولكنّ اليويو توقّف متدلّياً في نهاية خيطه.

دمدم كوين قائلاً:

ـ قال فيلسوف عظيم يوماً إنّ الطّريق الصّاعد والطّريق الهابط هما طريق واحد.

قال الفتى:

ـ لكنّك لم تجعله يصعد. لقد هبط فقط.

ـ ينبغي عليك أن تواصل المحاولة.

كان كوين عاكفاً على الاستعداد لمحاولة أخرى عندما دخل أوستر وزوجته الغرفة. وتطلّع بناظريه فرأى المرأة أوّلاً. وفي تلك اللّحظة القصيرة عرف أنّه يواجه مأزقاً. كانت امرأة ممشوقة القوام، نحيفة،

شقراء باهرة الجمال، تفيض بالحيويّة والسّعادة، وبدا أنّها تجعل كلّ ما حولها يتبدّد بقوّة حضورها. وكان ذلك شديد الوطأة على كوين. أحسَّ أنَّ أوستر يغيظه بالأشياء التي فقدها، وقد أجاب على ذلك بالحسد والغضب، ورثاء للذّات حافل بالعذاب. نعم إنّه بدوره كان يجب أن تكون له هذه الزّوجة وهذا الطّفل، وأن يجلس طول النّهار مثرثراً عن الكتب العتيقة، وأن يحاط باليويوات وأطباق البيض باللّحم وأقلام الحبر. وراح يناشد نفسه أن تسعى تحقيق هذا كلّه.

رأى أوستر اليويو في يده، وقال:

ـ أرى أنّكما قد التقيتما بالفعل.

ثمَّ قال للصبي:

ـ دانييل، هذا هو دانييل.

وقال لكوين بالابتسامة السّاخرة ذاتها:

ـ دانييل، هذا هو دانييل.

انفجر الصّبيّ، وقال:

ـ الجميع دانييل.

قال كوين:

ـ صحيح، أنا أنت، وأنت أنا.

صاح الصبيّ وقد مدّ ذراعيه وراح يدور في الغرفة كالجيروسكوب:

ـ وتستمرّ في الدوران.

قال أوستر ملتفتاً إلى المرأة:

ـ وهذه هي زوجتي، «سيري».

ابتسمت الزوّجة ابتسامتها، وقالت إنّها سعيدة بلقاء كوين، وكأنّها تعني ذلك، ثمّ مدّت يـدها إليـه فصافحهـا شاعـراً بالنّحـافة المـذهلة لعظامها، وسألها عمّا إذا كانت نرويجيّة.

قالت:

ـ كثيرون لا يعرفون هذا.

ـ هل جئتِ من النرويج؟

قالت:

ـ بشكل غير مباشر، عن طريق نورتفيلد، بولاية مينيسوتا.

وضحكت الزوجة فأحسّ كوين بجزء إضافي آخر صغير من نفسـه يتهاوى.

قال أوستر:

ـ أعلم أنّ هـذا اقتراح يـأتي في آخر لحـظة، ولكن إذا كان لـديك بعض الوقت، فلم لا تبقى وتتناول طعام العشاء معنا.

قال كوين مجاهداً للسيطرة على نفسه:

ـ آه، هـذا كرم بـالغ، ولكنّني يتعـينّ عليّ الانصراف حقّـاً، فقـد تأخّر بي الوقت الآن.

وبذل جهداً أخيراً، مبتسماً لزوجة أوسـتر، وملوّحاً للصبيّ، وقـال وهو يسير نحو الباب:

ـ إلى اللّقاء يا دانييل!

صحبه أوستر إلى الباب، وقال:

ـ سأتّصل بك حالما تُصرف قيمة الشيـك، هل اسمـك مسجّل في دليل الهاتف؟

قال كوين:

ـ نعم، وهو الاسم الوحيد من نوعه.

قال أوستر:

ـ إذا احتجت إليَّ لأي شيء فاتّصل بي، سيسعدني أن أساعدك.

مدّ أوستر يده ليصافحه، وأدرك كوين أنَّه مايزال يمسك بـاليويـو، فوضعه في يد أوستر اليمنى، وربّت على كتفه ومضى.

هـا قد حـلّ الضياع الآن بكـوين. فلم يعد لـديه شيء، ولم يعـد يعرف شيئاً، وكان يعرف أنّه لا يعرف شيئاً، فهو لم يُرسَل إلى البداية مجدَّداً فحسب، وإنّما أصبح الآن قبل البـداية، وقبـل البدايـة بكثير، بحيث أنَّ الوضع كان أسوأ من أيّ نهاية كان في وسعه تخيُّلها.

أوضحت سـاعته أنَّ السّـاعة قـد بلغت السّادسـة تقريبـاً. ومضى كوين إلى الدّار من خلال الطّريق الذي جاء عـبره، موسِّعـاً في خطاه مع كلّ كتلة مبانٍ جديدة يقطعهـا. ولدى بلوغـه الشّارع الـذي يقيم فيه كان يعدو عدواً. وحدَّث نفسه بـأنَّ اليوم هـو الثاني من حـزيران (يونيو). وحاول أن يتذكَّر ذلك. هـذه هي نيويـورك، وغداً سيكـون الثّالث من حزيران (يونيـو). وإذا ما سـار كلّ شيء عـلى مايـرام فإنَّ اليوم الثّالث سيكون الرابع من حزيـران (يونيـو). ولكن ما من شيء مؤكَّد.

مـرّت منذ وقت طـويل السّـاعـة التي كـان ينبغي أن يتّصـل فيهـا بفرجينيا ستلمان، وناقش نفسه إذا كان ينبغي عليه القيام بذلك. هل سيكون من الممكن تجاهلهـا؟ هل بـوسعه الآن التخـلّي عن كلّ شيء عـلى هذا النحـو؟ قال لنفسـه: نعم، هـذا ممكن. بـوسعـه أن ينسى القضيّة، ويعود إلى مألوف عاداته، ويؤلِّـف كتاباً آخر. بمقدوره القيام بـرحلة إذا أراد ذلـك، أو مغـادرة البـلاد لبعض الـوقت، بـإمكـانـه الذهاب إلى باريس، على سبيـل المثال. نعم ذلـك بالإمكـان، ولكنّه حدّث نفسه بأنَّ أيّ مكان سيكون مناسباً، أيّ مكان على الإطلاق.

جلس في غـرفة الجلوس، وراح يتـطلّع إلى الجدران، وتـذكّـر أنّها كـانت في وقت من الأوقات بيضـاء اللّون، ولكنّها الآن أفـرزت ظّـلاً غريباً من ظلال اللّون الأصفر، وربّما ضربت ذات يوم إلى المـزيد من القتـام، وانحدرت إلى الـرّمـاديّ، أو حتّى إلى البنيّ مثـل قـطعـة من فاكهة يتقادم بها العهد. وقال لنفسه إنَّ حائـطاً أبيض يصبح أصفـر، ويغـدو حـائـطاً رمـاديّـاً. يُستنفـد الـطلاء، وتجثم المـدينـة متـربّصـة بسخامها، ويتداعى الجصّ من الدّاخل. تغيُّرٌ ثمَّ مزيدٌ من التغيُّر.

دخّن سيجارة، ثمَّ أخرى، ثمَّ أخرى، ونظر إلى يـديه فـرأى أنّهما متّسختـان، ونهض ليغسلهـما. وفي الحـمّام، ومـع انسيـاب المـاء في المغسلة، قرَّر أن يحلق ذقنه كذلك. وضع رغوة الصّابون على وجهه، وأخـرج شفرة نـظيفة، وشرع في حـلاقة ذقنـه، ولسبب من الأسباب وجد أنَّ النَّظر إلى المرآة ليس بالأمـر السّار، فـواصل تجنّب النّـظر إلى عينيه. قال محدِّثاً نفسه: إنّك توغل في العمـر، وتتحوّل إلى «ضرطـة» قديمة. ثمَّ مضى إلى المـطبخ وتنـاول وعاء من الكـورنفليكس، ودخّن سيجارة أخرى.

بلغت السّاعة الآن السّابعة. ومن جديد ناقش نفسَه في ما إذا كان عليه الاتّصال هـاتفيّاً بفـرجينيا ستلمان. وفيـما هو يمعن في التّفكـير في المسألة، خطر ببالـه أنّه لم يعـد له رأي في هـذا الموضـوع. فقد أدرك الحجّة التي تؤيِّد القيام بالاتّصال، وفي الوقت نفسـه استوعب الحجّـة الـدّاعية لعـدم إجراء الاتّصـال. وفي النّهـايـة حسمت قـواعـد آداب السّلوك الأمر. فلن يكون من الإنصاف الاختفاء دون إبـلاغها أوّلاً. وبعد ذلك سيكون الأمر مقبولاً تماماً. وذهب إلى القول المنطقي بأنّك

مادمت تخبر النّاس بما أنت مُقْدِمٌ عليه فلا بأس بالأمر، ثمّ تغدو حرّاً في القيام بما تريده.

غير أنَّ الرّقم كان مشغولاً. وانتظر خمس دقائق أخرى وطلبه من جديد. ومجدَّداً كان الرّقم مشغولاً. وعلى امتداد السّاعة التالية راوح كوين بين طلب الرّقم والانتظار، ليصل دائماً إلى النتيجة ذاتها. وفي النّهاية طلب عاملة الهاتف وسألها عمّا إذا كان الهاتف الذي يحمل هذا الرّقم معطّلاً، فأبلغته أنه سيتم تقاضي ثلاثين سنتاً منه مقابل هذه الخدمة، ثمَّ تناهت إلى سمعه قرقعة الخطوط، وصوت اتّصال آخر، وأصوات أخرى. وحاول كوين تخيّل ما تبدو عليه عاملات الهاتف، ثمَّ حادثته المرأة الأولى مجدَّداً: كان الرّقم مشغولاً.

لم يدر كوين كيف يفسِّر الأمر. فقد كانت هناك احتمالات كثيرة للغاية حتى إنّه لم يستطع مجرَّد البدء. ستلمان؟ السّماعة مرفوعة؟ شخص آخر تماماً؟

قام بتشغيل جهاز التلفزيون، وتابع الجولتين الأوّليين في مباراة فريق الميتس. ثمَّ اتّصل بالرّقم من جديد. الشيء نفسه. وفي قمّة الجولة الثّالثة سجّل فريق سانت لويس. قاعدة مقتحمة. لعبة خارج الملعب تؤدّي خارجه، وتحليق هو إلى التضحية أقرب. وحقّق فريق الميتس تعادلاً مع تلك الانطلاقة في النّصف الذي احتكروه من جولتهم في رمية مزدوجة من ولسون وأخرى فرديّة من يونجبلود. وأدرك كوين أنّه لم يكترث بالأمر، وأطلّ إعلان تجاريّ عن نوع من الجعة، فأوقف الصّوت، وللمرّة العشرين حاول الاتّصال بفرجينيا ستلمان، وللمرّة العشرين حدث الشيء نفسه، وفي قمَّة الجولة الرّابعة

سجّل فريق سانت لويس خمس انطلاقات فأوقف كوين الصّورة كذلك إلى جوار الصّوت. وعثر على كرّاسته الحمراء، وجلس إلى مكتبه، وكتب بانتظام على امتداد السّاعتين التاليتين، ولم يكترث بمراجعة ما كتبه، ثمَّ اتّصل هاتفيّاً بفرجينيا ستلمان، وتلقّى إشارة بانشغال الرّقم. وألقى بالسمّاعة بعنف بالغ حتى إنَّ البلاستيك شرخ. وعندما حاول الاتّصال من جديد، لم يصدر عن الهاتف الصوت المشير إلى إمكانيّة الاتّصال. ونهض ومضى إلى المطبخ، وأعدّ وعاء آخر من الكورنفليكس، ثمَّ ذهب إلى الفراش.

في حلمه، الذي نسيه في وقت لاحق، ألفى نفسه سائراً في برودواي، وقد أمسك بيد ابن أوستر.

أمضى كوين اليوم التّالي منطلقاً على قدميه. وقد بدأ مبكّراً، بعيد السّاعة الثّامنة، ولم يتوقّف للتّفكير في المكان الذي سيتوجّه إليه، وتصادف أنَّه رأى في ذلك اليوم أشياء لم يلحظها من قبل قطّ.

كان يمضي كلّ عشرين دقيقة إلى كشك للهاتف، ويطلب رقم فرجينيا ستلمان. ومثلما كان الحال عليه البارحة كذلك كان اليوم، ولكن غدا كوين الآن يتوقّع أن يكون الرّقم مشغولاً، ولم يعد يكترث لذلك. وغدت علامة شغل الخطّ مقابلاً لخطاه. بندول إيقاع يتردّد نبضه بانتظام في قلب ضجّة المدينة العشوائيّة. وكان هناك شعور بالارتياح في الفكرة القائلة بأنَّه ما إن يطلب الرّقم حتّى يجد الصّوت هناك في انتظاره، دون أن ينحرف عن رفضه قطّ، نافياً الحديث وإمكانيّة الحديث، دائباً كخفق قلب. لقد حيل الآن بينه وبين بيتر وفرجينيا ستلمان. ولكنْ في وسعه أن يُرضي ضميره بفكرة أنَّه مايزال

يحاول، وأيّاً كان الظّلام الذي يمضيان به إليه فإنّه لم يتخلّ عنهما بعد.

مضى في برودواي إلى الشّارع الثاني والسّبعين، وانعطف شرقاً إلى سنترال بارك وست، ومضى إلى الشّارع التّاسع والخمسين وتمثال كولومبس. وهناك انعطف من جديد شرقاً، ماضياً على امتداد سنترال بارك ساوث حتّى ماديسون أفنيو، ثمَّ مضى قدماً باتّجاه قلب المدينة إلى محطّة الجراند سنترال. وبعد الدوران عشوائيّاً على امتداد عدّة كتل بين المباني، واصل المسير جنوباً لمسافة ميل، ووصل إلى تقاطع برودواي مع فيفث أڤنيو والشّارع الثالث والعشرين، وتمهّل ليلقي نظرة على فلاتيرون بيلدنج، ثمَّ غيّر المسار إلى أن بلغ سڤنث أفنيو، وعندها اتّجه يساراً وأوغل في المسير باتّجاه قلب المدينة. وفي شريدان سكوير انعطف شرقاً من جديد، وسار متمهّلاً عبر ويڤرلي پليس، قاطعاً سكست أڤنيو، وواصل السّير إلى واشنطن سكوير. واجتاز القوس، وشقّ طريقه جنوباً وسط الحشود، متوقّفاً قليلاً ليشاهد لاعباً وهو يؤدّي ألعابه على حبل غير محكم الشدّ بين وتد خفيف وجذع شجرة، ثمَّ غادر الحديقة الصّغيرة عند ركنها الشرقيّ بقلب المدينة، ومضى خلال مشروع الإسكان الجامعي ببقع النجيل الأخضر المتناثرة فيه، وانعطف يميناً إلى شارع هيوستون. وفي وست برودواي انعطف مجدّداً، إلى اليسار هذه المرّة، ومضى قدماً إلى كانال. وانعطف بزاوية إلى يمينه، ومضى في حديقة تشبه جيب الصديري ودار حول شارع ڤاريك، وسار إلى جوار المبنى رقم ٦ الذي كان يقطنه ذات يوم، ثمَّ استعاد خطّ سيره الجنوبيّ، عائداً من جديد إلى وست برودواي حيث يختلط بشارع ڤاريك. ومضى به

وست برودواي إلى قاعدة المركز التجاري العالمي، ومنها إلى بهو أحد الأبراج حيث أجرى المكالمة الثّالثة عشرة اليوم لفرجينيا ستلمان. وقرَّر أن يتناول شيئاً، ودخل أحد محال إعداد الوجبات السّريعة، في الطّابق الأرضي، وتناول الشطيرة على مهل، فيما كان ينجز بعض العمل في الكرّاسة الحمراء. وفيما بعد يمّم باتّجاه الشّرق مجدَّداً، متحوِّلاً خلال الشّوارع الضيِّقة في حيّ المال والأعمال، ثمَّ أوغل باتّجاه الجنوب، نحو باولنج جرين، حيث شاهد الماء والنوارس المحلِّقة فوقه في منتصف النهار. وفكَّر للحظة في الانطلاق في جولة باستخدام عبّارة ستيتين أيلاند، ولكنَّه عدل عن ذلك، وبدأ بالعودة من خلال الطّريق نفسه إلى الشّمال. وانحرف يميناً في شارع فولتون، وسار في إيست برودواي الذي يشكِّل طريقاً يمضي باتّجاه الشمال الشّرقيّ، ويجتاز وَخَمَ لُوَر إيست سايد صعوداً إلى الحيّ الصّيني. ومن هناك شقَّ طريقه إلى باوري، ماضياً عبر الشّارع الرّابع عشر، ثمَّ مضى يساراً في خطّ شافولي عبر يونيون سكوير، وواصل المسير مبتعداً عن قلب المدينة، على امتداد بارك أڤنيو ساوث. وفي الشّارع الثّالث والعشرين انطلق مسرعاً باتّجاه الشّمال، وبعد عدد محدود من كتل المباني انعطف يميناً من جديد، ومضى مسافة تعادل كتلة مبانٍ واحدة، ثمَّ سار في ثرد أڤنيو بعض الوقت. وفي الشّارع الثاني والثلاثين انعطف يميناً، ووصل إلى سكند أڤنيو، وانعطف يساراً، ومضى صعداً لمسافة تعادل ثلاث كتل مبانٍ، ثمَّ انعطف يميناً لمرّة أخيرة، وعند ذلك ألفى نفسه أمام فرست أڤنيو، وعندئذٍ اجتاز كتل المباني السّبع الباقية إلى مبنى الأمم المتّحدة، وقرَّر أن ينال قسطاً قليلاً من الرّاحة. وجلس على مقعد خشبيّ في السّاحة، والتقط نفساً عميقاً، مسترخياً

في الهواء تحت الضّياء بعينين مغمضتين، ثمَّ فتـح الكرّاسـة الحمراء، والتقط قلم الأصمّ الأخرس من جيبه، وفتح صفحة جديدة.

للمرّة الأولى منذ شرائه الكرّاسة الحمراء لم يكن لما كتبه في ذلـك اليوم من صلة بقضيّة ستلمان، وإنّما ركّز بـالأحرى عـلى الأشياء التي رآها خلال سيره. ولم يتوقّف للتفكير في ما يقوم به، ولم يحلل النتـائج المحتملة لهذا التصرّف غير المألوف، وشعـر بدافـع يحدوه إلى تسجيـل حقائق معيّنة، وأراد أن يسجّلها على الورق قبل أن ينساها:

اليـوم، ومثـلما لم يحـدث مـن قـبـل: المشرّدون، الضّـائعون، السيّـدات المثقلات بمـواد التسوّق، الهـائمون عـلى وجوههم والسكـارى. إنّهم يتراوحـون بين البـائسين فحسب والمنكسرين عـلى نحـوٍ تعس، وحيثـما ألتفـت وجدتهم هنالك، في الأحياء المترفة والتّعسة.

بعضهم يستجـدي بما يشبـه الكبريـاء، ويبدون كـما لو كانوا يقولون: أعطني هذا المـال، وسرعان مـا سأكـون مع بقيّتكم، منـدفعاً جيئـة وذهابـاً في جولاتي اليـوميّة. وتخـلّى آخـرون عن الأمـل في التخلّص من تشرّدهم. يجلسـون هنالك في الطّريق الفرعي ومعهم قبعتهم أو قدح أو علبة، دون أن يكترثوا حتّى بالتطلّع إلى المارّة، وهم أشدّ انكساراً حتّى من أن يشكروا أولئك الذين يلقون بقطعة نقد معدنيّة إلى جـوارهم. ومع ذلـك فهناك آخـرون يحاولـون العمـل مقابل المـال الذي يتلقـونه: فهنـاك العميان الـذين يبيعون الأقلام، ومدمنو الشّراب الذين يغسلون زجاج سيّارتـك. والبعض يـروون القصص، وتكون عـادة صوراً مـأساويّـة عن حياتهم، وكأنّما ليقدّموا لمن يقدّمون لهم المال شيئاً مقابل رقّة قلوبهم، حتّى وإن كان هذا الشيء كلمات فحسب.

وللبعض الآخر مواهب حقيقيَّـة. العجوز الأسـود ـ على سبيل المثال ـ الذي مضى اليوم يـرقص رقصاً إيقـاعيّاً وهـو يقـذف بالسّجـائر عـلى طريقـة المشعـوذين، مـايـزال عـلى احتفاظه بكبريائه، إذ بدا واضحاً أنّه كان من ممثّلي المسرح الكوميدي، وقـد ارتدى حلّة أرجـوانيّة مـع قميص أخضر وربـطة عنق صفراء، وقـد ثبتت عـلى فمـه ابتسـامـة شبـه مستعـادة من أيّام المسرح. وهنـاك أيضاً المصـوّرون الذين يـرسمون بـأصابـع الطّبشـور على الأرض، والمـوسيقيّون: عازفـو الساكسفون، وعازفو الجيتار، وعازفو الكمان، بـل إنّك قد تُصادف عبقريّاً، كما حدث لي اليوم.

عـازف كـلارينت، لا يبـدو منتميـاً إلى مـرحلة زمنيّـة معيّنة، يعتمر قبعة تخفي وجهه، ويجلس متـربّعاً في طـريق فرعي، على طريقة مـلاعبي الحيّات. وأمـامه دميتـان على شكل قردين ممّا يُملأ بالزنبرك، وفي يد أحـدهما رقّ وفي يـد الآخر طبل. ومع انطلاق أحدهما في هـزّ الرّق والآخـر في دقّ الـطّبل، الأمـر الذي يؤدّي إلى انبعـاث إيقـاع غـريب ودقيق، يمضي الرّجل في ارتجال تنويعات دقيقة ولا متنـاهية على الكلارينت التي يحملها، وجسمه يتـأرجح متصلّبـاً إلى الأمـام وإلى الوراء، مقلّداً بنشـاط إيقـاع القـردين. وقـد عـزف على نحـو طروب، ويتـدفّق، أنغامـاً رقيقة منسـابـة بطبقة نغميّة هادئة، وكأنّه سعيد بكونه هنـاك مع صـديقيه الآليين، منغمساً في العالم الذي أبدعه، من غـير أن يتطلّع إلى أعلى قطّ. وتواصل ذلك بلا انتهاء، وعلى النّحو نفسـه في نهايـة المـطاف دائـماً، ومـع ذلـك فكلّما امتـدّ استـماعي تعذّرت عليَّ المغادرة.

لأَنْ يكـون المـرء في قلب المـوسيقى، ولأَنْ يُجْتَـذَب إلى

دائرة تكراراتها، فربّما كان ذلك هو الموضع الـذي يمكنه أن يختفي فيه.

لكنّ الشحّـاذين والعازفـين والمصـوّرين لا يشكّلون إلاّ جزءاً صغيراً من سكّـان عالم التشرّد. إنّهم الأرستقـراطيّة، نخبة السّاقطين. وأمّا الأكثر عدداً فهم أولئـك الّذين ليس لديهم ما يقومون به، ولا مكان يتـوجّهون إليـه. الكثيرون سكـارى، ولكنّ هـذا التّعبـير لا ينصف الـدّمـار الـذي يجسّـدونه. أشخـاص ضخام يجسّـدون اليأس، ويـرتدون الخرق، وقد خدشت وجوههم، وأخـذت تدمى، يجـرّون أقدامهم جرّاً عـبر الشّوارع، وكـأنّهم قيّدوا إلى سـلاسل. نـائمون في مـداخل البيـوت، ويجرّون أقـدامهم على نحـوٍ مجنـون وسط حـركـة المـرور، ويتهـالكـون منهـارين في الحـواري، ويبدون في كـلّ مكـان في اللّحـظة التي تبحث خلالها عنهم. إنّ بعضهم سيموت جوعاً، وبعضهم الآخر سيلقى حتفه من جرّاء التعرّض للبرد والمطر، وفـريق ثالث سيتعرّض للضرب، أو يُحرَق، أو يُعذَّب.

ومقـابل كـلّ شخص يضلّ في هـذا الجحيم عـلى وجـه التّحديد، هناك كثير من الآخـرين الذين أودعـوا في سجن جنونهم، عاجزين عن الخروج إلى العـالم الذي يقف عنـد أعتاب أجسامهم، وعـلى الرّغم من أنّهم يبـدون هنالـك، إلاّ أنّه لا يمكن حسبانهم في عداد الموجودين. فعلى سبيـل المثال، هناك الرّجل الذي يمضي في كلّ مكان بمجموعة من عِصِيّ قـرع الطّبـول، لاطماً بهـا الرّصيف بـإيقاع طـائش، عبثيّ، منحنيـاً على نحـو مرتبـك وهـو يتقـدّم في الشّـارع ويقـرع الإسمنت مـراراً وتكـراراً. وربّمـا كـان يحسب أنّـه يؤدّي عمـلاً مهمّاً، ولـو لم يقم بما هـو عـاكف عليـه فلربّمـا

انهارت المدينة، وربّما كان القمر سيخرج عن مداره، ويرتطم بالأرض. وهناك من يحادثون أنفسهم، ومن يدمدمون، ومن يصرخون، ومن يلعنون، ومن يتأوّهون ألماً، ومن يسردون على أنفسهم القصص وكأنّهم يحكونها لشخص آخر. وهناك الرّجل الذي رأيته اليوم جالساً وكأنّه كومة من القمامة أمام محطّة جراند سنترال، والحشود تنطلق متجاوزة إيّاه، وهو يقول بصوت عالٍ مليء بالفزع: «فرقة المارينز الثّالثة... التهام النّحل... النّحل يزحف خارجاً من فمي». أو المرأة التي كانت تهتف برفيق خفيّ: «وماذا إذا لم أكن أريد ذلك! وماذا إذا لم أكن أريد ذلك»!

هناك النّساء بأكياس تسوّقهنّ، والرّجال بعلبهم المصنوعة من الورق المقوّى، وهم يحملون ما لديهم من مكان لآخر، منتقلين إلى الأبد، وكأنّ لمكان وجودهم أهميّة تذكر. وهناك الرّجل الملتفّ بالعلم الأمريكيّ. والمرأة التي تضع قناع هالوين على وجهها. وهناك الرّجل الذي يرتدي المعطف الذي نال منه البلى، وقد لفّ حذاءه في الخرق، حاملاً قميصاً أبيض على حمّالته وقد تمّ كيّه على نحوٍ رائع، ومازال على حاله في الغلاف البلاستيكي الذي يستخدمه محلّ الكيّ والتنظيف. وهناك الرّجل الذي يرتدي حلّة رجال الأعمال وقدماه عاريتان، وقد اعتمر غطاء ممّا يُستخدم لوقاية الرّأس في مباريات كرة القدم الأمريكيّة. وهناك المرأة التي غطّت ملابسها من قمّة رأسها حتّى أخمص قدمها بأزرار حملات الانتخابات الرئاسيّة. وهناك الرّجل الذي يسير وقد وضع رأسه بين كفّيه منخرطاً في البكاء على نحو هستيري، وهو يردّد مراراً وتكراراً: «لا، لا، لا. مات. لم يمت. لا. لا. مات. لم يمت».

قال بودلير[1]: يلوح لي أنّني ساظلّ على الدّوام سعيداً في المكان الذي لست موجوداً فيه. أو إذا شئنا المزيد من الدِّقّة: حيث لا أوجد أعثر على ذاتي، أو بالأحرى إذا شئنا المواجهة المباشرة: في أيّ مكان خارج العالم.

كان المساء قد أرخى على وجه التّقريب سدوله. وطوى كوين الكرّاسة الحمراء، ووضع القلم في جيبه. وأراد أن يفكّر شوطاً قصيراً آخر في ما كتبه ولكنّه وجد أنّه لا يستطيع ذلك. فقد كان النّسيم حوله رقيقاً، ويوشك أن يكون عليلاً، وكأنَّه لم يعد ينتمي إلى المدينة. ونهض من المقعد وتمطّى مادّاً ذراعيه وساقيه، ومضى إلى كشك للهاتف فاتّصل بفرجينيا ستلمان، ثمَّ مضى لتناول طعام العشاء.

أدرك، في المطعم، أنَّه قد وصل إلى قرار في هذه الأمور. فقد كانت الإجابة هنالك، حتّى من غير أن يدري بها، جاثمة في رأسه، وقد اكتمل تكوينها. إنّه يدرك الآن أنَّ إشارة انشغال الخطّ لم تكن

(1) بودلير، شارل (١٨٢١ ـ ١٨٦٧ م) الشّاعر الفرنسي الكبير، يتألّف ديوانه الصّادر في ١٨٥٧ م بعنوان «أزهار الشّر» من ١٠١ قصيدة غنائيَّة رائعة الصّياغة، وتعدّ من عيون الشّعر الفرنسي، وربّما كانت تستمدّ جانباً من الافتتان العالمي بها من أنَّها تمثّل محاولة جريئة لإبداع النّظام والجمال، من خلال اكتشاف العلاقات الخفيّة، أو التوافقات في عالم ينظر إليه أساساً باعتباره قبيحاً، وقاهراً، وعبر لغة لها موسيقاها الخاصّة، وصور موحية يستكشف بها الشّاعر معناه الخاصّ الذي يضفيه على العزلة والنفي والخطيئة والضّجر والكآبة. ولا يخلو من دلالة أن يكون بول أوستر قد قدَّم ترجمات تفصيليَّة لجوانب من عالم بودلير.

(هـ . م.)

عشوائيّة، وإنّما كانت علامة دالّة، وكانت تخبره بأنّه ليس في وسعه بعد فضّ اشتباكه مع القضيّة، حتّى وإن أراد ذلك. وكان قد حاول الاتّصال بفرجينيا ستلمان لكي يبلّغها أنّه قد نفض يديه، ولكنّ الأقدار لم تسمح بذلك. وتوقّف كوين لكي يتأمّل هذا. أكانت كلمة «القَدَر» هي حقّاً الكلمة التي أراد استخدامها؟ وقد بدت وكأنّها خيار مضجّر وعتيق الطّراز. ومع ذلك فقد اكتشف، وهو يضرب عميقاً باحثاً في أغوارها، أنّ ذلك هو بالضّبط ما قصد قوله. أو إذا لم تكن كذلك بالضّبط فقد جاءت أقرب إلى ما يقصده من أيّ لفظ كان يمكن أن يفكّر فيه. القدر بمعنى ما كان، ما تصادفت كينونته. كان شيئاً مثل ضمير الغائب غير المحدَّد في عبارة «إنّها تمطر» أو «إنّه اللّيل». لم يقدر كوين أن يعرف قطّ إلام يشير ضمير الغائب غير المجدَّد. ربّما كان وضعيّة معمّمة للأمور على نحو ما كانت، حالة الكينونة التي على أساسها وقعت أحداث العالم. وما كان في وسعه أن يكون أكثر تحديداً من ذلك في طرحه للأمر. ولكنْ ربّما لم يكن يبحث عن أيّ شيء محدَّد حقّاً.

كان ذلك هو القدر، إذن. وأيّاً كان مدى تفكيره فيه، وأيّاً كان مدى عمق رغبته في أن يكون مختلفاً، فإنّه لم يكن هناك ما يمكن القيام به حِيال الأمر. كان قد قال نعم في مواجهة اقتراح عُرض عليه، والآن لم يعد بمقدوره استرجاع «نعم» تلك أو القيام بإلغائها. وكان معنى ذلك شيئاً واحداً: أن ينجز الأمر. ولا يمكن أن يكون هناك ردّان. فالمسألة هي إمّا هذا وإمّا ذاك، وهكذا قضي الأمر، سواء شاء أم لم يشأ.

بدا جليّاً أنَّ الأمر المتعلِّق بأوستر هو من قبيل الخطأ. فربّما كان هناك ذات يوم تحرٍّ خاصّ في نيويورك يُدعى بول أوستر. لقد كان زوج ممرِّضة بيتر رجل شرطة متقاعداً، وبالتّالي فلم يكن شابّاً. وفي أيّام عمله كان هناك بلاشك أوستر يحظى بسمعة طيِّبة، وقد فكَّر فيه بصورة طبيعيَّة عندما طُلِب منه أن يشير بتحرٍّ خاصّ يمكن الاستعانة به. وقد ألقى نظرة على دليل الهاتف، ووجد شخصاً واحداً يحمل هذا الاسم، وافترض أنَّه أمام الرّجل الصّحيح، ثمَّ قدَّم رقم الهاتف لآل ستلمان. وعند هذه النقطة حدث الخطأ الثّاني، إذ وقع تشابك في الخطوط، واختلط رقمه برقم أوستر، ومثل هذا الأمر يحدث كلّ يوم، وهكذا تلقّى تلك المكالمة التي كان مقدَّراً لها على أيَّة حال أن تصل إلى الرّجل الخطأ. هذا كلّه يفسِّر الأمر.

غير أنَّ مشكلة واحدة بقيت. إذا كان عاجزاً عن الاتّصال هاتفيّاً بفرجينيا ستلمان، وإذا كان، كما يعتقد، قد أريد به ألّا يتّصل بها فكيف يتصرّف بالضّبط؟ لقد كانت وظيفته أن يحمي بيتر، وأن يتأكّد من أنَّه لن يلحق به أذى. فهل هناك أهميَّة لما تعتقده فرجينيا ستلمان مادام هو عاكفاً على القيام بما يفترض فيه أن يؤدِّيه؟ ينبغي على نحو مثالي لمن يؤدِّي عملاً أن يكون على اتّصال وثيق بمن كلَّفه بأداء هذا العمل. ولقد كان ذلك دائماً أحد مبادئ ماكس ورك. ولكن أكان ذلك ضروريّاً حقّاً؟ ومادام كوين يؤدِّي عمله فكيف يمكن أن يكون ذلك أمراً مهمّاً. وإذا كانت هناك ضروب من سوء الفهم فمن المؤكَّد أنَّه من الممكن إزالتها لدى تسوية القضيّة.

بإمكانه المضيّ قدماً، إذن، على نحو ما يرغب. وليس عليه أن

يتّصل بعد الآن بفرجينيا ستلمان. وبمقدوره التخلّي عن إشارة انشغال الخطّ التي تبدو كما لو كانت تتنبّأ بالغيب. ومن الآن فصاعداً لن يكون هناك ما يوقفه، وسيكون من المستحيل على ستلمان الاقتراب من بيتر بلا علم كوين.

دفع قيمة ما تناوله في المطعم، ووضع عوداً لتنظيف الأسنان معالجاً بالمنثول في فمه، وشرع في السّير مجدّداً. وفي الطّريق توقّف عند فرع لسيتي بنك يعمل على مدار اليوم، ودقّق في حسابه عن طريق الجهاز المخصّص لذلك. كان هناك ثلاثمائة وتسعة وأربعون دولاراً في حسابه، فسحب ثلاثمائة دولار، ودسّ النقود في جيبه، وواصل طريقه مبتعداً عن قلب المدينة. وفي الشّارع السّابع والخمسين انعطف يساراً، ومضى إلى بارك أفنيو. وهناك انعطف يميناً وواصل السّير شمالاً حتّى الشّارع التّاسع والستّين الذي انعطف عنده إلى كتلة المباني التي يقيم فيها آل ستلمان. وبدا المبنى على حاله الذي كان عليه في اليوم الأوّل. وألقى نظرة عجلى ليتبيّن ما إذا كانت هناك أضواء في الشّقّة، ولكنّه لم يستطع تذكّر أيّ النّوافذ كانت نوافذهم. وبدا الشّارع ساكناً تماماً، لم تشقّه سيّارات، ولم يعبره مارّة. وخطا كوين عبره إلى الجانب الآخر، ووجد لنفسه بقعة في حارة ضيّقة، واستقرّ هناك لقضاء اللّيلة.



توصيل مجاني لباب بيتك

تخفيضات كبيرة وعروض مميزة

وسائل دفع متعددة منها الدفع عند الإستلام

أستبدال مجاني خلال 14 يوم

% منتجات أصلية 100

أضغط هنا للدخول للموقع

للنساء　　للرجال

مرحبا بك في نمشي، وجهتك الاولى للتسوق عبر الانترنت. يقدم نمشي تشكيلة واسعة من الازياء والاحذية والاكسسوارات من العلامات التجارية العالمية والمحلية بالاضافة الى الماركات الحصرية الغير متوافرة بالاسواق. يمنح نمشي عملاءه تجربة تسوق سهلة وممتعة وذلك من خلال مواكبة آخر صيحات الموضة العالمية وعرض المنتجات من أشهر الماركات العالمية اضافة الى توفير خدمات عملاء من أعلى المستويات. يوفر نمشي خدمة التوصيل المجاني لجميع دول الخليج العربي ولبنان و خدمة استبدال المشتريات مجانا خلال 14 يوما.

نمشي

@THEBEST4YO



انقضى وقت طويل يستحيل تحديده بالضّبط. فيقيناً أنّ أسابيع قد مرّت، بل ربّما تكون أشهر قد انقضت. وصورة هذه الفترة أقلّ اكتمالاً ممّا كان يمكن أن يودّ المؤلِّف، ولكنّ المعلومات محدودة، وقد فضّل أن يتجاوز في صمت ما لا سبيل إلى التيقّن منه بصورة قاطعة.
ولّما كانت هذه القصّة مبنيّة على أساس الحقائق بصورة تامّة فإنّ المؤلِّف يشعر بأنّ من واجبه ألّا يتجاوز حدود ما يمكن التيقّن منه، وأن يقاوم بأيّ ثمن مخاطر الاختلاق. وحتّى الكرّاسة الحمراء الّتي قدّمت حتّى الآن صورة مفصّلة لتجارب كوين، هي موضع شكّ. وليس بمقدورنا أن نحدّد على وجه اليقين ما حدث لكوين خلال هذه الفترة، وذلك لانّه عند هذا الموضع من القصّة بدأ يفقد سيطرته.

ظلّ معظم الوقت في الحارة. ولم تكن بالموضع الّذي لا يبعث على الشّعور بالرّاحة، عندما يعتاد المرء استخدامه، كما أنّ له ميِّزة هي أنّه محتجب بصورة جيِّدة عن الأنظار. وبمقدوره من هناك مراقبة كلّ عمليّات القدوم إلى مبنى آل ستلمان والانصراف منه. فما من أحد غادر المبنى أو دخله من غير أن يتبيّنه. وقد أدهشه، في البداية، أنّه لم ير أيّاً من فرجينيا أو بيتر، ولكن كان هناك كثير من رجال توصيل الطلبات إلى المنازل يأتون وينصرفون باستمرار، وأدرك بالفعل أنّه ليس من الضّروري بالنّسبة إليهما أن يغادرا المبنى، فكلّ شيء يمكن إحضاره إليهما. وعندئذٍ فهم كوين أنّهما بدورهما كانا يقبعان في موضعهما منتظرِيْن داخلَ شقّتهما انتهاءَ القضيّة.

تأقلم كوين شيئاً شيئاً مع حياته الجديدة. وكان هناك عدد من

المشكلات الّتي واجهته، ولكنّه أفلح في حلّها واحدة إثر الأخرى.
فأوّلاً، وقبل كلّ شيء، كانت هناك مسألة الطّعام. ولأن اليقظة التّامة كانت مطلوبة منه فقد تردّد في مغادرة موقعه على الإطلاق، ومهما كان قصر الوقت الذي يستغرقه الأمر، وعذّبه أن يفكّر في أنّ شيئاً قد يحدث في غيابه، وبذل قصارى جهده للوصول بالمخاطر إلى الحدّ الأدنى. وقد قرأ في أحد المواضع أنّه بين الثّالثة والنّصف والرابعة والنّصف فجراً كان هناك عدد أكبر من النّاس المستغرقين في النّوم بالمقارنة بأيّ وقتٍ آخر. وعلى الصعيد الإحصائي فإنّ الفرص كانت أفضل لعدم حدوث شيء خلال تلك السّاعة؛ ومن هنا فقد اختارها كوين موعداً لشراء احتياجاته. وفي لكسنجتون أفنيو، غير بعيد إلى الشّمال، كان هناك متجر بقالة يفتح أبوابه طوال اللّيل، وفي الثّالثة والنّصف من فجر كلّ يوم كان كوين ينطلق إلى هناك بسرعة خاطفة (للتريُّض، وكذلك لتوفير الوقت) ويشتري ما يحتاجه للسّاعات الأربع والعشرين التّالية، وقد اتّضح أنّ هذه الاحتياجات لم تكن بالكثيرة، وقد أخذت في التقلّص يوماً بعد الآخر، فقد تعلّم كوين أنّ الأكل لا يحلّ بالضّرورة مشكلة الطعام، فالوجبة ليست إلاّ دفاعاً متهافتاً في مواجهة حتميّة الوجبة التالية. والطّعام نفسه لم يكن قطّ ردّاً على مسألة الطّعام: إنّه يؤخّر فقط اللحظة الّتى ستطرح فيها هذه المسألة بإلحاح، ومن هنا فإنّ الخطر الأعظم كان يكمن في التهام الطّعام بأكثر ممّا ينبغي، ولو أنّه تناول منه قدراً أكبر ممّا ينبغي فإنّ شهيّته لتناول الوجبة التّالية ستزيد، وهكذا تمسّ الحاجة إلى مزيد من الطّعام لإشباعه. وقد تمكّن كوين تدريجيّاً، بمراقبة نفسه مراقبة مستمرّة وعن كثب، من قلب هذه العمليّة إلى عكسها. وكان طموحه

أن يـأكل أقـلّ قدر ممكن، وبهـذه الطّريقـة يبعد الجَـوع. وفي أفضـل العوالم قد يكون بإمكانه أن يصل إلى الصّفر المطلق، ولكنّه لم يـرغب في أن يكون بالـغ الطمـوح في ظروفـه الحاليّـة. وبدلاً من ذلـك فقد وضع في ذهنه الصيام المطلق بـاعتباره مثـالاً أعلى، حـالةً من الكـمال كان بإمكانه أن يطمح إليها من غير أن يحقّقها أبداً. فلم يرد أن يُجيع نفسه إلى حدّ المـوت ـ وقد ذكّـر نفسه بـذلك كـلّ يوم ـ فقـد أراد أن يـترك نفسه حـرّاً في أن يفكّر في الأشيـاء الّتي تعنيه حقـاً. وفي الوقت الحالي كان معنى ذلك إبقاء القضيّة في مرتبة الصدارة من فكره. ومن حسن الحظّ أنّ هذا قد تطابق مع طموحه الآخر: أن يجعل الثلاثمائـة دولار تدوم أطول وقت ممكن. وغنيّ عن القول إنّ كوين فقد الكثير من وزنه، خلال هذه الفترة.

وكـان النوم مشكلتـه الثّانيـة، فلم يكن بمقدوره الاستيقـاظ طوال الـوقت، ولكن كان ذلـك هو مـا يقتضيه المـوقف حقّـاً. وهنـا أيضـاً اضطرّ للقيام ببعض التنازلات، وكما هو الحال بالنّسبة لتناول الطّعـام فقد شعر بأنّ بمقدوره الاكتفاء بأقـلّ ممّا اعتـاده، وبدلاً من السّـاعات المـراوِحة بـين السّت والثّماني الّتي اعتـاد إنفـاقهـا في النّـوم فقـد قـرّر الاقتصـار على ثـلاث سـاعـات أو أربع. وقـد كان التـأقلم مـع هـذا الـوضـع صعبـاً، ولكنّ أصعب الأمـور تمثّـل في كيفيـة تـوزيـع هـذه السّـاعات للحفـاظ على الحـدّ الأقصى من اليقـظة، ولم يكن بمقـدوره بجـلاء أن ينام السّـاعات الثـلاث أو الأربـع متـواصلة، فقـد كـانت المخاطر أكـبر من أن تسمح بـذلك. ومن النّـاحية النّـظريّة فقـد كان الاستخدام الأكثر كفاءة للوقت هو النّوم ثلاثين ثانية كلّ خمس دقـائق

أو ستّ، فـذلك سيقلّل من فـرص عدم رصـده ربّما إلى درجـة عـدم إمكـان حدوث ذلـك، ولكنّه أدرك أنّ ذلـك مستحيل عضـويّا. ومن ناحيّة أخرى فقد حاول مستخدماً هذه الاستحـالة كنـوع من النموذج أن يدرّب نفسه عـلى نيل فـترات قصيرة من النّـوم مراوحـاً بين النـوم واليقظة بقدر ما يستطيع. وكان ذلك صراعاً طـويلاً يقتضي انضبـاطاً وتركيزاً، وذلك لأنه كلّما طالت التّجربة ازداد إرهاقه. وقد جـرّب في البداية فترات متتابعة من النّوم واليقـظة مدّة كـلّ منها خمس وأربعـون دقيقة، ثمّ خفضها تدريجيّاً إلى ثلاثين دقيقـة، وقرابـة النّهايـة كان قـد بدأ بالتّمكن من تحقيق فـترات نوم تصـل إلى خمس عشرة دقيقة بقـدر طيّب من النّجاح. وقد ساعدته في جهوده كنيسـة قريبـة كان جـرسها يقرع كلّ خمس عشرة دقيقة ـ دقّة كلّ ربع ساعة، دقّتان عند انتصاف السّاعة، ثلاث دقّات عند مرور ثـلاثة أربـاع السّاعـة، وأربع دقّـات عند اكتمال السّـاعة، تتبعها دقّات يتطابق عددهـا وموعـدَ السّاعـة من النّهار أو اللّيل. وقد عاش كوين بمقتضى إيقاع تلك السّـاعة، ووجـد بالفعل صعوبة في تمييزها عن نبضه. واعتباراً من منتصف اللّيـل كان يبـدأ هذا الـروتين، مغمضـاً عينيه ومنـطلقاً إلى النّـوم قبـل أن تـدقّ السّاعة اثنتي عشرة دقّة. وبعد خمس عشرة دقيقة يستيقظ، وينام عنـد الدّقة المزدوجة، المشيرة لانتصاف السّاعة، ويستيقظ من جـديد عنـد الدقّة الثلاثيّة، المشيرة إلى ثلاثـة أرباع السّـاعة، وفي الثّـالثة والنّصف يمضي للحصول على طعـامه، ويعـود بحلول الرّابعـة، ثمّ يمضي للنّوم ثانية. وقد غدت أحلامه في هذه الفترة محدودة. وعندما كانت تتراءى له، كانت تبدو غريبة: رؤى قصيرة للمباشر ـ ليديه وحذائه، والجدار الطوبيّ بجواره. ولم تكن هناك لحظة لا يحسّ فيها بالإعياء المميت.

كـانت مشكلته الثّـالثة تتمثّـل في المـأوى، ولكنّ هـذه المشكلة تمّ حلّهـا بصـورة أيسر من المشكلتـين الأخـريـين. ومن حسن الحظّ أنّ الطّقس ظلّ دافئاً، وفيما تحـوّل الرّبيـع إلى صيف، لم تمطر السّـماء إلاّ قليلاً. وبين الحين والآخر، كان هناك قليل من الرذاذ، وانهمـر المطر مدراراً مرّة أو مرّتين، مع الرعد والبرق، ولكنّ الأمـر لم يكن شيئاً في مجمله، ولم يتـوقّف كوين قطّ عن الإشـادة بحظّه. وفي مؤخّـرة الحارة كان هناك صندوق معدني للنّفاية، وعندما يهطل المطر ليلاً كان كـوين يلوذ بهذا الصّندوق ليحتمي بـه. وفي داخله كانت الـرّائحة طـاغية، وكـانت تتخلّل ملابسـه وتدوم أيّـاماً في كـلّ مرّة، ولكنّ كـوين فضّل ذلك على أن يغرقه ماء المطر، فهو لم يكن يرغب في التعرّض لمخاطـرة الإصابة بالبرد أو المرض. وممّا يدعو للسعادة أنّ غطاء الصّنـدوق كان ملتوياً وخارجاً عن الشّكل الأصلي بحيث لا يغلقه بإحكام. وفي أحد الأركان، كانت هنـاك فتحة، اتّسـاعها ست بـوصات أو ثمـانٍ، وقد شكّلت نوعاً من فتحة تهوية ليتنفّس كوين من خلالها مخرجا أنفـه إلى رحاب اللّيل. وبالوقـوف على ركبتيـه فوق النفـاية وإسنـاد جسمه إلى أحد جدران الصّندوق، وجد أنّه ليس بعيداً عن الرّاحة كلّ البعد.

وفي اللّيالي الصّافية كان ينام تحت الصّندوق، واضعاً رأسه بحيث أنّه ما إن يفتح عينيه حتّى يستـطيع رؤيـة باب مبنى ستلمان الأمـامي. وأمّا فيما يتعلّق بإفراغ مثـانته، فـإنّه كـان يقوم بـذلك عـادة في الرّكن القصيّ للحـارة، وراء صندوق النّفـاية، مـديراً ظهـره للشّارع. وأمّـا أمعاؤه فكانت مسألة أخـرى، ولهذا الغـرض كان ينسـلّ إلى صندوق النّفاية ليضمن ألاّ يزعجه أحد. وكان هنـاك كذلـك عدد من بـراميل

النّفاية البلاستيكيّة إلى جوار الصّندوق، ومن أحدها كان في وسعه عادة أن يحصل على ما يكفي من الجرائد النّظيفة لتنظيف نفسه، على الرّغم من أنّه اضطر ذات مرّة في حالة طارئة إلى استخدام صفحة من الكرّاسة الحمراء. وأمّا فيما يتعلّق بالاغتسال وحلاقة الذّقن فإنّهما كانا أمرين من الأمور الّتي تعلّم كوين أن يحيا بغيرها.

وتظلّ من قبيل الألغاز الكيفيّة التي أفلح بها كوين في إخفاء نفسه خلال هذه الفترة، ولكن يبدو أنّ أحداً لم يكتشفه أو يبلّغ السلطات بوجوده. ولا شكّ في أنّه عرف في وقت مبكر مواعيد حضور جامعي القمامة، وتأكّد من أنّه سيكون خارج الحارة لدى مجيئهم، وكذلك الحال بالنّسبة لبوّاب المبنى الذي كان يتخلّص من النفاية كلّ مساء بوضعها في الصّندوق والبراميل. ورغم غرابة ذلك فإنّ أحداً لم يلحظ وجود كوين، وبدا الأمر كما لو أنّه قد ذاب في جدران المدينة.

شغلت مشكلات الشؤون اليوميّة والحياة الماديّة جانباً معيّناً من كلّ يوم. غير أنّه أتيح لكوين في معظم الوقت أن يتفرّغ لما يريده. ولأنّه لم يكن يرغب في أن يراه أحد فقد اضطر إلى تجنّب الآخرين بقدر ما يستطيع، فما كان بمقدوره النّظر إليهم، وما كان باستطاعته محادثتهم، وما كان بوسعه التّفكير فيهم. وقد نظر كوين دائماً إلى نفسه باعتباره إنساناً يحبّ أن يكون بمفرده. وفي حقيقة الأمر فإنّه طوال السّنوات الخمس الماضية قد سعى بنشاط من أجل الوحدة. ولكن الآن فحسب، وفيما تواصلت حياته في الحارة، بدأ في فهم الطّبيعة الحقّة للعزلة، ولم يَعُدْ لديه ما يلجأ إليه إلاّ نفسه. ومن بين كلّ الأمور التي اكتشفها خلال الأيّام التي أمضاها هناك، كان هذا هو الشيء الذي لم

يشكّ فيه: أنّه كان يسقط. غير أنّ ما لم يفهمه هو ما يلي: في غمار كونه يسقط كيف يمكن أن يُتَوَقَّع منه أن يمسك بنفسه كذلك؟ أكان من الممكن أن يكون في القمّة والقاع في الوقت نفسه؟ لم يبدُ له أن لذلك معنى.

أمضى ساعات طويلة متطلّعاً إلى السّماء. ومن موقعه في مؤخّرة الحارة، مندسّاً بين صندوق النفاية والحائط، كانت هناك أشياء قليلة أخرى يمكن رؤيتها، ومع مضي الأيّام بدأ يسعد بالعالم الممتدّ فوق رأسه. وقد أدرك أنّ السّماء ليست ساكنة في المقام الأوّل، وحتّى في الأيّام الصّافية، عندما تبدو الزرقة في كلّ مكان، كانت هناك تغيّرات صغيرة دائبة، تقلقلات تدريجيّة فيها السّماء تصفو وتتّشح بالألوان القاتمة، ويطلّ البياض المفاجئ للطّائرات والطّيور والورق الذي تتقاذفه الرّيح. وعقدّت السّحب الصّورة، وأمضى كوين أصائل عدّة في تأمّلها، محاولاً تعلّم طرق انسيابها ليرى ما إذا كان من الممكن التنبؤ بما سيحدث لها. وأصبح على معرفة وثيقة بالسُّحب الرَّقيقة الشّبيهة بالصّوف وهي تمضي على ارتفاع عال للغاية، والسّحب المؤلّفة من أكداس مدوّرة ذات قاعدة مسطّحة، والسُّحب الممتدّة في صورة طبقة أفقيّة خفيضة من سحاب رماديّ، والسُّحب الممطرة المنتشرة في طول السّماء وعرضها، وجميع تركيباتها المختلفة، ويرصد كلّ منها بدورها، ويرى كيف تتغيّر السّماء تحت تأثيرها. وأفرزت السُّحب كذلك موضوع اللّون، وكان هناك نطاق عريض لتأمّله يمتدّ من الأسود إلى الأبيض، مع ما لا نهاية له من الرّمادي فيما بينهما. وقد تعيّن فحص هذه التدرُّجات الرّماديّة وقياسها وسبر أغوارها، وفوق

هذا كانت هناك الألوان الفاتحة الرقيقة التي تتكوّن عندما تتداخل الشّمس والسّحب في أوقات معيّنة من النّهار. وكان نطاق المتغيّرات هائلاً، والنّتيجة تعتمد على درجات الحرارة في مستويات الطّبقات الجوّية المختلفة وأنواع السُّحب الماثلة في السّماء والمكان الذي تصادف وجود السّماء فيه في لحظة معيّنة، ومن هذا كلّه جاءت الألوان الحمراء والحمراء الورديّة التي أحبّها كوين أشدّ ما يكون الحبّ، والألوان الأرجوانيّة والقرمزيّة والبرتقاليّة والخضراء الفاتحة والذهبيّة والصّفراء المشعّة. وما من شيءٍ دام طويلاً، فسرعان ما كانت الألوان تتبدّد، وتتداخل مع غيرها، وتنطلق بعيداً، أو تختفي وئيداً مع مقدم اللّيل. وعلى الدّوام كانت هناك ريح تعجّل بهذه الأحداث. ونادراً ما كان كوين يشعر بهذه الرّيح في مَجْثَمِه بالحارة، ولكن من خلال مراقبة تأثيرها على السّحب كان بوسعه أن يحدس مدى قوّتها ونوعيّة الهواء الذي ينطلق في إطارها. وقد انطلقت فوق رأسه جميع أنواع المناخ نوعاً بعد الآخر، من الإشراق إلى العواصف، ومن الاكفهرار إلى التألّق، وكان من المتاح له أن يرقب انبلاجات الفجر، وانسدالات الغسق، وتحوّلات الظهيرة، وبدايات المساء واللّيالي، وحتى في سوادها لم تكن السّماء ساكنة، فالسّحب كانت تنساب في الظّلام، والقمر يتّخذ أشكالاً لا نهاية لها، والرّيح تواصل هبوبها. وفي بعض الأحيان يستقرّ نجم في رقعة السّماء التي يرقبها كوين، وكان يتساءل فيما هو يتطلّع عمّا إذا كان النّجم مازال هناك، أو ما إذا كان قد احترق منذ وقت طويل.

هكذا جاءت الأيّام وانقضت، ولم يظهر أثر لستلمان. ونفدت نقود كوين في نهاية المطاف. وكان منذ بعض الوقت يقوّي نفسه استعداداً

لتلك اللّحظة، وقرابة النّهاية ادّخر ما لديه من مال بمزيد من التدقيق، ولم ينفق قطعة نقد واحدة ضئيلة القيمة دون أن يحكم أوّلاً على مدى ضرورة ما ظنّ أنّ الحاجة ماسّة إليه، ودون أن يقدّر أوّلاً العواقب كافّة، وما لهذا التّقدير وما عليه. ولكن حتّى أشدّ ضروب توفيره تقتيراً لم تستطع وقف مسيرة ما هو محتّم.

اكتشف كوين في وقت ما من منتصف آب (أغسطس) أنّه لم يعد يستطيع الصمود. وقد أكّد المؤلّف هذه الحقيقة من خلال البحث الدقيق. غير أنّه من المحتمل أن تكون هذه اللّحظة قد حلّت في وقت مبكّر عن ذلك يعود إلى أواخر تموز (يوليو)، أو في وقت لاحق يعود إلى أوائل أيلول (سبتمبر)، إذ إنّ كلّ التحرّيات المنتمية إلى هذا النّوع ينبغي أن تسمح بهامش من الخطأ. ولكن بحسب ما يعرف المؤلّف بعد التدقيق في البراهين بعناية وتقليب كلّ التناقضات الظّاهرة فإنّه يقدّر أنّ الأحداث التالية قد وقعت في آب (أغسطس)، وعلى وجه التّحديد فيما بين الثّاني عشر والخامس والعشرين من ذلك الشهر.

لم يبق لكوين شيء تقريباً الآن، فكلّ ما هنالك قطع نقد معدنيّة تبلغ قيمتها أقلّ من دولار. وكان على يقين من أنّ نقوداً قد وصلته خلال غيابه هذا. وكان كلّ ما عليه هو الحصول على شيكاته من صندوق بريده في مكتب البريد وأخذها إلى البنك وصرف قيمتها. وإذا مضى كلّ شيء على مايرام فإنّ بمقدوره العودة إلى الشّارع التّاسع والسّتين شرقاً، خلال ساعات قليلة. ولن يقدّر لنا أن نعرف قطّ العذابات التي عاناها لاضطراره إلى مغادرة موقعه.

لم يكن لـديه مـا يكفي لكي يستقلّ الحـافلة، وللمرّة الأولى إذن من عدّة أسابيع بدأ المسير، وكان من الغريب أن يمضي على قدميه مجدّداً، منتقلاً بانتظام من مكان إلى آخر، مرجّحـاً يديـه إلى الأمام والـوراء، شاعراً بالرّصيف تحت نعليْ حذائه، ومع ذلك فها هـو ذا يمضي غربـاً في الشّارع التّاسع والسّتين، منعطفاً إلى اليمين عند مـاديسون أفينـو، ومستهـلاً مسيرتـه إلى الشّمال. كـانت ساقـاه ضعيفتـين، وأحسّ بـأنّ رأسه قد خُلِقْ من هـواء. واضطر للتـوقّف بين الفينـة والأخرى، ثمّ التقاط أنفاسه. وذات مرّة، وهو على حافّة السّقـوط، اضطر للتّشبث بأحد أعمـدة الإنارة. ووجـد أنّ الأمور تمضي عـلى نحو أفضل إذا ما رفـع قدميـه قليلاً بقـدر الإمكان، جـارّاً إيّاهمـا إلى الأمـام بخـطوات متمهّلة زاحفة. وبهذه الطّريقة فإنّ بمقدوره المحافظة على قوّته لاجتياز الأركـان حيث كان عليـه أن يـوازن نفسـه بعنـايـة قبـل كـلّ خـطوة وبعدها، في غمار صعود الرّصيف والهبوط منه.

في الشّارع الرّابع والثّمانين توقف للحظة أمام أحد المحالّ. وكانت هناك مرآة على الواجهة، وللمرّة الأولى منذ بدأ المراقبة التي كـان يقوم بهـا شاهـد نفسه. لم يكن الأمـر راجعاً إلى أنّـه كـان يخشى مـواجهـة صورته. وإنّما لم يخطر ذلـك ببالـه. كان أكـثر انشغالاً بمهمتـه من أن يفكّر في نفسه، وكأنّما كفّت مسألة مظهره عن الـوجود. والآن، وفيـما راح ينظر إلى نفسه في مرآة المتجر، لم يشعر بالصّدمة أو بخيبة الأمل. لم يساوره شعور حيـال ذلك عـلى الإطلاق، ففي حقيقـة الأمر أنّـه لم يتعرّف الشّخص الذي رآه أمامه باعتباره ذاته، وظنّ أنّه قد لمح غريباً في المرآة، وللوهلة الأولى التفت حوله بحدّة ليرى من يكون. ولكنّه لم

يكن بجـواره أحـد، ثمَّ التفت عـائـداً ليفحص المـرآة بمـزيـد من الإمعان. وراح يدرس الوجه المماثل أمامه قسمة وراء الأخرى، وعلى مهل بدأ يلاحظ أنّ هذا الشّخص يحمـل شبهاً معينـاً بالإنسـان الذي اعتقـد أنّه ذاتـه. نعم، بدا أنّـه أكثر من محتمـل أن يكـون هـذا هـو كـوين. غير أنّه، حتّى الآن، لم يساوره الشّعـور بـالضّيق، فقـد كـان التحوّل في مظهره قاسياً للغايـة بحيث لم يملك إلاّ الافتتان بـه. وكان قد تحوّل إلى شريـد نصلت ألوان مـلابسه، وغـدا أشعث، وأفسدت القذارة مظهره. وكست وجهه لحية سوداء كثيفـة تعلوها نقـاط بيضاء صغيرة. وكان شعره طويلاً ومتشابكاً، وقد تكوّم في شكل كتـل وراء أذنيه، وزحف مجعّداً حتّى كتفيه تقريباً. وذكّر نفسه أكثر من أي شيء آخـر بروبنسـون كروزو، وتعجّب من السّرعـة التي طرأت بهـا هـذه التغيّرات عليه، فلم تنقضِ إلاّ عدة أشهر، وفي ذلـك الوقت أصبـح شخصاً آخر. وحاول أن يتذكّـر نفسه، عـلى نحو مـا كان من قبـل، ولكنّه وجد ذلك متعذّراً. وتطلّع إلى كوين الجديد هذا، وهزّ كتفيـه، فـلا أهميّة لـذلك حقـاً. لقد كـان شيئاً من قبـل، وأصبح الآن شيئـاً آخر، ولم يكن ذلك أفضـل أو أسوأ. كـان مختلفاً، وهـذا هو كـلّ ما هنالك.

واصل سيره ابتعاداً عن قلب المدينة لعدد آخر من كتل المباني، ثمّ انعـطف يساراً، وعـبر الجادّة الخـامسة، وسـار بمحاذاة سـور سنـترال بارك. وعند الشّارع السّادس والتّسعين دخل الحـديقة، وألفى نفسـه سعيداً بأن يكون وسط العشب والأشجار. وكـان الصّيف الماضي قـد أتى على الكثير من الخضرة، وهنـا وهناك بـرزت الأرض في بقع بنيّـة

مُتْربة. ولكنّ الأشجار في الأعالي كانت ماتـزال مليئة بـالأوراق، وفي كلّ مكان تألّق عناق النّور والظلّ الذي لاح لكوين جميلاً وعجائبيـاً. وكـان ذلك في الضّحى، ومـاتزال هنـاك سـاعـات طويلة قبـل حلول الأصيل.

سيـطر على كـوين في منتصف الحديقـة دافع قـوي يحدوه إلى نيـل قسط من الرّاحة. ولم تكن هنا شوارع ولا كتل من مباني المدينة لإبراز مـراحل التـطوّر، وبدا لـه فجأة أنّـه كان يسـير منـذ سـاعـات، وأنَّ الـوصول إلى الـطرف الآخر من الحـديقة سيستغـرق كما أحسّ يـومـاً كاملاً أو يومين من السّير المترنّـح. وواصل المسـير للحظات أخـرى، ولكن ساقيه خـانتاه أخيـراً. وكانت هنـاك شجرة بلّوط لا تبعـد كثيراً عن الموضع الّذي وقف فيه، فيمّم كوين نحوها، مترنّحاً مثلما يترنّـح سكّير يتلمّس طريقه إلى فراشه بعد ليلة بكاملها من المرح الصاخب. واستخدم الكرّاسة الحمراء وسادة له ورقد على مرتفع من العشب إلى الشّـمال مباشرة من الشّجـرة، وأغفى. وكـانت تلك هي المـرّة الأولى الّتي ينام فيها نوماً غير متقطع منـذ شهور، ولم يستيقظ إلّا بعـد حلول صباح اليوم التالي.

أشارت ساعته إلى التّاسعة والنّصف، فانكمش خوفـاً من التّفكـير في الوقت الّذي فقده، ونهض من مكانه، وشرع في الانطلاق غـربـاً، وقد دهش لعودة قوّته إليه، ولكنّه لعن نفسـه للسّاعـات الّتي أهدرهـا في استردادها. وما كان شيء ليبعث العزاء في نفسه. وأيّاً كان ما يقوم به الآن فقد ساوره شعور بأنه سيكون متأخراً على الدّوام. ففي وسعه أن يعـدو مئات السّنـين، ومع ذلـك فسيصـل بعـد إغـلاق الأبـواب مباشرة.

خرج من الحديقة في الشّارع السّادس والتّسعين، وواصل مسيرته غرباً. وعند ركن جادّة كولومبوس رأى كشك هاتف ذكّره فجأة بأوستر والشيك ذي الخمسمائة دولار. وربّما كان بمقدوره أن يوفّر الوقت للحصول على المال الآن، ففي وسعه أن يمضي مباشرة إلى أوستر، ويضع المال في جيبه، ويتجنّب الرحلة إلى مكتب البريد والبنك. ولكن هل سيكون المال في متناول يد أوستر؟ وإذا لم يكن في متناول يده فقد يستطيعان ترتيب الالتقاء في بنك أوستر.

دخل كوين كشك الهاتف، ودسّ يده في جيبه، وأخرج ما بقي من النقود: كان هناك عُشْرا دولار، وربع دولار وثمانية سنتات. طلب دليل الهاتف للحصول على رقم هاتف أوستر، واستردّ عُشْر دولار، ثانية من صندوق الإعادة، معيداً وضعه من جديد، وطلب الرّقم، رفع أوستر السّماعة لدى الرنين الثّالث.

قال كوين:

- إنّني كوين.

سمع تأوّهاً على الطّرف الآخر من الخطّ، وتناهى إليه صوت أوستر مثقلاً بالضّيق الشديد:

- أين كنت تختفي بحق الجحيم؟ لقد اتّصلت بك ألف مرّة.

- كنت مشغولاً، أعمل في القضيّة.

- القضيّة؟

- القضيّة. قضيّة ستلمان. أتذكر؟

- بالطّبع أذكرها.

- هذا هو السرّ في اتّصالي. أريد المجيء للحصول على المال الآن. الخمسمائة دولار.

ـ أي مال؟

ـ الشيـك. أتذكـر؟ الشيك الّـذي أعطيتـك إيّاه. الشيـك المحرّر باسم بول أوستر.

ـ بالطبع أذكره. ولكن ليس هناك مال. هذا هو السّبب في محاولتي الاتصال بك.

صاح كوين، وقد فقد أعصابه فجأة:

ـ ليس لك الحق في إنفاقه. ذلك المال من حقّي.

ـ لم أنفقه. فقد تمّ ردّ الشيك.

ـ لست أصدّقك.

ـ تستـطيع الحضـور إلى هنـا والاطّـلاع عـلى رسـالـة البنـك، إذا أردت. إنّها أمامي الآن على المكتب، فلم يكن الشيك مقبولاً.

ـ هذا عبث.

ـ نعم، إنّه كذلك. ولكنّه لم تعد له أهميّة الآن. أليس كذلك؟

ـ إنّ له أهميّة، بالطّبع، فأنا أريد المال لمواصلة القضيّة.

ـ ولكن لسيت هناك قضيّة. لقد انتهى كلّ شيء.

ـ عمّ تتحدّث؟

ـ عن الشيء الّذي تتحدّث عنه بالذّات: قضيّة ستلمان.

ـ ولكن مـاذا تعني بقـولـك «لقـد انتهى كـلّ شيء»؟ إنّني مـازلت أعمل فيها؟

ـ لست أستطيع تصديق ما أسمعه!

ـ كفّ عن التزام الغموض، على هذا النحو اللّعين، فليست لديّ أدنى فكرة عمّا تتحدث عنه.

ـ لست أستطيع تصديق أنّك لا تعـرف. أين كنت بحقّ الجحيم؟ ألا تقرأ الصحف؟

ـ الصحف؟ اللّعنـة. قـل الّـذي تعنيـه. ليس لـديّ وقت لقـراءة الصحف.

ساد صمت على الطّرف الآخر من الخطّ، وللحظة أحسّ كوين بأنّ المكالمة قد انتهت، وأنّه قد غطّ في نومه بشكل من الأشكال، وأنّه استيقظ الآن لتوّه ليجدِ سمّاعة الهاتف في يده.

قال أوستر:

ـ لقـد قفـز ستلمان من جسر بـروكلين، وانتحـر، قبـل شهـرين ونصف الشّهر.

ـ إنّك تكذب!

ـ لقد نُشر الحادث في الصّحف كافّة. وبمقدورك التأكّد بنفسك.

لم يحر كوين رداً.

واصل أوستر الحديث:

ـ لقـد كان ستلمان الّـذي تعـرفـه. ستلمان الّـذي كـان أستـاذاً في جامعة كـولومبيـا، وهم يقولـون إنّه مـات في الهواء، قبـل أن يرتـطم جسمه بالماء.

ـ وبيتر؟ ماذا عن بيتر؟

ـ لا أدري.

ـ هل يعرف أحد بأمره.

ـ من المستحيل تحديد ذلك. عليك أن تصل إلى ذلك بنفسك.

قال كوين:

ـ نعم. أعتقد ذلك.

ومن غير أن يودّع أوستر أعاد السّماعة إلى موضعها. والتقط عُشْر الدولار الآخر، واستخدمه لطلب رقم فرجينيا ستلمان، وكان مايزال يحفظ الرّقم عن ظهر قلب.

نطق صوت مسجّل آلياً الرّقم، وأعلن أنّه لم يعد في الخدمة، ثمّ كرّر الصوت الرّسالة، وبعد ذلك انقطع الخط.

لم يستطع كوين التيقّن من مشاعره. وفي تلك الدقائق الأولى، بدا وكأنّه لم يشعر بشيء، أو كأنّ الأمر بأسره لم يصل إلى شيء على الإطلاق، وقرّر تأجيل التّفكير فيه، وحدّث نفسه بأنّه سيُتاح الوقت لذلك. وأمّا الآن فإنّ الشيء الوحيد الّذي بدا مهمّاً هو الذّهاب إلى الدّار. فلسوف يعود إلى شقّته، وينزع ملابسه، ويأخذ حمّاماً ساخناً، ثمّ يتصفّح المجلاّت الحديثة، ويستمع إلى عدّة أسطوانات، ويقوم بتنظيف الشّقّة قليلاً، ثمّ إنّه قد يشرع في التّفكير في الموضوع.

عاد سيراً إلى الشّارع مائة وسبعة. وكان مفتاح منزله مايزال في جيبه، وساوره الشّعور بالسّعادة وهو يفتح الباب الخارجي للدّار ويصعد مجموعات الدرج الثلاث المفضية إلى شقّته، ولكنّه خطا عندئذٍ إلى داخل شقّته، وكانت نهاية الأمر.

لقد تغيّر كلّ شيء. فقد بدا وكأنّه مكان آخر تماماً، وفكّر كوين في أنّه لا بد أن يكون قد دخل شقّة أخرى بطريق الخطأ، فتراجع إلى المدخل ودقّق في رقم الباب. لا، إنّه لم يخطئ فهي شقّته، وقد كان مفتاحه هو الّذي فتح الباب. وعاد إلى الدّاخل، وتأمّل الموقف بمجمله. لقد أعيد ترتيب الأثاث، وحيث كانت هناك ذات يوم مائدة

يـوجد الآن مقعـد، وحيث كانت هنـاك أريكـة فـإنّ مـائـدة تنتصب أمامه. كانت هناك صور جديدة على الجدران، وسجّادة جـديدة عـلى الأرض. وماذا عن مكتبه؟ بحث عنه بناظريه، ولكنّـه لم يجده. ودقّق في الأثاث بمزيد من العناية، وأدرك أنّه ليس أثاثه، فما كـان هنـاك في آخر مرّة كـان قد تمّ إبعـاده من الشقّة، ولم يعـد هناك وجـود لمكتبه، واختفت كتبه، والرسـوم الطفـوليّة الّتي رسمهـا ابنه الـراحل اختفت كذلك. ومضى من غرفة الجلوس إلى غـرفة النّـوم. وكان فـراشه قـد اختفى ومرآة تزينه لم يعد لها وجود. وفتح الجارور العلوي من حامل المرآة الّذي وجده هناك. كانت ملابس داخليّة نسائيّة تمتدّ متشابكة في مجموعات عشوائيّة: سراويل، صدريات، سراويل تحتيّة.

وفي الجارور التّالي استقرّت كنزات نسـائيّة. ولم يمضِ كـوين أبعدَ من ذلك. فعلى منضدة، قرب الفـراش، كانت هنـاك صورة مؤطّـرة لشاب أشقر، مكتنـز الوجـه. وظهر الشّـاب نفسه في صـورة أخرى، مبتسماً وواقفاً وسط الجليد، وقد أحـاط بذراعـه فتاة سقيمـة المظهـر، كانت تبتسم بدورها. ووراءهما امتدّ منحدر تزلّج، وبدا رجل يحمـل مُعَدّات التزلّج على كاهله، وبدت السّماء الشتائيّة الزرقاء.

عـاد كوين إلى غـرفة الجلوس، وجلس عـلى أحد المقـاعد، ورأى سيجـارة دُخّنت حتّى منتصفهـا وعليهـا آثـار أحمـر شفـاه في منفضـة السّجـائر، فـأشعلها ومضى يـدخّنها، ثمّ تـوجّـه إلى المـطبـخ، وفتـح الثّلاجة ووجد بعض عصير الـبرتقال ورغيـف خبـز، فشرب العصير، وتناول ثلاث شرائح من الخبز، ثمّ عاد إلى غرفة الجلوس فجلس على المقعد من جديـد. وبعد ربـع ساعـة سمع وقـع أقدام صـاعدة عـلى

الدَّرج، وصليل مفاتيح خارج الباب، ثمّ دخلت الشّقّة الفتاة التي رآها في الصّورة. كانت ترتدي الزّي الرسميّ للممرّضات وتمسك بكيس مواد بقالة بين ذراعيها. وعندما لمحت كوين سقط منها الكيس، وصرخت، أو أنّها صرخت أوّلاً، ثمّ سقط منها الكيس، فلم يستطع كوين التيقّن من حدوث أيّ الأمرين أوّلاً. وتمزّق الكيس منفتحاً لدى وقوعه على الأرض، وانسكب الحليب محدثاً مساراً أبيض نحو حافة السّجادة.

وقف كوين، ورفع يده في إيماءة سلام، وأبلغ الفتاة بأنّ عليها أن تطمئن، فلم يكن بسبيله إلى إيذائها، وكلّ ما أراد معرفته هو السرّ في أنّها تقطن شقّته. وأخرج المفتاح من جيبه، ورفعه في الهواء وكأنّه يبرهن على حسن نواياه. وقد استغرق إقناعها بعض الوقت ولكنّ ذعرها تراجع في نهاية الأمر.

لم يعنِ ذلك أنها قد بدأت تثق فيه، أو أنّها كانت أقلّ خوفاً، فقد ظلّت إلى جوار الباب المفتوح، على استعداد للانطلاق وثباً باتجاهه عند أوّل إشارة لحدوث مشكلة. وظلّ كوين محتفظاً بالمسافة التي تفصله عنها حتّى لا يزيد الموقف سوءاً، وواصل الحديث، موضحاً مراراً وتكراراً أنّها تقطن في منزله. وقد بدا بجلاء أنّها لم تصدّق كلمة ممّا قاله، ولكنّها راحت تستمع إليه لتريحه، وذلك دون شكّ على أمل أنّه سيقتنع بالخروج ويغادر الشّقّة في نهاية المطاف.

قالت:

- إنّني أقيم هنا منذ شهر، إنّها شقّتي، وقد وقّعت عقد إيجار لمدّة عام.

تساءل كوين للمرّة السّابعة أو الثامنة؟
ـ ولكن ما السرّ في أنّ لديّ مفتاحاً؟ ألا يقنعك ذلك؟
ـ هناك مئات الطّرق كان يمكنك الحصول بها على ذلك المفتاح.
ـ ألم يخبروك بأنّ شخصاً يسكن هنا عندما أجرّوكِ المكان؟
ـ قالوا إنّه كان هناك كاتب. ولكنّه اختفى. ولم يدفع الإيجار منذ شهور.
صاح كوين:
ـ إنّه أنا، إنني الكاتب.
نظرت إليه الفتاة، ببرودة وضحكت:
ـ كاتب؟ هذا أغرب ما سمعته في حياتي. ما عليك إلاّ أن تتأمّل مظهرك. لم أرَ في حياتي بأسرها ما هو أسوأ من هذا.
دمدم كوين على سبيل التفسير:
ـ لقد واجهت بعض الصّعوبات مؤخّراً، ولكنّها مؤقّتة فحسب.
ـ قال لي مالك المبنى إنّه سعيد على أيّة حال بالتخلّص منك، فهو لا يحبّ المستأجرين الذين ليست لديهم وظائف يعملون فيها، فهم يستخدمون قدراً أكثر من اللاّزم من التدفئة ويستخدمون أجهزة الدّار حتّى التّلف.
ـ هل تعرفين ما حدث لأشيائي؟
ـ أيّة أشياء؟
ـ كتبي، أثاثي، أوراقي.
ـ لا أعلم. ربّما باعوا منها ما استطاعوا، وألقوا بالباقي، لقد نقل كل شيء قبل انتقالي إلى هنا.

تنهّـد كوين تنهيـدة عميقة، فقـد وصل إلى نهايـة ذاته. وبمقـدوره الشّعور بذلك الآن، وكأنّمـا اتّضحت حقيقة كـبرى لناظـريه في نهايـة المطاف. لم يعد هناك شيء.

تساءل:

ـ هل تدركين ما يعنيه هذا؟

قالت الفتاة:

ـ إنّـه، بصراحـة، لا يعنيني. تلك مشكلتـك، وليست مشكلتي، وكـلّ ما أريـده أن تخرج من هنـا الآن تـوًا. هـذه شقّتي، وأريـد أن تخـرج. وإذا لم تغـادر المكـان فسـوف استـدعي الشّرطـة، وأجعلهم يلقون القبض عليك.

لم تعـد للأمـر أهمّيّة. بمقـدوره أن يقف هنالـك مجادلاً الفتـاة باقي النهار من غير أن يستعيد شقّته ثـانية. لقـد مضت، وهو قـد انتهى، كلّ شيء انتهى. راح يدمدم بشيء يستعصي على الفهم، واعتذر منها عن الوقت الّذي استغرقه، وخرج من الباب متجاوزاً إيّاها.

لم يدهش كوين لدى انفتاح بـاب المبنى الواقـع في الشّارع التّـاسع والستّـين بلا مفتـاح؛ ذلك لأنّـه لم يكترث لمـا يحدث، كـما لم يدهش عندما وصل إلى الطّابق التّاسع، ومضى في الممرّ إلى شقّة آل ستلمان، ووجد أنّ بابها مفتوح كذلك. وكان أبعد ما يكون عن الدّهشة عندما وجد الشّقة خاوية. وكـان المكان قـد جُرِّد من جميـع ما فيـه، ولم يبقَ شيء في الغرف. وكانت كلّ غرفة متماثلة مع الغرف الأخـرى كافّـة: أرضيّة خشبيَّة وأربعـة جدران بيضـاء. وكان متعبـاً إلى حدّ الإعيـاء، والشيء الوحيد الّذي استطاع التّفكير فيه هو أن يغمض عينيه.

مضى إلى إحـدى الغـرف في مؤخّـرة الشّقـة، مسـاحـة صغـيرة لا تتجـاوز عشر أقـدام في ستّ أقـدام، ولهـا نـافـذة مـزوّدة بشبكـة من السِّلك تـطلّ على مسقط النّـور، وتبـدو الأكـثر إعتـامـاً من بـين كـلّ الغرف. وفي داخل هذه الغرفة كان هنـاك باب ثـانٍ يُفضي إلى مهجع بلا نوافذ ويضمّ مرحاضاً ومغسلة. وضع كوين الكرّاسة الحمراء على الأرضيّـة، وأخرج القلم الـّذي تلقّاه من الأصمّ الأخـرس من جيبـه ودسّه في الكرّاسة الحمراء، ثمّ نزع ساعته، ووضعها في جيبه. وبعد ذلك نزع جميع ملابسه، وفتح النّافذة، وألقاها منها قطعة قطعة بادئـاً بفـردة حذائـه اليمنى، فاليسرى، فجـورب أتبعه بـالآخـر، فقمصيـه وسترته وسرواله الداخلي فسرواله. ولم ينظر إليها ليرقبها في سقوطها، كما لم يتحقّق ممّا إذا كانت قد استقرّت على الأرض في مـوضع بعينـه، ثمّ أغلق النافذة، ورقد في وسط الأرضيّة، وراح في سبات.

عندما استيقظ كانت الظلمة تلفّ الغرفـة، فلم يستطع التيقُّن من

الوقت الّذي انقضى، وما إذا كان في ليل اليوم الّذي نام فيه أم في ليل اليوم التّالي. وحدّث نفسه بأنّه لم يكن في اللّيل على الإطلاق، فربّما كان داخل الغرفة وحده هو المظلم، وكانت الشّمس تتألّق في الخارج، فيما وراء النّافذة. ولعدّة لحظات راح يفكّر في النهوض والمضيّ إلى النّافذة لتبيّن جليّة الأمر، ولكنّه قرّر أنّه لا أهميّة لذلك، وحدّث نفسه بأنّه إذا لم يكن اللّيل قد حلّ الآن فإنّه سيقبل في وقت لاحق. إنّ ذلك أمر مؤكّد، وسواء نظر من النّافذة أم لم ينظر فإنّ الرّد سيكون هو ذاته. ومن ناحية أخرى فإنّه إذا كان الوقت ليلاً هاهنا في نيويورك فمن المؤكّد أنّ الشّمس مشرقة في مكان آخر. ففي الصيف، على سبيل المثال، لا شكّ أنّ الوقت هو منتصف الأصيل، والفلاّحون الّذين يزرعون الأرز يمسحون العرق عن جباههم. فاللّيل والنّهار ليسا إلاّ لفظين نسبيّين، ولا يشيران إلى حالة مطلقة. وفي أيّ لحظة بعينها فإنّ الوقت يتمثّل فيهما معاً، والسّبب الوحيد في أنّنا لم نعرف ذلك هو أنّه ليس بمقدورنا أن نكون في مكانين في وقت واحد.

فكّر كوين كذلك في النّهوض والذهاب إلى غرفة أخرى، ولكنّه أدرك عندئذٍ أنّه سعيد تماماً حيث هو. فقد كان الوضع مريحاً هاهنا في الموضع الّذي اختاره، ووجد أنّه يستمتع بالرقاد على ظهره وعيناه مفتوحتان، متطلّعاً إلى السّقف، أو ما كان يمكن أن يكون السّقف لو أنّه كان بمقدوره رؤيته. ولم يكن ينقصه إلاّ شيء واحد، وذلك الشيء هو السّماء، فقد أدرك أنّه قد افتقد وجودها فوق رأسه بعد الأيّام واللّيالي الطويلة التي أمضاها في العراء. ولكنّه في الدّاخل الآن، وأيّاً كانت الغرفة التي اختارها ليعسكر فيها. فإنّ السّماء ستظلّ محتجبة، ولا سبيل إلى الوصول إليها حتّى عند أبعد آفاق بصره.

حدّث نفسه بأنّه سيمكث هنا حتّى يعجز عن ذلك، سيكون هناك ماء من المغسلة ليطفيّ بـه الظّمأ، وسيشتري له ذلك بعض الـوقت، ولسوف ينال منه الجوع بالفعل، ويضطّر لتناول الـطّعام، ولكنّـه كان يعمل منذ وقت طـويل عـلى الوصـول باحتيـاجاتـه إلى القليل للغـاية بحيث كـان يعرف أنّ تلك النّقـطة مايـزال أمامهـا عدّة أيّـام قبل أن تحلّ. وقرّر ألاّ يفكّـر فيها إلاّ حـين يضطّر إلى ذلـك، فلم يكن هناك معنى للقلق، حسبما راح يحدّث نفسه، ولا معنى لمضايقة نفسه بـأمور لا أهميّة لها.

حـاول أن يفكّر في الحيـاة الّتي عاشهـا قبل أن تبـدأ القصّة، وقـد سبّب له ذلك كثيـراً من المشاقّ، فقـد بدا بعيـداً للغايـة بالنّسبـة إليه الآن. وتذكّر الكتب التي ألّفها باسم وليام ولسون، وحدّث نفسه بأنّه كان من الغريب أن يقوم بذلك، وراح يتساءل الآن عن السرّ في أنـه فعل ذلك. وفي قرارة فؤاده أدرك أنّ ماكس ورك قد مات. لقـد مات في موضع ما على الـطّريق إلى قضيّته التّـالية، ولم يستـطع كوين حمـل نفسه على الشّعور بالأسف، فلقد بدا الأمـر كلّه بلا أهميّـة الآن. عاد بتفكيره إلى مكتبه وآلاف الكلمات التي كتبها هناك، وعـاد بذهنـه إلى الرّجل الّذي عمل وكيلاً له، وأدرك أنّـه ليس بمقدوره تـذكّر اسمـه. وكـانت أشياء كثـيرة آخذة بـالاختفاء الآن، وكـان من الصعب عليه تتبّعها، وحاول أن يشقّ طريقه متذكّراً تشكيل فريق الميتس وضعاً إثر وضع، ولكنّ ذهنه شرع في الشّرود. وتذكّر أنّ اللاّعب الأوسط كان مـوكي ولسـون، وهـو لاعب واعـد في مقتبـل العمـر، وكـان اسمـه الحقيقي وليام ولسون. ومن المؤكّد أنّه كان هناك أمر مثير لـلاهتمام في

غمار ذلك. وتابع كوين الفكرة للحظات قليلة ولكنّه تخلّى عنها بعد ذلك. فلقد ألغى الاثنان اللّذان يُدعيان وليام ولسون أحدهما الآخر، وذلك كلّ ما هنالك. ولوّح كوين بيديه مودّعاً في ذهنه كلّاً منهما. فلسوف ينتهي الأمر بفريق الميتس مجدّداً إلى احتلال المرتبة الأخيرة، ولن يعاني أحد من جرّاء ذلك.

في المرّة التّالية التي استيقظ فيها كانت الشّمس تتألّق في الغرفة، وكانت هناك صينيّة طعام إلى جواره على الأرضيّة، والبخار يتصاعد من الأطباق بما يبدو أنّه وجبة من اللّحم المشوي. وقد تقبّل كوين هذه الحقيقة دونما اعتراض، ولم تثر دهشته ولا قلقه. قال محدّثاً نفسه: نعم، من المحتمل تماماً أنّ الطّعام ينبغي أن يترك لي هنا. ولم يكن فضوليّاً لمعرفة كيفيّة حدوث ذلك أو السّبب فيه، بل ولم يخطر بباله أن يترك الغرفة ليلقي نظرة على باقي الشّقّة بحثاً عن إجابة، وإنّما قام بدلاً من ذلك بفحص الطّعام الموضوع على الصينيَّة عن كثب، ورأى أنّه بالإضافة إلى شريحتين كبيرتين من اللّحم المشوي، كانت هناك سبع قطع من البطاطس المحمَّرة، وطبق من الهليون، وشريحة من الخبز الطّازج، وسلطة ودورق زجاجي من النبيذ الأحمر، وقطع من الجبن، وكمّثرى للتحلية. وكان هناك منديل مائدة كتّانيّ أبيض، وأدوات المائدة من أفخم الأنواع، فتناول الطّعام، أو نصفه بالأحرى، وهو القدر الّذي استطاع التهامه.

بعد تناول وجبة الطّعام، شرع كوين في الكتابة في الكرّاسة الحمراء، وواصل الكتابة، إلى أن عادت الظّلمة إلى الغرفة. كان هناك مصباح صغير يتدلّى من وسط السّقف، ومفتاح إضاءة له

بالقرب من الباب، ولكنّ فكرة استخدامه لم ترق لكوين. ولم ينقضِ وقت طويل إلاّ وكان قد غطّ في النّوم مجدّداً. وعندما استيقظ كان ضياء الشّمس يملأ الغرفة وصينيَّة طعام أخرى بجواره على الأرض، فتناول ما استطاع من الطّعام، وعاد عقب ذلك إلى الكتابة مجدّداً في الكرّاسة الحمراء.

وقد انبثق معظم المواد التي كتبها في تلك الفترة من أسئلة هامشيَّة حول قضيَّة ستلمان. فقد تساءل كوين، على سبيل المثال، عن السِّرّ في أنّه لم يكترث لإلقاء نظرة على تقارير الصّحف الخاصّة بإلقاء القبض على ستلمان في ١٩٦٩ م، وبحث مشكلة ما إذا كان الهبوط على سطح القمر في ذلك العام نفسه مرتبطاً بأيّة وسيلة بما حدث، وتساءل عن السِّرّ في أنّه صدّق أوستر، فيما يتعلّق بموت ستلمان. وحاول أن يفكّر في البيض وكتب عبارات من نوع «بيضة جيّدة» و«بيضة على وجهه» و«وضع بيضة» و«متشابهان كبيضتين». وتساءل عمّا كان يمكن أن يحدث لو أنّه تتبّع ستلمان الثاني بدلاً من ستلمان الأوّل. وسأل نفسه عن السِّرّ في أنّ كريستوفر، القدّيس الرّاعي للسّفر، قد طوّبه البابا في ١٩٦٩ م في وقت الرِّحلة إلى القمر تماماً. وتمعّن في السّؤال المتعلّق بالسِّرّ في أنّ دون كيخوته لم يرغب ببساطة في أن يؤلّف كتاباً مماثلاً للكتب التي أحبّها، وإنّما عمد إلى أن يعيش مغامراته. وتساءل عن السِّرّ في أنّ الحروف الأولى من اسمه مماثلة للحروف الأولى من اسم دون كيخوته. وفكّر فيما إذا كانت الفتاة التي انتقلت للسكنى في شقّته هي نفسها الفتاة التي كانت تقرأ كتابه في محطّة الجراند سنترال. وتساءل عمّا إذا كانت فرجينيا ستلمان قد

استعانت بتحرٍّ خاص آخر بعد عدم اتّصاله بها. وسأل نفسه عن السِّرّ في تصديقه قول أوستر فيها يتعلّق بردّ البنك للشيك. وفكّر في بيتر ستلمان، وتساءل عمّا إذا كان قد نام في الغرفة التي يعيش فيها الآن. وتساءل عمّا إذا كانت القضيّة قد انتهت حقّاً، وما إذا كان مايزال يعمل على حلّها. وتساءل عمّا يمكن أن تشبهه الخريطة التي تُوقّع عليها كلّ خطوة خطاها في حياته وما هي الكلمة التي ستشكّل الخريطة هجاءها.

عندما حلّ الظلام غرق كوين في النّوم، وعندما غمر الضِّياء الكون، تناول الطّعام، وعكف على الكتابة في الكرّاسة الحمراء. ولم يكن بمقدوره قطّ التيقُّن من الوقت الّذي انقضى خلال كلّ فترة راحة، ذلك أنّه لم يكترث لعدّ الأيّامِ والسّاعات. غير أنّه بدا له أنّ الظّلام بدأ شيئاً فشيئاً يتغلّب على الضِّياء، وأنّه بينما كانت السّيادة في البداية لتألّق الشّمس، فإنّ الضوء غدا تدريجيّاً أضعف وأسرع انحساراً. وفي البداية عزا ذلك إلى تغيّر الموسم. فمن المؤكّد أنّ الانقلاب الربيعي قد مرّ بالفعل، وربّما كان الانقلاب الصيفيّ يقترب. ولكن حتّى بعد حلول الشتاء وانقلاب هذه العمليّة، نظريّاً فإنّ كوين لاحظ أنّ فترات الظّلام قد واصلت مع ذلك الزيادة على حساب فترات الضِّياء، وبدا له أنّه يتاح له وقت يزداد قصراً لتناول طعامه والعكوف على الكتابة في الكرّاسة الحمراء، وبدا له بالفعل أنّ هذه الفترات قد تقلّصت إلى ما لايتجاوز عدَّة دقائق، فذات مرّة على سبيل المثال انتهى من تناول الطّعام واكتشف أنّ لديه من الوقت ما يكفي لكتابة ثلاث جمل فحسب في الكرّاسة الحمراء. وفي المرّة التّالية

الّتي حلّ فيها الضِّياء أفلح في كتابة جملتين، وبـدأ يضرب صفحاً عن وجباته ليكرّس نفسه للكرّاسة الحمراء، من غير أن يتناول الطّعام إلاّ حـين يشعر أنّـه لم يعد يستـطيـع الصّمـود. ولكنّ الـوقت استمـرّ في التناقص، وسرعان مـا غدا عـاجزاً إلاّ عن تنـاول قضمة أو قضمتـين قبل حلول الظّلام، ولم يفكّر في إضاءة المصبـاح الكهربـائي لأنّه نسي وجوده منذ زمن بعيد.

تزامنت فترة امتداد الظّلام هذه مع تنـاقص الصَّفحات المتـاحة في الكرّاسة الحمراء، وشيئاً فشيئاً راح كوين يقـترب من النِّهايـة، وأدرك في إحـدى اللّحظات أنّـه كلّما أكثر من الكتـابة اقـترب الوقت الّـذي لا يسطيع فيه كتابة أيّ شيء، وبدأ يـزن كلماته بعنـاية كبـيرة، مكافحـاً للتَّعبير عن ذاته بقـدر ما يستـطيع من الاقتضـاب والوضـوح، وشعر بالنّدم لإهداره كثيراً من الصَّفحات في مستهّل الكرّاسة الحمراء. وفي حقيقـة الأمر أنّـه شعر بـالأسف لاهتمامـه بالكتـابة حصـراً عن قضيَّة ستلمان وذلـك لأنّ القضيّة غـدت نائيـة عنـه الآن، ولم يَعُـدْ يكـترث للتَّفكير فيها، فقد كانت جسراً إلى موضع آخر في حيـاته، وأمّـا الآن وقد عبرها فإنّ معنـاها غـاب عنه. ولم يعـد كوين يهتمّ بنفسـه، وإنّما كتب عن النجوم والأرض وآماله بالنّسبة إلى البشريَّة، وساوره شعـور بأنّ كلماته قد فصلت عنه، وأنّها الآن جزء من العالم بـأكمله، حقيقيَّة ومتعيِّنـة مثل حجـر أو بحيرة أو زهـرة. ولم تَعُدْ لهـا صلة به. وتـذكّر لحـظة ميلاده، وكيـف اجتُـذِب بـرفق من رحم أمّـه. وتـذكّـر الـرّقـة اللاّمتناهيـة للعالم والنَّـاس الّذين أحبّهم، ولم يَعُـدْ هناك مـا يهمّ الآن غير جمال هذا كلّه. وأراد أن يواصل الكتابة عنه، وآلمـه أن يعرف أنّ

ذلـك لن يكون بمقـدوره. ورغم ذلك فقـد حـاول أن يـواجـه نهايـة الكرّاسة الحمراء بشجاعة، وتساءل عمّا إذا كان بمقدوره أن يكتب بلا قلم، وإذا كـان بـاستـطاعتـه أن يتعلّم الحـديث، وأن يمـلأ الـظّلام بصـوته لافـظاً الكلمات في رحـاب الهـواء، والجـدران والمـدينـة، حتّى وإن لم يحلّ الضّياء ثانية قطّ.

وكانت الجملة الأخيرة في الكرّاسة الحمـراء هي: «ماذا سيحـدث عندما لا تعود هناك صفحات أخرى في الكرّاسة الحمراء؟».

عند هذا الموضع تغـدو القصّة غـامضة؛ فقـد نفدت المعلومـات، والأحداث التي أعقبت هذه الجملة الأخيرة لن يُقدَّر لأحد أن يعرفها، ولسوف يكون من قبيل الحماقة إطلاق تخمين في هذا الصّدد.

عـدت إلى الوطن من رحلة إلى أفـريقيا في شبـاط (فبرايـر)، قبـل سـاعات من تعـرّض نيويـورك لعاصفـة ثلجيّـة. واتّصلت بصـديقي أوستر هاتفيّاً في المساء، فاستحثّني على القـدوم لمقابلتـه في أقرب وقت ممكن، وقد كان هناك شيء شديد الإلحاح في صوته بحيث لم أجـرؤ على الرّفض، رغم إرهاقي الشديد.

أوضح لي أوستر، في شقّتـه، القليل الّـذي يعلمه عن كـوين، ثمّ انطلق في وصف القضيّة الغـريبة الّتي أصبـح طرفـاً فيها بـالمصادفـة، وقال إنّ القضيّة استحـوذت عليه، وأراد الحصـول على نصيحتي فيـما يتعيّن عليه القيـام به. وبعـد أن أصغيت إليه بـدأت أشعر بـالغضب لأنّه عامـل كوين بمثـل هذه الـلاّمبالاة. وكِلْتُ لـه اللّوم لعدم قيـامه بدور أكبر في الأحداث، ولعدم فعله شيئاً لمساعدة الرّجل الّذي كان من الجليّ أنّه يواجه مشكلة.

بدا أنّ أوستر مقتنع بما أقول. وقال إنّ ذلك هو، في حقيقة الأمر، السَّبب في طلبه أن أزوره. فقد كان يشعر بالذّنب، ومسّت حاجته إلى التخلّص من هذا الشّعور، وقال إنني الشّخص الوحيد الّذي يمكنه الوثوق به.

كان قد أمضى الشُّهور الأخيرة في محاولة الوصول إلى كوين، ولكن دون أن تُكَلَّل جهوده بالنجاح، فلم يعد كوين يقيم في شقّته، وباءت كلّ المحاولات للاتّصال بفرجينيا ستلمان بالفشل، وعندئذٍ اقترحتُ عليه أن نلقي نظرة على شقّة ستلمان، فقد أوحى لي حدس على نحو من الأنحاء بأنّ هذا هو المكان الّذي سيكون نهاية المطاف بالنّسبة إلى كوين.

ارتدينا معطفينا، واستقللنا سيّارة أجرة إلى الشّارع التّاسع والسّتين شرقاً. وكان الثلج يتساقط منذ ساعة وغدت الطّرقات بالفعل حافلة بالأخطار، وصادفنا بعض الصُّعوبات في الوصول إلى المبنى، ثمّ انسللنا إليه مع أحد المستأجرين، وكان عائداً إلى داره لتوّه. ومضينا إلى أعلى، وعثرنا على باب كان ذات يوم باب شقّة آل ستلمان. ولم يكن مغلقاً، فدخلنا الشِّقّة في حذر، واكتشفنا سلسلة من الغرف الخاوية، العارية من أيّ شيء. وفي غرفة صغيرة في مؤخّرة الشِّقّة، لا تشوب نظافتها شائبة، شأن باقي الغرف، كانت الكرّاسة الحمراء ملقاة على الأرضيّة. والتقطها أوستر، وتصفّحها لوقت قصير، وقال إنّها كرّاسة كوين، ثمّ دفعها إليّ وقال إنني ينبغي أن أحتفظ بها، فقد ضايقه الأمر كلّه إلى حدّ بالغ، بحيث أنّه كان يخشى الاحتفاظ بالكرّاسة بنفسه. وقلت إنني سأحفظها إلى أن يكون على استعداد

لقراءتها، ولكنّه هزّ رأسه نافياً، وأبلغني بأنّه لا يريد أن يراها مرّة أخرى، ثمّ غادرنا الشّقّة وانطلقنا إلى الجليد. وكان البياض يلفّ المدينة بأسرها الآن، والثلج يواصل التّساقط، وكأنّه لا نهاية له.

وأمّا فيما يتعلّق بكوين فإنّ من المستحيل بالنّسبة إليّ أن أحدّد أين هو الآن. ولقد تتبّعت الكرّاسة الحمراء بأدقّ ما أستطيع، وأيّ لون من ألوان مفارقة الدّقة في القصّة ينبغي ألاّ يُلام فيه أحد غيري، وكانت هناك لحظات تصعب فيها قراءة النّص، ولكنّي بذلت قصارى جهدي في ذلك، وأحجمت عن القيام بأيّة تفسيرات. والكرّاسة الحمراء هي، بالطّبع، نصف القصّة، كما في وسع أيّ قارئ حسّاس أن يدرك. وأمّا بخصوص أوستر فإنّني مقتنع بأنّه تصرّف في الأمر بأسره على نحو سيئ. وإذا كانت صداقتنا قد انتهت فهو الملوم في ذلك. وبالنّسبة إليّ فإنّ أفكاري تظلّ محوّمة حول كوين. ولسوف يكون معي على الدّوام. وإنني لأتمنّى له التّوفيق، كائناً ما كان الموضع الّذي اختفى فيه.


WawBooks.c

الأشباح



هنـاك أوّلاً وقبل كـلّ شيء «بلو». وفيـما بعـد هنـاك «وايت»، ثمّ عقب ذلـك ثمّة «بـلاك»، وقبل البـداية هنـاك «براون». وقـد أدخله براون إلى السّاحة، وعلّمه الحِيَل، وعندما أوغل براون في العمر حـلّ بلو محلّه. وعلى ذلك النحو بدأ الأمر. المكان نيـويورك، والـزمان هـو الحاضر، ولن يتغيّر أيّ منهـما. يمضي بلو كلّ يـوم إلى مكتبه، ويجلس إلى قمطره في انتظار حدوث شيء. ولوقت طويل لا يحدث شيء، ثمّ يلج المكتب رجل يُدعى وايت. وعلى ذلك النحو بدأ الأمر.

تبدو القضيّة بسيـطة، فوايت يـريد من بلو أن يتتبّـع رجلاً يُـدعى بـلاك، ويواصـل رصـده مـادام ذلـك ضروريّـاً. وخـلال عمـل بلو لحسـاب براون، قـام بكثير من مهـامّ المراقبـة، ولم تبـدُ هـذه المهمّـة مختلفة، بل ربّما كانت أيسر من معظم القضايا.

وبلو بحاجة إلى العمـل؛ ولذا فـإنّه يُصغي إلى وايت، ولا يـطرح الكثـير من الأسئلة، ويفـترض أنّها قضـيّـة زواج، وأنّ وايت زوج غيور. ولا يُدلي وايت بالكثير من التفاصيل، ويقول إنّه يـريد تقـريراً أسبوعيّاً يُرْسَل إليه على صندوق بريد قام بتحديد رقمه مكتوباً بالآلـة الناسخة من أصل ونسخة إضافيّة على ورق يتميّز بـطول وعرض قـام بتحديدهما، ولسوف يتمّ إرسال شيك كـلّ أسبوع عن طـريق البريـد إلى بلو، ثمّ يبلّغ وايت بلو بـالمكان الّـذي يقطنـه بـلاك، ويصف لـه ملامحه وما إلى ذلك. وعندما يسـأل بلو وايت عن الزّمن الّـذي يعتقد أنّ القضيّة ستستغرقه يقول وايت إنّه لا يعرف، ويقول: ما عليك إلاّ مواصلة إرسال التّقارير، حتّى إشعار آخر.

وإنصافاً لبلو فإنّه يجد الأمر غريباً بعض الشيء، ولكن القول بأنّه يتوجّس وتساوره تخوّفات، عند هذا المنعطف، يعني الذّهاب شوطاً أبعد ممّا يُحْتَمَل. ومع ذلك فإنّ من المستحيل بالنّسبة إليه ألاّ يلاحظ أشياء معيّنة فيما يتعلّق بوايت. وعلى سبيل المثال اللّحية السوداء والحاجبان الكثيفان بشكل بالغ، ثمّ هناك البشرة التي تبدو بيضاء على نحو مُغالى فيه وكأنّما يكسوها الذرور. وليس بلو بالهاوي في فنّ التنكّر، ولا يصعب عليه أن يكتشف أسرار هذا التنكّر الماثل أمامه. ففي نهاية المطاف كان براون أستاذه، وفي قمّة ازدهار نشاطه كان براون هو الأكثر بروزاً في هذا النّوع من الأعمال. وهكذا يبدأ بلو في الاعتقاد بأنّه كان مخطئاً، وأنّ القضيّة ليست لها علاقة بالزّواج، ولكنّه لا يتجاوز هذا لأنّ وايت مايزال يواصل الحديث معه، ويتعيّن على بلو أن يركّز على فيض كلماته.

يقول وايت إنّ كلّ شيء تمّ ترتيبه. وهناك شقّة صغيرة تقع في الجانب المقابل مباشرة لشقّة بلاك، وقد قمت باستئجارها بالفعل، ويمكنك الانتقال إلى هناك اليوم، وسيتّم دفع الإيجار إلى أن تنتهي القضيّة.

يقول بلو إنّها فكرة جيّدة، ويأخذ المفتاح من وايت، ولسوف يؤدّي هذا إلى إزالة عناء العمل التمهيدي.

يردّ وايت ممسّداً لحيته: بالضّبط.

وعلى هذا النحو يُسوّى الأمر، ويوافق بلو على تولّي المهمّة، ويتصافحان تأكيداً لهذا، وإظهاراً لحسن نواياه يعطي وايت لبلو مقدّماً عشر ورقات من فئة الخمسين دولاراً.

على ذلك النحو بدأ الأمر، إذن. الشّاب بلو ورجل يُدعى وايت

ويبدو جليّاً أنّه ليس الرّجلَ الباديَ للعيان. لا أهميّة لـذلك، هـذا ما قاله بلو لنفسه بعد انصراف وايت. فأنا على يقينمن أنَّ لـديه أسبـابه الخـاصَّة. وفضـلاً عن ذلك فتلك ليست مشكلتي، والشيء الـوحيـد الّذي يجب أن يعنيني هو عملي.

إنّه الثالث من شباط (فبراير) ١٩٤٧ م. ولا يعرف بلو بالطّبـع أنّ القضيّـة ستستمـرّ لسنـوات. ولكنّ الحـاضر ليس أقــلّ ظـلامــاً من الماضي، وغموضه يعادل أيّ شيء وقد يحمله المستقبل في طيّاته. هـذا هو حال الدنيا: خطوة فأخرى، وكلمة فأختها. وهناك أمور معيّنـة لا يحتمل أن يكون بمقدور بلو أن يعرفها عند هـذا المنعطف، ذلـك لأنّ المعـرفة تـأتي وئيدة، وعنـدما تـأتي فإنّ ذلـك يكون غـالبـاً لقـاء ثمن شخصيّ باهظ.

يغـادر وايت المكتب، وبعد لحـظة يلتقط بلو السمّاعـة ويتّصل بمن ستكون مستقبلاً السيّدة بلو، ويبلّغ حبيبته بقـوله: لسـوف أختفي في مهمّة. لا تقلقي إذا لم أتّصل بك لبعض الوقت. سـأفكّر فيـك طول الوقت.

يأخذ بلو حقيبة رماديّة صغيرة من فوق الرفّ، ويضع فيها مسدسه من عيار ٣٨ ومنظاراً مكبّراً وكرّاسة وأدوات أخرى متعلّقة بالمهنة، ثمّ يـرتّب قمطره، وينـظّم أوراقه، ويغلق المكتب. ومن هنـاك يمضي إلى الشِّقّة التي استأجرها له وايت. ليس العنوان بالأمر المهم، ولكن دعنا نفترض جدلاً أنّها في روكلين هايتس، في شارع هادئ نادراً ما يطرقـه أحد، ولا يبعد كثيراً عن الجسر، وربّما كان شارع أورينج. وقد قـام والت ويتـمان في ١٨٥٥ م بتنضيد الـطّبعـة الأولى من ديـوانـه «أوراق

العشب» يدوياً في هذا الشّارع، وهنا قام هنري وارد بيتشر من على منبر كنيسته ذات اللّون الأحمر الطوبيّ بشنّ حملات ضدّ العبوديَّة. ويكفي هذا القدر من الحديث عن لون الشّارع.

إنّها شقّة صغيرة ذات غرفة واحدة، في الطّابق الثالث من مبنى حجريّ بنيّ اللّون يتألَّف من أربعة طوابق. ويحسّ بلو بالسّعادة عندما يرى أنّها مجهّزة بصورة كاملة، وفيما هو يمضي في أرجاء الغرفة متفقّداً قطع الأثاث، يكتشف أنّ كلّ شيء في المكان جديد تماماً: الفراش، المائدة، المقعد، السجّادة، الأغطية الكتّانيَّة، لوازم المطبخ، وكلّ شيء. وهناك مجموعة كاملة من الملابس معلّقة في خزانة الملابس، وتساءل بلو عمّا إذا كانت الملابس يقصد بها أن يرتديها، ويجرّبها فيجدها مناسبة له، ويقول لنفسه وهو يذرع الغرفة إنّها ليست أكبر مكان تُقَدَّر لي رؤيته، ولكنّها مريحة بما يكفي، مريحة بما يكفي.

يعود إلى الخارج، ويعبر الشّارع، ويدخل المبنى المقابل، وفي الدّهليز يبحث عن اسم بلاك على أحد صناديق البريد، ويعثر عليه: بلاك ـ الطّابق الثّالث. حتّى الآن كلّ شيء مناسب، ثمَّ يعود إلى غرفته، ويعكف على العمل.

يغرق ما بين السّتائر المسدلة على النّافذة، ويلقي نظرة على الخارج، ويرى بلاك جالساً قبالة مائدة في غرفته عبر الشّارع. وبقدر ما يستطيع بلو أن يميِّز ما يجري فإنّه يستنتج أنَّ بلاك يكتب. وتؤكِّد له نظرة عبر المنظار المكبّر أنّه بالفعل يكتب، غير أنَّ العدسات ليست من القوّة بحيث تلتقط الكتابة ذاتها، وحتّى لو كانت على هذا القدر من القوّة فإنَّ بلو يشكّ في أنّه سيكون بمقدوره أن يقرأ الخطّ مقلوباً،

ومن هنا فإنَّ كلّ ما يستطيع أن يقوله على وجه اليقين هو أنَّ بلاك يكتب في كرّاسة مستخدماً قلم حبر أحمر. ويخرج بلو كرّاسته ويكتب: السّاعة الثّالثة من بعد الظهر - ٣ شباط (فبراير)، بلاك يكتب على مكتبه.

يتوقّف بلاك بين الحين والآخر في غمار عمله، ويحدِّق إلى الخارج عبر النّافذة، ويعتقد بلو في وقت من الأوقات أنَّه ينظر إليه مباشرة، فيبتعد عن مرمى نظره. ولكنَّه يدرك لدى القيام بمزيد من التدقيق أنَّها نظرة جوفاء يُقْصَد بها التأمُّل أكثر من النّظر، نظرة تجعل الأشياء خفيّة، ولا تتيح المجال لاستيعابها. وينهض بلاك من مقعده بين الحين والآخر، ويختفي في جزء محتجب من الغرفة يفترض بلو أنَّه ركن، أو ربّما حمّام، ولكنَّه لا يمضي في ذلك لوقت طويل، وإنّما يعود على الدّوام في التّو إلى مكتبه، ويستمرّ هذا ساعات كثيرة، من غير أن يعرف بلو من خلال جهوده المزيد عنه. وفي السّاعة السّادسة يكتب بلو الجملة الثانية في كرّاسته: يستمرّ هذا ساعات كثيرة.

لا يرجع الأمر إلى أنَّ بلو يشعر بالضّجر، وإنّما إلى أنَّه يحسّ بفتور الهمّة. فمن غير التمكُّن من قراءة ما يكتبه بلاك يبدو كلّ شيء بلا معنى حتّى الآن. وينصرف ذهن بلو إلى أنَّ بلاك ربّما كان مجنوناً يخطّط لنسف العالم، وربّما لهذه الكتابة علاقة بتركيبته السّرِّية، ولكن مثل هذه الفكرة الصبيانيّة تجعل بلو يشعر بالحرج توّاً. ويقول لنفسه إنَّ الوقت مبكر للغاية على معرفة أيّ شيء، ويقرّر أن يمتنع في الوقت الحالي عن إصدار أيّة أحكام.

ينتقل ذهنه من جزئيّة إلى أخرى، ويستقرّ بالفعل على من ستصبح

السيِّدة بلو مستقبلاً، ويتذكّر أنّها كانا يخطِّطان للخروج معاً اللّيلة، ولو لم يظهر وايت في المكتب اليوم، ولولا قضيَّته الجديدة لكان معها الآن يذهبان في البداية إلى المطعم الصِّيني في الشّارع التّاسع والثلاثين حيث يتصارعان مع أعواد تناول الطّعام، ويمسك أحدهما بيد الآخر تحت المائدة، ثمَّ يشاهدان عرض فيلمين في سينما باراماونت. وللحظة قصيرة تتراءى في ذهنه صورة واضحة على نحوٍ مذهل لمحياها، (وهي تضحك خافضة عينيها مصطنعة الحياء) ويدركُ أنَّه يفضِّل كثيراً أن يكون معها على الجلوس في هذه الغرفة الصّغيرة لوقت لا يعلمه إلاَّ الله. ويفكّر في الاتّصال بها هاتفيّاً لتبادل حديث قصير، ويتردّد، ثمَّ يقرِّر الامتناع عن القيام بذلك؛ فهو لا يرغب في الظّهور بمظهر الضَّعيف. فلو أنَّها عرفت إلى أيّ حدّ تمسّ حاجته إليها فإنَّه سيبدأ في فقدان نقطة قوّته، ولن يكون ذلك أمراً جيِّداً، فالرّجل ينبغي أن يكون الأقوى دائماً.

الآن ها هو بلاك قد قام بتنظيف مائدته، ووضع مكان أدوات الكتابة طعام العشاء. وها هو يمضغ طعامه على مهل، محدِّقاً إلى خارج النّافذة بطريقته الشّاردة تلك. ولدى مرأى الطّعام يدرك بلو أنَّه جائع، ويبحث في المطبخ عمَّا يؤكل، ويستقرّ رأيه على وجبة مؤلَّفة من اليخنة المعلّبة، وينتهي من أمر صلصة مرق اللّحم بالاستعانة بشريحة من الخبز الأبيض. ويراوده أمل في أنَّ بلاك سيخرج بعد العشاء، ويشعر بما يشجّعه عندما يرى دفقاً فجائيّاً من النشاط في غرفة بلاك، ولكن كلّ ذلك لا ينتهي إلى شيء، فبعد ربع السّاعة يجلس بلاك إلى مكتبه ثانية، وفي هذه المرّة يقرأ كتاباً. ويرتمي ضوء

مصباح إلى جواره، ويتاح لبلو أن يرى وجه بلاك على نحو أفضل من ذي قبل. ويُقدِّر بلو أنَّ عمر بلاك معادل لعمره، مع إضافة عامين أو حذفهما، أيّ أنَّه فيما بين أواخر العشرين وأوائل الثلاثين. وهو يجد وجه بلاك سمحاً، ولا شيء يميِّزه عن ألف وجه آخر يراها المرء كلّ يوم. ويأتي ذلك مخيِّباً لآمال بلو، وهو مايزال في قرارة نفسه يأمل في أن يكتشف أنَّ بلاك مجنون. ويتطلّع بلو عبر المنظار المكبّر، ويقرأ عنوان الكتاب الذي يعكف بلاك على قراءته: «والدن» لمؤلِّفه هنري ديفيد ثورو[1]. ولم يقدّر لبلو أن يسمع به من قبل، وها هو ذا يكتبه بعناية في كرّاسته.

---

(١) ثورو، هنري ديفيد (١٨١٧ - ١٨٦٢ م): مؤلِّف أمريكي، ولد في كونكورد بولاية ماساشوستس الأمريكيَّة، وتلقّى تعليمه في هارفارد، وأصبح من أتباع إمرسون وصديقاً شخصيّاً له. أصدر خلال حياته كتابين، أوّلهما في ١٨٤٩ م بعنوان «أسبوع في كونكورد ونهر مريماك»، ووصف فيه رحلة قام بها في ١٨٣٩ م مع أخيه، وثانيهما «والدن» المشار إليه في المتن، ويحمل كذلك عنواناً آخر هو «الحياة في الغابات» وذلك في ١٨٥٤ م، ولم يجذب وقت صدوره اهتماماً يذكر، ولكنَّه قُدِّر له أن يلقى التَّقدير، باعتباره من أبرز الكتب في القرن العشرين. وقد وصف فيه تجربته التي استمرَّت عامين وقامت على الاكتفاء الذّاتي، إذ بنى لنفسه كوخاً على حافَّة بحيرة والدن، قرب كونكورد. ويتناول في الكتاب الحياة في هذا الكوخ، وتجاربه الزراعيَّة، وزوّاره، وجيرانه، والحياة والنباتات البرِّيَّة، وشعوره بالماضي المنتمي إلى الهنود الحمر، وقد تحدّى بجرأة النزعة الماديّة وأخلاقيّات مفهوم العمل في عصره. ومن أهمّ كتاباته كذلك مقالة بعنوان «العصيان المدني» صدرت أصلاً في العام ١٨٤٩ م بعنوان «مقاومة الحكم المدني» ودافع فيها عن حقّ المواطن في رفض دفع الضرائب لأسباب تتعلّق بالضّمير، وقد سجن لفترة قصيرة في ١٨٤٥ م لرفضه دفع الضرائب احتجاجاً على حرب المكسيك وعلى العبوديَّة. وقد صدرت يوميّاته التي تقع في ١٤ مجلّداً في ١٩٠٦ م كما صدرت في العام نفسه أعماله الكاملة في ٢٠ مجلّداً، وتمَّ البدء بإصدار طبعة مدقّقة من أعماله في ١٩٧١ م.
(هـ. م.)

وهكـذا ينقضي باقي المسـاء بعكوف بـلاك على القـراءة وبلو عـلى مراقبته وهو يقرأ. ومـع مضي الوقت يـزداد تثبيط همّة بلو، فهـو ليس معتاداً على الجلوس على هذا النحو، ومع إطباق الظلام عليه، الآن، يبـدأ ذلك في الإثقـال على أعصـابـه. فهـو يحبّ الانـطلاق والنّشـاط والانتقال من مكان إلى آخر وأداء الأشياء، وكان يقول لبراون، عندما يعهد إليه بمهمّة سكونيَّة، بشكل خاص: إنّني لست من طراز شرلوك هـولمز أعـطني شيئاً يمكنني أن أغـرس فيه أسنـاني. والآن، وقـد غـدا يعمل لحسابه، فهذا هو ما يحصل عليه: قضيّـة لا يقوم فيهـا بشيء، ذلك أنّ مراقبة شخص وهو يكتب ويقرأ ترقى إلى مـرتبة عـدم القيام بشيء، والسّبيل الوحيد المتاح أمـام بلو لإدراك معنى ما يحـدث هو أن يكـون داخِلَ ذهن بـلاك، ليدرك مـا يفكّر فيـه، وذلك بـالطّبـع أمـر مستحيل. ومن هنا فإنّ بلو يأخذ شيئاً فشيئاً في ترك ذهنه يشرد عائداً إلى الأيّـام الخوالي، فيفكّـر في براون، وفي بعض القضـايا التي عمـلا فيها معاً، متذوِّقاً ذكـرى انتصاراتهـما. فعلى سبيـل المثال كـانت هناك «قضيّة ريدمان» التي تتبّعا فيها أثر مـوظّف البنك الّـذي اختلس ربع مليون دولار، ولحلّ تلك القضيّة تنكّر بلو في هيئة رجل مراهنات على سباق الجياد، وأغرى ريدمان بأن يـراهن معه، وتمّ ردُّ مصـدر النُّقود التي راهن بهـا إلى الأوراق الماليّـة المختلسة من البنـك، ونال الـرّجل جزاءه العادل. والأفضل من ذلك «قضيّة جراي». فقـد تغيّب جراي لمدّة عام، وكانت زوجته على أهبّة التسليم بـأنّه قـد لقي حتفه، وقـد بحث بلو عبر كلّ القنوات المعتادة، وعـاد خاوي الـوفاض، ثمّ ذات يوم، وفيما هـو يوشـك على تقـديم تقريـره النّهائي عـثر مصادفـة على جراي في حانة تقع على بعد كتلتين من المباني من الموضع الّذي كانت

زوجته تجلس فيه مقتنعة بأنّه لن يعود أبداً. وكان الاسم الّـذي يحمله جـراي هو «جـرين»، ولكنّ بلو عرف، عـلى الـرّغم من هـذا، أنّـه جراي، إذ كان يحمل معه في كلّ مكان صـورة للرّجل خـلال الأشهر الثلاثة الماضية، ويعرف ملامحـه عن ظهر قلب. وقـد اتضّح أنّ السرّ في الأمر هو فقـدان الذاكـرة، وقد اصـطحب بلو جراي إلى زوجتـه، وعلى الرّغم من أنّه لم يتذكّرها وواصل تسمية نفسـه بجرين، إلاّ أنّـه وجدها من النّوع الّذي يروقه، وبعد أيّام خـطبها. وهكـذا أصبحت السيّـدة جراي تـدعى السيّدة جـرين، وتزوّجت الـرّجل نفسـه للمرّة الثّانية، وبينما لم يتذكّر جراي الماضي قطّ ـ ورفض في عناد الإقرار بأنّه قـد نسي أي شيء ـ فإنّ ذلـك لم يمنعه فيـما يبدو من العيش عـلى نحو مـريح في الحـاضر. وبينما كـان جراي قـد عمل مهنـدسـاً في حيـاتـه السّابقة فإنّه باعتباره جرين يعمل الآن مسؤولاً عن المشرب في إحدى الحانات على بعد كتلتـين من المباني. وقـال إنّه يحبّ مـزج المشروبات والحديث مع النّاس الّذين يتدفّقون على الحانة، وليس بمقدوره تصوّر القيام بأيّ شيء آخر. وأكّد لبراون وبلو في حفل الزّفاف قـوله: لقـد ولدت لأكون مسؤولاً عن مشرب، ومن هما ليعترضا على اختيار رجل لما يصنعه بحياته.

الآن يقـول بلو لنفسه: تلك كـانت الأيّام الخـوالي، يقـولهـا وهـو يعكف عـلى مراقبـة بلاك عـبر الطريق وهـو يطفئ النّـور في غرفتـه. كانت مليئة بالتحوّلات الغـريبة والمصـادفات المسلّيـة. طيّب، ليست كلّ القضايا من النّوع المثير للاهتـمام، ويتعينّ عليـك أن تأخـذ الجيّد مع السيّئ.

يستيقظ بلو، المعتصم دائماً بالتفاؤل، في صباح اليوم التالي، في حالة مزاجيّة مرحة. وفي الخارج، يتساقط الثلج على الشّارع الهادئ، وينقلب كلّ شيء إلى اللّون الأبيض. وبعد مراقبة بلاك وهو يتناول إفطاره على المائدة قرب النّافذة ويقرأ صفحات قليلة أخرى في كتاب «والدن» يراه بلو وهو يتراجع إلى مؤخّرة الغرفة، ثمّ يعود إلى النّافذة مرتدياً معطفه. الوقت بعد الثامنة بقليل، ويمدّ بلو يده بحثاً عن قبعته ومعطفه وملفعته وحذائه الطّويل العنق، ويرتدي ملابسه متعجّلاً، ويهبط إلى الشّارع بعد أقلّ من دقيقة مقتفياً أثر بلاك. إنّه صباح بلا ريح، ومن الهدوء بحيث كان بمقدوره سماع صوت تساقط الثلج على أغصان الأشجار. إنّه ما من أحد آخر يبدو للعيان في الشّارع، ويترك حذاء بلاك مجموعة واضحة من الآثار على الرّصيف الأبيض. يتبع بلو الآثار عند المنعطف ويرى بلاك وهو يمضي إلى الشّارع التالي وكأنه يستمتع بالطّقس. ويحدّث بلو نفسه بأنّ هذا ليس سلوك رجل يوشك على الهرب. وبعد شارعين، يدخل بلاك متجر بقالة صغير، ويظلّ هناك لعشر دقائق أو لعشرين دقيقة، ثمّ يخرج مثقلاً بكيسين مصنوعين من الورق البنيّ وفيهما أشياء كثيرة. ومن غير أن يلحظ بلو الّذي يقف في مدخل أحد البيوت على الجانب الآخر من الشّارع يشرع في العودة إلى شارع أورينج ويحدّث بلو نفسه بأنّ بلاك يُعِدّ مؤونة كافية لمواجهة العاصفة، ثمّ يقرّر المخاطرة بفقدان أثر بلاك، ويمضي بدوره إلى المتجر للقيام بالشيء عينه. ويحدّث نفسه بأنّه ما لم تكن تلك خدعة، وما لم يكن بلاك يعتزم إلقاء موادّ البقالة والهرب بعيداً، فإنّه من المؤكّد إلى حدّ بعيد أنّه في الطّريق إلى البيت. ومن

هنـا يقوم بلو بتسـويق ما يحتـاجه، ويتـوقّف في المتجر المجـاور لشراء صحيفـة وعـدّة مجـلات، ثمّ يعـود إلى غـرفتـه في شـارع أورينـج.
وبالتّأكيد فإنّ بلاك جالس إلى مكتبه قرب النّافذة عاكفاً عـلى الكتابـة في الكرّاسة عينها، شأنه بالأمس.

تغدو الرّؤيـة ضعيفة بسبب سقـوط الثلج، ويعاني بلو صعـوبة في رصد ما يجري في غرفة بلاك، وحتّى المنظار المكبّر لا يُجدي كبير نفع. ويظلّ النّهار كالحاً، وعبر الثلج المتساقط بلا انتهاء، لا يبدو بلاك أكثر من ظـلّ. ويسلم بلو نفسَه لانتـظار طويـل، ثمّ يستقـرّ مـع صحفـه ومجلاّته. وهو قارئ دؤوب لـ «ترو ديتكتيف» ويحاول ألاّ تفـوته شهـراً واحداً. والآن ومع توافر الوقت لديـه يقرأ العـدد الجديـد بدقّـة، بل ويتوقّف لقراءة الإشارات والإعلانات الصغيرة المنشورة في الصّفحات الأخيرة. وهناك وسط القصص البارزة عن الّذين يلقـون القبض على العصابات، وعن العملاء السّرّيين، نشر مقال قصير يمسّ وتـراً عميقاً في نفس بلو، وحتّى بعـد أن يفرغ من المجلّة فـإنّـه يجـد من الصعب عليـه أن يمنع نفسـه من التّفكير فيـه. ويبدو أنّـه قبل ربـع قرن، وفي منطقة غـابات تقـع خارج فيـلادلفيا، عُـثر على صبيّ صغـير مقتولاً، وعـلى الرّغم من أنّ الشّرطـة بادرت إلى البـدء في العمل عـلى كشف أسرار القضيّـة، إلاّ أنّها لم تفلح أبـداً في الـوصـول إلى مـا يؤدّي إلى ذلك؛ فلم يقتصر الأمر على عدم وجـود مشتبه بهم، وإنّمـا لم يكن في الوسع كذلك التعرّف على هويّة الصّبيّ. من هو، ومن أين جاء، ولِمَ كان هناك ـ كلّهـا أسئلة ظلّت بلا أجـوبة. وبـالفعل فقـد تمّ إسقاط القضيّـة من قوائم الملفّـات التي يجري العمل فيهـا، ولـولا الـطّبيب الّـذي عُهد إليـه بتشريح الجثّـة لنُسِيَتْ تمامـاً. وقد استحـوذت هـذه

الجريمة على ذهن هذا الرّجل الّذي كان اسمه «جولد»، وقبل دفن الجثّة صنع قناعاً يحفظ ملامح الوجه نقلاً عن وجه الصّبيّ، ومنذ ذلك الحين كرّس ما يتاح له من وقت لذلك اللّغز. وبعد عشرين عاماً بلغ سنّ التقاعد، وترك عمله، وشرع في قضاء كلّ لحظة منكبّاً على القضيّة. ولكنّ الأمور لم تسر على مايرام، فلم يحقّق تقدماً، ولم يقترب خطوة واحدة من حلّ لغز الجريمة. ويصف المقال المنشور في «ترو ديتكتيف» كيف أنّه يعلن الآن عن مكافأة قيمتها ألفا دولار لأيّ شخص يمكنه أن يقدّم معلومات عن الصّبيّ الصّغير. كما يضمّ المقال كذلك صورة عتيقة منسوخة للرّجل وهو يمسك بالقناع في يديه. والنظرة المرتسمة في عينيه تبدو ذاهلة للغاية، ومفعمة بالتوسّل، بحيث يكاد بلو يستطيع أن يحوّل عينيه عنها. ويوغل جولد الآن في العمر، وهو يخشى أن يدركه الموت قبل أن يحلّ القضيّة. ويؤثّر هذا بعمق في نفس بلو. ولو كان ذلك مُستطاعاً لما تمنّى شيئاً أفضل من أن ينحّي ما يقوم به جانباً ويحاول مساعدة جولد، وهو يحدّث نفسه بأنّه ليس هناك الكثير من هذا الطِّراز من الرّجال. ولو أنّ الصبيّ كان ابن جولد لكان هناك معنى لما صنع، أيّ الانتقام ببساطة ووضوح، ولكان في وسع أيّ شخص أن يتفهّم ذلك، ولكنّ الصبيّ كان غريباً تماماً بالنّسبة إليه، وبالتالي فليس هناك شيء ذو طابع شخصيّ في الأمر، وما من إشارة إلى دافع خفيّ. وهذه الفكرة هي التي تؤثّر تأثيراً بالغاً في نفس بلو. فجولد يرفض قبول عالم يستطيع فيه قاتل صبيّ صغير أن يلوذ بالفرار، حتّى ولو كان هذا القاتل في عداد الأموات الآن، وهو على استعداد للمخاطرة بحياته وسعادته لتقويم

هذا الوضع الخاطئ. ثمّ يفكّر بلو في الصبيّ الصّغير للحظة، محاولاً تخيّل ما وقع حقّاً، ومجرِّباً الشّعور بما يتحتّم أن يكون الصبيّ قد استشعره، ثمّ يتضّح له أنّ القاتل لا بدّ أن يكون أحد أَبَويِ الطّفل، وإلاّ لكان قد تمّ الإبلاغ عن غيابه. ويحدّث بلو نفسه بأنّ ذلك لا يؤدّي إلاّ إلى جعل الأمور أكثر سوءاً. وفيما هو يشرع في الشّعور بالغثيان، حِيال هذه الفكرة، متفهّماً تماماً الآن ما شعر به جولد حتماً طوال الوقت، أدرك أنّه بدوره كان قبل ربع قرن صبيّاً صغيراً، وأنّه لو عاش ذلك الصبيّ لكان في مثل عمر بلو الآن. وقد حدّث بلو نفسه قائلاً: كان يمكن أن يحدث ذلك لي. وإذ لم يعرف ما عساه يصنع غير ذلك فقد قام بقصّ الصورة من المجلّة، وألصقها على الجدار فوق فراشه.

هكذا تمضي الأيّام الأولى. بلو يراقب بلاك، وأمور قليلة تحدث. يكتب بلاك، ويقرأ، ويقوم بجولات قصيرة في الحي، ولا يبدو أنّه يلاحظ وجود بلو. وأمّا فيما يتعلّق ببلو فيحاول ألاّ يستسلم للقلق، ويفترض أنّ بلاك يراهن على الوقت، ويقبع مستكيناً بانتظار حلول اللّحظة المناسبة. وإذ كان بلو يعمل منفرداً فإنّه يدرك أنّه لا يتوقع منه القيام بالمراقبة المستمرّة. ففي نهاية المطاف ليس بمقدورك أن تراقب شخصاً، على مدار أربع وعشرين ساعة في اليوم، ذلك أنّه يتعينّ أن يكون هناك وقت لنومك، ولتناول طعامك، وتنظيف ملابسك، وما إلى ذلك. ولو أنّ وايت كان يريد مراقبة بلاك على مدار السّاعة لكلّف بذلك شخصين أو ثلاثة لا شخصاً واحداً. ولكن بلو بمفرده وليس بمقدوره القيام بما يتجاوز الممكن.

ومع ذلك فإنّه يبدأ بالشّعور بالقلق بالفعل، على الرّغم ممّا يحدّث به نفسه، وذلك أنّه إذا كان يتعينّ مراقبة بلاك فإنّه ينبني على ذلك أنّه لا بد من مراقبته في كلّ ساعة من كلّ يوم. وما هو أقلّ من المراقبة الدائمة لن يكون مراقبة على الإطلاق. ويجادل بلو بالقول إنّ الوقت لن يطول قبل أن تتغيّر الصّورة بكاملها. لحظة واحدة من عدم الانتباه - نظرة عجلى إلى جانبه، توقّف لهرش رأسه، أصغر تثاؤب - وبسرعة ينسلّ بلاك مبتعداً ويقترف أي عمل فظيع يُعِدُّ لارتكابه، ومع ذلك فإنّه بالضّرورة ستحلّ مثل هذه اللّحظة، بل المئات والآلاف منها كلّ يوم. ويجد بلو أنّ ذلك ممّا يثير الانزعاج، وأيّاً كان عدد مرّات تقليبه لهذه المشكلة في ذهنه فإنّه لا يقترب من حلّها، ولكن هذا ليس بالشيء الوحيد الّذي يثير انزعاجه.

لم تتح لبلو، حتّى الآن، فرصة تُذْكَر للجلوس في سكون، وقد تركه هذا الكسل الجديد في شيء من الحيرة والضّياع؛ فللمرّة الأولى في حياته أعيد إلى ذاته من غير أن يكون هناك ما يتشبّث به، لا شيء ممّا يستعان به لتمييز لحظة عمّا تليها. ولم يُقَدَّر له قطّ أن يمنح الكثير من التّفكير للعالم القابع بداخله، وعلى الرّغم من أنّه كان يعرف على الدوام أنّه هناك، إلّا أنّه ظلّ كمّاً مجهولاً، لم يُكْتَشف، وبالتّالي يغمره الظّلام، حتّى بالنّسبة إليه. لقد تحرّك بسرعة على امتداد سطح الأشياء، بقدر ما يسعه أن يتذكّر، مركّزاً انتباهه على هذه الأسطح وحدها لكي يستوعبها، محيطاً بأحدها، ثمّ منتقلاً إلى ما يليه، وقد سعد بالعالم دائماً على هذا النّحو، ولم يطلب من الأشياء أكثر من أن تكون هناك. وقد كانت هناك، حتّى الآن، ظاهرة على نحو متوهّج

في ضوء النّهار، ومُحَدِّثة إيّاه بوضوح عمّا هي عليه، ذواتها على نحو شديد الكمال ودونما شيء آخر بحيث أنّه لم يضطر قطّ إلى التوقّف أمامها أو النّظر إليها مرّتين. وأمّا الآن، ومع إبعاد العالم على نحو ما هو عليه عنه، على حين غرّة، ومن غير وجود لشيء يراه إلاّ ظلّ غامض يُدعى بلاك، فإنّه يجد نفسه غارقاً في التّفكير في أمور لم تخطر له قطّ على بال من قبل، وقد بدأ ذلك بدوره في إزعاجه. وإذا كان التّفكير، ربّما، كلمة أقوى ممّا ينبغي عند المنعطف الحالي، فإنّ لفظاً أكثر اعتدالاً بقليل ـ وهو التّأمّل، على سبيل المثال ـ لن يكون بعيداً عن إصابة الهدف. ذلك أنّ مصدر هذه الكلمة في اللّغة الإنجليزيّة Speculate المستمدّ من اللّفظة اللاّتينيّة Speculatus هو بمعنى مرآة أو زجاج ممّا تُرى الأشياء على صقاله. كما أنّه في غمرة التجسّس على بلاك عبر الشّارع، يبدو وكأنّ بلو يتطلّع إلى مرآة، وبدلاً من مجرّد مراقبة شخص آخر فإنّه يجد أنّه يراقب نفسه أيضاً. إنّ إيقاع الحياة بالنّسبة إلى بلو يتمهّل للغاية وعلى نحو مفاجئ إلى حد بعيد بحيث أنّه بمقدوره أن يرى الآن الأشياء الّتي لم ينتبه إليها في السّابق، ومنها على سبيل المثال المسار المنحني للضوء الّذي يعبر الغرفة كلّ يوم، والطّريقة الّتي تعكس الشّمس بها في ساعات معيّنة الجليد على الرّكن القصيّ للسقف في غرفته. نبض قلبه، صوت نفسه، ارتداد طرفه إليه ـ الآن يدرك بلو هذه الأحداث الصّغيرة، وأيّاً كانت محاولاته لتجاهلها فإنّها تلحّ على ذهنه، كعبارة عبثيّة تعاد مراراً وتكراراً، وهو يعرف أنّها لا يمكن أن تكون صحيحة، ولكنّ هذه العبارة تكتسب شيئاً فشيئاً معنى، على ما يبدو.

الآن يبدأ بلو بطرح نظريات معيّنة عن بلاك، عن وايت، عن المهمّة الّتي عهد إليه بإنجازها. وهو يكتشف أنّ ابتكار القصص يمكن أن يكون متعة في حدّ ذاته، ويتجاوز كونه وسيلة تساعد في إزجاء الوقت. وهو يفكر في أنّ بلاك ووايت ربّما كانا أخوين، وأنّ الأمر متعلّق بمبلغ كبير، ميراث على سبيل المثال، أو رأس مال مستثمَر في شراكة. وربّما أراد وايت أن يبرهن على عدم كفاءة بلاك، وأن يدفع به إلى مؤسّسة للعلاج النّفسي والعقلي ويسيطر على ثروة العائلة وحده، ولكنّ بلاك أكثر حذقاً من أن يقع في ذلك، وقد عمد إلى الاختباء، منتظراً أن تخفّ حدّة الضغوط. وتجعل نظريّة أخرى يطرحها بلو من وايت وبلاك خصمين يتسابقان نحو الهدف نفسه ـ حلّ معضلة علميّة على سبيل المثال ـ ويرغب وايت في أن تتمّ مراقبة بلاك لكي يتيقّن من أنّه لم يسبقه إلى الهدف. وتذهب قصّة أخرى إلى القول بأنّ وايت عميل منشقّ على مكتب التحقيقات الفيدرالي، أو منظّمة تجسّس من نوع ما، ربّما كانت أجنبيّة، وقد ضرب ضربة لحسابه لإجراء تحقيق هامشي لم يصدّق عليه رؤساؤه بالضّرورة، وبمقدوره من خلال الاستعانة بخدمات بلو للقيام بعمله بدلاً منه أن يُبقي مراقبة بلاك سرّاً، وفي الوقت نفسه يواصل القيام بمهامه المعتادة. وتتزايد قائمة هذه القصص يوماً بعد الآخر، فيعود بلو في بعض الأحيان بخاطره إلى قصّة سابقة، ليضيف إضافات متميّزة وجزئيّات، وفي أوقات أخرى يستأنف الأمر بشيء جديد، مؤامرات للقتل على سبيل المثال، ومشروعات اختطاف للحصول على فديات كبيرة. ومع تتابع الأيّام يدرك بلو أنّه لا نهاية للقصص الّتي يستطيع

أن يرويها، ذلك أنّ بلاك ليس إلّا نوعاً من الفراغ، ثقباً في نسيج الأشياء، وقصّةٌ واحدة تستطيع أن تملأ هذا الثّقب، شأنُها شأنُ أيّة قصّة أخرى.

غير أنّ بلو لا يلفظ الكلمات متصنّعاً، وذلك لأنّه يعرف أنه يودّ أن يعلم بالقصّة الحقيقيّة أكثر من أيّ شيء آخر. ولكنّه يعلم كذلك في هذه المرحلة المبكّرة أنّ الصّبر مطلوب، ومن هنا فإنّه يبدأ شيئاً فشيئاً بالاستقرار، ومع كلّ يوم ينقضي يجد نفسه أكثر شعوراً بالارتياح حِيال موقفه، وأكثر استسلاماً بقليل للحقيقة القائلة بأنّ أمامه مسيرة طويلة.

ومن سوء الطّالع أنّ الأفكار التي تدور حول من ستغدو في المستقبل السيّدة بلو تعكّر صفو سلاحه الذّهني المتزايد، ذلك أنّ بلو يفتقدها أكثر من ذي قبل، ولكنّه يشعر على نحو من الأنحاء كذلك بأنّ الأمور لن تكون كما كانت من قبل، وليس بمقدوره أن يحدّد مصدر هذا الشّعور. ولكن بينما يشعر بالرّضا على نحو معقول عندما يقصر أفكاره على بلاك، على غرفته، على القضيّة التي يعمل فيها، فإنّه عندما تدخل من ستصبح السّيدة بلو مستقبلاً مجالَ وعيه، يتملّكه نوع من الذُعر، وفجأة تنقلب سكينته إلى عذاب، ويشعر وكأنّه يسقط من مكان مظلم يشبه الكهف، بلا أمل في العثور على طريق للخروج. وفي كلّ يوم تقريباً يحسّ بما يغويه بالتقاط سمّاعة الهاتف والاتصال بها، ظانّاً أنّه قد تؤدّي لحظة اتصال حقيقيّة إلى إبطال مفعول الرقية السّحريّة. ولكنّ الأيّام تنقضي، ويظلّ من غير اتّصال هاتفي بها. ويزعجه هذا بدوره لأنّه لا يتذكّر وقتاً في حياته كان فيه

على مثل هذا القدر من التردّد في القيام بشيء يريده بمثل هذا الجلاء البالغ. ويقول محدِّثاً نفسه: إنّني أتغيّر. وشيئاً فشيئاً أغدو مختلفاً عمّا كنت عليه. ويعيد إليه هذا التّفسير بعض الطمأنينة، على الأقلّ لبعض الوقت، ولكنّه في نهاية المطاف يتركه شاعراً بأنّه أكثر غرابة ممّا كان عليه. وتنقضي الأيّام ويغدو من المتعذّر عليه الامتناع عن رؤية صور لمن ستغدو السّيدة بلو مستقبلاً في ذهنه، وخاصّة خلال اللّيل، وهنالك في ظلام غرفته وهو راقد على ظهره مفتوح العينين، يعيد تذكّر جسمها قطعة فأخرى، بادئاً بقدميها، فكاحليها، وشاقّاً طريقه إلى أعلى ساقيها، ثمّ على امتداد فخذيها، صاعداً من البطن إلى النّهدين، ثمّ ضارباً في سعادة وسط اللّيونة، ينحدر إلى عجيزتها، ثمّ صعداً من جديد على ظهرها، ليجد أخيراً عنقها، ومنطلقاً إلى الأمام نحو محياها البدريّ الباسم. ترى ماذا تفعل الآن؟ هكذا يتساءل في بعض الأحيان. وماذا تعتقد بشأن هذا كلّه؟ لكنّه لم يستطع الوصول قطّ إلى إجابة مُرْضِية. وإذ يسعه أن يبتكر حشداً من القصص الّتي تناسب الحقائق المتعلّقة ببلاك، فإنّه حِيال من ستغدو السّيدة بلو مستقبلاً لا يسود إلّا الصّمت والحَيْرة والخواء.

يحلّ اليوم الذي يتعينّ أن يكتب فيه تقريره الأوّل. وهو يحظى بخبرة كبيرة في هذا النّوع من الكتابات، ولم يُقَدَّر له أن يصادف عناء فيها قطّ. ويتمثّل أسلوبه في التمسّك بالحقائق الخارجيّة، فيصف الأحداث وكأنّ كلّ كلمة تتطابق تماماً مع الشيء الذي تصفه ولا تدفع الموضوع إلى أي بعد إضافيّ، فالكلمات بالنّسبة إليه شفّافة، إنّها نوافذ كبيرة تقف بينه وبين العالم، وهي حتّى الآن لم تحجب عنه الرّؤية

قطّ، بل إنها لا تبدو موجودة. آه، هناك لحظات يتّسخ فيها الزجاج ويضطر بلو إلى تنظيفه في بقعة أو في أخرى، ولكن ما إن يجد الكلمة المناسبة حتى يغدو كلّ شيء واضحا، وبالعودة إلى المواد التي سبق أن كتبها في كرّاسته، وبالتنقيب فيها لإنعاش ذاكرته، وللتشديد على الملاحظات ذات الأهميّة يحاول أن يصوغ كلاًّ متماسكاً، متجاوزاً الإشارة الهامشيّة والتّجميليّة. وفي كلّ تقرير كتبه حتّى الآن تحظى الأعمال بالأولويّة على التفسيرات. على سبيل المثال سار «الهدف» من كولومبوس سيركل إلى كارنجي هول. ما من إشارة إلى الطّقس. وما من ذكر لحركة المرور، وما من محاولة لتخمين ما يفكّر فيه الهدف. ويقتصر التّقرير على الحقائق المعروفة التي يمكن التحقّق من دقّتها، ولا يحاول المضيّ وراء ما يتجاوز هذا الحدّ.

غير أنّه في مواجهة حقائق قضيّة بلاك يزداد إدراك بلو لورطته. هناك بالطّبع الكرّاسة، ولكنّه عندما يتصفّحها ليرى ما كتبه فإنّه يشعر بخيبة الأمل إذ يجد مثل هذه النُّدرة في التّفاصيل، ويبدو الأمر كما لو أنّ كلماته، بدلاً من أن ترسم الحقائق وتجعلها تبرز في العالم بصورة ملموسة، قد دفعتها للاختفاء. ولم يحدث هذا لبلو من قبل. وينظر عبر الشّارع فيرى بلاك جالساً إلى مكتبه كالعادة. ويتطلّع بدوره من النّافذة في تلك اللّحظة، ويخطر ببال بلو فجأة أنّه ليس في وسعه بعد الآن الاعتماد على الإجراءات القديمة. مداخل التحقيق، العمل التمهيدي، روتين التحرّي ـ ما من شيء من هذا له أهميّة بعد الآن. ولكن عندئذٍ، وعندما يحاول تخيّل ما سيحلّ محلّ هذه الأشياء، فإنّه يضلّ الطّريق. وعند هذا المنعطف فإنّ بلو لا يمكنه إلاّ أن يحدس ما ليست عليه القضيّة. غير أنّ تحديد ما هي عليه يتجاوز قدرته.

يعدّ بلو آلته النّاسخة على المائدة، ويتأمّل باحثاً عن أفكار، محاولاً أن يكرّس نفسه للمهمّة التي يعكف على إنجازها. وهو يعتقد أنّ صورة صادقة للأسبوع الأخير قد تشمل القصص المختلفة التي اختلقها لنفسه عن بلاك. وبوجود القليل غير ذلك ممّا يذكر في التّقرير فإنّ هذه الانطلاقات إلى عالم الإيهام ستعطي على الأقلّ بعض النّكهة لما حدث، ولكن بلو يجبر نفسه على تنحية هذا جانباً، مدركاً أنّ هذه القصص لا علاقة لها حقّاً ببلاك. ويقول إنّ هذه ليست، في نهاية المطاف، قصّة حياتي، ويفترض أن أكتب عنه، لا عن نفسي.

ومع ذلك فإنّ هذا الاتجاه يظلّ كإغواء لا يليق بالمقام، وعلى بلو أن يجاهد نفسه لبعض الوقت قبل أن يبعده، وهو يعود إلى البداية ويشقّ طريقه عبر القضيّة خطوة فأخرى، مصمّماً على القيام بما طلب منه تماماً، ويقوم بكتابة التّقرير بمزيد من العناء، بالأسلوب القديم، معالجاً كلّ جزئيّة بعناية بالغة وبدقّة متزايدة، بحيث تنقضي عدّة ساعات قبل أن يُفلح في الانتهاء من التقرير. وفيما هو يراجع النتائج يجد نفسه مضطراً للاعتراف بأنّ كلّ شيء يبدو دقيقاً. ولكن لماذا يشعر بعدم الرضا، على هذا النّحو، وبالاضطراب البالغ حِيال ما كتبه؟ ويقول لنفسه: إنّ ما حدث ليس هو حقّاً ما وقع. ولأوّل مرّة في تجربته في كتابة التقارير، يكتشف أنّ الكلمات لا تؤدّي وظيفتها بالضّرورة، وأنّ من الممكن أن تؤدّي إلى إضفاء الغموض على الأشياء التي تحاول قولها. ويتطلّع بلو في أرجاء الغرفة، ويركّز انتباهه على الأشياء المختلفة، أحدها بعد الآخر. إنّه يرى المصباح ويقول لنفسه: مصباح. ويرى الفراش ويقول لنفسه: فراش. ويشاهد الكرّاسة

ويقول لنفسه: كرّاسة. ويفكّر في أنّه لن يجديه شيئاً أن يدعو المصباح فراشاً أو يدعو الفراش مصباحاً. لا، فهذه الكلمات تتناسب بشكل محكم مع الأشياء التي تعبّر عنها، وفي اللّحظة التي ينطقها بلو فيها فإنّه يشعر باغتباط عميق، وكأنّه أثبت لتوّه وجود العالم، ثمّ ينظر إلى الخارج، عبر الطّريق، ويرى نافذة بلاك. إنّها مظلمة الآن، وبلاك نائم. ويقول بلو لنفسه إنّ تلك هي المشكلة، أي محاولة العثور على قليل من الشّجاعة. ذلك ولا شيء غيره. إنّه هناك، ولكن رؤيته مستحيلة، وحتّى عندما أراه فإنّ الأمر يبدو وكأنّ الأضواء قد أطفئت.

يودع تقريره في مغلّف ويمضي إلى الخارج، ويسير إلى الرّكن، ويضعه في صندوق للبريد، ويقول لنفسه قد لا أكون أكثر النّاس ذكاء في العالم، ولكنّني أبذل قصارى جهدي، أبذل قصارى جهدي.

وبعد ذلك، يبدأ الثلج بالذوبان. وفي اليوم التّالي تتألّق الشمس مشرقة وتغرّد مجموعات من القُبرات على أغصان الأشجار، ويستطيع بلو سماع الصّوت البهيج الصادر عن تساقط قطرات الماء من حافّة السّقف والأغصان وأعمدة المصابيح. ولا يبدو الرّبيع بعيداً على نحو مفاجئ، ويقول لنفسه: إن هي إلاّ أسابيع قليلة ويكون كلّ صباح شبيهاً بهذا الصّباح.

ينتهز بلاك فرصة تحسّن الطّقس للتجوّل إلى مدى أبعد من ذي قبل، ويتبعه بلو، ويساوره شعور بالارتياح لعودته إلى الحركة من جديد، ويواصل بلاك سيره. ويأمل بلو بأن لا تنتهي الرّحلة قبل أن تتاح له الفرصة للتخلّص من التشنّجات التي أصابته لطول الجلوس في موضعه. وكما في وسع المرء أن يتصوّر فإنّه كان على الدوام ممّن

يـواظبون عـلى السّير، وقـد أفعمه بـالسّعادة أن يشعـر بقـدميـه وهمـا تنـطلقـان في نسيم الصّبـاح. وأحسّ بلو وهمـا ينـطلقـان في شـــوارع بروكلين هايتس الضيّقة بما يشجّعه إذ رأى بلاك يواصل زيادة المسافـة التي تفصله عن البيت، ولكنّ حالته المزاجيّة تنقلب فجأة إلى التشاؤم إذ يشرع بـــلاك في صعـود الـــدّرج المفضي إلى ممـرّ المشـــاة عـــبر جسر بروكلين، ويخطر ببال بلو أنّ بلاك يعتزم القفز من فوق الجسر، ويحدّث نفسه بأنّ مثل هذه الأمور تحدث إذ يمضي رجـل إلى قمّة الجسر، ويلقي نظرة أخيرة على الدّنيا من خلال الرِّيح والسُّحب، ثمّ يقفـز إلى الماء، وتتحطّم عظامه لدى الارتطام ويتهشّم جسمه. ويقمع بلو الصّورة في ذهنه، ويحدّث نفسه بأنّ عليه التزام اليقظة، ويقرّر أنّه إذا ما بـدأ أيّ شيء في الحدوث فإنّه سيتخلّى عن دوره كمـراقب محايـد ويتدخّـل في الأمـر، فهو لا يـريد أن يـرى بلاك وقـد لقي حتفه ـ ليس بعـدُ عـلى الأقلّ.

كانت عدّة سنوات قد انقضت منـذ عبر جسر بـروكلين سيراً عـلى الأقدام. وكانت المرّة الأخيرة مع أبيه عندما كان صبيّاً، والآن ها هي ذكرى ذلك اليوم تعاوده، وبمقدوره أن يرى نفسه ممسكاً بيد أبيه يسير إلى جـواره، وفيما هـو يسمع حـركة المـرور تنطلق عـلى امتداد الجسر الحديدي أسفلهما، يمكنه أن يتذكّر قوله لأبيـه إنّ الضجّة تشبـه طنين سرب هائل من النّحل. ها هو ذا تمثال الحـريّة إلى يســاره، وإلى يمينه منهـاتن، وتبدو المبـاني عاليـة للغايـة في شمس الصّباح، إلى حـدّ أنّها تلوح مختلقة. لقد كان أبوه رجلاً عظيماً حقّاً في إلمامه بـالحقائق، وقـد أبلغ بلو بقصص كـلّ المباني الصرحيّـة ونـاطحـات السّحـاب، بقـدر هائل من التّفاصيل يشمل المهندسين المعماريّين والتواريخ والملابســات

السياسيّة، وكيف أنّ جسر بروكلين كان ذات يوم أعلى بناء في أمريكا. وقد ولد العجوز في العام الّذي تمّ فيه بناء الجسر، وكان هناك على الدّوام ذلك الارتباط في ذهن بلو، وكأنّما كان الجسر على نحو من الأنحاء نصباً تذكارياً لأبيه. وقد أحبَّ القصّة التي رُويت له في ذلك اليوم، فيما كان هو وبلو الأب ينطلقان عائدين إلى الدّار، على الكتل الخشبيَّة الّتي يسير عليها الآن، وللسبب عينه لم ينسها قطّ. فلم ينسَ كيف أنّ جون رويبلنج، مصمّم الجسر، قد تهشّمت ساقه بين دعائم الجسر وزورق سريع بعد أيّام من انتهاء خططه، ومات بتأثير الغرغرينة في أقلّ من ثلاثة أسابيع. وقد قال والد بلو إنّه لم يكن ليلقى حتفه، ولكنّ العلاج الوحيد الّذي قبله كان العلاج المائي العلمي، ولم يكن هذا العلاج مجدياً. وقد أذهل بلو أن الرّجل الّذي أنفق حياته في بناء الجسور فوق امتدادات شاسعة من الماء، حتّى لا يبتل النّاس، كان يعتقد أنّ الدّواء الحقيقي يتمثّل في أن يغمس المرء جسمه في الماء. وبعد وفاة جون رويبلنج خلفه ابنه واشنطن في منصبِ كبير المهندسين، وتلك كانت قصّة غريبة أخرى. كان واشنطن رويبلنج في الحادية والثلاثين فحسب من العمر وقتذاك، ولم تكن له خبرة في أعمال البناء، باستثناء الجسور الخشبيّة الّتي صمّمها خلال الحرب الأهليّة، ولكنّه برهن أنّه يفوق أباه في عبقريَّته. غير أنّه لم يمضِ وقت طويل على بدء بناء جسر بروكلين حتّى احتجز لعدَّة ساعات خلال حريق شبّ في إحدى الحجرات المانعة للماء أثناء التشييد تحت الماء، وخرج منها بحالة من حالات الالتواء، هي عبارة عن مرض تتجمّع في إطاره فقاعات النيتروجين في مجرى الدّم. وإذ شارف على الهلاك بسبب هذه الحالة فقد ظلّ بعد ذلك مريضاً عاجزاً

عن مغادرة الغرفة العلويّة في الدّار الّتي أقامها هو وزوجته في بروكلين هايتس. وهناك جلس واشنطن رويبلنج كلّ يوم على امتداد سنوات طويلة، عاكفاً على مراقبة التقدّم في إنشاء الجسر بالاستعانة بتلسكوب، مرسلاً زوجته إلى أسفل كلّ صباح حاملة تعليماته، وراسماً صوراً ملوّنه دقيقة إلى العمال الأجانب الّذين لا يتحدّثون الإنجليزيّة، حتّى يفهموا ما يتعينّ عليهم القيام به، بعد ذلك، والأمر المذهل هو أن الجسر بأكمله كان مرسوماً في ذهنه حرفيّاً، فقد حفظ كلّ قطعة منه عن ظهر قلب، وصولاً إلى أدقّ قطع الصُّلب والحجر. وعلى الرّغم من أنّ واشنطن رويبلنج لم يضع قدمه على الجسر قطّ فإنّه كان ماثلاً بكامله في ذهنه، وكأنّه نما مع نهاية كلّ هذه السنين ملتصقاً بجسمه.

الآن يعكف بلو على التّفكير في هذا وهو يشقّ طريقه عبر النّهر، مراقباً بلاك المنطلق أمامه، ومتذكِّراً أباه وطفولته الّتي أمضاها في جريفسند. فقد كان العجوز شرطيّاً، وقد عمل في وقت لاحق تحرّياً في المنطقة السّابعة والسّبعين، ويفكّر بلو في أنّ الحياة كان يمكن أن تكون هانئة لولا قضيّة روسو والطلقة الّتي استقرّت في مخ أبيه في ١٩٢٧م ويقول لنفسه إنّه ذعر فجأة للوقت الّذي انقضى وراح يتساءل عمّا إذا كان هناك فردوس، وإذا كان الأمر كذلك عمّا إذا كان سيُقدَّر له أن يرى أباه بعد أن يموت. وهو يتذكّر قصّة من إحدى المجلّات الّتي لا حصر لها وقد قرأها هذا الاسبوع، وهي مجلّة شهريّة جديدة اسمها «سترينجر ذان فيكشن»، ويبدو أنها تنبع على نحوٍ ما من كلّ الأفكار الأخرى الّتي خطرت بباله. وهو يتذكّر أنّه في مكان

ما من جبال الألب الفرنسيّة ضلّ رجل طريقه، خلال قيامه بالتّزلج قبل خمس وعشرين سنة، وابتلعه تيهور، ولم يكتشف جثمانه قطّ. وكبر ابنه الّذي كان صبيّاً في ذلك الوقت، وأصبح لاعب تزلّج. وذات يوم من العام الماضي، مضى للتّزلّج، غير بعيد عن الموضع الذي ضلّ فيه أبوه، على الرّغم من أنّه لم يكن يعرف هذا. ومن خلال التقلّب الدقيق والمتتابع للثلج عبر عشرات السّنوات منذ وفاة أبيه، بدت المنطقة الآن مختلفة تماماً عمّا كانت عليه. ووحيداً هناك في الجبال، على بعد أميال من أيّ كائن بشري، ألفى الابن نفسه أمام جثّة في الثلج، سليمة تماماً وكأنّها حُفظت في حالة حركة أصابها التّوقف. وغنيّ عن البيان أنّ الشّاب قد توقّف لفحصها، وإذ انحنى وراح يتطلّع إلى وجه الجثّة، تلقّى الانطباع الواضح والرّهيب بأنّه يتطلّع إلى نفسه. وكما يوضح المقال فإنّ الرّعدة قد أصابته، وأخذ يتفقّد الجثّة عن كثب، وهي على ما كانت عليه في الثّلج، كشخص على الجانب الآخر من نافذة سميكة، وأدرك أنها جثّة أبيه. وكان الميت قد توفي وهو في مُقْتَبَل عمره، بل وفي سنّ تقلّ عن سنّ ابنه الآن، وكان هناك شيء رهيب يحوم حول الجثّة، بشكل عام. وساور بلو الشّعور بأنّه شيء غريب ورهيب أن يكون المرء أكبر سنّاً من أبيه، وراح يكافح لردّ الدمع وهو يقرأ المقال. والآن، وهو يقترب من نهاية الجسر، عادت إليه هذه المشاعر نفسها، وتمنّى من الله لو أنّ أباه كان يمكن أن يكون هناك يعبر الجسر ويروي له القصص. وإذ يدرك فجأة إلى أين يمضي به ذهنه فإنّه يتساءل عن السّرّ في أنّه يتحوّل إلى العاطفيّة الشديدة على هذا النحو، وأنّ كلّ هذه الخواطر تواصل الدّوران في ذهنه، بينما لم تخطر له قطّ على امتداد سنوات طويلة،

ويفكّر في أنّ هذا كلّه جزء منه، ويحسّ بـالحرج إزاء نفسـه لأنّه عـلى هذه الشّاكلة. ذلك هو ما يحدث عندما لا يكون هناك من تحادثه.

يصـل إلى النّهايـة، ويرى أنّـه كان مخـطئاً فيـما يتعلّق ببلاك. فلن تكـون هناك حـوادث انتحار اليـوم، ولن يقفز أحـد من الجسر، ولن تحدث قفزات إلى المجهول. فها هـو ذا رَجُلُه يمضي مرِحـاً وبعيداً عن الاكتراث، كما يمكن لأيّ شخص أن يكـون هابـطاً الدّرج، ومنـطلقاً على امتداد الشّارع الّذي يتقوّس حول قاعة المدينة، ثمّ ينطلق شمالاً على امتداد شارع سنتر مروراً بدار المحمكة وغيرها من المباني البلديّة، ولا يقلّل من سرعـة انطلاقـه، مـواصـلاً سـيره في الحيّ الصّيني ومـا وراءه. وتستمرّ هذه الجـولات عدّة سـاعات، ولا يشعـر بلو عند أيّ موضع بـأنّ بلاك يمضي تحقيقـاً لأيّ هدف، وإنّمـا هو يبـدو بالأحـرى كمن يستمتع بالهـواء الطلق، سـائراً لمجـرّد متعة السّـير على قـدميه، ويعترف بلو لنفسه للمرّة الأولى والرّحلة مستمرّة، بأنّـه قد بـدأ يشعر بميل إلى بلاك.

وعند أحد المواضع يدخل بلاك مكتبة، فيحذو بلو حذوه. وهنـاك يتصفّح بلاك الكتب لمـدّة نصف ساعـة أو نحو ذلـك، مراكـماً كومـة صغيرة من الكتب في غمار ذلك، ويتصفّح بلو الكتب بدوره إذ لا يجد ما يفعله خيراً من ذلك، محاولاً في الوقت نفسه أن يُبقي وجهه محتجباً عن بلاك. وتعطيه النّظرات المختلسة الّتي تتاح له عندما لا يبدو بلاك ناظراً ناحيته، الشّعور بأنّه قد رأى بلاك من قبل، ولكنّـه لا يستطيـع تذكّر أين كان ذلك. ويقول لنفسه إنّ هناك شيئاً فيـما يتعلّق بالعـين، ولكنّ ذلـك هو كـلّ ما يستـطيع الـوصول إليـه، إذ لا يـرغب في أن

يلفت الأنظار إليه، كما أنّه ليس متيقّناً حقّاً من أنّ الأمر على نحو ما يظنّ.

وبعد لحظة يصادف بلو نسخة من كتاب «والدن» لمؤلِّفه هنري ديڤيد ثورو، وإذ يتصفّحه فإنّه يدهش لاكتشاف أنّ اسم النّاشر هو بلاك. «نُشِر لنادي الكلاسيكيات لدى مؤسّسة والترچي. بلاك، حقوق النّشر محفوظة ١٩٤٢». ويذهل بلو للحظة إزاء هذه المصادفة، ويظنّ أنّه ربّما كانت فيها رسالة موجَّهة إليه، لمحة من المعنى يمكن أن تحدث فرقاً، ولكنّه إذ يفيق من هذه الصّدمة يبدأ بالتّفكير في أنّ الأمر ليس كذلك، ويقول محدِّثاً نفسه إنّه اسم منتشر للغاية، وفضلاً عن ذلك فإنّه يعرف على وجه التّأكيد أنّ الاسم الأوّل لبلاك ليس والتر. ويضيف: هل يمكن مع ذلك أن يكون من أقربائه، أو ربّما كان أباه، ويقرّر بلو، وهو مايزال يدير هذه النّقطة الأخيرة في ذهنه، أن يشتري الكتاب. فإذا لم يكن بمقدوره قراءة ما يكتبه بلاك فإنّ بوسعه على الأقلّ أن يقرأ ما يقرأه. ويقول لنفسه إنّ احتمال ذلك بعيد، ولكنْ من يدري ما إذا كان ذلك لن يؤدّي إلى إعطائه لمحة عمّا يعتزم الرّجل القيام به.

حتّى الآن، كلّ شيء يمضي على مايرام. يدفع بلاك قيمة كتبه، ويدفع بلو قيمة كتبه، وتستمرّ المسيرة. ويواصل بلو البحث عن نموذج للسّلوك، عن مفتاح للتّحقيق يصادفه في طريقه، ويفضي به إلى الكشف عن سرّ بلاك. ولكنّ بلو أكثر صراحة من أن يخدع نفسه، وهو يعرف أنّه ما من تناغم أو منطق يمكن قراءته في أيّ شيء حدث حتّى الآن. وللحظة لا يثبّط ذلك من همّته. وفي حقيقة الأمر فإنّه

يدرك، فيما هو يبحث متعمّقاً في أغوار نفسه، أنّ الأمر قد زاد من قوّته إلى حدّ بعيد، فهناك شيء جميل في وجود المرء في الظّلام، حسبما يكتشف بلو ذلك، شيء مثير في عدم معرفة ما سوف يحدث عقب ذلك. ويحدّث نفسه قائلاً إنّ ذلك يبقيك متنبّهاً، وليس هناك ضير في هذا. أليس كذلك؟ تظلّ متيقّظاً إلى أبعد الحدود، وواقفاً على أطراف أصابعك، ومستعدّاً للقيام بأيّ شيء.

بعد لحظات قليلة من ورود هذه الخاطرة على بال بلو، يعرض له تطوّر جديد في النّهاية، وتنعطف القضيّة انعطافها الأوّل. ويجتاز بلاك ناصيةً أحد الشّوارع في قلب المدينة، ويسير منتصف المسافة المقابلة لكتلة من المباني، ويتردّد قليلاً وكأنّه يبحث عن عنوان بعينه، ويتراجع عدّة خطوات ويواصل التحرّك، وبعد ثوانٍ قليلة يدخل مطعماً، ويحذو بلو حذوه من غير أن يكترث كثيراً، فهذا هو وقت تناول الطّعام على أيّ حال، ولا بدّ للنّاس من أن يأكلوا، ولكنّه لا يغيب عنه أن تردّد بلاك يشير، فيما يبدو، إلى أنّه لم يسبق قطّ أن دخل هذا المكان، الأمر الذي قد يعني بدوره أنّ بلاك مرتبط بموعد. ويبدو المطعم مكاناً معتماً في الدّاخل، مزدحماً بلا إفراط، مع وجود مجموعة من النّاس ملتفّة حول المشرب الموجود في المقدّمة، والكثير من الثرثرة، وأصوات ارتطام أدوات المائدة والأطباق في الخلفيّة. ويبدو من النّوع الرّفيع الطّراز، فيما يلاحظ بلو، وقد كسيت جدرانه بالزخارف الخشبيّة، وغُطّيت موائده بأغطية بيضاء اللّون، ويقرّر أن يجعل ما سيدفعه عقب تناول الطّعام في أدنى الحدود التي يستطيعها. وتبدو الموائد متوافرة، وينظر بلو إلى تمكّنه من احتلال مائدة يستطيع

منها أن يرقب بلاك على أنّه مؤشر يدعو للتفاؤل، والمائدة ليست قريبة على نحو بارز، ولكنّها في الوقت نفسه ليست بعيـدة بحيث يعجز عن مراقبة ما يفعله بلاك، ويسدي إليه بلاك جميلاً إذ يـطلب نسختين من قائمة الطّعام، وبعد ثلاث أو أربع دقائق يتهلّل مبتسماً، عندمـا تمضي امرأة عبر القاعة مقتربة من مائدته، وتقبّله على وجنتيـه قبل أن تجلس ويحدّث بلو نفسه بأنَّ المرأة ليست بـالسيِّئة، وهي أكـثر نحافـة من أن تـلائم ذوقه، ولكنّهـا ليست سيِّئة عـلى الإطلاق. ثمَّ يخـطر ببـالـه أنَّ الجانب المثير للاهتمام يبدأ الآن.

ومن سـوء الحظّ أنَّ المرأة تـدير ظهـرها نـاحية بلو، ولـذا فإنّـه لا يستـطيع مـراقبة مـلامحها مـع انطلاقهـا في تناول وجبتهـا. وفيما هـو يجلس هناك متناولاً شريحة اللّحم المعدّة بطريقة سالزبوري يذهب إلى أنَّ تخمينـه الأوّل ربّمـا كـان في مـوضعـه، وأنَّ القضيَّـة هي في نهايـة المطاف قضيَّـة زواج. ويتصـوّر بلو بـالفعـل نـوعيـات الأشيـاء التي سيكتبهـا في تقريـره التالي، ويـدخـل السرور عـلى نفسـه أن يتـأمَّـل العبارات التي سيستخدمها في وصف ما يراه الآن. وهو يعرف أنّه من خلال وجود شخص آخـر في القضيَّة فـإنَّ هناك قـرارات معيَّنة ينبغي اتّخاذها. فعلى سبيل المثال هل يتعينَّ عليه الالتزام بمتابعة مراقبـة بلاك أم تحويل انتباهه إلى المرأة؟ ربّما كـان من شأن هـذا أن يعجِّل بمسـيرة الأمـور قليلاً، ولكنّـه قد يعني في الـوقت نفسـه أنَّ بـلاك ستتـاح لـه الفرصة للإفلات من مراقبته، ربّما إلى الأبد. وبتعبير آخر، هل اللّقاء مـع المرأة ستـار من الـدّخـان يُستخـدم لإخفـاء الأمـور أم أنّـه شيء حقيقي؟ أهو جزء من القضيّة أم لا؟ أهو أقرب إلى الحقيقة الجوهريّـة

أم العارضة؟ ويفكّـر بلو في هذه الأسئلة لبعض الـوقت، ويخلص إلى أنّ الـوقت مايـزال مبكّراً لتقـديم إجابـات. ويقول لنفسـه: نعم قـد يكون الردّ هذا الوجه أو ذاك.

في حوالي منتصف الوقت الّذي سيستغرقـه تناول الـوجبة يبـدو أنّ الأشيـاء تشقّ طريقهـا عبر منعـطف يقود إلى الأسـوأ، إذ يـرصـد بلو ارتسـام حزن عميق عـلى محيّا بـلاك، وقبل أن يتحسّب لـذلك تبـدو المرأة وكأنّها تبكي، أو هذا هو على الأقلّ ما يستطيـع فهمه من التغـيّر المفـاجئ في وضع جسمهـا: فقد انحنت كتفـاهـا، ومـال رأسهـا إلى الأمـام، وربّما حجبت وجههـا بكفيّها، وبـدت ارتجافـة خفيفـة عـلى امتداد ظهرها، جادل بلو بأنّ تلك قد تكون نوبـة ضحك، ولكنْ في هذه الحالة لماذا يبدو بلاك بائساً للغاية؟ إنّه يبدو كما لو أنّ الأرض قد انشقّت من تحته، وبعد لحظة تشيح المـرأة بوجههـا عن بلاك، وتتـاح لبلو رؤية ملمح جانبي لوجهها. إنّها الدّمـوع ولاشكّ، هكـذا يحدّث نفسه فيما هو يراها تجفّف عينيها باستخدام منديل المائدة، ويلمح أثراً لمادة تجميل الجفون على خدّها. وتنهض فجأة، وتمضي بعيداً في اتجـاه غرفة الزّينة الخاصّة بالسيِّدات. ومن جديد تتاح لبلو رؤية بلاك دونما حـاجز بينهـما، وعندمـا يرى ذلـك الحزن الّـذي يكسو وجهـه ونـظرة القنوط تلك في عينيه، فإنّه يوشك عـلى البدء بـالشّعور بـالأسف له.

ينظر بلاك نظرة عجلى باتّجاه بلو، ولكن يبدو جلياً أنّه لا يرى شيئـاً، وبعد لحظة يدفن وجهه في يديه. ويحاول بلو تخمين مـا يجري، ولكنْ من المستحيل معرفته، ويحدّث نفسه بأنّـه يبدو أنّ كـلّ شيء قد انتهى بينهما، فالأمر يوحي بأنّ شيئاً قد وصل إلى نهايته، ومع ذلـك، ورغم هذا كلّه، فإنّه يمكن أن يكون شجاراً عابراً.

تعود المرأة إلى المائدة ويبدو أنّها أحسن قليلاً، ويبقيان كلاهما هناك دقائق قليلة من غير أن يتفوّها بحرف، ومن غير أن تمتدّ أيديهما إلى الطّعام. ويتنهّد بلاك مرّة أو مرّتين، متطلّعاً إلى البعيد، وأخيراً يطلب ورقة الحساب، ويقوم بلو بالشيء نفسه، ثمّ يتبعهما وهما في طريقهما للخروج من المطعم، ويلاحظ أنّ بلاك يضع يده على مرفقها، ولكن ربّما كان ذلك مجرّد حركة لاإراديّة، كما قال لنفسه، وقد لا يعني شيئاً. ويسيران في الشّارع صامتين، وعند النّاصية يستوقف بلاك سيّارة، ويفتح الباب للمرأة، وقبل أن تستقلّها يلمس برفق بالغ وجنتها، فتمنحه بالمقابل ابتسامة صغيرة تستجمع لها شجاعتها، ولكنّهما مع ذلك لا يتفوّهان بكلمة، ثمّ تجلس في المقعد الخلفيّ، ويغلق بلاك الباب وتمضي سيّارة الأجرة مبتعدة.

يتجوّل بلاك دقائق معدودات متوقّفاً قليلاً أمام واجهة وكالة سفريات، ليمعن النّظر في ملصق عن الجبال البيضاء، ثمّ يستقلّ سيّارة أجرة. ويُوفّق بلو من جديد، ويُفلح في العثور على سيّارة أجرة أخرى، بعد ثوانٍ فحسب، ويبلّغ السّائق بأن يتبع سيّارة بلاك، ثمّ يستقرّ في المقعد الخلفي، فيما السيّارتان الصفراوان تشقّان طريقهما على مهل عبر حركة مرور قلب المدينة، وعبر جسر بروكلين، وأخيراً إلى شارع أورينج، وتصدم أجرة السّيارة بلو، ويركل نفسه في ذهنه لعدم اللّحاق بالمرأة بدلاً ممّا فعل؛ إذ كان عليه أن يعلم أنّ بلاك في طريقه إلى البيت.

وتتغيّر حالته المزاجيّة إلى الإشراق عندما يدخل المبنى فيجد رسالة في صندوق بريده، ويحدّث نفسه بأنّ ذلك لا يمكن إلاّ أن يعني شيئاً

واحـداً، ويأتي تخمينـه يقيناً في محلّه، ففيـما هـو يمضي إلى أعـلى يفتـح المغلّف، وهـا هو ذا الشيـك الأوّل، أمر صرف مـالي بريـدي بـالقيمـة المتّفق عليها مع وايت بـالضبط. غير أنّـه ممّا يثـير الحيرة قليـلاً أنّ أمر الدفع هو لحامله. لم لايستخدم وايـت شيكـاً شخصيّاً؟ ويؤدّي هـذا ببلو إلى التلاعب بالفكرة القائلة بأنّ وايت هو في نهاية المطاف عميـل منشقّ، حريص على إخفـاء آثاره، وبـالتّالي يتـأكّد من أنّـه لن يكون هنـاك سجلّ لمـدفوعـاته. وينـزع بلو قبعته ومعـطفـه، ويتمـدّد عـلى الفراش، ويدرك أنّه يشعر بخيبة الأمل قليـلاً لعدم تلقّيـه تعليقاً عـلى التّقرير. وفي ضوء ما بذله من جهد لجعله في أفضل صياغة فإنّ كلمة تشجيع كان من شأنها أن تكون موضع تـرحيب من جانبـه. والحقيقة المتمثّلة في إرسـال المال تعني أنّ وايت ليس مستـاء. ومـع ذلـك فـإنّ الصّمت ليس ردّاً يأتي علس سبيل المكـافأة، أيّـاً كان معنـاه. ويقول بلو لنفسه إنّه سيتعينّ عليه الاعتياد على أمرٍ هو هذا المسار الّذي يمضي فيه.

وتنقضي الأيّـام، ومن جديـد تستقرّ الأمـور عـلى أبسط المسـارات المألوفة. يكتب بلاك ويقرأ ويتسوّق في الحيّ ويتردّد على مكتب البريد ويقوم بنزهة عابرة. ولا تعاود المرأة الظّهور، ولا يقوم بـلاك بجولات أخرى في منهاتن. ويبدأ بلو بالتّفكير في أنّه في أيّ يوم سيتلقّى رسالـة تبلّغـه بطيّ ملفّ القضيّـة، ويجادل بـأنّ المرأة مضت إلى غـير رجعة، وأنّ ذلـك يمكن أن يكون نهايـة الأمـر، ولكن مـا من شيء من هـذا النّوع يحدث. ولا يجتـذب وصف بلو المسهب للمشهد في المـطعم أيّة استجابة خـاصّة من وايت، وأسبـوعاً وراء الآخـر تواصـل الشيكات

الوصول في موعدها. ويقول لنفسه: كفانا حبّاً، فالمرأة لم تَغْنِ شيئاً قطّ، وإنّما كانت أمراً طارئاً.

إنّ أفضل وصف لحالة بلو الذهنيّة في هذه المرحلة المبكرة، هو أنّها حالة قوامها الحَيْرة والصّراع. فهناك لحظات يشعر فيها بالاتّساق التّام مع بلاك، وبالتّوحد على نحو طبيعي للغاية معه بحيث لا يحتاج إلاّ إلى إلقاء نظرة على نفسه ليتوقّع ما سيقوم به بلاك أو يعرف متى سيبقى في الغرفة، ومتى سيخرج. وتمضي أيّام بأسرها لا يكترث خلالها بالنّظر إلى النّافذة أو تتبّع بلاك إلى الشّارع، بل إنّه يسمح لنفسه بين الحين والآخر بالقيام بجولات بمفرده، وهو على تمام العلم بأنّه خلال الوقت الّذي يقضيه في الجولة لن يكون بلاك قد تحرّك من موضعه. وستظلّ معرفته بهذا شيئاً أقرب إلى اللّغز بالنّسبة إليه، ولكنّ الحقيقة أنّ الصّواب يظلّ حليفه دائماً، وعندما يغلبه الشّعور فإنّه يتجاوز كلّ شكّ وتردّد. ومن ناحية أخرى فإنّ اللّحظات ليست كلّها على هذه الشاكلة، فهناك أوقات يشعر فيها بأنّه بعيد كلّ البعد عن بلاك، ومعزول عنه بطريقة صارخة للغاية ومطلقة تماماً بحيث يبدأ بفقدان الشّعور بهويّته. فتغمره الوحدة، وتطبق عليه، ومعها يأتي فزع أسوأ من أيّ شيء قُدِّر له أن يعرفه. ويحيّره أنّه ينتقل بسرعة بالغة من حالة إلى أخرى، ولوقت طويل ينتقل جيئة وذهاباً بين الحالات المتطرّفة، من غير أن يعرف أيّها صادق وأيّها زائف.

وبعد فترة سيّئة على نحو خاصّ تمتد أيّاماً، يبدأ الحنين إلى رفقةٍ ما، فيجلس ويكتب رسالة مطوّلة إلى براون، محدِّداً الخطوط العريضة للقضيّة وطالباً النّصح منه. وقد تقاعد براون في فلوريدا حيث يمضي

معظم وقته في الصَّيد، ويعرف بلو أنّ وقتاً طويلاً سيمرّ قبل أن يتلقّى رداً. ومع ذلك ففي اليوم الّذي بعث فيه بالرّسالة عبر البريد يبدأ بالتّطلع إلى تلقّي ردّ بتعجّل سرعان ما ينمو إلى حدّ الاستحواذ. وفي كلّ صباح، وقبل حوالي السّاعة من موعد توزيع البريد، يغرس نفسه قرب النّافذة، ويرقب وصول ساعي البريد عبر المنعطف، وظهوره للعيان، معلّقاً كلّ الآمال على ما سيقوله براون له. وليس مؤكّداً ذلك الّذي يتوقّعه من هذه الرّسالة، بل إنّ بلو لا يطرح السّؤال، ولكن من المؤكّد أنّه شيء هائل، كلمات مضيئة وفذّة، ستعيده إلى دنيا الأحياء.

مع انقضاء الأيّام والأسابيع دونما رسالة من براون، ينمو شعور بلو بخيبة الأمل، متحوّلاً إلى يأس موجع ولاعقلاني. ولكنّ ذلك ليس شيئاً إذا ما قورن بما سيشعر به عندما تصل الرسالة، في نهاية المطاف، ذلك أنّ براون لا يكلّف نفسه عناء تناول ما كتبه بلو، فالرسالة تبدأ بالقول: إنّه لأمر طيّب أن أتلقى رسالة منك، وأمر جيد أن أعلم بأنّك تعمل بهذا القدر من الاجتهاد. ويبدو أنّها قضيّة مثيرة للاهتمام. ومع ذلك فإنّني لا أستطيع القول بأنّني أفتقد أيّاً من هذه القضايا. الحياة هنا مرضية بالنسبة إليّ، إذ أنهض مبكّراً، وأقوم بصيد السّمك، وأقضي بعض الوقت مع زوجتي، وأقرأ قليلاً، وأنعس في الشّمس، وليس لديّ ما أشكو منه. والشيء الوحيد الذي لا أفهمه هو السّبب في أنّني لم أنتقل إلى هنا منذ سنوات.

وتمضي الرسالة على هذا النحو على امتداد عدّة صفحات، من غير أن تتطرّق لمرّة واحدة إلى عذابات بلو ومخاوفه. ويشعر بلو بأنّ الرّجل

الّـذي كان يـوماً بمثـابة أبيـه قد تخـلّى عنه، وعنـدما يفـرغ من قـراءة الرسالة يشعر بالخواء، وبأنّه لم يعد هناك شيء بداخله، ويحدّث نفسه قائلاً: إنّني الآن وحـدي، ولم يعد هنـاك من أتّجه إليـه. وتعقب هذا ساعات من القنوط والرثاء للذّات، مع تفكير بلو مرّة أو مرّتين في أنّـه ربّما سيكون أحسن حالاً في موته. ولكنّه يشقّ طريقه بـالفعل خـارجاً من الكـآبة، ذلـك أنّ بلو شخصيَّة صلبـة ككـل، وأقـلّ استسـلامـاً للخواطر السّوداء من معظم النّاس، وإذا كانت هنـاك لحظات يشعـر فيها بأنّ العالم مكان فاسد، فمن نحن لنوجِّه اللّوم على ذلك؟ بل إنّه مـع حلول موعـد العشاء يكـون قد بـدأ بالنّـظر إلى الجانب المشرق، وربما عَـدَّ ذلـك أعـظم مـواهبـه، ولا يتجـلّى ذلـك في أن اليـأس لا يساوره، ولكن في أنه لا يشعر باليأس طويلاً، ويقول لنفسـه إنّ ذلك قد يكون شيئاً طيِّباً في نهاية المطاف. قـد يكون من الأفضـل أن يقف المـرء وحيداً، وألاّ يعتمـد على أيّ شخص آخـر. ويفكِّر بلو في هـذا بعض الوقت ويخلص إلى أنّ هناك شيئاً يقال عنه. إنّه لم يعد متدرِّباً. وليس هنـاك معلّم يعلوه مـرتبـة الآن. ويقـول لنفسـه: إنّني معلّم نفسي، إنّني معلّم نفسي، ولست مسؤولاً أمام أحد إلاّ نفسي.

وإذ يلهمه منهاجه في التّعامل مع الأمور فإنّه يكتشف أنّه قـد وجد أخيـراً الشّجاعـة للاتّصـال بمن ستكون السيِّـدة بلو مستقبلاً، ولكنّـه عنـدما يـرفع سـماعة الهـاتف ويطلب رقمهـا، لا يأتيـه ردّ وإنّما لخيبة أمـل، ولكنه يـظلّ معتصماً بـالصّمود، ويقـول سأحـاول مرّة أخـرى وسيكون ذلك قريباً.

وتواصل الأيّام كَرَّها. ومن جديـد يتوافق بلو مـع بلاك، ربّمـا على

نحو أكثر تناغماً من ذي قبل. ويكتشف في غمار قيامه بذلك اللّغزَ الكامنَ في موقفه، ذلك أنَّه إذ يزداد شعوره بالاقتراب من بلاك يقلّ شعوره بأنَّ من الضروريّ أن يفكِّر فيه. وبتعبير آخر فإنّه إذ يغدو أشدّ تورّطاً يصبح أكثر حرّيّة. وليس التورُّط هو ما يصل به إلى الجمود، وإنّما الانفصال، فعندما يبدو أنّ بلاك يشرد بعيداً عنه فحسب يتعينّ عليه الخروج بحثاً عنه، وذلك يستغرق وقتاً وجهداً، دع جانباً المجالدة. غير أنّه في تلك اللّحظات الّتي يشعر خلالها بأنّه أقرب ما يكون إلى بلاك يمكنه البدء بالعيش في إطار ما يشبه حياة مستقلّة. وفي البداية فإنّه لا يتّسم بالجرأة في ما يسمح لنفسه بالقيام به، ولكنّه مع ذلك يعتبر ذلك نوعاً من الانتصار يوشك أن يكون عملاً من أعمال البسالة والجرأة، وعلى سبيل المثال فإنّ هناك الخروج والسَّير بحذاء كتلة المباني التي يقيم فيها. ورغم صغر هذه الإشارة فإنّها تملأ نفسه بالسَّعادة. وفيما هو يمضي جيئة وذهاباً في شارع أورينج، في الطّقس الربيعيّ الجميل، يسعده أن يكون حيّاً، وذلك على نحو لم يستشعره منذ سنوات. فعند أحد الطّرفين هناك مشهد النَّهر والمرفأ وخطّ سماء منهاتن، والجسور. ويجد بلو هذا كلّه جميلاً، بل إنّه يسمح لنفسه في بعض الأيّام بالجلوس عدّة دقائق على أحد المقاعد والتطلّع إلى الزوارق. وفي الاتّجاهات الأخرى هناك الكنيسة، وفي بعض الأحيان يمضي بلو إلى الفناء الصغير المعشب ليجلس بعض الوقت، متأمّلاً تمثال هنري وارد بيتشر البرونزي، وفيه يمسك اثنان من العبيد بساقَيْ بيتشر وكأنّهما يتوسّلان إليه أن يساعدهما، وأن يجعلهما آخر الأمر حرّين، وفي الجدار المشيَّد من الآجرّ وراء التمثال،

هناك نحت بارز يجسّد أبراهام لينكولن. ولا يستطيع بلو منع شعوره بأنّ هذه الأعمال الفنيّة تلهمه الكثير من المعاني، وفي كلّ مرّة يأتي فيها إلى فناء الكنيسة يمتلئ رأسه بالأفكار النّبيلة عن كرامة الإنسان.

وشيئاً فشيئاً يصبح أكثر جرأة في ابتعاده عن بلاك. إنّ العام الحالي هو عام ١٩٤٧ م، أي العام الّذي يبدأ فيه جاكي روبنسون مسيرته مع فريق الدودجرس، ويتتبّع بلو تقدّمه عن كثب متذكّراً فناء الكنيسة، ومدركاً أنّ في الأمر ما يتجاوز مجرّد البيسبول. وذات أصيل مشرق ليوم ثلاثاء من شهر أيّار (مايو) يقرّر القيام بانطلاقة إلى إيبيتسل فيلد، وفيما هو يترك بلاك وراءه في غرفته بشارع أورينج، منكبّاً على مكتبه كالعادة، مع قلمه وأوراقه يشعر بأنّه ليس هناك ما يدعوه إلى القلق، وتُدخل الطّمأنينة في نفسه الحقيقةُ القائلة بأنّ كلّ شيء سيكون على حاله تماماً عندما يعود. ويستقلّ قطار الأنفاق، ويشارك الحشود في زحامها، ويشعر بنفسه مندفعة إلى إحساس باللّحظة. وفيما هو يجلس على مقعد في ملعب البيسبول يذهله الوضوح الحادّ للألوان من حوله، العشب الأخضر، التّراب البنيّ، الكرة البيضاء، السّماء الزرقاء فوقه. كلّ شيء متميّز عن كلّ شيء آخر، ومنفصل تماماً، ومحدّد، وتؤثّر في نفسه بقوّة البساطةُ الهندسيَّة للشكل البادي أمامه. ويراقب اللّعب فيجد أنّ من الصّعب تحويل عينيه عن روبنسون، وإذ يجتذبه بصورة مستمرّة سواد محيّا الرّجل فإنّه يفكّر في أنّ الأمر يقتضي شجاعة للقيام بما يفعله، أن يكون وحيداً على هذا النحو في مواجهة كلّ هؤلاء الغرباء الّذين يتمنّى نصفهم الموت له. وفيما اللّعب يمضي قدماً يجد بلو نفسه يهتف لكلّ ما يقوم به

روبنسون، وعندما يقتنص الرّجل الأسود قاعدة في الجولة الثالثة ينبعث واقفاً، وفيما بعد في الجولة السّابعة عندما يحقّق روبنسون ضربة مزدوجة بارعة يلطم بلو بالفعل ظهر الرّجل الجالس إلى جواره من فرط النّشوة. وعندما يخرج فريق الدودجرس من المأزق في الجولة التّاسعة، ويجرّ بلو قدميه مع باقي الجمهور، ويشقّ طريقه عائداً إلى البيت، يخطر بباله أنّ بلاك لم يعبر ذهنه مرّة واحدة.

ولكن مباريات البيسبول ليست إلاّ البداية، ففي ليالٍ معيّنة، عندما يتّضح لبلو أنّ بلاك لن يخرج إلى أيّ مكان، ينسلّ إلى حانة لا تبعد كثيراً، ليتناول قدحاً أو قدحين من الجعة، مستمتعاً بالحوار الّذي يتبادله مع مسؤول المشرب الّذي يدعى «ريد» والّذي يحمل شبهاً رهيباً بجرين، مسؤول المشرب الّذي تصدّر قضيّة جراي منذ وقت طويل. وغالباً ما تكون هناك عاهرة تدعى «فيوليت» تبدو متورّدة الخدّين، ومرّة أو مرّتين يفلح في دفعها إلى الترنّح سكراً بما يكفي لكي تدعوه إلى بيتها الواقع عند ناصية الشّارع، وهو يعرف أنّها تحمل له قدراً من الودّ؛ لأنّها لا تجعله يدفع مقابلاً لهذا اللّقاء، ولكنّه يعرف كذلك أنّ لا علاقة لهذا بالحبّ، وهي تدعوه بألفاظ التحبّب، ولحمها لدن ومتماسك، ولكنّها عندما تشرب أكثر من طاقتها تشرع في الانخراط في البكاء، وعندئذٍ يتعيّن على بلو أن يعمل على تهدئتها، ويتساءل في قرارة نفسه عمّا إذا كان الأمر جديراً بكلّ هذا العناء. غير أنّ شعوره بالذّنب حيال من ستكون السيّدة بلو مستقبلاً يبدو محدوداً، فهو يبرّر هذه اللّقاءات مع فيوليت بمقارنة نفسه بجندي يخوض الحرب في بلاد أخرى. ويقول لنفسه إنّ كلّ رجل بحاجة إلى

قليل من التّرفيه، وخاصّة عندما يكون معـرَّضاً لأن يحـين أجله غدا، وفضلاً عن ذلك فإنّه لم يُقَدّ من حجر.

غـير أنّ بلو يتجاوز في كثـير من الأحيـان الحـانـة، ويمضي إلى دار السّينما القريبة، فمع إقبال الصَّيف الآن وتزايد الحرارة عـلى نحو غـير مريح في غرفته فـإنّه يـروّح عنه أن يكـون قادراً عـلى الجلوس في دار السّينما الباردة ويشـاهد فيلماً. وهـو مولـع بالسّينـما، لا للقصص التي تسردها، والنّساء الجميلات اللاّتي يمكنه رؤيتهن فيها وحسب، وإنّمـا للظلام الّذي يسود قاعة العـرض ذاتها، والـطّريقة التي تشبـه الصّورُ المعـروضة عـلى الشّاشـة الخواطـرَ المنطلقـة في ذهنه، عنـدمـا يغمض عينيه، وهو لا يكترث بشكل أو بآخر بنـوعيّات الأفـلام الّتي يراهـا، سواء كانت على سبيل المثال من النّوع الكوميدي أو الدّرامي، وسواء صُـوِّر الفيلم بـالأبيض والأسـود أو بـالألــوان، ولكن يشعـر بضعف خاصّ حيال أفلام التحرّي التي لـه رتباط طبيعي بهـا، وتسحره عـلى الدّوام هذه القصص أكثر من غيرها. وخلال هذه الفترة يشاهد عدداً من الأفلام من هذا النّوع، ويستمتع بها جميعها: السيّدة في البحيرة، الملاك السّاقط، المرور في الظّلام، الجسد والروح، رحلة عـلى الجواد الأحمر، اليأس، وغيرها، ولكن هناك بالنّسبة إلى بلو فيلم يختزل هـذه الأفلام جميعها، وهو يحبّه كثيراً حتّى إنّه يراه في اللّيلة التالية.

عنوان هذا الفيلم هـو «بعيداً عن المـاضي» ويقوم ببطولته روبرت ميتشـوم في دور تحرٍّ خـاصّ سابق يحـاول أن يشقّ لنفسه طـريق حياة جديدة في بلدة صغيرة تحت اسم مستعار، وله صديقة هي فتاة ريفيّـة رقيقة تدعى آن، ويدير محطّة وقود بمسـاعدة فتى أصمّ، أبله، يُـدعى

جيم، يُخلص له أشدّ الإخلاص. ولكنّ الماضي يلاحقه، وليس هناك ما يمكنه القيام به في مواجهة ذلك، فمنذ عدّة سنوات تمّت الاستعانة بخدماته للبحث عن جين جرير، وهي خليلة رجل عصابات يؤدّي كيرك دوجلاس دوره، ولكنّه ما إن يعثر عليها حتّى يقع أحدهما في هوى الآخر، ويهربان معاً ليعيشا بعيداً عن الأنظار. ويفضي أمر إلى آخر فتُسرق أموال وترتكب جريمة قتل وبالفعل يعود ميتشوم إلى رشده، ويهجر جرير، إذ يدرك في النّهاية مدى عمق فسادها. والآن يبتزّه دوجلاس وجرير ويطالبانه بارتكاب جريمة ليست في ذاتها إلاّ شَرَكاً ينصبانه له، ذلك أنّه ما إن يدرك ما يجري حتّى يرى أنّهما يخطّطان لإيقاعه في اتّهام يوجّه إليه بارتكاب جريمة قتل أخرى، وتتكشّف قصّة معقّدة، ويحاول ميتشوم تخليص نفسه من الشّرَك المُعَدّ له. وعند أحد منعطفات القصّة يعود إلى البلدة الصّغيرة التي يقطنها، ويبلغ آن ببراءته، ومن جديد يقنعها بحبّه. ولكنّ الوقت يكون قد فات حقّاً، وميتشوم يعرف ذلك. وفي النّهاية يفلح في إقناع دوجلاس بتسليم جرير لتحاسب على جريمة القتل التي ارتكبتها، ولكن في تلك اللّحظة تدخل جرير الغرفة، وتستلّ مسدساً للآخر، ويبدو أنّ ميتشوم الّذي ينساق لنزعته القدريّة حتّى النّهاية يسايرها في ذلك، ويقرّران الهرب إلى الرّيف معاً، ولكن بينما تمضي جرير لحزم حقيبتها، يلتقط ميتشوم سمّاعة الهاتف، ويستدعي رجال الشّرطة ويستقلاّن السيّارة، وينطلقان بها، ولكنّهما سرعان ما يصلان إلى حاجز طرق تقيمه الشّرطة، وإذ تدرك جرير أنّها قد خُدعت، فإنّها تستلّ مسدسها، وتطلق النّار على ميتشوم، ثمّ يفتح رجال الشّرطة النّار على السيّارة ويقتلون جرير كذلك. وبعد ذلك هناك مشهد

واحد. فصباح اليـوم التّالي في بلدة بـريدجبـورت، يجلس جيمي على مقعـد خارج محـطّة الوقـود، وتقبل آن من بعيـد وتجلس إلى جوراه. وتقول: جيمي، حدّثني بشيء واحد، لأنّه يتعينّ عليَّ أن أعـرف هذا الشيء: هـل كان يهـرب معها أم لا؟ ويفكّـر الفتى للحـظة، محـاولاً الاختيار بين الحقيقة وبين الرأفة بحـالها. هـل الأكثر أهميّـة أن يحافظ على سمعة صديقه أم على مشاعر الفتاة؟ وكلّ هذا يحـدث في أقلّ من لحظة. يحدّق في عيني الفتاة، ويومئُ برأسه كأنّه يقول نعم، لقد كـان يحبّ جرير في نهايـة المطاف. وتـربت آن على ذراع جيمي وتشكـره، ثمّ تمضي إلى صـديقهـا السّابق، وهـو رجـل شرطـة محـلّي مستقيم كالرّمـح، كان يـزدري ميتشوم، ويؤدّي تحيّـة الصّداقـة، ثمّ ينصرف ضارباً في الطّريق، إنّه الوحيد الّـذي يعرف الحقيقـة، ولن يبوح بهـا أبداً.

خلال الأيّام القليلة التّالية، يـدير بلو هـذه القصّة في ذهنـه مرّات عـدّة، ويصـل إلى أنّـه أمـر جيّـد أن ينتهي الفيلم بـالفتى الأصمّ الأخرس، إذ يُدفن السِّرّ، ويظلّ ميتشوم لامنتمياً، حتّى في موته. لقد كان طموحه بسيطاً للغاية: أن يصبح مواطنـاً عاديّـاً في بلدة أمريكيّـة عاديّة، وأن يتزوّج جارته الشّابة. وأن يعيش حياة هادئة. ويحدّث بلو نفسه بأنّه من الغريب أن الاسم الّذي يختاره ميتشوم لنفسه هو جيف بيـلي، فهذا الاسم قـريب على نحـو ملحوظ من شخصيّـة أخـرى في فيلم شـاهده في العـام الماضي مـع من ستكـون السيّـدة بلو مستقبـلاً - جـورج بيـلي الّـذي لعب دوره جيمس ستيـوارت في فيلم «حيـاة رائعـة». وقـد دارت قصّـة ذلـك الفيلم أيضـاً حـول الحيـاة في بلدة

أمـريكيّة صغـيرة، ولكن من وجهة النَّـظر المناقضـة: الإحباط الّـذي يشعر به رجـل يُمضي حياتـه بأسرهـا محاولاً الهـرب، ولكنّه في النّهـاية يدرك أنّ حياته حياةٌ جيّدة، وأنّه طوال الوقت يقوم بالشيء المنـاسب.

ولاشـكّ أنّ بيلي الّـذي لعب ميتشوم دوره سيتـوق إلى أن يكون بيـلي الّــذي لعب دوره ستيــوارت. ولكن في حــالتــه فــإنّ الاسم ليس صحيحـاً، وإنّما هـو من نتاج التّفكـير بـالتمنّي، ذلـك أنّ اسمـه هـو ماركهام، أو على نحو مـا ينطقـه بلو لنفسه مـارك هِمْ ـ وهو مـا يعني حرفيّاً: تعقّبوه! ـ وذلك هو جوهر الأمر، فالماضي يتعقّبه، وما إن يقع ذلك حتّى يغدو من المستحيل القيام بشيء لتـدارك الأمر. ويفكّـر بلو في أنَّ شيئاً يقع، ثمّ يواصل الـوقوع إلى الأبـد، ولا سبيل إلى تغيـيره أبداً، لا يمكن أن يكون خلافاً لذلك أبداً، وتبدأ هذه الفكرة بمطاردة بلو، إذ ينـظر إليها عـلى أنّها نـوع من التّحـذيـر، رسـالـة تنبعث من أعماقه، وأيّاً كانت محاولته لإبعادها فإنّ ظلام هذه الفكرة لا يفارقه.

ومن هنا فإنَّ بلو يلتفت ذات ليلة إلى نسخـة من كتاب «والـدن»، ويقول لنفسه إنَّ الـوقت قد حـان، وإنَّه إذا لم يبـذل جهداً الآن فـإنَّه يعلم أنَّه لن يقوم بذلك أبداً. ولكنّ الكتاب ليس بالأمر الهـيِّن، ففيها يبـدأ بلو القراءة يسـاوره شعور بـأنَّه يـدخـل عـالمـاً غـريبـاً. يخـوض مستنقعـات وأراضي وعـرة، دافعـاً نفسـه لتسلّق ركــام من الحجـارة والصّخـور الخطرة، ويسـاوره الشّعور بـأنَّه رهن الاعتقـال ويُجْبَر عـلى الانـطلاق في مسيرة والفكـرة الـوحيـدة التي تهيمن عليـه هي المبـادرة بـالفـرار. وتثـير كلمات ثـورو ضجـره، ويجـد أنَّ من الصّعب عليــه التّركيز، وتنقضي فصول بكاملها، وعندما يصل إلى نهايتهـا يدرك أنَّـه

لم يتبقَ في ذهنه شيء منها. لِمَ يرغب أحد في الانطلاق بعيداً والحياة بمفرده في الغابات؟ ما معنى كلّ هذا الغرس للبقول وعدم شرب القهوة أو أكل اللّحوم؟ لماذا كلّ هذه الأوصاف المسهبة للطّيور؟ لقد ظنّ بلو أنّه سيصل إلى قصّة، أو على الأقلّ إلى شيء يشبه القصّة، لكن هذا لا يتجاوز كونه كلاماً أحمق، محاضرة لا تنتهي عن لاشيء على الإطلاق.

غير أنّه سيكون من البعد عن الإنصاف توجيه اللّوم له، فهو لم يقرأ من قبل قطّ الكثير من أيّ شيء باستثناء الصّحف والمجلاّت، وبين الحين والآخر رواية مغامرات، وذلك في سنوات صباه. بل لقد علم أنّ القرّاء الذين عُرِفوا بتجربتهم وحذقهم يصادفون متاعب في قراءة «والدن» وقد كتب رجل في شموخ قامة إمرسون في مذكّراته أنّ قراءة مؤلّفات ثورو تجعله عصبيّاً وبائساً. وممّا يحسب لبلو أنّه لا يستسلم، فهو يبدأ في القراءة في اليوم التالي، وتكون جولته الثّانية هذه أقلّ وعورة من الأولى. فهو في الفصل الثّالث يصادف جملة تخاطبه بشيء في نهاية المطاف ـ إنّ الكتب ينبغي أن تقرأ بتدبّر وتحفّظ على نحو ما كتبت ـ وفجأة يدرك أنّ الحيلة هي في أن يمضي على مهل، وبتمهّل يفوق ما تعامل به مع الكلمات في السّابق. ويساعده هذا إلى حدّ ما، وتبدأ فقرات معيّنة بالوضوح أمامه: مسألة الملابس في البداية، المعركة بين النمال الحمراء والنمال السّوداء، الجدال ضدّ العمل. ولكن بلو مايزال يجد الأمر مؤلماً، وعلى الرّغم من أنّه يقرّ كارهاً بأنّه ربّما لم يكن ثورو من الغباء بحيث يظنّه، إلاّ أنّه يبدأ بالشّعور بالضّيق من بلاك لإلقائه إيّاه في غمرة هذا العذاب. وما لا

يعرفه هو أنّه لو قُدِّر له أن يجد الصّبر لقراءة هذا الكتاب بـالرّوح التي تستدعيها قراءته فإنَّ حياته بأسرها ستبدأ بالتغيُّر، وسيفهم شيئاً فشيئاً تمام الفهم موقفه. أيّ موقفه من بلاك، من وايت، من القضيّـة، من كـلّ ما يعنيـه. ولكنّ الفرص الضّـائعة هي جـزء من الحيـاة، تمـامـاً كالفرص التي يجري اهتبالها، والقصَّة لا يمكن أن تدور حول مـا كان يمكن أن يكون. ويلقي بلو بالكتاب جانباً في تقزّز، ويـرتدي معـطفه (فالخريف يضرب أطنابه الآن) ويخرج لتنسُّم الهواء. ولا يُقَـدَّر له أن يدرك أنَّ تلك هي بداية النّهاية، إذ يوشـك شيء أن يحدث، ومـا إن يحدث حتّى لا يعود شيء على حاله ثانية.

يمضي إلى منهـاتن، ويوغـل في التّجوال عـلى نحو يفـوق مـا يفعله بلاك أكثر من أيّ وقت مضى، مفرِّجاً بالحركة عن شعوره بالإحبـاط، على أمل أن يُدخل السّكينـة على نفسـه بإنهاك جسـه. ويسير شمـالاً وحـده، غارقـاً في خواطـره، من غير أن يكـترث بإلقـاء نظرة عـلى ما حوله. وفي الشّارع السّادس والعشرين شرقـاً، ينفكّ ربـاط حذائـه، وعندئذ على وجه التّحديد، وفيما هو ينحني ليعقده من جديـد، جاثـماً على ركبته، تبـدو الأرض وكأنَّها انشقّت أمـامه، ذلـك أنَّه يشـاهد في تلك اللّحظة من ستكون السيِّدة بلو مستقبلاً، مُقبلة عبر الطّريق وقد عقدت ذراعيها حول الذّراع اليمنى لرجل لم يسبق لبلو أن رآه قطّ من قبل، وهي تبتسم ابتسامة مشرقة، غارقة في الاستماع إلى ما يقوله لهـا الرّجل. ولعدّة لحظات يشعر بلو بالاضطراب إلى حدّ أنَّه لا يعرف ما إذا كـان عليه أن يحني رأسـه إلى الأسفـل بصـورة أكـبر، أو أن يقف ويحيّي المرأة التي يدرك الآن ـ بمعرفة فجائيّة لا رجعة عنها وكـأنَّها باب

يُصْفَق ـ أنَّها لن تصبح زوجته أبداً. ولا يفلح في القيام بأيّ من الأمرين، إذ يخفض رأسه قليلاً أوّلاً، ثمَّ يدرك بعد ثانية واحدة أنَّه يرغب في أن تتعرّفه. وعندما يرى أنَّها لن تتعرّفه وهو في وضعه هذا، نظراً لاستغراقها في الإصغاء إلى حديث رفيقها، فإنَّه ينهض على نحو مفاجئ عن الرّصيف بينما هي على بعد لا يتجاوز ستّة أقدام منه. ويبدو كما لو أنَّ صاعقة قد انقضّت عليها فجأة، إذ ندت عنها شهقة خافتة، وينطق بلو باسمها بصوت يبدو غريباً بالنّسبة إليه فتتجمّد في موضعها. ويسجّل وجهها صدمة رؤيتها لبلو، وعندئذ يتحوّل التّعبير المرتسم على وجهها سريعاً إلى الغضب.

تقول له: أنت! أنت!

وقبل أن تتاح له الفرصة ليقول كلمة واحدة، تنزع نفسها من ذراع رفيقها، وتبدأ بلطم صدر بلو بقبضتيها، صارخة به في جنون ومتهمة إيّاه بجريمة بشعة إثر الأخرى. وكلّ ما يسع بلو القيام به هو أن يردّد اسمها مراراً وتكراراً وكأنَّه يحاول في يأس أن يميّز بين المرأة التي يحبها والحيوان المتوحّش الذي يهاجمه الآن. ويشعر بأنَّه بلا دفاع تماماً أمامها، وفيما يتواصل الهجوم يبدأ بالترحيب بكلّ ضربة جديدة باعتبارها عقاباً عادلاً على سلوكه. وسرعان ما يضع الرّجل الآخر حدّاً للأمر، وعلى الرّغم من أنَّ بلو يشعر بما يغريه بالهجوم عليه إلَّا أنَّه يبدو أكثر ذهولاً من أن يتحرّك بالسّرعة الكافية، وقبل أن يعرف ما يجري يمضي الرّجل بعيداً بمن كانت سابقاً مرشّحة لأن تكون السيِّدة بلو، ويختفيان عند المنعطف، وينتهي الأمر عند ذلك.

يقلب هذا المشهد القصير، وغير المتوقّع، والمدمِّر في آثاره، بلو

رأساً على عقب. وفي الوقت الذي يستعيد فيه أعصابه، ويعود إلى البيت، يدرك أنّه قد ألقى حياته بعيداً. ويقول لنفسه، إذ يرغب في لومها، ولكنّه يعرف أنَّ ذلك ليس بمقدوره، إنّها ليست غلطتها. وبحسب معلوماتها فإنّها ربّما تحسبه ميتاً، وكيف يمكنه أن ينكر عليها رغبتها في أن تعيش؟ ويحسّ بلو بالدّموع تتكوّن في عينيه، ولكنّه يشعر بالغضب على نفسه، لأنّه بهذا الحمق، أكثر ممّا يشعر بالحزن. فقد خسر ما كان يمكن أن يكون لديه من فرص للسّعادة، وإذا كان الأمر كذلك فلن يكون من قبيل الخطأ القول بأنَّ هذه هي حقّاً بداية النّهاية.

يعود بلو إلى غرفته ويرقد في فراشه ويحاول أن يزن الاحتمالات. ويدير وجهه إلى الحائط فيواجه صورة جولد، طبيب التّشريح من فيلادلفيا. ويفكّر في الخواء الحزين الخاصّ بالقضيّة التي لم تُحلّ، الطّفل الرّاقد في قبره دونما اسم، وفيما هو يتمعّن في قناع وجه الصّبيّ الصّغير، يبدأ في إدارة فكرة في ذهنه. ربّما كانت هناك سبل للاقتراب من بلاك، سبل يلوح له أنّها لا تُبعِده. لا بدّ أنَّ هناك سبلاً من هذا النّوع، خطوات يمكن القيام بها، خطط يمكن إطلاقها، ربّما اثنتان أو ثلاث في وقت واحد، ويحدّث نفسه بأنَّ عليه ألّا يهتمّ بالباقي، فقد حان الوقت لقلب الصّفحة.

يحلّ موعد إرسال تقريره التّالي بعد غد، ولذا فهو يعكف عليه الآن لإرساله بالبريد في موعده. وقد اتّخذت تقاريره خلال الأشهر الماضية طابعاً مقتضباً على نحو متزايد، فهي لا تتجاوز فقرة أو فقرتين، ولا تقدّم إلّا جوهر الأمر، ولا شيء آخر، وهو في هذه المرّة

لا يخالف ما درج عليه. غير أنّه يُدْرِج في أسفل الصّفحة تعليقاً غامضاً كنوع من الاختبار، على أمل أن ينتزع شيئاً يزيد على الصّمت من وايت: يبدو أنَّ بلاك مريض، وأخشى أن يكون في حالة احتضار. ثمَّ يختتم التّقرير قائلاً لنفسه إنَّ تلك ليست إلاَّ البداية فحسب.

بعد ذلك بيومين يسرع بلو مبكراً إلى مكتب بريد بروكلين، وهو مبنى أقرب إلى أن يكون قلعة هائلة على مرمى حجر من جسر منهاتن. وقد وُجِّهت جميع تقارير بلو إلى صندوق البريد رقم ألف وواحد، وهو يمضي إليه الآن وكأنَّما مصادفةً، سائراً الهوينى متجاوزاً إيّاه، ومُطِلاً دونما عائق ليرى ما إذا كان التّقرير قد وصل. ها هو ذا، أو على الأقلّ هناك خطاب ـ مغلّف وحيد أبيض يميل بزاوية قدرها خمس وأربعون درجة في الصندوق الضيِّق ـ وليس لدى بلو ما يدعوه إلى الشكّ في أنّه خطاب آخر غير خطابه، ثمَّ يبدأ مسيرة دائريّة بطيئة حول المنطقة، عاقداً العزم على أن يبقى إلى أن يظهر وايت أو شخص يعمل لحسابه، وقد ثبّتت عيناه على الجدار الهائل الذي يضمّ الصناديق المرقّمة، وكلّ صندوق يحمل مجموعة أرقام مختلفة، ويضمّ سرّاً مختلفاً. ويقبل النّاس ويذهبون، يفتحون الصّناديق ويغلقونها، ويواصل بلو التجوال في دائرته، متوقِّفاً بين الحين والآخر في بقعة عشوائيّة، ثمَّ منطلقاً من جديد. ويبدو كلّ شيء بنيّاً بالنّسبة إليه، وكأنّما الطّقس الخريفيّ في الخارج قد اخترق القاعة، ويعبق المكان على نحو بهيج برائحة السِّيجار. وبعد عدّة ساعات يبدأ بلو بالشّعور بالجوع، ولكنّه لا يستسلم لنداء المعدة، محدِّثاً نفسه بأنَّ الأمر قوامه

إمّا الآن وإمّا لا إلى الأبد، ومن ثمّ فإنّـه يواصـلِ الصمود. ويـراقب كـلّ من يقترب من مجمـع صناديق الـبريد، مـركّزاً عـلى كلّ شخص يقترب ممّا يجاور الصندوق رقم ألف وواحد، ومدركـاً الحقيقة القـائلة بـأنّه إذا لم يـأتِ وايت فـإنَّ من سيـأتي قـد يكـون أيّ شخص يكلّف بتلقّي التّقارير، قد يكون امرأة عجوزاً أو طفلاً صغيراً، ومن ثمّ فإنّ عليه ألاّ يأخذ أيّ شيء باعتباره أمراً مسلّماً به. ولكن ما من شيء من هذه الاحتمالات يصـل إلى أمر يـذكر، ذلـك أنَّ الصندوق يـظلّ على حاله طـوال الوقت، وعـلى الرّغم من أنَّ بلو يبتكـر على نحـو عاجـل وبصـورة ناجمـة قصّة لكـلّ مرشّـح يقترب من الصنـدوق، محاولاً أن يتخيّـل كيف أنَّ ذلك الشّخص يمكن أن يكـون عـلى صلة بـوايت أو ببـلاك، وما هـو الدّور الـذي قد يلعبـه أو تلعبه في القضيّـة، وما إلى ذلك، ويُرغم على أن يُلقي بها قصّة وراء الأخرى إلى رحاب النسيان الذي أقبلت منه.

وبعيد الظهيرة، وفي لحظة بـدء ازدحام مكتب الـبريد ـ إذ ينـطلق حشـد كبير من النّـاس في فترة الـرّاحة وتنـاول طعام الغـداء لإرسال الرسائل أو شراء طوابع البريد أو إنجاز عمل من نوع أو آخـر ـ يجتاز الباب رجل يضـع قناعـاً على وجهـه. ولا يلاحظه بلو في البداية مع دخول الكثيرين من الباب في الوقت نفسه، ولكن فيما الرّجل ينفصل عن الحشد ويبدأ بالسّير نحو صناديق البريد المرقّمة، يلمح بلو القناع أخيراً، وهو قناع من النّوع الذي يضعه الأطفال على وجوههم في يوم هالوين، مصنوع من المطّاط يصـوّر وحشاً مخيفـاً تبدو جـراح بليغة في جبهته، وتتوّهج عيناه حمرة، وتلوح أنياب مكـان أسنانـه. وأمّا بـاقي الرجل فعاديّ تماماً (معطف رمـادي من التويـد، وملفعة حمـراء تلتفّ

حول عنقه). ويحسّ بلو في هذه اللّحظة الأولى أنّ الرّجل الذي يضع القناع هو وايت. وفيما يواصل الرّجل مسيره نحو منطقة صندوق البريد رقم ألف وواحد يتصاعد هذا الإحساس إلى مرتبة الاقتناع، ويشعر بلو في الوقت نفسه بأنّ الرّجل ليس هناك حقّاً، وبأنّه على الرّغم من أنّه يعلم أنه يراه، فإنّه أكثر من محتمل أنّه الوحيد الذي يستطيع أن يراه. غير أنّ بلو مخطئٌ في هذا الموضع، ذلك أنّه بينما يواصل المقنّع التحرّك على الأرضيّة المرمريّة الرحبة، يرى بلو عدداً من النّاس يضحكون، ويشيرون إليه، ولكنّه لا يستطيع القول ما إذا كان هذا أفضل أم أسوأ. ويصل المقنّع إلى صندوق البريد رقم ألف وواحد ويدير قرص مجموعة الأرقام إلى الوراء ثمّ إلى الأمام ثمّ إلى الوراء ثانية، ويفتح الصندوق. وما إن يدرك بلو أنّ هذا هو بالتأكيد الرّجل الذي ينشده حتى يشرع بالقيام بحركة باتجاهه، دون أن يكون على يقين حقّاً ممّا يعتزم القيام به، ولكنّه في قرارة ذهنه يعتزم الإمساك به ونزع القناع عن وجهه. ولكنّ الرّجل أكثر حذراً من أن يحدث له ذلك، فما إن يلتقط المغلف ويدسّه في جيبه ويغلق الصندوق حتى يُلقي نظرة سريعة في أرجاء القاعة ويرى بلو مقترباً منه، ويبادر بالابتعاد هرولة، منطلقاً نحو الباب بأسرع ما يمكنه. وينطلق بلو عدواً وراءه على أمل أن يمسكه من الخلف ويحبط حركته، ولكنّه يختلط للحظة بالجمهور عند الباب، وعندما يفلح في اجتيازه، يكون المقنّع في غمرة توائب نشط في هبوط للدرج. ويواصل بلو مطاردته، بل يشعر بأنّه يكسب أرضاً في هذه المطاردة، ولكنّ المقنّع يصل عندئذ إلى الناصية حيث يتصادف أنّ

حافلة تنطلق من محطّة، وهكذا يستقلّها في اللّحظة المناسبة، ويترك بلو في موقف حرج، لاهث الأنفاس، واقفاً في موضعه وكأنّه أبله.

بعد يومين يتلقّى بلو شيكه في البريد فيجد أخيراً كلمة من وايت فيها: لا ألاعيب غريبة بعد الآن. وعلى الرّغم من أنّها كلمة موجزة فإنّ بلو يسعد لتلقّيها، يسعد لشقّه جدار صمت بلو أخيراً. غير أنه ليس من الواضح ما إذا كانت الرسالة تشير إلى التّقرير الأخير أو إلى الحادث الذي وقع في مكتب البريد. وبعد التّفكير في الأمر قليلاً يقرّر ألّا فارق هناك. فالتحرّك هو مفتاح القضيّة بشكل أو بآخر، وعليه أن يواصل حيث استطاع إيقاف المسيرة المنتظمة للأمور، قليلاً هنا وقليلاً هناك، قاطعاً في اللّغز إلى أن يبدأ الهيكل بالتّداعي، وإلى أن يأتي يوم يسقط فيه هذا الأمر الهشّ على الأرض.

يعود بلو عبر الأسابيع القليلة التّالية إلى صندوق البريد مرّات كثيرة على أمل أن يُلقي نظرة أخرى على وايت، ولكن ذلك لا يسفر عن شيء، فإمّا أنّ التقرير ينقل بالفعل من الصندوق لدى وصوله إليه وإمّا أنّ وايت لا يظهر له أثر. ولا تدع الحقيقة القائلة بأنّ هذه المنطقة من مكتب البريد مفتوحة على مدار أربع وعشرين ساعة يوميّاً مجالاً كبيراً للاختيار أمام بلو، فوايت يحذر منه الآن، ولن يرتكب الغلطة نفسها مرّتين، ولسوف ينتظر إلى أن ينصرف بلو ثمّ يمضي إلى الصندوق، وما لم يكن بلو على استعداد لإمضاء حياته بأسرها في مكتب البريد، فإنّه ليس هناك من سبيل يمكنه من خلاله أن يتوقّع الإطباق على وايت من جديد.

تبدو الصّورة أكثر إيغالاً في التعقيد ممّا قُدِّر لبلو أن يتوقّع، ولمدّة

عام تقريباً الآن نظر إلى نفسه باعتباره حرّاً بصورة جوهريَّة. وقد أدّى واجبه بشكل أو بآخر، متطلِّعاً إلى الأمام مباشرة وفاحصاً بلاك، ومنتظراً الوصول إلى مدخلٍ مناسب، ومحاولاً متابعة هذا المدخل، ولكن خلال هذا كلّه لم يفكِّر مرّة واحدة في ما عساه يجري وراءه.
وأمّا الآن وبعد حادثة المقنّع والعقبات الإضافيّة التي ظهرت فإنَّ بلو لم يعد يعرف جليَّة الأمر. ويبدو من المحتمل تماماً بالنّسبة إليه أنَّه بدوره تجري مراقبته ورصده من قِبَل شخص آخر بالطّريقة التي يراقب بها بلاك. ولئن كان الأمر كذلك فإنَّه لم يكن حرّاً قطّ، ومن البداية ذاتها كان الرّجلَ الواقعَ في الوسط، يُعَرْقَل من الأيّام ويُطوَّق من الخلف. والغريب أنَّ هذه الفكرة تذكّره ببعض الجمل في كتاب «والدن». ويبحث في الكتاب عن الصِّياغة الدَّقيقة لهذه الجمل، واثقاً إلى حدّ كبير من أنَّه قد نقلها عن الكتاب. ويجدها. إنّنا لسنا حيث نحن، وإنّما في وضع زائف. وخلال اعوجاج في طبائعنا نفترض قضيّة ونكرِّس أنفسنا لها، ومن هنا فإنّنا في قضيتين في وقت واحد، ومن الصّعب على نحو مضاعف الخروج. ويبدو هذا مفهوماً لبلو. وعلى الرّغم من أنَّه يبدأ بالشّعور بالتخوّف قليلاً فإنّه يظنّ إنّه ربّما لم يفت أوان قيامه بشيء في مواجهة ذلك.

وتتبلور المشكلة الحقيقيَّة في تحديد طبيعة المشكلة ذاتها. وبدايةً مَنْ هو الذي يشكِّل خطراً أعظم عليه: وايت أم بلاك؟ لقد صدق وايت في أداء ما تعهّد به بخصوص جانبه من الصَّفقة: الشيكات تصل في موعدها من كلّ أسبوع، وبلو يعرف أنَّ الانقلاب عليه سيكون بمثابة أن يعضّ اليد التي تطعمه، ومع ذلك فإنَّ وايت هو الذي حرَّك

القضيّـة، ملقياً ببلو إلى غـرفة خـاوية، إن صـحَّ التّعبير، ثمَّ مـطفئـاً النّـور، ومـوصـداً البـاب. ومنـذ ذلـك الحـين يتلمّس بلو أمـامـه في الـظّلام، باحثـاً عن مفتاح النّـور، سجيناً للقضيّـة ذاتها. كـلّ ذلـك حسن وعلى مايرام، ولكن لِمَ يأتي وايت شيئاً كهذا؟ عندما يـواجه بلو هذا السّؤال فإنّه لا يعود بمقـدوره التّفكير، ويكفّ ذهنـه عن العمل، فهو لا يستطيع المضيّ إلى أبعد من هذا.

عليك ببلاك، إذن. فهو حتّى الآن القضيّة بأسرها، والسّبب الجليُّ لكلّ متاعبه. ولكن إذا كان وايت حقّـاً يتصيّد بلو لا بـلاك، فربّمـا لم تكن لبلاك علاقة بالأمر، بل ربّمـا لم يكن أكثر من مراقب بريء، وفي تلك الحالة فإنَّ بلاك يحتلّ الوضع الذي افترض بلو طوال الـوقت أنّه الوضع الخاصّ به هو نفسه، بينما يأخذ بلو دور بلاك. وثمَّة ما يقـال دفاعاً عن هـذا. ومن ناحيـة أخرى فـإنّه من الممكن أيضـاً أن يكون بلاك متعاوناً مع وايت وأن يكون قد تآمرا لتوريط بلو.

وإذا كان الأمر كذلك فـما الذي يفعـلانه بـه؟ ليس شيئاً رهيبـاً في نهاية المطاف، عـلى الأقلّ ليس بـأيّ معنى مطلق. لقد أوقعاه في شَرَك عـدم القيـام بشيء، أن يكـون من الجمـود بحيث تتـدنّى حيـاتـه إلى لاحيـاة على الإطـلاق تقريبـاً، وهو يحسّ وكـأنّه رجـل حُكِمَ عليه بـأن يجلس في غرفة ويقرأ كتاباً طوال ما بقي من حياته. وذلك أمـر غريب ـ أن يكـون نصف حيّ في أفضل الأحـوال، وألاّ يـرى العـالم إلاّ من خـلال الكلمات، وألاّ يعيش إلاّ عبر حيـاة الآخـرين. ولكن إذ كـان الكتاب مثيراً للاهتمام فقد لا يكون الأمر بالـغ السّوء، فبمقـدوره أن يندمج في القصّة، إذا صحَّ التّعبير، وشيئاً فشيئاً يبدأ في نسيان نفسه.

ولكنَّ هذا الكتاب لا يقدّم له شيئاً، فليست هناك قصَّة، ولا حبكة ولا حدث، ولا شيء إلَّا رجل يجلس وحيداً في غرفة ويؤلِّف كتاباً. ويدرك بلو أنَّ هذا هو كلّ ما هنالك، ولا يعود راغباً في أن يكون له شأن به. ولكن كيف السّبيل إلى الخروج؟ كيف السّبيل إلى الخروج من الغرفة التي هي الكتاب الذي سيظلّ في غمرة عمليّة التّأليف مادام هو في الغرفة؟

وأمّا فيما يتعلّق ببلاك، من يُسمّى مؤلِّف الكتاب، فإنَّ بلو لا يستطيع بعد الآن أن يثق بما يراه. فهل من الممكن حقّاً أن يوجد مثل هذا الرّجل الذي لا يفعل شيئاً وإنَّما يجلس فحسب في غرفته ويكتب؟ لقد تتبَّعه بلو في كلّ مكان، وترصّده في أقصى الأركان، وراقبه بدقّة بالغة حتى إنَّ عينيه تبدوان كما لو كانتا تخذلانه، وحتى عندما يغادر بلاك غرفته بالفعل فإنَّه لا يمضي إلى أيّ مكان، ولا يقوم بما يُعْتَدّ به من أيّ شيء: تسوُّق مواد البقالة، وحلاقة الشّعر بين الحين والآخر، وجولة لمشاهدة الأفلام، وما إلى ذلك. ولكنّه يضرب غالباً في الشّوارع متأمّلاً مناظر طبيعيّة تشكِّل تركيباً غريباً، مجموعات من المعلومات العشوائيّة، بل إنَّ ذلك لا يحدث إلَّا بصورة متقطّعة. لبعض الوقت تكون المباني مناط اهتمامه، فيمدّ عنقه ليلقي نظرة على الأسطح متفقِّداً مداخل الدّور، وممرِّراً يديه على مهل على الواجهات الحجريّة، ثمَّ لمدّة أسبوع أو أسبوعين ينحصر اهتمامه في التماثيل التي تتوسّط الميادين، أو في القوارب المنطلقة في النّهر، أو في إشارات المرور. ولا شيء يتجاوز هذا، ومن غير أن يتفوّه إلَّا لِماماً بكلمة يخاطب بها أحدهم. ولا لقاء كذلك مع الآخرين، باستثناء ذلك

الغذاء الوحيد مع المرأة الباكية، وقد انقضى عليه الآن وقت طويل.
وبلو يعرف كلّ ما يمكن معرفته فيما يتعلّق ببلاك: ما هو نوع الحساء الذي يبتاعه، وما هي الصُّحف التي يقرأها، وما هي الملابس التي يرتديها، وقد سجّل كلًّا من هذه الأشياء بأمانة في كرّاسته. ولقد تعلّم آلاف الحقائق، ولكنّ الشيء الوحيد الذي علّمته إيّاه هو أنّه لا يعرف شيئاً، ذلك أنّه تبقى الحقيقة القائلة بأنّه ما من شيء من هذا بالإمكان. وأنّه من غير الممكن أن يوجد رجل مثل بلاك.

ويبدأ بلو، بناء على هذا، بالتشكّك في أنّ بلاك لا يعدو أن يكون خدعة، شخص آخر ممّن استعان وايت بخدماتهم، يدفع له أجره كلّ أسبوع ليجلس في الغرفة ولا يقوم بشيء. وقد لا تكون كلّ تلك الكتابة إلاّ زيفاً، كلّ صفحة إثر الأخرى منها، قائمة تتألّف، على سبيل المثال، من كلّ اسم ورد في دليل الهاتف، أو كلّ كلمة وردت في القاموس بالتسلسل الأبجدي أو نسخة مخطوطة من «والدن»، وقد لا تكون كلمات، وإنّما خطوط لا معنى لها، علامات عشوائيّة يُحْدِثُها القلم، كومة متنامية من العبث والفوضى. إنّ هذا من شأنه أن يجعل من وايت المؤلّف الحقيقي إذن، بينما لا يعدو بلاك أن يكون بديلاً له، شخصاً زائفاً، ممثّلاً لا جوهر له، ثمّ هناك الأوقات التي يتبع فيها بلو هذه الفكرة ويعتقد أنّ التّفسير المنطقي الوحيد هو أنّ بلاك ليس رجلاً واحداً وإنّما هو عدّة رجال. اثنان أو ثلاثة أو أربعة من الأشخاص المتشابهين الذين يلعبون دور بلاك أمام بلو، فيؤدّي كلّ منهم الدّور طوال الوقت المخصّص له، ثمّ يعود إلى مباهج المدفأة والدّار. ولكن تلك فكرة أكثر وحشيّة من أن يتأمّلها بلو طويلاً.

وتنقضي شهـور، ويقول لنفسـه بصوت عـالٍ في نهاية الأمـر: لم أعد أستطيع التنفّس، هذه هي النّهاية. إنّني أموت.

ينتصف صيف ١٩٤٨ م. وإذ يستجمع بلو شجاعته للتحرّك آخر الأمـر فـإنّـه يمـدّ يـده إلى حقيبـة أدوات التنكّــر، ويشرع في إضفـاء اللّمسات التي تكفل له اكتساب هويّة جديدة، وبعـد تنمية عـدد من الإمكانيات المتاحة، يستقرّ رأيه على هيئة رجـل عجوز اعتـاد التسوّل عند نواحي حيِّه خلال طفولة بلو، شخصيّـة محلّية تحمـل اسم جيمي روز، ويدسّ نفسه في زيّ يوحي بالتسوّل، ملابس صـوفيّة مهلهلة، حـذاء ضُمَّت أجـزاؤه بخيط لمنـع النَّعلين من الاصـطفـاق والتـدلّي، حقيبة سجّاديّـة يحمل فيهـا أغراضـه، وفي النِّهايـة، وبعد كـلّ شيء، لحيّة بيضاء مسترسلة وشعر طويل. وتخلع عليه هذه التّفاصيل الأخيرة مـظهر أحـد رجالات العهـد القديم، فبلو في هيئـة جيمي روز ليس شخصيًّة وضيعة محطَّمة بقـدر ما هـو أحمق تأتي عـلى لسانـه الحكمة، قدِّيس للفقر المـدقع يحيـا على هـامش المجتمع، ربّمـا كان أحمق تـافه الشّـأن، ولكنّه لا ضـير منه، وهـو يشعّ بـلامبالاة عـذبة بـالعـالم من حوله، والسبب هو أنَّ كلّ شيء كان قد حـدث له بـالفعل فـلا شيء يستطيع بعدُ إزعاجه.

يتمركز بلو في بقعة مناسبة عبر الـطّريق، ويستلّ من جيبـه شظيّـة من زجـاج مكبّر، ويشرع في قــراءة صحيفـة الأمس المتّسخـة التي أخرجها من برميل قمامة قريب، ويظهـر بلاك بعـد ساعتـين، هابـطاً درج منزله، ثمّ منعطفاً بـاتّجاه بلو. ولا يكـترث بلاك بـالمتسوِّل - إمّـا

لأنَّه غارق في أفكاره وإمَّا متجاهلاً إيَّاه عن عمد ـ وهكذا فإنَّه فيما كان يشرع في الاقتراب يخاطبه بلو بصوت رقيق:

هل تستطيع التمهُّل لحظة، يا سيِّد؟!

يتوقَّف بلاك ويطلّ على المخلوق الأشعث الذي تحدَّث لتوِّه، ويسترخي تدريجيّاً مفترّاً عن ابتسامة إذ يدرك أنَّه ليس معرَّضاً للخطر، ثمَّ يمدّ يده إلى جيبه، ويخرج قطعة نقديّة معدنيّة، ويضعها في راحة بلو.

يقول: إليك هذه!

يقول بلو: ليباركك الله.

يردّ بلاك متأثِّراً بهذه العاطفة: شكراً لك.

يقول بلو: لا تخف أبداً، ليباركك الله.

وبكلمةِ بَعْثِ الطّمأنينة تلك، يمسّ بلاك طرف قبعته محيّياً بلو، ويواصل سيره.

في أصيل اليوم التّالي، ينتظر بلو، وقد ارتدى ملابس المتسوِّل مجدَّداً، بلاك في البقعة ذاتها. وإذ يصمِّم على إبقاء الحوار لمدَّة أطول قليلاً، بعد أن اكتسب ثقة بلاك، فإنَّه يجد أنَّ المشكلة تخرج من يديه إذ يظهر بلاك نفسه لهفة إلى البقاء معه وقتاً أطول. الآن ها هو النّهار يجرّ أذياله، ولم يضرب الغسق أطنابه، ولكنَّ الأصيل قد رحل، وتمتدّ ساعة ما قبل الغسق ذات التغيّرات الوئيدة والآجرّ المتوهِّج والظلال. وبعد أن يُحيّي بلاك الشّحاذ تحيَّة ودودة، ويعطيه قطعة نقد معدنيّة أخرى، يتردّد للحظة، كأنَّما يناقش مع نفسه ما إذا كان سيقدم على الخطوة التّالية، ثمَّ يقول:

هل قال لك أحد قطّ إنّك تشبه والت ويتمان؟
يردّ بلو، متذكّراً ضرورة قيامه بدوره: والت مَنْ؟
والت ويتمان. إنّه شاعر مشهور.
يقول بلو: لا، ليس بمقدوري القول بأنّني أعرفه.
يقول بلاك: ليس من المحتمل أنّك تعرفه، فهو لم يعد على قيد الحياة، لكن الشّبه بينكما واضح.
يقول بلو: طيّب، تعرف ما يقولونه، لكلِّ إنسان قرينه في مكان ما، ولست أرى ما يمنع أن يكون قريني ميتاً.

يواصل بلاك حديثه: الشيء الغريب أنَّ والت ويتمان كان يعمل في هذا الشّارع، وقد طبع كتابه الأوّل ها هنا مباشرة، غير بعيد عن البقعة التي نقف فيها.

يقول بلو وهو يهزّ رأسه متأمّلاً: أتقول حقّاً؟ ذلك يجعلك تتوقّف وتتأمّل. أليس كذلك؟ هناك بعض القصص الغريبة فيما يتعلّق بويتمان. يقولها بلاك مشيراً إلى بلو بالجلوس على رواق مدخل المبنى الواقع خلفهما، وهو ما يفعله بلو، ثمّ يحذو بلاك حذوه، وفجأة ينفرد أحدهما بالآخر في ضياء الصّيف، وهما يثرثران كصديقين قديمين عن هذا الأمر وذاك.

يقول بلاك وقد استقرّ على نحو مريح في إطار ما توحي به اللّحظة من استرخاء: نعم، عدد من القصص الشّديدة الغرابة، هناك على سبيل المثال القصّة التي تدور حول مخّ ويتمان. وقد آمن ويتمان طوال حياته بعلم فراسة الدّماغ، أيّ قراءة النتوءات في الجمجمة. وقد كان شائعاً للغاية في ذلك الوقت.

يردّ بلو: لا يمكنني القول بأنّني سمعت به.

يقول بلاك: طيِّب، لا أهميّة لذلك، فالشيء الأساسي هو أنّ ويتمان كان مهتمّاً بالأمخاخ والجماجم، وقد ظنَّ أنّه يمكنها أن تحدِّثك بكلّ شيء عن شخصيّة الإنسان. وعلى أيّ حال فعندما رقد ويتمان محتضراً هناك في نيوجيرسي، قبل خمسين عاماً أو ستّين، وافق على أن يدعهم يجرون تشريحاً له بعد موته.

آه، كيف أمكن أن يوافق على ذلك بعد أن مات؟

آه، اعتراض وجيه. لم أقل الأمر بشكل صحيح. لقد كان مايزال على قيد الحياة عندما وافق على ذلك، فقد أرادهم أن يعرفوا أنَّه ليس معترضاً على تشريحهم له فيما بعد. ذلك هو ما تستطيع أن تقول إنّه كان أمنية ما قبل الموت.

كلمات أخيرة شهيرة.

ذلك صحيح، وكما ترى فإنَّ الكثيرين كانوا يعتقدون أنَّه عبقريّ، وأرادوا أن يُلقوا نظرة على مخّه ليروا ما إذا كان هناك شيء خاصّ يميِّزه. وهكذا فإنَّه في اليوم الذي أعقب موته قام أحد الأطباء بنزع مخِّه ـ قطعه من رأسه ـ وأرسله إلى الجمعيّة الأنثروبومتريّة ليتمّ قياسه ووزنه.

ويقاطعه بلو: مثل قنّبيط عملاق.

بالضّبط. مثل قنّبيط عملاق للغاية. ولكن هذا هو الموضع الذي تصبح فيه القصّة مثيرة للاهتمام، فالمخّ يصل إلى المعمل، وفيما هم يوشكون على بدء العمل فيه يسقطه أحد المساعدين على الأرض.

هل تهشّم؟

بالطَّبع، تهشَّم، فالمخّ ليس بالـغ الصَّلابـة، كما تعلم، وتنـاثر في مختلف أرجـاء المكان، وبهـذا انتهى الأمر، فقـد تمَّ كنس مخّ أعـظم شعراء أمريكا، وأُلقيَ به مع النفايات.

ويتذكّر بلو أن يـردّ على نحـو يتّفق مع الشخصيّـة التي يتقمّصها، فيـطلق عدداً من الضحكـات الممزوجـة بالصّفـير، في تقليد بـارع لما يصدر عن عجوز غـريب الأطوار، ويضحـك بلاك بـدوره، وبحلول ذلك الوقت يكون المناخ قد غدا ودِّياً بينهما، إلى حـدّ أنَّه مـا من أحد بوسعه أن يعـرف أنَّهما ليسا صـديقين من النّـوع الذي تمتـدّ الصداقـة بينهما عُمْراً بأسره.

يقول بلاك: ورغم ذلـك فإنّـه من المحزن أن يفكِّـر المرء في والت المسكين وقد تمدّد في قبره بلا مخّ.

يقول بلو: تماماً مثل تلك الفزّاعة.

يقول بلاك: بالتأكيد مثل الفزّاعة في أرض «أوز».

وبعد ضحكة أخرى من القلب، يقول بلاك: ثمَّ هناك قصَّـة المرّة التي جاء فيها ثورو لزيارة ويتمان. وتلك قصَّة جيِّدة بدورها.

هل كان شاعراً آخر؟

ليس تمـاماً، ولكنّه كاتب كبير عـلى ما يبـدو، وهو الكـاتب الذي عاش وحيداً في الغابات.

يقول بلو الذي لا يـرغب في أن يمضي بجهله إلى أبعد ممَّـا ينبغي: آه، نعم، حدّثني أحدهم عنه. كان مغرماً جـدّاً بالـطُّبيعة. هـل هذا هو الرّجل الذي تقصده؟

يردّ بلاك: بالضبط. هنري ديفيد ثورو. أقبل من ماساشوستس لبعض الوقت، وقام بزيارة لويتهان في بروكلين. ولكنّه في اليوم السّابق لذلك جاء إلى هنا، إلى شارع أورينج.

هل من سبب محدَّد لذلك؟

كنيسة بلايموث. فقد أراد الاستماع إلى عظة هنري وارد بيتشر.

قال بلو، مفكّراً في السّاعات الهانئة التي أمضاها في الفناء المعشب: منطقة جميلة، أحبُّ أن أذهب إلى هناك.

يقول بلاك: لقد ذهب الكثير من العظماء إلى هناك، ومنهم أبراهام لنكولن وتشارلز ديكنز، وساروا عبر هذا الشّارع ومضوا إلى الكنيسة. أشباح.

نعم، إنّهم أشباح في كلّ مكان من حولنا.

والقصّة؟

إنّها بسيطة حقّاً. فقد وصل ثورو وصديق له هو برونسون ألكوت إلى دار ويتهان في ميرتل أفنيو، فأرسلتهما أمّ والت إلى غرفة نوم في علّية كان والت يشارك فيها أخاه إدي المعاق ذهنيّاً. وكان كلّ شيء على مايرام، وقد صافح بعضهم بعضاً، وتبادلوا التّحيّات، وما إلى ذلك، ولكنّهم عندما جلسوا لمناقشة وجهات نظرهم في الحياة، لاحظ ثورو وألكوت مِبولة مليئة ممّا يوضع في غرف النّوم هناك وسط الأرضيّة. وكان والت شخصاً من النّوع غير المتحفّظ، ولم يُلْقِ بالاً إلى ذلك، ولكنّ الرّجلين المنتميين إلى نيو إنجلاند وجدا أنّه من الصّعب أن يواصلا الحديث، وأمامهما دلو مليء بالفضلات. وهكذا

هبطوا إلى غرفة الاستقبال، وواصلوا الحوار هناك. إنّني أدرك أنّ تلك جزئيّة صغيرة، ولكن مع ذلك فعندما يلتقي كاتبان كبيران فإنّ التّاريخ يُحاك نسيجه، ومن المهمّ طرح كلّ الحقائق بصراحة. وكما ترى فإنّ مبولة الحجرة تذكّرني على نحوٍ من الأنحاء بالمخّ الملقى على الأرض، وعندما تتوقّف للتّفكير في الأمر فإنّك تجد تماثلاً في الشّكل، أقصد نتوءات وتلافيف الدّماغ. هناك صلة محدّدة. المخّ والأمعاء، جوف الإنسان. إنّنا نتحدّث دوماً عن محاولة الوصول إلى أعماق كاتب، لكي نفهم أعماله على نحوٍ أفضل، ولكن عندما تصل إلى جوهر الأمر فإنّه لا يوجد الكثير ممّا يمكن العثور عليه هناك، على الأقلّ ليس هناك الكثير ممّا يختلف عمّا يوجد في أيّ شخص آخر.

يقول بلو الذي يبدأ بفقدان طرف خيط حجّة بلاك: يبدو أنّك تعرف الكثير عن هذه الأمور.

يقول بلاك: إنّها هوايتي، فأنا أحبّ أن أعرف كيف يحيا الكتّاب، ولا سيّما الكتّاب الأمريكيّون، فذلك يساعدني في فهم الأمور.

فهمت. يقولها بلو الذي لا يفهم من الأمر شيئاً على الإطلاق، فمع كلّ كلمة ينطقها يجد نفسه متفهّماً لقدر يزداد ضآلة.

يقول بلاك: إليك هاوثورن. صديق طيّب لثورو، وربّما كان الكاتب الحقيقيّ الأوّل الذي أتيح لأمريكا. فبعد أن تخرّج من الكلّية عاد إلى دار أمّه في «سالم»، وأغلق عليه غرفته، ولم يخرج طوال اثني عشر عاماً.

وماذا كان يفعل هناك؟

كان يكتب القصص.

هل هذا كلّ شيء؟ كان يكتب فقط؟

الكتابة عمل انعزالي يستولي على حياتك. وبمعنى من المعاني فإنّه ليس للكاتب حياة خاصّة به. وحتّى حينما يكون هناك فإنّه ليس هناك حقّاً.

شبح آخر.

تماماً.

يبدو ذلك أمراً غامضاً.

إنّه كذلك بالفعل. ولكنّ هاوثورن كتب الكثير من القصص، ونحن مانزال نقرأها الآن، بعد ما يزيد على مائة عام. وفي إحداها يقرّر رجل يُدعى ويكفيلد أن يدبّر مقلباً لزوجته، فيبلغها بأنّ عليه أن يمضي في رحلة عمل لعدّة أيّام، ولكنّه بدلاً من مغادرة المدينة يمضي غير بعيد عن المنعطف، ويستأجر غرفة، وينتظر ليرى ما يحدث. وهو لا يستطيع أن يقول على وجه الدّقة لماذا يفعل ذلك، ولكنّه يقوم به على أيّ حال. وتمضي ثلاثة أيّام أو أربعة، ولكنّه لا يشعر بعد بأنّه على استعداد للعودة إلى البيت، وهكذا يستمرّ في الغرفة المؤجّرة، وتتحوّل الأيّام إلى أسبوع، والأسابيع إلى شهور. وذات يوم يسير ويكفيلد في شارعه القديم، ويرى منزله غارقاً في الحداد. إنّها جنازته، وقد أصبحت زوجته أرملة وحيدة. وتمرّ سنوات، وبين حين وآخر يصادف زوجته في المدينة، وذات مرّة وسط حشد كبير، يحتكّ بها بالفعل، ولكنّها لا تتعرّفه، ويمرّ المزيد من السّنوات، أكثر من عشرين عاماً، وشيئاً فشيئاً يوغل ويكفيلد في

العمر. وذات ليلة مطيرة من ليالي الخريف، وفيما هو يتجوّل في الشّوارع الخاوية، يتصادف أن يمرّ ببيته القديم، ويطلّ عبر النّافذة. هناك نار دافئة تتّقد في المدفأة، ويحدِّث نفسه قائلاً: كم سيكون جميلاً لو أنّه جلس هناك الآن توّاً في أحد تلك الكراسي الوثيرة بالقرب من المصطلى، بدلاً من الوقوف هنا تحت المطر. وهكذا، وبلا مزيد من التّفكير في الأمر، يصعد الدّرج، ويطرق باب الدّار.

وعندئذٍ؟

ذلك كلّ ما هنالك. تلك هي نهاية القصّة. وآخر ما نراه هو فتح الباب ودخول ويكفيلد وعلى شفتيه ابتسامة ماكرة.

ولا نعرف أبداً ما يقول لزوجته؟

لا. تلك هي النهاية. ولا كلمة أخرى. ولكنّه ينتقل إلى الدّار من جديد، ونحن نعلم ذلك، ويظلّ زوجاً محبّاً حتّى الموت.

بحلول ذلك الوقت تكون السّماء قد أعتمت فوق الرؤوس، ويُقْبِل اللّيل مسرعاً. وتظلّ بارقة أخيرة من اللّون الأحمر الوردي في الغرب، ولكنّ النّهار موغل في الانتهاء. وينهض بلاك، ملتقطاً الإشارة بذلك من السّماء ويمدّ يده إلى بلو محيِّياً.

يقول: أسعدني الحديث معك، ولم أدرِ أنّنا جلسنا كلّ هذا الوقت.

يقول بلو: كانت السّعادة من نصيبي. ويساوره شعور بالارتياح لانتهاء الحوار لأنّه يعرف أنّ الوقت لن يطول قبل أن تبدأ لحيته المستعارة بالانزلاق في ضوء حرّ الصّيف وتوتّره العصبيّ اللذين يؤدّيان إلى انسيال عرقه على الصمغ الذي يثبّتها في موضعها.

يقول بلاك، وهو يهزّ يد بلو مصافحاً: اسمي بلاك.

يقول بلو: اسمي جيمي، جيمي روز.

يقول بلاك: سأتذكّر هذا الحوار الذي امتدّ بيننا طويلاً، يا جيمي!

يقول بلو: سأتذكّره بدوري، فقد أعطيتني الكثير ممّا يجب التّفكير فيه.

يقول بلاك: ليباركك الله يا جيمي روز!

يقول بلو: وليباركك الله يا سيِّدي!

وعندئذٍ، وبمصافحة أخيرة ينصرفان في اتّجاهين متناقضين، وقد غرق كلّ منهما في أفكاره.

في وقت لاحق من تلك اللّيلة، وعندما يعود بلو إلى غرفته، يصل إلى أنّه من الأفضل له أن يدفن شخصيّة جيمي روز الآن، ويتخلّص منه للأبد. فقد حقّق المتشرِّد العجوز الغرض منه، ولكن وراء هذا المنعطف لن يكون من الحكمة الاستمرار.

يشعر بلو بالسّرور لأنّه قام بهذا الاتّصال الأوّلي ببلاك، ولكن المواجهة لم تؤدِّ تماماً إلى الأثر المطلوب، وهو يشعر إجمالاً بأنّها قد هزّته. فعلى الرّغم من أنّ الحديث لم تكن له علاقة بالقضيّة، فإنّ بلو لا يستطيع مقاومة الشّعور بأنّ بلاك كان يشير إليها طوال الوقت متحدّثاً بالألغاز إذا جاز التّعبير، وكأنّه يحاول إبلاغ بلو بشيء من غير أن يجرؤ على قوله جهاراً. نعم، لقد كان بلاك أكثر من ودود، وكان أسلوبه في الحديث رقيقاً في مجمله، ولكن رغم ذلك فإنّ بلو لا يمكنه التخلّص من الفكرة القائلة بأنّ الرّجل كان يسعى وراءه منذ البداية،

وإذا كـان الأمر كـذلك فـإنّ بلاك أحـد المتآمـرين يقيناً، وإلاّ فـلأي سبب آخر واصل الحديث مع بلو على نحو ما فعل؟ بالتأكيد ليس من جـرّاء الشّعور بـالوحـدة. وبافـتراض أنّ بلاك شخصيّـة حقيقيّة فـإنّ الوحدة لا يمكن أن تكون قضيّة مثارة. وكلّ شيء في حياته حتّى هـذه اللّحظة كان جزءاً من خطّة وضعت مع سبق الإصرار ليظلّ وحيـداً، وسيكـون من العبث فهم استعداده للحـديث بـاعتبـاره جهـداً يبـذل للهرب من مخالب العـزلة، ليس في هـذا الوقت، ليس بعـد ما يـزيد على عام من تجنّب أي اتّصال بالبشر. وإذا كان بلاك قـد عقد العـزم أخيـراً على كسر روتينـه التنسُّكيّ، فلماذا يبدأ بـالحـديث مـع عجـوز ضائع عند ناصية أحد الشّوارع؟ لا. لقد كان بلاك يعرف أنّه يحادث بلو، وإذا كـان يعـرف فهـو يعلم، إذن، من هـو بلو. ويُحـدِّث بلو نفسه: لاشكّ في ذلك.

عنـدما يحـلّ وقت كتابـة تقريـره التـالي يضـطر بلو لمـواجهـة هـذه الورطة. فلم يحدث قطّ أن قال وايت أيّ شيء عن إجراء اتّصال مـع بلاك. لقد كان على بلو أن يـراقبه، لا أكـثر، ولا أقلّ، وهـو يتساءل الآن عمّا إذا لم يكن في حقيقة الأمر قد انتهـك قواعـد المهمّة المسنَـدة إليـه. وإذا أدرج المحاورة في التّقـرير فـإنّ وايت قد يعـترض عليها، ومن ناحية أخـرى فإنّـه إذا لم يأتِ عـلى ذكرهـا فيه، وإذا كـان بلاك يعمـل حقّاً مـع وايت، فإنّ وايت سيعـرف على الفـور أنّ بلو يكذب عليه. ويتأمّل بلو هذا الوضع طويلاً، ولكنّه رغـم هذا كلّه لا يقـترب من الوصول إلى حلّ. إنّه عالق بشكل أو بآخر، وهـو يعرف ذلـك. وفي النهاية يقرّر ترك الأمر، ولكن لا لشيء إلاّ لأنّه مايزال يعلّق أمـلاً

محدوداً على أن يكون قد أخطأ التّخمين، وأن لا يكون وايت وبلاك ضالعين في الأمر معاً. ولكن هذه الانطلاقة الأخيرة الصّغيرة إلى رحاب التّفاؤل لا تصل إلى شيء، فبعد ثلاثة أيّام من إرسال التّقرير المصحَّح يصل شيكه الأسبوعي عبر البريد، وداخل المغلّف ملاحظة جاء فيها: لماذا تكذب؟ وعندئذٍ يتوافر لبلو دليل يعلو على أيّ ظلّ من الشّك. ومنذ تلك اللّحظة وبلو يتعايش مع معرفته بأنّه يغرق.

في اللّيلة التّالية، يتبع بلاك إلى منهاتن في قطار الأنفاق، وقد ارتدى ملابسه المعتادة، ودون أن يشعر بأنّ عليه أن يُخفي شيئاً. ويترجّل بلاك من القطار في تايمز سكوير، ويتجوّل لبعض الوقت، تحت الأضواء الباهرة، وسط ضجيج حشود النّاس الّذين يمضون في هذا الطّريق أو ذاك. ويراقبه بلو وكأنّ حياته تتوقّف على ذلك، ولا يبعد عنه قطّ إلاّ بثلاث خطوات أو أربع. وفي السّاعة التّاسعة يدخل بلاك بهو فندق الجونكوين، ويحذو بلو حذوه، هناك حشد من النّاس يعجّ بهم البهو، والموائد نادرة، ولذا فإنّه عندما يجلس بلاك في ركن منعزل خلا من شاغليه في تلك اللّحظة عينها، يبدو من الطبيعيّ تماماً بالنّسبة لبلو أن يقترب ويسأل في تهذيب عمّا إذا كان بمقدوره الانضمام إليه. ولا يُبدي بلاك اعتراضاً ويومئ بلا اكتراث بهزّة من كتفيه لبلو أن يجلس على المقعد أمامه. ولعدّة لحظات لا يقول أحدهما للآخر شيئاً، في انتظار قدوم من يسجّل ما يأمران به من طلبات، وفي غضون ذلك يرقبان النّسوة اللاتي يمضين قربهما في أزيائهنّ الصيفيّة، ويشتمّان العطور المختلفة التي تظلّ رائحتها عالقة في الهواء بعدهنّ. ولا يشعر بلو بما يدفعه إلى تعجّل الأمور، فيكتفي بإزجاء وقته، ويدع الأمر

يجري في أعنته. وعندما يأتي النّادل أخيراً للسُّؤال عمّا يطلبانه يطلب بلاك مشروب «بلاك أنـد وايت» ولا يملك بلو إلاّ أن ينـظر إلى هـذا باعتباره رسالة سرّيّة مفادها أنّ الجزء الطّريف يوشك أن يبدأ، مندهشاً في غضون ذلك إزاء صفاقة بلاك وصَلَفه والاستحواذ السُّوقي الّذي يهيمن عليه. وتحقيقاً للتساوق يطلب بلو المشروب نفسه، وفيما هو يقوم بذلك يحدّق في عينَيْ بلاك، ولكنّ هذا الأخير لا يشيح بعيداً، وإنّما ينظر إلى بلو نظرة لا تعبّر إلاّ عن الخواء المطلق، بعينين ميتتين يبدو أنّهما تقولان أنّ لا شيء وراءهما، وأنّه أيّاً كان مدى قوّة تحديق بلو فإنّه لن يجد فيهما شيئاً.

غير أنّ هذا الرهان يذيب الجليد، وهما يبدآن في مناقشة مزايا الأنواع المختلفة من الويسكي. وعلى نحو محتمل تماماً يُفضي شيء إلى الآخر. وفيما هما يجلسان هنالك يتجاذبان أطراف الحديث حول ألوان الإزعاج التي يتسبّب فيها فصل الصّيف في نيويورك، وديكور الفندق، وهنود الجونكوين الّذين كانوا يقيمون في المدينة قبل وقت طويل عندما كانت بأسرها غابات وحقولاً، يتحوّل بلو على مهل إلى الشّخصيّة التي يريد أن يتقمّصها اللّيلة، مستقرّاً على شخصيّة متبجّح شاب يدعى «سنو»، بائع وثائق التّأمين على الحياة، من كينو شابويسكونسن. ويحدّث بلو نفسه بأنّ عليه أن يتباله، لأنّه يعلم أنّه ليس ممّا يُجدي أن يكشف عن هويته، على الرّغم من أنّه يعرف أنّ بلاكَ يعلم. ويقول يتعيّن أن تكون لعبة بحث واختفاء، لعبة بحث واختفاء حتّى النهاية.

ينهيان مشروبهما الأوّل، ويطلبان مشروباً جديداً، يتبعه ثالث،

وفيما الحديث يمضي على مهل من وثائق التّأمين إلى طول أعمار الرّجال في مختلف المهن، يسقط بلاك ملاحظة تحوّل الحوار في اتجاه آخر.

يقول: أحسب أنّني لن أتصدّر جدول أعمالك.

يقول بلو دون أن يدري ما يتوقّعه: آه؟ ما هو العمل الّذي تقوم به؟

إنّني تحرٍّ خاص. يقولها بلاك بوضوح وببرود متمالكاً أعصابه، وللحظة قصيرة يشعر بلو بما يغريه بأن يُلقي بمشروبه في وجه بلاك، وقد تفجّر غيظاً وغضباً إزاء وقاحة الرّجل.

يهتف بلو، متمالكاً أعصابه، وموفَّقاً في ادّعاء الدّهشة التي يمكن أن تسيطر على ريفي ساذج: تحرٍّ خاص! تصوّر ذلك! بلحمه ودمه! فكّر فقط فيما ستقوله الزّوجة عندما تبلّغها بذلك! أنا في نيويورك أشرب مع تحرٍّ خاص. لن تصدّق ذلك أبداً.

يقول بلاك على نحو مفاجئ: ما أحاول قوله هو أنّني لا أتصوّر أنّ العمر سيمتدّ بي طويلاً، على الأقلّ ليس وفقاً لإحصائيّاتك.

يقول بلو صاخباً في القول: ربّما ليس كذلك، ولكن فكّر في الانفعال الّذي يحيط بالأمر. هناك في الحياة ما يزيد على العيش لمدّة طويلة. ونصف رجال أمريكا على استعداد للتضحية بعشر سنوات من راتبهم التقاعدي ليتاح لهم الحياة على غرار ما تفعل، تَحُلّ غوامض القضايا، وتعيش من وحي ذكائك، وتُغوي النّساء، وتطيح بالأشرار - ياإلهي - هناك الكثير ممّا يقال في هذا الشأن.

يقول بلاك: هذا كلّه وهم، فعمل التحرّي الحقيقي يمكن أن يكون كئيباً للغاية.

يواصل بلو حديثه: طيّب، لكّل عمل روتينه، ولكن في حالتك على الأقلّ فإنّك تعرف أنّ كلّ العمل الشّاق يمكن أن يفضي إلى شيء غير عادي.

في بعض الأحيان نعم، وفي بعض الأحيان لا. ولكن في معظم الوقت لا. خذ القضيّة التي أعمل عليها الآن، لقد عملت فيها لمدّة تتجاوز العام بالفعل، وما من شيء يمكن أن يكون أكثر إثارة للضّجر. ويستبدّ بي الضّجر للغاية في بعض الأحيان إلى حدّ أنّني أفقد عقلي.

كيف ذلك؟

طيّب، خمّن ذلك بنفسك. عملي أن أراقب أحدهم، ليس شخصاً بارزاً على وجه الخصوص كما يمكنني القول، وأرسل تقريراً عنه كلّ أسبوع. هذا كلّ ما هنالك. راقب هذا الرّجل واكتب عن ذلك. لا مطلب آخر إضافة إلى ذلك.

ما هو الفظيع في ذلك؟

إنّه لا يقوم بأيّ شيء، تلك هي المشكلة. إنّه يجلس في غرفته طوال النهار، ويكتب، وذلك يكفي لدفع المرء للجنون.

ربّما كان يستدرجك، يقودك إلى أن تنام ملْ جفنيك قبل أن يثب إلى العمل.

ذلك هو ما حسبته، ولكنّني الآن على يقين من أنّ شيئاً لن يحدث، أبداً. إنّني أشعر بذلك كما أحسّ بنبضي.

يقول بلو متعاطفاً: ذلك، أمر سيّئ للغاية، ربّما كان يجب عليك التخلّي عن القضيّة.

إنّني أفكّـر في ذلك، كـما أفكّر أيضـاً في أنّني ربّمـا ينبغي أن أتـرك المهنـة بأسرهـا، وأعمل بشيء آخـر، تخصّص مهني آخـر، ربّمـا بيـع وثائق التّأمين، أو أمضي للالتحاق بالعمل في سيرك.

يقول بلو، وهو يهزّ رأسه: لم أدرك قطّ أنّ المسـألة يمكن أن تصـل إلى هـذا الحدّ من السّـوء. ولكن خبّرني لمـاذا لا تراقب رجلك الآن؟ ألا ينبغي أن تواصل رصده؟

يردّ بلاك: ذلك هو جوهر الأمر، فلم يعد عليَّ أن أكترث بـالأمر. فقد راقبته وقتاً طويلاً، بحيث أنّني أعرفه خيراً ممّا أعرف نفسي، وكلّ ما يتعينّ عليَّ القيام به هو التّفكير فيه لأعـرف ما يعكف عليـه، وأين هو، إنّني أعرف كلّ شيء. ووصل الأمر إلى حدّ أنّني أستطيع مراقبته مغمضاً عينيّ.

أتعرف أين هو الآن؟

في البيت، عـلى حالـه كالمعتـاد، جالسـاً في غرفتـه، وعاكفـاً عـلى الكتابة.

وعـمّ يكتب؟

لست واثقـاً. ولكن لديَّ فكـرة جيّدة إلى حـدّ بعيد، أعتقـد أنّـه يكتب عن نفسه، قصّة حياته، هذه هي الإجابـة الوحيـدة المحتملة، وما من شيء آخر يمكن أن يكون مناسباً.

ولِمَ كلّ هذا الغموض إذن؟

لا أدري. يقولها بلاك، وللمرّة الأولى يخونه صـوته، فيشي ببعض الانفعال الّذي يلوّن كلماته.

يقول بلو، ناسياً كلّ شيء عن سنو الآن، ومتطلّعاً إلى عينَيْ بلاك مباشرة: كلّ شيء يتبلور إذن في سؤال واحد. أليس كذلك؟ هل يعرف أنّك تراقبه أم لا؟

يشيح بلاك بوجهه بعيداً، عاجزاً عن النّظر إلى بلو أكثر من هذا، ويقول بصوت مرتجف فجأة: إنّه يعرف بالطّبع. ذلك هو جوهر الأمر. أليس كذلك؟ لا بدّ أنّه يعرف، وإلاّ فلا معنى لشيء.

لِمَ؟

يقول بلاك، وهو مايزال ينظر إلى البعيد: لأنّه يحتاج إليّ، يحتاج إلى عيني وهي ترمقه، يحتاج إليّ ليبرهن أنه على قيد الحياة.

يرى بلو دمعة تتحدّر على خدّ بلاك، ولكنّه قبل أن يتمكّن من قول أيّ شيء، قبل أن يستطيع البدء بالضغط تحقيقاً لمآربه، ينهض بلاك مسرعاً، ويلتمس المعذرة، قائلاً إنّه يتعيّن عليه القيام بمخابرة هاتفيّة، وينتظر بلو جالساً في مقعده لمدّة عشر دقائق فخمس عشرة، ولكنّه يعرف أنّه يضيع وقته، فبلاك لن يعود، والحوار انتهى، ومهما طال جلوسه هناك فما من شيء آخر سيقع اللّيلة.

يدفع بلو ثمن المشروبات، ثمّ يتجه عائداً إلى بروكلين، وفيما هو ينعطف في شارع أورينج يُلقي نظرة على نافذة بلاك، ويرى أنّ الظلام يعمّ كلّ شيء. ويقول بلو: لا يهمّ، لسوف يعود قبل أن يمرّ وقت طويل، فنحن لم نصل إلى النهاية بعد، والحفل مايزال في بدايته فحسب، انتظر إلى أن تتدفّق الشمبانيا، ولسوف نرى عندئذٍ ما يحدث.

ما إن يدخل بلو غرفته حتّى يذرعها جيئة وذهاباً، محاولاً التّخطيط لخطوته التّالية. ويبدو له أنّ بلاك قد ارتكب غلطة، في نهاية المطاف، ولكنّه ليس على تمام اليقين من ذلك. ذلك أنّه على الرّغم من الدّليل القائم فإنّ بلو لا يستطيع التملّص من الشّعور بأنّ ذلك تمّ القيام به عمداً، وأنّ بلاك بدأ الآن بمناداته، ماضياً به إلى الأمام، إذا صحّ التّعبير، ودافعاً إيّاه نحو النهاية التي يخطّط لها.

ومع ذلك فإنّه قد اجتاز شيئاً، وللمرّة الأولى منذ بدء القضيّة لم يعد واقفاً حيث كان. وعلى النحو المعتاد فإنّ بلو سيحتفل بهذا الانتصار الصغير الّذي أحرزه، ولكن يتّضح أنّه ليس في حالة مزاجية تسمح له بتهنئة نفسه اللّيلة. وأكثر من أيّ شيء آخر يساوره الشّعور بالحزن وباستنزاف الحماس، ويحسّ بخيبة الأمل في العالم. فعلى نحوٍ ما ها هي الحقائق تخذله في نهاية المطاف، ويجد من الصّعب ألّا يحمل ذلك على محمل شخصيّ، إذ يعلم حقّ العلم أنه أيّاً كان الشّكل الّذي يقدّم به القضيّة لنفسه فإنّه جزء منها أيضاً، ثمّ يمضي إلى النافذة ويتطلّع عبر الشّارع ويرى أنّ الأنوار مضاءة الآن في غرفة بلاك.

يرقد في فراشه ويحدّث نفسه: وداعاً، ياسيّد وايت! إنّك لم تكن موجوداً حقّاً. أليس كذلك؟ لم يحدث أن كان هناك قطّ شخص اسمه وايت. ثمّ يا لبلاك المسكين! يا للبائس! والبائسون لا يُبهجون أحداً. ثمّ عندما يثقل جفناه ويبدأ النعاس بالسّيطرة عليه يفكّر في أنّه من الغريب أن يكون لكلّ شيء لونه الخاص، فلكلّ شيء نراه، لكلّ شيء نلمسه، لكلّ شيء في العالم لونه الخاص. ويكافح لإبعاد النعاس وقتاً أطول، ويبدأ باعداد قائمة، ويقول لنفسه خذ اللّون

الأزرق، على سبيل المثال ، هناك عصافير زرقاء، وطيور زرياب زرقاء، وطيور بلشون زرقاء، وهناك نباتات القنطريون العنبريَّة، ونباتات العنقريَّة، والمحيط الهادي، هناك شياطين زرقاء، وشرائط زرقاء، ودماء زرقاء، هناك صوت يغنّي أغنيات البلوز المرتبطة بالشجن والزرقة، وهناك زيّ رجال الشّرطة الرسميّ الخاصّ بأبي، هناك قوانين زرقاء وأفلام زرقاء. هناك عيناي واسمي. ويتوقّف وقد أعوزته فجأة الأشياء الزرقاء، ثمّ ينتقل إلى الأبيض. ويقول: هناك نوارس، وخرشنة، ولقالق، وطيور كوكاتة. هناك جدران هذه الغرفة وملاءات سريري. هناك سوسنات الوادي، وزهور القرنفل، وبتلات زهور اللؤلؤية، هناك راية السلام، ورموز الحداد الصينيَّة، هناك لبن المراضع، والمنيّ، هناك أسناني، والنمال البيضاء، هناك البيت الأبيض، والغصن الأبيض، وهناك الأكاذيب البيضاء، والحرارة البيضاء، ومن غير تردُّد ينتقل إلى اللّون الأسود، بادئاً بالكتب السوداء والسّوق السوداء واليد السوداء، ويقول هناك ليل يخيّم على نيويورك، وهناك شيكاجو بلاك سوكس، هناك العلّيق الأسود والغربان وانقطاعات الكهرباء والعلامات السوداء والثلاثاء الأسود والموت الأسود. هناك الابتزاز. هناك شعري، هناك الحبر الّذي ينساب من القلم، هناك العالم الّذي يراه الرّجل الضرير، وإذ يداخله السّأم من هذه اللّعبة فإنّه يبدأ بالشرود قائلاً لنفسه إنّه لانهاية للأمر، ويدلف إلى رحاب النوم، ويحلم بأشياء حدثت منذ وقت طويل، ثمّ يستيقظ فجأة في قلب اللّيل ويذرع الغرفة من جديد، مفكِّراً في ما سيفعله عقب ذلك.

يقبل الصباح، ويبدأ بلو بإشغال نفسه بتنكّر آخر. وفي هذه المرّة يتنكّر في هيئة بائع الفراشي من طراز فوللر، وهي حيلة استخدمها من قبل، وخلال السّاعتين التاليتين ينهمك صابراً في اصطناع هيئة رجل أصلع له شارب وتمتدّ التّجاعيد التي حفرها الزمن حول عينيه وفمه، جالساً أمام مرآته الصغيرة وكأنّه أحد ممثّلي المسرح الهزلي المخضرمين. وبعد الحادية عشرة بقليل يجمع حقيبته المليئة بالفراشي، ويمضي عبر الشّارع إلى المبنى الذي يقطنه بلاك. ولم تكن معالجة قفل الباب الأمامي إلا لَهْوَ لاهٍ بالنّسبة إلى بلو، ولا تستغرق إلاّ ثواني. وفيما هو ينسلّ إلى الدهليز لا يستطيع منع نفسه من الشّعور بالاستثارة التي طالما عرفها من قبل، ويذكّر نفسه وهو يبدأ بصعود الدّرج إلى الطّابق الذي يسكنه بلاك: لم يكن القفل من النّوع الصّعب. لا تستهدف الزيارة إلاّ إلقاء نظرة على الداخل وتفقّد الغرفة للتعرّف مستقبلاً. ورغم ذلك فإن هناك انفعالاً في هذه اللّحظة لا يستطيع بلو كبح جماحه، ذلك أنّه يعرف أنّ الأمر يتجاوز مجرّد رؤية الغرفة، إنّه يتمثّل في فكرة كونه هناك بنفسه ووقوفه داخل تلك الجدران الأربعة، واستنشاق الهواء الذي يتنفّسه بلاك، ويحدّث نفسه بأنّه من الآن فصاعداً سيؤثّر كلّ شيء يحدث في كلّ شيء آخر. لسوف يفتح الباب، وبعد ذلك سيكون بلاك في أعماقه إلى الأبد.

يطرق الباب، فيفتح، وفجأة لا تعود هناك مسافة، فالشيء وفكرة الشيء هما أمر واحد. إذن، فبلاك هو الماثل هناك واقفاً بالباب وقد أمسك بيده اليمنى قلم حبر لم يُعَدْ إليه غطاؤه، وكأنّما قوطع في عمله، ومع ذلك ففي عينيه نظرة توحي لبلو بأنّه كان بانتظاره، مستسلماً للحقيقة القاسية، ولكن من غير أن يبدو عليه الاكتراث.

ينطلق بلو في ثرثرته عن الفراشي، مشيراً إلى الحقيبة، ملتمساً الأعذار، وطالباً السّماح له بالدخول، كلّ ذلك في نَفَس واحد، وبذلك الصوت العالي الذي يميّز البائعين والذي قلّده آلاف المرّات. ويسمح له بلاك في هدوء بالدخول، قائلاً إنّه قد يكون مهتمّاً بشراء فرشاة أسنان، وفيما بلو يجتاز العتبة يمضي في الثرثرة عن فراشي الشّعر والملابس، وأي شيء يمكن أن يحافظ على استمراريّة الحديث، لأنّه بهذه الطريقة يمكن أن يترك باقي نفسه حرّاً لرصد الغرفة وملاحظة ما يمكن ملاحظته والتّفكير وتحويل انتباه بلاك في غضون هذا كلّه عن غرضه الحقيقيّ.

تبدو الغرفة، إلى حدٍّ كبير، على نحو ما تخيّلها، وإن كانت أكثر تقشّفاً. فعلى سبيل المثال لا شيء على الجدران، الأمر الذي يدهشه قليلاً، لأنّه قد ظنّ على الدّوام أنّه ستكون هناك صورة أو صورتان، لمجرَّد تجنّب الملل، ربّما منظر طبيعي، أو لوحة تصوّر امرأة قد يكون أحبّها بلاك يوماً. وقد كان بلو يشعر بفضول يدفعه إلى معرفة طبيعة اللّوحة، اعتقاداً منه بأنّها قد تكون مفتاحاً للأسرار له أهميّته في التّحقيق، ولكنّه إذ يرى الآن أنّه ليست هناك، أيّة لوحة فإنّه يدرك أنّ ذلك هو ما كان ينبغي أن يتوقّعه طوال الوقت. وبخلاف ذلك فإنّه ليس هناك إلاّ القليل ممّا يناقض مفاهيمه السّابقة. إنّه مُختلى الرّاهب الذي يرتسم في ذهنه على الدّوام، ففي أحد الأركان فراش تمّ ترتيبه بدقّة وانتظام، وفي ركن آخر مطبخ صغير، والنظافة تعمّ كلّ شيء، بلا أدنى شائبة، ثمَّ في وسط الغرفة، في مواجهة النافذة هناك، المائدة الخشبيَّة مع مقعد خشبيّ واحد صلب الظهر وأقلام حبر

ورصاص وآلة ناسخة، ومرآة بحاملها ومنضدة إلى جوار الفراش ومصباح، ورفّ كتب على الجدار الشمالي، ولكنّه لا يحتوي على كثير من الكتب: «والدن» و«أوراق العشب» و«حكايات رُوِيت مرَّتين» وكتب قليلة أخرى.الا هاتف، لا راديو، لا مجلاَّت. وعلى المائدة أكوام من الورق كُدِّست بشكل مرتّب عند حوافها، بعضها لم يكتب عليه شيء، والبعض على العكس من ذلك، بعضها نسخ باستخدام الآلة الناسخة، والبعض مكتوب بخط يد مستطيل الحروف. مئات الصَّفحات وربّما الآلاف. ويحدِّث بلو نفسه قائلاً: لكنّك لا تستطيع أن تسمّي ذلك حياة، ليس بمقدورك حقّاً أن تسمِّيه أيّ شي.تلك ليست أرض أحد، إنَّها الموضع الذي تبلغه في نهاية العالم.

يتفقّدان فراشي الأسنان، ويختار بلاك في النهاية فرشاة حمراء، وانطلاقاً منها يشرعان في فحص فراشي الملابس المختلفة، مع قيام بلو بإيضاح كيفيَّة استعمالها لتنظيف بدلته. ويقول بلو: بالنّسبة إلى رجل مهندم مثلك أعتقد أنَّك ستجدها ممّا لا سبيل إلى الاستغناء عنه، ولكن بلاك يقول إنَّه تدبّر أموره حتى الآن من غيرها، إلاَّ أنَّه من ناحية أخرى يودّ التَّفكير في شراء فرشاة للشعر، وهكذا يمضيان لبحث ما هو متاح منها في صندوق العيِّنات، ويناقشان الأحجام، والأشكال المختلفة، والأنواع المختلفة من شعر الفرشاة، وما إلى ذلك. ويفرغ بلو بالفعل من مهمّته الحقيقيَّة، ولكنّه يمضي في تحرّكات البائع رغم ذلك، راغباً في القيام بما يناسب المقام رغم أنّه لا أهمية له. ورغم ذلك، وبعد أن يدفع بلاك ثمن ما اشتراه ويأخذ بلو بحزم صندوقه

استعداداً للانصراف، فإنَّه لا يستطيع مقاومة الإشارة إلى المائدة، ويقول بلاك نعم، ذلك صحيح، إنَّه كاتب.

يواصل بلو حديثه: يبدو أنَّه كتاب ضخم.

يقول بلاك: نعم، لقد عكفت على تأليفه سنوات طويلة.

هل أوشكت على الفراغ منه؟

يقول بلاك ممعناً التَّفكير في الأمر: إنَّني بسبيلي إلى ذلك، ولكن في بعض الأحيان يصعب عليك أن تعرف موطئ قدميك. أحسب أنَّني أوشكت على الفراغ منه، ثمَّ أُدرك أنَّني قد أهملت شيئاً مهمّاً، ولذا أضطر إلى العودة إلى البداية من جديد. ولكن نعم، إنِّني أحلم بالفعل بالفراغ منه ذات يوم، وربّما قريباً.

يقول بلو: آمل أن تتاح لي الفرصة لقراءته.

يقول بلاك: كلّ شيء ممكن، ولكن يتعينّ عليَّ أوّلاً الفراغ منه، فهناك أيّام لا أدري فيها ما إذا كنت سأعيش ما يكفي للانتهاء من إنجازه.

يقول بلو في إيماءة تأمُّل فلسفي: طيّب، إنّنا لا نعرف جليّة الأمر أبداً، فيوماً نحن على قيد الحياة، وفي اليوم التالي نغادرها، وذلك يحدث لنا جميعاً.

يقول بلاك: صحيح تماماً، إنَّه يحدث لنا جميعاً.

ها هما يقفان الآن إلى جوار الباب. ويودّ شيء في أعماق بلو المضيَّ في الإدلاء بملاحظات من هذا النّوع، وهو يدرك أنَّ لعب دور الرّجل السّاذج أمر ممتع، ولكن هناك، في الوقت نفسه، ما يدفعه إلى العبث

ببلاك، وإلى أن يثبت أنَّه ما من شيء يفوته، ففي أعماقه يرغب في أن يعرف بلاك أنَّه يماثله في الذكاء، وأنَّه يمكنه أن يضارعه في البراعة والحذق مع كلّ خطوة يخطوانها على الطّريق، ولكنّه يُفلح في كبح جماح هذا الميل وأن يمسك عليه لسانه، مُعرباً بإيماءة عن شكره لما اشتراه بلاك، ثمَّ يغادر المكان. وتلك هي نهاية بائع الفراشي من طراز فوللر، وبعد أقلّ من ساعة يعاد إلى الحقيبة التي تضم ما بقي من جيمي روز. ويعرف بلو أنَّ الحاجة لن تدعو إلى المزيد من عمليّات التنكّر، فالخطوة التّالية حتميَّة، والأمر المهم الآن هو اختيار اللَّحظة المناسبة.

ولكن بعد ثلاث ليال، وعندما تتاح لبلو أخيراً فرصته فإنّه يدرك أنَّ الخوف يستبدّ به، فبلاك يخرج في السَّاعة التَّاسعة، ويمضي في الشَّارع، ويختفي وراء المنعطف. وعلى الرّغم من أنَّ بلو يعرف أنَّ تلك إشارة مباشرة، وأنَّ بلاك على الصَّعيد العملي يستجديه أن يتحرّك، فإنّه يشعر كذلك بأنَّ الأمر قد يكون شرَكاً، والآن في اللّحظة الأخيرة الممكنة وقبيل امتلائه بالثِّقة بالنّفس، وإذ يوشك أن يترنّح لفرط شعوره بقوّته، فإنّه يغوص إلى قرار جديد قوامه العذاب، النابع من الشكّ في نفسه. لِمَ يتعينّ عليه أن يبدأ فجأة بالشّعور بالثِّقة ببلاك؟ وأيّ سبب على وجه الأرض يدعوه إلى الاعتقاد بأنَّهما يعملان في جانب واحد الآن؟ كيف حدث ذلك ولماذا يجد نفسه تحت أمر بلاك بهذا القدر من الخنوع مجدّداً؟ ثمَّ يشرع في بحث احتمال آخر خَطَر على باله قادماً من قلب المجهول. ماذا لو رحل؟ ماذا لو انبعث واقفاً ومضى إلى الباب وخرج من المسألة

برمّتها؟ يتأمّل هـذه الفكرة للحـظة، ويعجم عودهـا في ذهنه، وشيئـاً فشيئاً يبدأ بالارتجاف، وقد قهره الرعب والسّعادة، كـأنّه عبـد يواجـه رؤيا حرِّيَّته، ويتخيَّل نفسـه في مكان آخـر بعيد عن هنـا، يضرب في الغابات كيفما طاب له، حامـلاً بلطة على كـاهله. إنّه وحيـد، وحرّ، وسيِّد نفسه من جديد، ولسوف يبني حياته بدءاً من القـاع فصاعـداً، منفيّاً، رائداً، متنسِّكاً في العالم الجديد، ولكنّه يتوقّف عند هذا الحدّ، ذلك أنّه ما إن يبدأ بالسَّير عبر هذه الغـابات التي لا يحـدّها شيء حتى يساوره الشّعور بأنّ بلاك هنالك بدوره، مختفياً وراء إحدى الأشجار، يسير من غير أن تراه العيون وسط أجمة، بانتظار أن يرقد بلو ويغمض عينيه، لكي ينسلّ إليـه، ويقطع عنقـه. ويحدّث بلو نفسَـه بأنّ ذلـك يستمـرّ بلا انتهـاء، وإذا لم يحسم الآن أمره مـع بـلاك فـإنّ الأمـر لن تكون له نهاية. هذا هو ما كان القدماء يَدْعونه القدر، وعلى كلّ بطل أن يذعن له، فلا خيار هنالك، وإذا كان هناك شيء يمكن القيام به، فإنّه الشيء الوحيد الّذي لا يدع مجالاً للخيار ولكنّ بلو يمقت الإقـرار بذلك، وهو يقاومه بضراوة ويأباه، ويحسّ بالضّيق في أعـماقه إلى حـدّ الغثيان، ولكنّ ذلك لا يـرجع إلاّ إلى أنّـه يعرف بـالفعل، ومقـاومته تعني قبوله، والرغبة في قولِ لا تعني أنّك قلت بـالفعل نعم، وهكـذا يدور بلو تدريجيّاً حول نفسـه، ويستسلم أخيراً لضرورة الشيء الّـذي يتعينّ القيام بـه. ولكنّ ذلك لا يعني القـول بأنّـه لا يشعر بـالخوف، فمنذ هذه اللّحظة هناك كلمة واحدة فقط تعبّر عن بلو، هذه الكلمـة هي الخوف.

إنّـه يُهْدِر وقتـاً ثميناً، والآن يتعـينّ عليـه أن ينـدفـع خـارجـاً إلى

الشّارع، آملاً على نحو محموم ألاّ يكون الأوان قد فات. فبلاك لن يغيب طويلاً ومن عساه يدري ما إذا لم يكن جاثماً عند منعطف الطّريق بانتظار اللّحظة المناسبة للانقضاض؟ ويندفع بلو مرتقياً درج المبنى الّذي يقطنه بلاك، ويتعثّر مرتبكاً فيما هو يثقب قفل الباب الأمامي، مواصلاً النّظر على عجل وراءه، ثمّ يصعد إلى الطّابق الّذي يسكنه بلاك، ويواجهه القفل الثاني بمتاعب تفوق مشكلات الأوّل، على الرّغم من أنّه ينبغي نظريّاً أن يكون أقلّ تعقيداً، وبمثابة مهمّة يسيرة حتّى لأكثر المبتدئين فجاجة، ويكشف هذا الارتباك لبلو عن فقدانه السيطرة، تاركاً للأمر أن يسيّطر على أعصابه، ولكن حتّى على الرّغم من أنّه يعلم ذلك فليس هناك ما يمكنه القيام به إلاّ الاستمرار في تعليق الأمل على أنّ يديه ستكفّان عن الارتجاف. ولكنّ الأمر يمضي من سيّئ إلى أسوأ، وفي اللّحظة التي تطأ خلالها قدماه غرفة بلاك يساوره الشّعور بأنّ كلّ شيء يلفّه الظّلام في أعماقه، وكأنّما اللّيل يتغلغل عبر مسامه، جاثماً عليه بثقل هائل، وفي الوقت نفسه يبدو رأسه وكأنّه يكبر إذ يمتلئ بالهواء، وكأنّما يوشك على أن ينتزع نفسه من جسمه وينساب بعيداً في الهواء. يخطو خطوة أخرى إلى الأمام، ثمّ يفقد وعيه منهاراً إلى الأرضيّة وكأنّما فارقته الحياة.

تتوقّف ساعته مع السّقوط، وإذ يفيق فإنّه لا يدري طول الوقت الّذي بقيه في هذه الإغماءة، ويستعيد وعيه في البداية على نحو متهافت، مع شعور بأنّه كان هناك من قبل، ربّما منذ وقت طويل. وفيما هو يرى الستائر تهتزّ قرب النافذة المفتوحة، والظّلال تتحرّك بصورة غريبة على السّقف، يحسب أنّه راقد في فراشه في البيت، أثناء

عهد الصبا، عاجزاً عن النّوم خلال ليالي الصّيف الحارّة، ويتصوّر أنّه إذا أصاخ السّمع فسيكون بمقدوره سماع صوتيْ أبيه وأمّه، وهما يتجاذبان أطراف الحديث بهدوء، في الغرفة المجاورة. ولكنّ ذلك لا يدوم إلّا لحظة واحدة، ويبدأ بالشّعور بالألم في رأسه، ويسجّل الغثيان المثير للقلق في معدته، وإذ يدرك في نهاية المطاف مكانه، ينتابه من جديد الذعر الّذي سيطر عليه لحظة دخوله الغرفة، وينهض مهتزّاً ويتعثّر مرّة أو مرّتين في غمار ذلك، ويحدّث نفسه بأنّه ليس بمقدوره البقاء هنا، وأنّه ينبغي أن يخرج. نعم. وفي الحال يتشبّث بمقبض الباب، ولكنّه يتذكّر عندئذٍ فجأة السّبب في قدومه في المقام الأوّل، ويخرج المشعل الكهربائي من جيبه، ويضيئه محرّكاً إيّاه على نحو متقافز في أرجاء الغرفة، إلى أن يسقط الضوء بالمصادفة على رزمة من الأوراق مكدّسة بنظام على حافّة مكتب بلاك. ودون أن يفكّر مرّتين في الأمر يجمع الأوراق بيده الخالية، قائلاً لنفسه إنّه لا أهمّية للعواقب، وأنّ تلك ستكون البداية، ثمّ يشقّ طريقه إلى الباب.

يصبّ بلو لنفسه لدى عودته إلى غرفته عبر الطّريق، قدحاً من البراندي، ويجلس على فراشه، ويحدّث نفسه بأنّ عليه الالتزام بالهدوء، ويحتسي البراندي رشفة فأخرى، ثمّ يصبّ قدحاً آخر. وفيما إحساسه بالذّعر ينحسر، يجلّله شعور بالعار، ويحدّث نفسه بأنّه تعامل مع الأمر بطريقة خرقاء، وأنّ ذلك هو كبد الحقيقة. وللمرّة الأولى في حياته لم يكن على مستوى اللّحظة التي يجابهها، ويجيء ذلك بمثابة صدمة له، أن ينظر إلى نفسه باعتباره فاشلاً، وأن يدرك أنّه في أعماقه جبان.

يلتقط الأوراق التي سرقها، آملاً في أن تنـتزعه من هـذه الأفكار، ولكنّ ذلـك لا يؤدّي إلاّ إلى مفاقمـة المشكلة، ذلك أنـه مـا إن يبـدأ بقـراءة هذه الأوراق حتّى يـرى أنّها لا تعدو أن تكـون التّقـاريـر التي بعث بها إلى وايت. ها هي ذي البيانات الأسبـوعيّة بيـاناً وراء بيـان، سواداً على بياض، وقد تجرّدت من المعنى، ولم تجرِ قولاً، وبدت بعيدة عن حقيقة القضيّة بُعْدَ الصّمت عنها. ويئنّ بلو، عندما يراها غارقاً في أعـماق نفسه، ثمّ يـأخذ بـالضّحك في مـواجهـة مـا يجـده هنـاك، ضحكاً خافتاً في البداية ولكنّه يعلو أكثر فأكثر ويزداد قوّة إلى أن يلهث وهو يلتقط أنفاسه، حتّى ليوشك أن يختنق، وكأنّه يحاول القضـاء على نفسـه نهائياً. ويمسـك الأوراق بقـوّة، ويلقي بهـا عـاليـاً إلى السّقف، ويرقب الرزمة وهي تتفرّق وتتناثر وتتهاوى مرفرفة إلى الأرض، ورقـة بائسة إثر الأخرى.

ليس من المؤكّد ما إذا كـان سيُقدَّر لبلو حقّـاً أن يفيق، ذات يوم، من أثـر أحداث تلك اللّيلة، وحتّى إذا حـدث له ذلـك، فلا بـدَّ من ملاحظة أنّ أيّاماً كثيرة تنقضي قبل أن يعود إلى ما يشبه ذاته السّـابقة، وفي غضون ذلك فإنّه لا يحلق ذقنه، ولا يبدّل ملابسه، بـل ولا يفكّر في التحرّك قيد أنملة من غرفته. وعندما يحين موعد كتابته تقريرَه فإنّـه لا يكترث بذلك، ويقول راكلاً بقدمه أحد التقارير القديمة الملقاة على الأرض: انتهى الأمر، الآن، ولتحلّ بي اللّعنـة إن كتبت أحدهـا من جديد.

وطوال معظم الوقت فإنّه إمّا راقد في فراشه وإمّا ذارع الغرفة جيئة وذهاباً، متطلّعاً إلى الصُّور المختلفة التي ألصقها على الحـائط منذ بـدء

القضيّة، متمعّناً في كلّ منها على التوالي، ومفكّراً فيها بقدر ما يستطيع لينتقل منها إلى الصُّورة التي تليها. هناك جولد، الطّبيب المكلّف بمهام التشريح من فيلادلفيا مع قناع الصبيّ الصغير. وهناك جبل يكسوه الثلج وفي الركن الأعلى إلى اليمين من الصُّورة صورة مصغّرة للاعب التزلّج الفرنسي وقد بدا وجهه في مربّع صغير. وهناك جسر بروكلين، وإلى جانبه اثنان من عائلة رويبلنج، الأبّ والابن. وهناك والد بلو وقد ارتدى زيّه الرسمي الخاصّ برجال الشّرطة وراح يتلّقى أمراً من جيمي ووكر عمدة نيويورك. ومن جديد هناك والد بلو وهو يرتدي هذه المرّة الزّي المدني، وقد وقف محيطاً بذراعه خصر أم بلو في أيّام زواجهما الأولى، وقد راحا يبتسمان للكاميرا ابتسامة مشرقة. وهناك صورة لبراون يحيط فيها بلو بذراعه، وقد التقطت أمام مكتبهما في اليوم الّذي أصبح بلو خلاله شريكاً بالمكتب، وتحتها لقطة مليئة بالحركة لجاكي روبنسون وهو ينطلق إلى القاعدة الثانية، وإلى جوار تلك الصُّورة صورة لوالت ويتمان، وأخيراً إلى يسار الشّاعر مباشرة لقطة من فيلم لروبروت ميتشوم منتزعة من إحدى المجلاّت الموجّهة إلى القرّاء من جمهوره، وقد أمسك بمسدّس في يده وراح ينظر وكأنّ الدّنيا توشك على الانهيار. وليست هناك صورة لمن لم يقدّر لها أن تكون السيّدة بلو، ولكن في كلّ مرّة يقوم بلو بجولة في معرضه الصغير فإنّه يتوقّف أمام بقعة خاوية على الجدار، ويتظاهر بأنّ صورتها قائمة هناك بدورها.

على امتداد عدّة أيّام لا يكترث بلو بالنّظر إلى خارج النافذة. فقد أغرق نفسه تماماً في أفكاره بحيث يبدو بلاك وكأنّه غير موجود. إنّ

الدراما تخصّ بلو وحده، وإذا كان بلاك بأحد المعاني هو سبب هذه الدراما، فإنّ الأمر يبدو وكأنّ بلاك قد لعب دوره وألقى حواره وخرج من خشبة المسرح،ذلك أنّ بلو لا يستطيع، عند هذا المنعطف، قبول وجود بلاك، ومن هنا فإنّه ينكر هذا الوجود. وبعد أن انسلّ إلى غرفة بلاك ووقف هناك وحيداً بعد وجوده في حرم عزلة بلاك، إذا جاز هذا التّعبير، فإنّه لا يستطيع الاستجابة لظلام تلك اللّحظة إلاّ بإحلال عزلته محلّها.

فدخوله في بلاك معادل لدخوله في نفسه، وما إن يتسقرّ داخل نفسه حتّى لا يعود بمقدوره التّفكير في أن يكون في أيّ مكان آخر. ولكن هذا هو على وجه الدّقة مكان وجود بلاك، حتّى وإن كان بلو لا يعرف ذلك.

ومن هنا فإنّه ذات أصيل، وكأنّما بالمصادفة، يقترب بلو من النافذة أكثر ممّا فعل ذلك طوال عدّة أيّام، ويتصادف أن يقف أمامها، ثمّ، وكأنّما من أجل الأيّام الخوالي، يباعد بين أطراف الستائر ويتطلّع إلى الخارج، وأوّل ما يراه هو بلاك، لا داخل غرفته، وإنّما جالساً في رواق المبنى الّذي يقطنه عبر الشّارع، وهو يرمق نافذة بلو. ويتساءل بلو: هل انتهى أمره إذن؟ هل يعني هذا أنّ الموضوع قد انتهى؟

يستخرج بلو منظاره المكبّر من مؤخّرة الغرفة ويعود إلى النافذة، ويركّز بؤرته على بلاك، ويدرس ملامح الرّجل عدّة لحظات، مركّزاً أوّلاً على قَسَمة ثمّ على أخرى، على العينين والشفتين وغيرها، فاصلاً جزئيّات الوجه ثمّ مستجمعاً إيّاها. ويؤثّر في نفسه عمق حزن بلاك، والطّريقة التي تتطلّع بها العينان إليه تبدو محرومة من الأمل. ورغماً

عنـه، وإذ تمسك هـذه الصورة بتـلابيبه دونمـا وعي منه، فـإنّه يشعـر بـالإشفاق يتصـاعد من أعـماقه، انـدفـاعـة من الـرّحمـة حيـال ذلـك الشّخص المهجور عبر الشّارع. غير أنّه يتمنّى ألاّ يكون الأمر كذلك، ويودُّ لو أتيحت لـه الشّجاعـة لتذخـير مسدّسـه والتصويب عـلى بلاك وإطـلاق رصاصـة تخترق الرأس. ويحدث بلو نفسـه بأنّـه لن يعلم ما الّذي أصابـه أبداً، وسيصعـد إلى السّماء قبـل أن تمسّ جثته الأرض، ولكنّه ما إن يمثّل هذا المشهد التمثيلي في ذهنه حتّى يرتدّ محجماً عنه، ويحدّث نفسه بأنّه: لا، ليس هـذا هو مـا يرغب فيـه على الإطـلاق. وإذا لم يرغب في ذلك فماذا إذن؟ يقول لنفسه، وهو مايزال يقاوم دفق المشاعر الرقيقة، إنّه يرغب في أن يُترك وشأنه، وأنّ كلّ مـا يريـده هو السّلام والهدوء، ويتّضـح له تـدريجيّاً أنّـه يقف هناك لـدقائق طـويلة متسائلاً عمّا إذا لم تكن هناك طريقة يساعد بها بلاك، وعـمّا إذا لم يكن بمقدوره أن يمدّ يد الصداقة إليه. ويفكّر بلو في أنّ ذلك من شـأنه أن يقلب المائدة والأمـر كلّه رأساً عـلى عقب، ولكن لِمَ لا؟ لم لا يقوم بمـا ليس متوقّعاً؟ أن يطرق الباب، ويمحو القصّة بأسرها ـ ذلك ليس أقلّ عبثيّة من أيّ شيء آخر. ذلك أنّه في حقيقة الأمر انـتزعت كلّ رغبـة في القتال من بلو، ولم يعد يطيق ذلك، ووفقاً لكلّ المظاهر فـإنّ الأمر نفسه ينطبق على بلاك. ويقول بلو لنفسه: انـظر إليه، فحسب، إنّـه أكثر مخلوقات الدّنيا حزناً. وعندئذٍ وفي اللّحظة التي يقول خلالها هذه الكلمات يدرك أنّه يتحدّث عن نفسه أيضاً.

ومن هنا فإنّـه بعد أن يغـادر بلاك الـرواق ملتفتاً حـوله، وداخـلاً المبنى مجدّداً، يواصل بلو التّحديق في البقعة الخاويـة. وقبل سـاعة أو

ساعتين من الغسق، يبتعد عن النافذة ويرى الفوضى التي سمح للغرفة بأن تتدهور إلى هاويتها، ويمضي السّاعة التالية في إعادة الأمور إلى نصابها، فينطلق في غسل الأطباق، وترتيب الفراش، وتنحية الملابس المتّسخة، وإزالة التقارير القديمة عن الأرض، ثمّ يمضي إلى الحمّام فيستحمّ مطوّلاً، ويحلق ذقنه، ويرتدي ملابس نظيفة، متخيّراً أفضل حلّة زرقاء لديه لهذه المناسبة، فكلّ شيء مختلف بالنّسبة إليه الآن، مختلف على نحو مفاجئ، ولا رجعة فيه. لا مزيد من الخوف، لا مزيد من الرّعدة، لا شيء إلّا الثّقة الهادئة، شعور بمحالفة الصواب، في ما يوشك على القيام به.

وبعد مقدم اللّيل بوقت قصير، يهندم ربطة عنقه لمرّة أخيرة، أمام المرآة، ثمّ يغادر الغرفة، ماضياً إلى الخارج، عابراً الشّارع، وداخلاً المبنى الّذي يقطنه بلاك. وهو يعلم أنّ بلاك هناك، إذ إنّ مصباحاً صغيراً يتألّق في غرفته. وفيما هو يصعد الدّرج يحاول تصوّر التعبير الّذي سيرتسم على محيّا بلاك عندما يبلّغه بما في ذهنه. ويطرق الباب مرّتين بتهذيب بالغ، ثمّ يسمع صوت بلاك من الداخل: الباب مفتوح. تفضّل!

من العسير القول ما كان بلو يتوقّعه، على وجه الدّقة، ولكن على أيّة حال لم يكن هذا، لم يكن الشيء الّذي يواجهه في اللّحظة التي يدخل فيها الغرفة. بلاك هناك، يجلس في فراشه، وقد وضع القناع على وجهه، من جديد، القناع الّذي رآه بلو على وجه الرّجل في مكتب البريد، وقد أمسك بيده اليمنى مسدّساً من عيار ثمانية وثلاثين يكفي لتمزيق رجل إرباً من هذه المسافة القريبة، ولا يقول شيئاً، ويحدّث بلو نفسه: وداعاً لدفن الخلافات، وداعاً لقلب الموائد!

يقول بلاك، مشيراً بالمسدّس إلى الكرسي الخشبيّ أمام المكتب: اجلسْ على هذا المقعد، يا بلو!. ولا يجد بلو خياراً أمامه، وهكذا يجلس في مواجهة بلاك الآن، ولكن على مسافة أبعد من أن تسمح بانقضاضة مفاجئة عليه، وفي وضع أشدّ ارتباكاً من أن يفعل شيئاً في مواجهة المسدّس.

يقول بلاك: كنت بانتظارك، ويسعدني أنّك جئت في نهاية الأمر.

يردّ بلو: هذا ما خمّنته.

هل تشعر بالدّهشة؟

ليست دهشة حقيقيّة، على الأقلّ ليست إزاءك، وإنّما إزاء نفسي، ربّما، ولكن لأنّني غبيّ فحسب، فكما ترى جئت إلى هنا اللّيلة بروح الصّداقة.

يقول بلاك، بصوت ساخر قليلاً: ولكنّك جئت على هذا النحو، بالطّبع، فنحن صديقان، بالطّبع، لقد كنّا صديقين، منذ البداية. ألم نكن كذلك؟ أفضل الأصدقاء.

يقول بلو: إذا كانت تلك هي الطّريقة التي تعامل بها أصدقاءك، فمن حسن الحظّ، إذن، أنّني لست من أعدائك.

طريف جداً.

ذلك صحيح. إنّني الرّجل الطريف الأصلي. يمكنك التيقّن من أنّك ستضحك كثيراً بصحبتي.

والقناع، ألن تسألني عنه.

لست أدري سبباً لذلك. إذا كنت تريد وضع ذلك القناع على وجهك، فهذا شأنك.

ولكنّك مضطرّ للنّظر إليه. أليس كذلك؟

لِمَ تطرح أسئلة تعرف بالفعل الرّد عليها؟

إنّه شديد الغرابة. أليس كذلك؟

بالطّبع، إنّه شديد الغرابة.

ومخيف.

نعم مخيف للغاية.

طيّب. إنّني أشعر بالودّ نحوك، يا بلو، كنت أعلم على الدّوام أنّك الشّخص المناسب لي. رجل يتناسب وذوقي.

لو أنّك توقّفت عن التلويح بالمسدّس، فقد أبدأ بمبادلتك هذا الشُّعور.

آسف. لا يمكنني القيام بذلك، فقد فات أوانه.

وهو ما يعني؟

لم أعد بحاجة لك، يا بلو!

قد لا يكون من السّهل على هذا النحو التخلّص منيّ، لقد دفعتني إلى هذا الأمر، وأنت الآن مرتبط بي.

لا، يا بلو، أنت مخطئٌ. لقد انتهى كلّ شيء الآن.

كفّ عن هذا الحديث ذي الوجهين!

انتهى. الأمر بأسره تمّ تمثيله، لم يَعُدْ هناك ما يؤدّى.

منذ متى؟

منذ الآن. منذ هذه اللّحظة.

لقد فقدت رشدك.

لا، يا بلو، إذا كان هناك ما يقال فهو أنّني متـمالك لـرشدي، وفي تمام وعيي. لقد استنفـدني الأمـر، ولم يبقَ شيء الآن، ولكنّـك تعلم ذلك يا بلو، تعلم ذلك أفضل من أيّ شخص آخر.

لماذا لا تضغط على الزناد؟

عندما أكون مستعدّاً لذلك سأقوم به.

ثمّ تخرج من هنا، تاركاً جثتي،. إنّه احتمال بعيد.

آه، لا، يا بلو، إنّك لا تدرك الموقف، لسوف نكون معاً، كما هو الحال دائماً.

ولكنّك تنسى شيئاً. أليس كذلك؟

أنسى ماذا؟

يفترض أن تحكي لي القصّة. أليس ذلك هو مـا يفترض أن ينتهي به الموضوع؟ حدّثني بالقصّة ثمّ قلْ وداعاً!

إنّك تعرفها بالفعـل، يا بلو، ألا تفهم ذلـك؟ إنّك تعـرف القصّة عن ظهر قلب.

ولأيّ شيء تكترث في المقام الأوّل؟

لا تطرح أسئلة بلهاء!

وأنا ـ ماذا كان دوري؟ استراحة فكاهيَّة؟

لا، يـا بلو، كنت بحاجـة إليك، منـذ البدايـة، ولولا وجـودك لما أنجزت شيئاً.

بحاجة إليَّ من أجل ماذا؟

من أجل تذكيري بما يفـترض بي أن أقوم بـه، ففي كلّ مـرّة كنت

أرفع فيها ناظري كنت أجدك هناك، تراقبني، تترصّدني، على مرمى النّظر دائماً، تحدّق فيّ بعينيك. كنت العالم بأسره بالنّسبة إليّ، يا بلو، وقد حوّلتك إلى موتي، أنت الشيء الوحيد الّذي لا يتغيّر، الشيء الوحيد الّذي يُبْرِز ما في الأعماق إلى الخارج.

والآن لم يبقَ شيء. كتبت مذكّرة إشعار بانتحارك، وهذه هي نهاية الأمر.

بالضّبط.

أنت أحمق. أنت أحمق، لعين، بائس.

أعرف ذلك، ولكن ليس خيراً من أيّ شخص آخر. هل ستجلس هناك وتحدّثني بأنّك أكثر ذكاء مني؟ على الأقلّ كنت أعرف ما أقوم به. كانت لديّ مهمّة يتعينّ إنجازها، وقد أنّجزتها. ولكنّك تشعر بالضّياع، يا بلو، لقد ضللت طريقك، منذ اليوم الأوّل.

يقول بلو، وقد وقف فجأة وراح يضرب على صدره غاضباً متحدّياً بلاك أن يقتله: لِمَ لا تضغط على الزناد إذن أيّها الوغد؟! لِمَ لا تُطلق عليَّ النار الآن وتنتهي من الموضوع؟

ثمّ يتقدّم بلو خطوة نحو بلاك وعندما لا تخرج الطلقة يخطو خطوة أخرى، ثمّ ثالثة، صارخاً بالرّجل المقنّع أن يطلق النار، ومن غير أن يكترث بما إذا كان سيحيا أم سيموت. وبعد لحظة يقف أمامه مباشرة. ودونما تردّد يطيح بالمسدّس من يد بلاك بضربة عنيفة، ويأخذ بخناقه، ويدفعه إلى الجُثُوّ على قدميه، ويحاول بلاك المقاومة، ويجرّب التصدّي لبلو ولكنّ هذا الأخير أقوى منه كثيراً وقد استبدّ به

الغضب إلى حدّ الجنون، وكأنّما انقلب إلى شخص آخر. وإذ تنهال الضربات الأولى على وجه بلاك وأسفل خاصرته ومعدته فإنّه لا يستطيع القيام بشيء. وبعد وقت قصير يتمدّد بلا حراك على الأرض، ولكن ذلك لا يمنع بلو من مواصلة هجومه، ضارباً بلاك الّذي فقد وعيه بقدميه، وملتقطاً إيّاه، ولاطماً رأسه بالأرض، ومنهاراً على جسمه بلكمه إثر الأخرى. وعندما يبدأ غضبه المجنون بالانحسار، ويدرك ما جنته يداه لا يستطيع القول على وجه اليقين ما إذا كان بلاك حيّاً أو ميتاً. ويزيل القناع عن وجه بلاك، ويضع أذنه على فمه، مصغياً لصوت تنفّسه، ويبدو أنَّ هناك شيئاً، ولكنّه لا يستطيع القول ما إذا كان صادراً عن بلاك أو عنه، ويحدّث نفسه بأنّه إذا كان بلاك حيّاً الآن فإنّ ذلك لن يستمرّ طويلاً، وإذا كان ميتاً فليكن ما يكون.

ينبعث بلو واقفاً، وقد تمزّقت حلّته، ويبدأ بجمع أوراق مخطوط بلاك من فوق المكتب. ويستغرق ذلك عدّة دقائق، وعندما يستجّمعها كلّها يطفئُ المصباح، في الرّكن، من غير أن يكترث حتّى بالقاء نظرة على بلاك.

يتجاوز الوقت منتصف الّليل عندما يعود بلو إلى غرفته عبر الشّارع، ويضع المخطوط على المائدة، ويمضي إلى الحمّام، ويغسل الدّم عن يديه، ثمّ يبدّل ملابسه، ويصبّ لنفسه قدحاً من الويسكي، ويجلس إلى المائدة أمام كتاب بلو. الوقت قصير. ولسوف يأتون قبل أن يدرك ذلك، وعندئذٍ ستفتح الجحيم أبوابها. ومع ذلك فإنّه لا يدع هذا يتدخّل في العمل الماثل بين يديه.

يقرأ القصّة بتعمّق، كلّ كلمة فيها من البداية إلى النهاية. ولدى فراغه منها يُقْبِل الفجر، وتبدأ الغرفة بالتخلّص من ظلامها. يسمع تغريد عصفور، يسمع وقع أقدام تنطلق إلى الشّارع، يسمع صوت سيّارة تنطلق عبر جسر بروكلين. يقول لنفسه: كان بلاك على حقّ، فقد عرفت الأمر عن ظهر قلب.

ولكنّ القصّة لم تنتهِ. ماتزال هناك اللّحظة الأخيرة، وهي لن تحلّ إلّا بعد أن يغادر بلو الغرفة. هذا هو حال الدّنيا: لا لحظة أقلّ، ولا أخرى أكثر. وعندما ينهض بلو من مقعده، ويعتمر قبعته، ويجتاز الباب، ستكون تلك هي النّهاية.

ليس من المهمّ إلى أين يمضي، عقب ذلك؛ ذلك أنّ علينا أن نتذكّر أنّ كلّ ذلك قد حدث منذ أكثر من ثلاثين عاماً، في أيّام طفولتنا الباكرة، ومن ثمّ فإنّ كلّ شيء ممكن، وأنا أفضّل أن أحسب أنّه مضى بعيداً، استقلّ قطاراً، في ذلك الصباح، ومضى إلى الغرب، ليبدأ حياة جديدة، بل من الممكن أن لا تكون أمريكا نهاية الأمر بالنّسبة إليه، ففي أحلامي السرّيَّة أحبّ أن أفكّر في بلو وهو يحجز بطاقة للسّفر بحراً، ويبحر بسفينة ما إلى الصّين، لتكن الصّين، إذن، وسندع الأمر عند ذلك الحدّ، فالآن ينهض بلو من مقعده، ويعتمر قبعته، ويخرج من الباب. ومنذ هذه اللّحظة فصاعداً لا نعرف شيئاً.

الغرفة الموصدة


WawBooks.c

- ١ -

يبـدو لي، الآن، أنّ فانشـو كان عـلى الدّوام هنـاك. إنّـه المنـطلق الّـذي يبدأ منـه كلّ شيء بـالنّسبة إليّ، وبـدونه مـا كنت لأعـرف من أكون. وقد التقينـا قبل أن نستـطيع الحـديث، وليدين يـزحفان عـلى العشب، في حفاضيهما. وعندما بلغنا السّابعة، وخزنا أصابعنا بالإبـر، وجعلنا من نفسينا أخوين في الدّم مدى الحياة. وعندما أفكّـر الآن في طفولتي فإنّني أرى فانشو؛ فقـد كان هـو من يلازمني، ومن يشـاركني أفكاري، ومن أراه عندما أتطلّع حولي.

لكنّ ذلك كان منذ وقت طويل، وقد كـبرنا، وانـطلقنا إلى أمـاكن مختلفة، وابتعد أحدنا عن الآخـر، وأعتقد أنّـه ليس في هذا كلّه أمـر غريب، فحياتنا تمضي بنا في دروب لا سيطرة لنا عليها، وما من شيء على وجه التّقريب ليبقى معنا، فالأمر يموت بموتنـا، والموت شيء يقـع لنا كلّ يوم.

في مثل تشرين الثاني (نوفمبر) هذا، منذ سبع سنوات، تلقّيت رسالة من امرأة تدعى صوفي فانشو، وكان مستهلّها: «ليست لك بي سابق معرفة، وإنّي لأعتذر عن كتابة هذه الرّسالـة لك من غـير مقدّمـات، لكنّ أموراً حدثت، وليس أمامي خيار آخر في ظلّ الظروف الراهنة». وقد تبيّن أنّها زوجة فانشو، وكانت تعرف أنّني كنت رفيق صبا زوجها، وتعرف كذلك أنّني أقيم في نيويورك إذ قرأت كثيراً من المقالات التي نشرتها في المجلّات.

وقد جاء التّفسير، على نحو فظّ، وبلا تمهيد، في الفقرة الثـانية من

الرّسالة. فقد كتبت تقول إنّ فانشو اختفى، وقد رأته لآخر مرّة منذ أكثر من ستّة أشهر، ومنذ ذلك الحين لم تتلقّ منه كلمة واحدة، ولا أدنى إشارة إلى المكان الّذي يُحْتَمَل وجوده فيه، ولم تعثر الشّرطة على أثر له، وعاد التحرّي الخاصّ الّذي استعانت به خاوي الوفاض. لم يكن هناك شيء مؤكّد، ولكن بدا أنّ الحقائق تتحدّث عن نفسها. فلربّما كان فانشو قد مات، وكان ممّا لا معنى له الاعتقاد بأنّه سيعود. وفي ضوء هذا فإنّ هناك شيئاً مهمّاً تنبغي مناقشته معي، وهي تتساءل عمّا إذا كنت سأوافق على مقابلتها.

أدّت هذه الرّسالة إلى إصابتي بسلسلة من الصّدمات المحدودة. فقد كان هناك الكثير من المعلومات التي ينبغي استيعابها جميعها في الحال. وكانت هناك قوى كثيرة تتجاذبني في اتجاهات شتّى. لقد عاود فانشو الظّهور فجأة في حياتي، آتياً من رحاب المجهول، ولكن ما إن ذكر اسمه حتّى اختفى من جديد. كان متزوّجاً، ويقطن نيويورك، وما كنت أدري عنه شيئاً. وساورني على نحو يشي بالأنانيّة شعور بالضِّيق من أنّه لم يكترث بالاتّصال بي. اتّصال هاتفي، بطاقة بريديَّة، نخب على شرف الأيّام القديمة ـ ما كان من المتعذّر تدبير أمر كهذا، ولكن الخطأ وقع على كاهلي بالقدر نفسه؛ فقد كنت أعلم أين تقطن أمّ فانشو، ولو أنّني أردت العثور عليه لكان من اليسير عليّ سؤالها. وحقيقة الأمر أنّني ضربت عنه صفحاً، وقد توقّفت حياته، بالنّسبة إليّ في اللّحظة التي مضى فيها كلّ منّا في طريق، وهو الآن ينتمي إلى الماضي لا إلى الحاضر. كان شبحاً أحمله خلال تجوالي في أعماقي، شيئاً مختلفاً يعود إلى ما قبل التّاريخ، أمراً لم يعد حقيقيّاً.

وحاولت أن أتذكّر آخر مرّة رأيته فيها، ولكن ما من شيء بدا واضحاً، وشرد ذهني لحظات عدّة، ثمّ تجمّد عند اليوم الّذي مات فيه أبوه، وكنّا وقتذاك في المدرسة الثانوية، وما كان يمكن أن نكون قد تجاوزنا السّابعة عشرة من العمر.

اتّصلت هاتفيّاً بصوفي فانشو، وأبلغتها بأنّني سيسعدني أن أراها عندما يناسبها ذلك، واتّفقنا على اللّقاء في اليوم التالي، وبدت ممتنّة، على الرّغم من أنّني أوضحت لها أنّني ليست لي معرفة بموضعه ولم أقابله ولا حدّثته.

كانت تقطن في مبنى مؤلّف من شقق صغيرة للإيجار في تشلسي، طوبيّ اللّون، وغير مزوّد بمصعد، ويبدو درجه كئيباً، وقد تهاوى طلاء الجدران. وصعدت إلى الطّابق الخامس حيث تقطن، مصحوباً بأصوات المذياع والمشاجرات وتدفّق مياه التنظيف في المراحيض، وهي الأصوات التي تترامى من الشّقق خلال الصعود. وتوقّفت لالتقط أنفاسي، ثمّ طرقت الباب. لاحت عين من خلال الثقب الخاصّ بذلك في الباب، وتردّد صليل سحب الرتاج، ثمّ ألفيت صوفي فانشو واقفة أمامي، وهي تحتضن وليداً بيدها اليسرى. وفيما راحت تبتسم لي وتدعوني للدّخول، مضى الوليد يحاول أن يجذب شعرها البنيّ المسترسل، ولكنّها ابتعدت عن قبضته، وأمسكته بيديها، وأدارت وجهه نحوي. وقالت: هذا هو «بن» نجل فانشو، وقد ولد منذ ثلاثة أشهر ونصف الشّهر. فتظاهرت بالإعجاب بالطّفل الّذي كان يلوّح بيديه، وقد سال لعابه المبيضّ على ذقنه، ولكنّني كنت أكثر اهتماماً بالأم، فقد كان فانشو محظوظاً؛ إذ كانت المرأة جميلة، تفيض

عيناهاالسوداوان باللّماحية، وتوشكـان على الـوصول إلى حـدّ الضراوة في نفاذهما، وكانت نحيلة القوام، لا تتجاوز الطّول العادي، مع لمسة من التمهّل في أسلوبها، تجعلها مثيرة ويقظة لما حولها في وقت واحـد، وكـأنّها تنظر إلى العـالم من قلب يقظة داخليَّـة عميقة. ومـا من رجـل يمكن أن يهجر هذه المرأة من تلقاء نفسه، خاصَّة وهي حامـل بطفله. كـان ذلك أمـراً مؤكّد بـالنّسبة إليّ، وحتّى قبـل أن تطأ قـدمي الشّقة عرفت أنّ فانشو قد لقي مصرعه حتماً.

كانت شقّة صغيرة من شقق شركة السّكـك الحديـديَّة، مؤلّفـة من أربع غرف، محـدودة الأثاث، وقـد خصّصت إحدى الغـرف للكتب ومـائدة للعمـل، واستخدمت أخـرى كغرفـة للجلوس، والأخـريـان للنّـوم. وكـان المكـان حسن الـترتيب، وإن شـاب القـدم والـرثـاثـة جزئيّاته، ولكنّه مريح بصورة إجماليَّـة. وإذا لم تكن الشِّقّة تـبرهن على شيء فإنّها تثبت على الأقلّ أنّ فانشو لم يكرّس وقتـه لاكتساب المـال، ولكنّي لست بالّذي ينظر نظرة الازدراء إلى القدم والرثاثة، فقد كانت شقّتي أسوأ حالاً وأكثر إعتامـاً من هذه الشِّقّـة، وكنت أعلم ما يعنيـه الكدّ كلّ شهر من أجل دفع الإيجار.

قدّمت لي صوفي فانشو مقعداً، وأعدّت لي قـدحا من القهـوة، ثمّ جلست على الأريكة الزرقاء العتيقة، وقد استقرّ الوليـد في حجرهـا، ومضت تحدّثني بقصّة اختفاء فانشو.

كانا قد التقيا في نيويورك منذ ثلاث سنـوات، وخلال شهـر أقامـا معاً، وبعد ذلك بأقلّ من عام تزوّجا. قالت إنّ فانشو لم يكن بالرّجل

الّـذي تسهل معـايشته، ولكنّهـا أحبّته، ولم يكن هنـاك في سلوكه مـا يوحي بأنّه لا يحبّها، وقـد سعدا معـاً، وكان يتـطلّع بلهفة إلى مـوعد ميلاد الطّفل، ولم يكن بينهما ما يسيء إلى علاقتهما. وذات يوم من شهـر نيسان (أبريل) أبلغها بأنّه ذاهب إلى نيوجيرسي في أصيـل ذلك اليـوم لزيارة أمّه، ثمّ لم يعد. وعندما اتّصلت صوفي بحماتهـا في وقت لاحق من تلك الّليلة، علمت أنّ فانشو لم يقم بتلك الـزّيارة قطّ. ولا سبق أن حـدث شيء من هذا القبيـل. ولكنّ صوفي قـرّرت الانتظار، فلم تكن ترغب في أن تكون واحـدة من أولئك الـزوجات الـلاتي يركبهنّ الفـزع عندمـا يتغيّب أزواجهن، وكانت تعلم أنّ فـانشو بحـاجـة إلى هـامش من الحرّيّـة يفوق هـامش معظم الـرّجال، بـل إنّها قرّرت ألاّ تطرح أيّة أسئلة عندما يعود إلى الدّار. ولكن أسبوعاً انقضى، وأعقبـه آخـر، وفي نهاية المـطاف مضت إلى الشّرطة، وكـما توقّعت لم يكـترث رجال الشّرطة كثيراً، فلم يكن هناك الكثير ممّا يمكنهم القيـام به مـا لم يقم دليـل على وجـود جريمة. فـالرّجـال، في نهايـة الأمـر، يهجـرون زوجاتهم كلّ يوم، ومعظمهم لا يرغبون في أن يعثر عليهم أحد. وقد قـام رجال الشّرطـة بإجـراء تحقيقات روتينيّـة، ثمّ اقترحـوا عليهـا أن تستعـين بخدمـات تحرٍّ خـاص. وبمساعـدة حماتهـا التي عرضت دفـع التّكاليف، استعانت بخـدمات رجـل يدعى كـوين. وقد عمـل هذا الأخير بجدّ في القضيّة خمسة أسابيع أو ستّة، ولكنّه التمس في النهـاية العذر لعدم رغبته في الحصول عـلى المزيـد من مالهـا، من غير نتيجـة بالمقابل، وأبلغ صوفي بـأنّ فانشـو مايـزال بالبـلاد في الغالـب، ولكنّـه ليس بمقدوره أن يحدّد ما إذا كان حيّاً أو ميتاً. ولم يكن كوين بالـرّجل

المحتال، ووجدته صوفي متعاطفاً، ورجلاً يرغب في تقديم المساعدة بصورة حقيقيَّة. وعندما جاء إليها في ذلك اليوم الأخير أدركت أنَّ من المستحيل المجادلة في الحكم الّذي أصدره. فلم يكن هناك ما يمكن القيام به؛ وإذا كان فانشو قد قرّر أن يهجرها فإنّه ما كان لينسلّ دونما كلمة؛ إذ لم يكن من طبعه الخوف من الحقيقة والتراجع عن المواجهات التي تسيء للنفس. ومن هنا فإنّ اختفاءه ما كان يمكن إلّا أن يعني شيئاً واحداً، هو أن ضرراً رهيباً قد حاق به.

ومع ذلك فقد واصلت تعليق الآمال على أنّ شيئاً سيحدث. فقد قرأت حالات فقدان للذاكرة، ولبعض الوقت سيطر هذا عليها باعتباره احتمالاً يائساً: أن يكون فانشو متعثّراً في مكان ما من غير أن يعرف هويَّته، وقد سلبت منه حياته وإن كان مايزال حيّاً، وأنّه ربّما كان على وشك الرجوع إلى نفسه في أيّة لحظة. وانقضى المزيد من الأسابيع، ثمّ بدأت نهاية حَمْلِها تدنو، ولم يبقَ على ميلاد الطّفل إلاّ أقلّ من شهر ـ الأمر الّذي كان معناه أنّه يمكن أن يرى النّور في أيّة لحظة ـ وشيئاً فشيئاً شرع الطّفل الّذي لم يولد في استقطاب أفكارها كافّة، وكأنّما ليس في أعماقها المزيد من المجال لفانشو. وكانت تلك هي الكلمات التي استخدمتها لوصف شعور ـ ليس في أعماقها المزيد من المجال ـ ثمّ استطردت قائلة إنّ ذلك ربّما كان معناه أنّها على الرغم من كل شيء غاضبة من فانشو، غاضبة من تخلّيه عنها، حتّى وإن لم يكن ذلك عن قصد. وقد بدا لي هذا القول أميناً على نحو صارم، فلم يسبق لي أن سمعت قطّ من قبل أيّ شخص يتحدّث عن المشاعر الشّخصية على ذلك النّحو ـ بذلك الانطلاق وبمثل هذا

الإغفال للمعتقدات التقليدة - وإنّني لأدرك، فيما أكتب هذا الآن، أنّني في ذلك اليوم الأوّل قد انزلقت إلى حفرة في الأرض، وأنّني أتهاوى إلى مكان لم أطرقه قطّ من قبل.

واصلت صوفي حديثها قائلة إنّها استيقظت ذات صباح بعد ليلة شاقّة، وأدركت أنّ فانشو لن يعود. كانت تلك حقيقة فجائيّة، ومطلقة، ولا توضع موضع التساؤل من جديد أبداً. وعندئذٍ انخرطت في البكاء، وواصلت إطلاق العنان لدمعها أسبوعاً في حداد على فانشو وكأنّه مات بالفعل. غير أنّها عندما توقّفت الدموع عن الانهمار وجدت نفسها من غير شيء تندم عليه. فقد وصلت إلى أنّ فانشو قد وُهِب لها لعدد من السِّنين، وذلك كلّ ما هنالك، وأمّا الآن فهناك طفل يتعينّ التّفكير فيه، ولا أهميّة لشيء آخر حقّاً. وكانت تعرف أنّ ذلك يبدو قولاً أجوف، ولكنّ الحقيقة هي أنّها استمرّت في العيش بهذا الإدراك للأمور، وقد واصل جعل الحياة شيئاً ممكناً بالنّسبة إليها.

طرحتُ عليها سلاسل من الأسئلة، وردّت على كلّ سؤال منها بهدوء وتدبّر، وكأنّما تبذل جهداً حتّى لا تلوّن ردودها بمشاعرها. كيف عاشا، على سبيل المثال، وما هو العمل الّذي كان فانشو يقوم به، وما الّذي حدث له في السّنوات التي أعقبت آخر لقاء لنا. شرع الطّفل في إحداث ضجيج على الأريكة، ففتحت صوفي، من غير أن تتوقّف عن حديثها، قميصها الخارجي الفضفاض، وجعلت ترضعه من أحد ثدييها أوّلاً ثمّ من الآخر.
لم يكن بوسعها الحديث بيقين عن أيّ شيء سبق لقاءها الأوّل

لفانشو، حسبما قالت. فقد كانت تعرف أنّه هجر الكلّيّة بعد دراسة استمرّت عامين، وأفلح في الحصول على تأجيل للخدمة العسكريّة من الجيش، وانتهى به الحال إلى العمل لبعض الوقت على متن إحدى السُّفن، وهي تحسب أنّها كانت ناقلة نفط، أو سفينة لنقل البضائع. وبعد ذلك أقام في فرنسا عدّة سنوات، في باريس أوّلاً، ثمّ كمشرف على مزرعة في الجنوب. ولكن ذلك كان غامضاً تماماً بالنّسبة إليها، لأنّ فانشو لم يتحدّث عن الماضي كثيراً قطّ. وفي وقت لقائهما لم يكن قد انقضى على عودته إلى أمريكا إلّا ثمانية شهور أو عشرة، وقد اصطدم أحدهما بالآخر بالمعنى الحرفي للصدام إذ وقفا كلاهما قرب باب إحدى مكتبات منهاتن ذات أصيل ممطر من أحد أيّام السّبت، وهما يحدّقان عبر الواجهة وينتظران أن تكفّ الأمطار عن الانهمار. وكانت تلك هي البداية، ومنذ ذلك اليوم، وحتّى يوم اختفاء فانشو، فقد ظلّا معاً طوال الوقت تقريباً.

قالت إنّ فانشو لم يلحق بعمل منتظم قطّ، ولم يحصل على ما يمكن أن يسمّى وظيفةً حقيقيّةً، فلم يكن المال يعني الكثير بالنّسبة إليه، وقد حاول أن يَقْصُرَ تفكيره فيه على أدّنى قدر ممكن. وكان في السّنوات التي سبقت لقاءه لصوفي قد قام بجميع أنواع الأعمال، المهمّة التي قام بها في البحريّة التّجاريّة، العمل في مخزن، التدريس، كتابة أعمال إبداعيّة يضع الآخرون أسماءهم عليها، العمل كنادل، طلاء الشقّق، نقل الأثاث لصالح شركة تعمل في هذا المجال، ولكنّ كلّ عمل كان مؤقّتاً، فما إن يكسب في كلّ مرّة ما يكفي لتغطية نفقاته لعدّة أشهر حتّى يترك العمل. وعندما أقام مع صوفي لم يلحق بأيّ عمل في البداية، وكانت هي تعمل بتدريس الموسيقى في مدرسة

خاصّة، وبمقدورها الإنفاق عليهما معاً من راتبها. وبالطّبع، كان عليهما التزام الحذر، ولكن مائدتهما لم تفتقر للطّعام، ولم يكن لديهما ما يشكوان منه.

لم أقاطع حديثها، وقد بدا لي جليّاً أنّ هذا الإيضاح ليس إلاّ بداية فحسب، تفاصيلَ يتعينّ التخلّص منها قبل الالتفات إلى العمل الّذي يفرض نفسه. وأيّاً كان ما فعله فانشو لزوجته فإنّه ليست له صلة تذكر بقائمة الأعمال الهامشيَّة تلك، وقد عرفتُ ذلك على الفور، قبل أن يقال أيّ شيء ففي نهاية المطاف لم نكن نتحدّث عن أيّ شخص، وإنّما عن فانشو، ولم يكن الماضي بعيداً للغاية بحيث لا أستطيع تذكّر من يكون.

ابتسمت صوفي عندما أدركت أنّني قد سبقتها، وأنّني أعرف ما هو آتٍ، وأعتقد أنّها قد توقّعت أن أعرف. وقد أكّد لي هذا فحسب ذلك التوقّع، وأزال أيّ شكوك قد تكون ساورتها حول مطالبتها لي بالقدوم. وقد عرفتُ من غير أن يقال لي، ومنحني ذلك الحقّ في أن أكون هناك، وأن أصغي إلى ما عندها.

قلت:

ـ واصل كتابته، وأصبح كاتباً. أليس كذلك؟

أومأت صوفي برأسها مشيرة بالإيجاب. فقد كان الأمر كذلك تماماً، أو جانباً منه على الأقلّ. وأمّا ما أثار حيرتي فهو أنّني لم أسمع عنه شيئاً قطّ، ولو أنّ فانشو كان كاتباً لصادفت اسمه يقيناً في موضع ما، فقد كان عملي أن أعرف هذه الأمور، وبدا من غير المحتمل أنّ فانشو، من بين كلّ الناس، قد غاب عنّي، ورحت أتساءل عمّا إذا

كان قد عجز عن العثور على ناشر لأعماله. وكان ذلك هو السُّؤال الوحيد الّذي بدا منطقياً.

قالت صوفي: لا، كان الأمر أكثر تعقيداً من ذلك، فهو لم يحاول قطّ أن ينشر أعماله. وفي البداية، عندما كان في مقتبل العمر، كان أكثر تهيُّباً من أن يبعث بأيّ شيء إلى ناشر، إذ ساوره شعور بأنّ عمله ليس على القدر الكافي من الجودة. ولكنّه حتّى في وقت لاحق، وعندما زادت ثقته بنفسه، اكتشف أنّه يفضّل البقاء بعيداً عن الأنظار، وقال لها إنّ البدء بالبحث عن ناشر من شأنه أن يشتّت انتباهه، وأنّه في جوهر الأمر يُؤْثر قضاء وقته عاكفاً على العمل ذاته. وقد أثارتها هذه اللامبالاة، ولكنّها عندما كانت تضغط عليه في هذا الشأن كان يردّ بهزّة كتف قائلاً: ليس هناك ما يدعو إلى التعجّل، فسوف يصل إلى ذلك إنّ عاجلاً أو آجلاً.

وقد فكّرت مرّة أو مرّتين في أن تنتزع زمام المبادرة، وأن ترسل مخطوطاً إلى أحد الناشرين سرّاً، ولكنّها لم تمضِ قُدُماً في هذا الشأن قطّ، فقد كانت هناك قواعد في الزّواج ما كان يمكن أن تنتهكها. وأيّاً كان الخطأ في الموقف الّذي يتبنّاه فإنّه لم يكن أمامها مجال إلاّ لمسايرته. قالت إنّه كان هناك كمٌّ كبير من الأعمال وقد أثار جنونها التّفكير في أنّ هذا الكمّ موجود في العلّية من غير أن يُتَصَرَّف به. ولكنّ فانشو كان يستحقّ الولاء منها وقد بذلت قصارى جهدها في الامتناع عن التّعقيب على الموقف.

أقبل عليها فانشو ذات يوم، قبل اختفائه بثلاثة أشهر أو أربعة بإيماءة هي أقرب إلى الحلّ الوسط. فقد وعدها بأنّه سيتحرّك في هذا

الاتجاه في غضون عام، ولكيّ يبرهن لها على جِدِّيته فقد أبلغها بأنّه إذا حدث لأيّ سبب أنّه لم يفِ بما وعد به فإنّ لها أن تحمل كلّ مخطوطاته إليّ وتضعها بين يدي. وقال إنّني الوصيّ على أعماله، وأنّ الأمر متروك لي فيما يتعلّق بتقرير مصير هذه الأعمال. فإذا ما اعتقدت أنّها جديرة بالنّشر فإنّه سيذعن لحكمي. وقال إنّه فضلاً عن ذلك فإنّه إذا ما حدث له أيّ مكروه في غضون ذلك فإنّ عليها أن تقوم بإعطائي المخطوطات في الحال، والسّماح لي بالقيام بكلّ التّرتيبات، على أساس أنّني سأتلقى خمسة وعشرين في المائة من أيّة أموال تدرّها الأعمال. وأمّا إذا اعتقدت أنّ كتاباته غير جديرة بالنّشر فإنّه ينبغي أن أعيدها إلى صوفي، وعليها أن تتلفها حتّى آخر صفحة منها.

وقالت صوفي إنّ ما قاله في هذا الشأن قد أثار انزعاجها، وقد أوشكت على الضّحك إزاء جِدِّية فانشو حيال الأمر. فالمشهد بكامله لم يكن ممّا يتّفق مع سلوكه، وراحت تتساءل عمّا إذا لم تكن له علاقة بالحقيقة القائلة بأنّها قد أصبحت حاملاً لتوّها. فربّما كانت فكرة الأبوّة قد دفعته إلى شعور جديد بالمسؤوليّة، وربّما كان قد عقد العزم بشدّة على البرهنة على حسن نواياه فبالغ في التّأكيد على الموضوع. وأيّاً كان السّبب فقد وجدت نفسها سعيدة لتغييره رأيه، بل لقد بدأت تتراءى لها مع تقدّم حملها أحلام لم تَبُحْ بها عن نجاح فانشو، وعلّقت الآمال على أن تتمكّن من ترك عملها وتربية الطّفل من غير ضغوط ماليّة. وقد خرج كلّ شيء بالطّبع، عن مساره، وسرعان ما نُسيتْ أعمال فانشو وضاعت في غمرة الاضطراب الّذي أعقب اختفاءه. وفي وقت لاحق، وعندما بدأت الأمور تهدأ، قاومت تنفيذ تعليماته خوفاً من أن

يلقي ذلك بظلال من النّحس على أيّة فرصة قد تتاح لها لرؤيته من جديد، ولكنّها استسلمت بالفعل، مدركة أنّه لا بدّ من احترام كلمة فانشو. وقد كان هذا هو السَّبب في أنّها كتبت إليّ، وذلك هو السَّبب في جلوسي معها الآن.

ومن جانبي لم أدرِ كيف أتصرّف حِيال هذا الأمر، فقد كان الموقف مفاجأة لي، ولمدّة دقيقة أو دقيقتين لم يكن منّي إلاّ أن جلست ساكناً هنالك، مصارعاً الشيء الهائل الّذي دُفع نحوي دفعاً. وبقدر ما يسعني القول لم يكن هناك ما يدفع فانشو لاختياري لأداء هذه المهمّة، ذلك أنّني لم أره منذ عشر سنوات أو أكثر، بل لقد أوشك أن يكون مفاجأة لي أن أعلم أنّه مازال يتذكّرني. كيف يتوقّع منّي أن أتحمّل مثل هذه المسؤوليّة ـ أن أقف موقف القاضي الّذي يحكم على إنسان وأن أقول ما إذا كانت حياته جديرة بأن تُعاش أو لا؟ حاولت صوفي أن توضح الموقف، وقالت إنّ فانشو لم يكن على اتّصال بي، ولكنّه غالباً ما كان يحدّثها عنّي، وفي كلّ مرّة يرِد فيها ذكر اسمي كان يصفني بأنّني أفضل صديق في العالم بالنّسبة إليه، الصَّديق الحقّ الّذي ظفر به، كما أنّه أفلح في مواصلة متابعة أعمالي، وكان على الدّوام يشتري المجلاّت التي تنشر فيها مقالاتي، وفي بعض الأحيان كان يقرأ لها هذه المقالات بصوت عالٍ، وقالت صوفي إنّه قد أعجب بما كتبته، وكان فخوراً بي، وشعر بأنّ في وسعي إنجاز شيء عظيم.

أحرجني كلّ هذا الثناء، فقد كان هناك الكثير من التوتّر في صوت صوفي، وساورني بشكل من الأشكال شعور بأنّ فانشو يتحدّث بلسانها، مُبْلِغاً إيّاي بهذه الأمور عبر شفتيها. وأعترف بأنّ ذلك قد

أرضي كبريائي، ولاشكّ أنّ ذلك كان شعوراً طبيعيّاً في تلك الظّروف، فقد كنت أمرًّ بوقت عصيب آنذاك، والحقيقة هي أنّني لم أكن أشاطرها هذا الرأي المفعم بالتّقدير لما أكتبه. حقّاً أنّني كتبت الكثير من المقالات، ولكنّني لم أرَ في ذلك ما يدعو إلى الاحتفاء، كما أنّني لم أكن فخوراً به على نحو خاصّ. وفي اعتقادي الشّخصي أنّه لم يكن يفوق كثيراً العمل المبتذل. كنت قد بدأت بآمال كبار، معتقداً أنّني سأصبح روائيّاً، وأنّني سأتمكّن من كتابة شيء يمسّ قلوب النّاس، ويؤثّر في حياتهم، وشيئاً فشيئاً أدركت أنّ ذلك لن يحدث، فليس في أعماقي مثل هذا الكتاب، وفي وقت من الأوقات حدّثت نفسي بأنّ عليّ التخلّي عن أحلامي، فقد كان أمراً أكثر بساطة أن أمضي في كتابة المقالات، على أيّ حال، وبالعمل الجادّ وبالتقدّم بإطراء من مقال إلى آخر يمكنني كسب عيشي. وأيّاً كان الأمر فقد أسعدني أن أرى اسمي مطبوعاً على الدّوام تقريباً، وأدركت أنّ الأمور كان يمكن أن تمضي أسوأ ممّا هي عليه، فلم أبلغ الثّلاثين بعد وقد أحرزت شيئاً من الشهرة. وكنت قد بدأت بكتابة عروض للدواوين والرّوايات، والآن يمكنني الكتابة عن أيّ شيء تقريباً وإنجاز مهمّة جديرة بالتقدير في غمرة ذلك. أفلام، مسرحيّات، عروض فنيّة، حفلات موسيقيّة، كتب، بل ومباريات بيسبول - ما عليهم إلّا أن يطلبوا فحسب، وسرعان ما أنجز ما يطلبونه. وقد نظر إليّ العالم باعتباري شخصاً ألمعيّاً، ناقداً يشقّ الطّريق إلى أعلى، ولكنّني في أعماقي شعرت بأنّني عجوز، ومستنفد بالفعل. وما أنجزته حتّى الآن لم يَرْقَ إلّا إلى جزء من لاشيء على الإطلاق. لقد كان تراباً

كثيراً، ومن شأن أدنى ريح تهبّ أن تنثره بَدَداً.

من هنا فإنّ ثناء فانشو قد أثار في نفسي خليطاً من المشاعر. فقد كنت أعرف من ناحية أنّه مخطئ. ومن ناحية أخرى (وهنا يسود الغموض والاختلاط) أردت أن أصدّق أنه على حقّ. وحدّثت نفسي قائلاً: هل من الممكن أن أكون قد قسوت في الحكم على نفسي بأكثر ممّا ينبغي؟ وما إن بدأت بالتّفكير في ذلك حتّى ضعت في عالم الأفكار. ولكن منذا الّذي يتردّد في الوثوب على فرصة لتحرير نفسه ـ أيّ رجل ذلك الّذي تبلغ قوّته حدّ فضّ إمكانيّة الأمل؟ وأطلّ من أعماقي بصيص خاطرة قوامها أنّني سيمكنني ذات يوم أن أُبْعَث في عَيْنَيْ ذاتي وأحسست بدفق مفاجئ من الشّعور بصداقة فانشو عبر السّنين، عبر كلّ صمت السّنين الّذي فرّق بيننا.

على ذلك النحو حدث الأمر، انهرت أمام إطراء رجل لم يكن له وجود، وفي لحظة الضعف تلك قلت نعم، قلت إنّني سيسعدني أن أقرأ الأعمال وأن أقوم بما أستطيعه لتقديم المساعدة. ابتسمت صوفي حيال ذلك ـ لم أستطع أن أحدّد قطّ ما إذا كان ذلك من فرط السّعادة أو خيبة الأمل ـ ثمّ انبعثت واقفة من الأريكة، وحملت الطّفل إلى الغرفة المجاورة. توقّفت أمام خزانة طويلة من شجر البلوط، وفتحت الباب، وتركته يتأرجح على مفاصله. قالت: هاك! كانت هناك صناديق ومغلّفات ومطويّات وكرّاسات تمتلئ بها الرفوف، أشياء أكثر ممّا ظننت أنه بالإمكان أن يوجد. وأتذكّر أنّني ضحكت محرجاً ومحاولاً الخروج بنكتة هزيلة، ثمّ عكفنا بروح العمل على مناقشة خير

السُّبل المتاحة أمامي لنقل المخطوطات من الشِّقّة، واستقرّ رأينا بالفعل على حقيبتين كبيرتين. واستغرق ذلك الجانب الأعظم من ساعة، ولكنّنا في النهاية أفلحنا في ضغط كلّ شيء فيهما. قلت إنّه من الجليّ أنّ الأمر سيستغرق منّي بعض الوقت لإلقاء نظرة على كلّ المواد، فقالت لي صوفي إنّ عليّ ألّا أدع القلق يساورني، ثمّ اعتذرت عن الإثقال عليّ بمثل هذه المهمّة، فقلت إنّني أتفهّم الأمر، وأنّه ما من سبيل كان متاحاً أمامها لرفض تنفيذ طلب فانشو. لقد كان كلّ شيء مفاجئاً للغاية، وفي الوقت نفسه رهيباً ومضحكاً على وجه التّقريب. وضعت صوفي الجميلة الطّفل على الأرض برقّة واحتضنتني معربة عن شكرها، ثمّ قبلت وجنتيّ. وللحظة حسبت أنّها ستنخرط في البكاء، لكنّ اللحظة انحسرت، ولم تنهمر الدّموع، ثمّ حملتُ الحقيبتين على مهل، هابطاً الدَّرج، ومضيت إلى الشّارع. كانتا معاً في ثقل رجل.

الحقيقة أكثر بساطة ممّا أودّ أن تكون عليه. ومن الحقائق أنّني أحببته، وأنّه كان أقرب أصدقائي، وأنّني عرفته خيراً من أيّ شخص آخر، وما من شيء أستطيع قوله يمكن أن يقلّصها. ولكن تلك هي البداية فحسب، وفي غمرة محاولتي الشّاقة لتذكّر الأمور على نحو ما كانت عليه حقّاً أدرك الآن أنّني قد نأيت عن فانشو، وأنّ جانباً منّي قد قاومه على الدّوام. ولست أحسب أنّني قد شعرت بالارتياح تماماً بوجوده، وخاصّة ونحن في مرحلة النموّ. وإذا كان الحسد يُعَدّ تعبيراً أقوى من أن يستخدم فيما أحاول قوله فإنّني أدعوه تشكّكاً، شعوراً مُضْمَراً بأنّ فانشو كان أفضل منّي بشكل من الأشكال. وكلّ ذلك كان مجهولاً بالنّسبة إليّ في حينه، ولم يكن هناك أيّ شيء محدّد قطّ يمكنني أن أشير إليه. غير أنّ الشّعور بقي مراوحاً بأنّ هناك تميّزاً بالسليقة في أعماقه يفوق ما لدى الآخرين، وأنّ ناراً لا ينطفئ لها أوار تبقيه على قيد الحياة، وأنّه كان ذاتَه حقّاً، على نحو يفوق ما استطعت أن آمل فيه أبداً.

في وقت مبكر، كان تأثيره تأثيراً بارزاً تماماً بالفعل، وقد امتدّ ذلك إلى الأشياء الصغيرة كافّة. فإذا ثبّت فانشو إبزيم حزامه على جانب من سرواله، فإنّني كنت أثبّت حزامي في الوضع نفسه. وإذا أقبل فانشو على الملعب منتعلاً حذاء رياضيّاً أسود فإنّني كنت أطلب حذاء مماثلاً في المرّة التّالية التي تصحبني فيها أمّي إلى محل الأحذية. وإذا جلب فانشو إلى المدرسة نسخة من «روبنسون كروزو» فإنّني كنت أبدأ بقراءة روبنسون كروزو في المساء عينه بالدّار. ولم أكن وحدي في

تصرفي على هذه الشاكلة، ولكنّني ربّما كنت الأكثر إخلاصاً، ومن يذعن بأكبر قدر من القبول للسلّطة التي يهيمن بها علينا. ولم يكن فانشو نفسه مدركاً لتلك السلّطة، ولاشكّ أنّ ذلك هو السّبب في أنّه واصل التمتّع بها. ولم يكن مكترثاً بالاهتمام الّذي يحظى به، فكان يمضي في هدوء مهتمّاً بشأنه، ولا يستخدم تأثيره للتلاعب بالآخرين. ولم يكن ممّن يندرجون في المزاح الّذي تعكف عليه بقيتنا، ولا ممّن يتخابثون أو يقعون في مشكلات مع المدرّسين، ولكن أحداً لم يأخذ عليه ذلك. لقد وقف بمعزل عنّا، ومع ذلك فقد كان هو الّذي يجمعنا معاً، الّذي نلجأ إليه ليحكم فيما شجر بيننا من منازعات، الّذي نستطيع الاعتماد على إنصافه وعلى تجاوزه لمشاجراتنا الصغيرة. كان فيه شيء بالغ الجاذبيّة بحيث تودّ على الدّوام أن يكون بجانبك وكأنّما كان بمقدورك أن تحيا في مجاله وأن يمسّك ما هو عليه. إنّه هنالك من أجلك، ومع ذلك فإنّه في الوقت نفسه لا سبيل للوصول إليه. وكان يساورك الشّعور بأنّ هناك جوهراً داخليّاً في أعماقه يستعصي على الاختراق، مركزاً غامضاً للاحتجاب. وكان تقليده يعني على نحو من الأنحاء مشاركة في ذلك الغموض، ولكنّه يعني كذلك إدْراكَ أنّه ليس بمقدورك أن تعرفه أبداً على نحو حقيقيّ.

إنّني أتحدّث عن طفولتنا الباكرة ذاتها - عن وقت يعود إلى خمس سنوات أو ستّ أو سبع من عمرينا. الآن أصبح الكثير من هذا مدفوناً، إنّني أعرف أنّه حتّى الذكريات يمكن أن تكون زائفة. ومع ذلك فلا أحسب أنّني سأكون مخطئاً في القول بأنّني قد احتفظت بهالة تلك الأيّام في أعماقي، وبقدر ما يسعني الشّعور بما أحسسته وقتذاك

فإنّني أشكّ في أنّ تلك المشاعر يمكن أن تكذب. وأيّاً كـان ما أصبح عليه فانشو بالفعل فإنّ شعـوري هو أنّ الأمـر بدأ بـالنّسبة إليـه في ذلك الوقت. لقد شكّـل نفسه بسرعـة بالغـة، وكان وجـوداً محـدّداً بشكـل واضح في الوقت الّذي بدأنا فيه الحياة المدرسيَّة. كان فـانشو واضحـاً وجليّـاً، بينما بقيّتنـا مخلوقات مجـرّدة من الشّكل، وبـين يديْ تقلُّب لا يتوقّف، تتخبّط في عماء من لحـظة إلى أخرى. لست أعني أنّـه قد نمـا بسرعـة - فهو لم يَبْـدُ قطّ أكبر ممّـا هو عليـه - ولكنّه كـان ذاته قبـل أن يكـبر. ولسبب أو لآخر لم يتعـرّض للاضـطرابات التي تعـرّض بقيتنـا لها، وكانت الدراما الخاصّة به ذات نظام مختلف - أكثر جوّانيه، وأشدّ وحشيّـة بلا شـكّ - ولكن من غـير التغـيّرات الفجـائيّـة التي بـدا أنّها تتخلّل حياة الآخرين جميعاً.

وهناك حادثـة تتوهّـج بالحيـاة على نحـو خاص بـالنّسبة إليّ، وهي تتعلّق بحفلة عيـد ميلاد دُعيتُ إليهـا وفانشـو، في أيّام الصف الثّـاني الـدراسي، الأمر الّـذي يعني أنّها تنتمي إلى بـدايـة الفـترة الّتي يمكنني الحديث عنها بأيّ قدر من الدّقة. كـان ذلك في أصيـل يوم سبت من أيّام الربيع، وقد انطلقنا سيراً على الأقـدام إلى الحفلة مع صـديق لنا يدعى دنيس والدن. وقد عاش دنيس حياة أكثر مشقّة من حياتنا؛ أمّ مدمنة على الخمر، وأب غـارق في العمل، وإخـوة وأخوات لا حصر لهم. وقد زرت بيته مـرّتين أو ثـلاثاً - مكـان كبير ومـظلم وأقرب إلى الأطـلال - ويمكنني تذكّـر أنّ أمّه قـد أفزعتني، وذكّـرتني بسـاحـرة في حكاية خرافية. كانت تُمضي يوماً بأسره وراء بـاب غرفتهـا الموصـدة، مـرتديـة ثوب حمّـامها عـلى الدّوام، ووجههـا الكـابـوسي امتـداد من

التّجاعيد، وتطلّ برأسها إلى خارج الغرفة بين الحين والآخر، ثمّ تصرخ في أطفالها بشيء ما. وفي يوم الحفلة كنت قد زُوِّدْتُ ومعي فانشو بهديّتين على نحو مناسب، مغلّفتين بورق ملّون وبشريطين معقودين لتقديمهما للصبيّ المحتفى به. غير أنّ دنيس لم يكن معه شيء، وقد شعر بالمرارة حِيال ذلك. وبمقدوري تذكّر محاولة تعزيته عن ذلك بعبارة جوفاء أو أخرى: لا أهميَّة لذلك، ما من أحد يهتمّ، ولن يلحظ أحد ذلك في غمرة كلّ الفوضى. ولكن دنيس كان مهتمّاً، وهذا هو ما أدركه فانشو في التّو. ودون أيّ إيضاح التفت إلى دنيس، وسلّمه هديته. قال: إليك هذه، خذها، سأقول لهم إنّني تركت هديّتي في الدّار. وكان ردّ فعلي الأوّل هو الاعتقاد بأنّ دنيس سيرفض هذه الإيماءة الودّية، وأنّه سيشعر بأنّ إشفاق فانشو إهانة له. ولكنّني كنت مخطئاً، فقد تردّد لحظة محاولاً استيعاب هذا التغيّر المفاجئ في رياح الحظ، ثمّ أومأ برأسه موافقاً وكأنّه يقرّ بحكمة ما فعله فانشو. لم يكن عملاً من أعمال الخير بقدر ما كان عملاً من أعمال العدالة، ولهذا السَّبب كان بمقدور دنيس قبوله من غير إذلال لنفسه. وقد انقلب الشيء إلى ضدّه، وكان ذلك لمسة سحريّة، مزيجاً من العفوية والاقتناع المطلق، وإنّني لأشكّ في أنّ أحداً غير فانشو كان يمكن أن ينجز هذه اللّمسة.

مضيت بعد الحفلة مع فانشو إلى بيته، وكانت أمّه هناك جالسة في المطبخ، وسألتنا عن الحفلة، وما إذا كان الصبيّ المحتفى به قد أعجبته الهديّة التي ابتاعتها له. وقبل أن تتاح لفانشو فرصة التفوّه بأيّ شيء انطلقتُ سارداً قصّة ما فعله، ولم تكن لديّ نيّة لتوريطه في المتاعب، ولكن كان من المستحيل بالنّسبة إليّ أن أحتفظ بالقصّة

لنفسي، فقد فتحتْ إيماءة فانشو عالماً جديداً بـأسره أمامي: الـطّريقة الّتي يمكن بهـا أن ينسرب شخص في مشـاعـر شخص آخـر، وأن يستوعبها تماماً، بحيث لا تعـود لمشاعـره هو نفسـه أهميّة. كـان ذلك أوّل عمـلٍ أخـلاقيٍّ حقٍّ أشهـده، ولم يَبْـدُ أيّ شيء آخـر جـديـراً بالحديث عنه. غير أنّ أمّ فانشو لم تكن على القدر نفسـه من الحماس. قالت: نعم، كان ذلـك شيئاً رقيقـاً وكريمـاً، ولكنّه خـاطئٌ كذلـك، فالهديّة قد كلّفتها مالاً، وبإعطاء الهديّة لشخص غـير المحتفى به فـإنّ فـانشو قـد سرق ذلك المـال منها بمعنى من المعـاني، وفوق ذلـك فقـد تصرّف على نحو غير مهذب بالذهاب إلى الحفلة من غير هديّة، الأمر الّـذي من شـأنـه أن ينعكس عليهـا بشكـل سيّئ لأنّها المسؤولـة عن تصرفـاته. واستمـع فانشـو بعنايـة إلى أمّه، ولم يلفظ كلمـة واحـدة. وبعد أن فرغت أمّه من حديثها لم ينبس ببنت شفة، وسـألته أمّـه عمّا إذا كـان قد فهم مـا قالتـه، فقال: نعم، إنّـه فهم. ولربّما كان الأمـر سينتهي عنـد هذا الحـد، ولكن فانشـو مضى عنـدئـذٍ، وبعـد صمت قصير، قائلاً إنّه مايزال يعتقد أنّه على صواب، وأنّه لا يعنيه شعـورها حيال الأمر، ولسوف يفعل الشيء نفسه في المرّة المقبلة. وأعقبت هذا الحـوار ضجّة كـبرى، فقد غضبت السّيـدة فانشـو إزاء عناده، ولكن فـانشو تمسّـك بموقفـه رافضاً الانحنـاء في مـواجهـة فيض تقـريعهـا، وبالفعل أمرته بمـلازمة غـرفته، وقيـل لي إنّ عليّ مغـادرة الدّار. وقـد صعقني عدم الإنصاف من جانب أمّه، ولكنّني عندما حاولت الحديث دفاعاً عنه، لوّح فانشو مـودّعاً، وبـدلاً من مواصلة الاحتجـاج تحمّل عقابه بصمت واختفى في غرفته.

كانت الحادثة بأسرها ذات طابع يقتصر على فانشو وحده: التّصرف الخيري العفوي، الاعتقاد الّذي لا رجعة عنه بأنّ ما فعله هو الصّواب، والاستسلام الصّامت، السلبيّ تقريباً، للعواقب. وأيّاً كان تميّز سلوكه فإنّك تشعر على الدّوام بأنّه منفصل عن ذلك السّلوك. وقد كانت هذه الخصلة، أكثر من أيّ شيء آخر، هي الّتي أخافتني منه وأبعدتني عنه. كنت أقترب كثيراً من فانشو، وأعجب به إلى حدّ كبير، وأرغب على نحو يائس في الارتقاء إلى مستواه، ثمّ فجأة تجيء لحظة أدرك فيها أنّه غريب عنّي، وأنّ الطريقة الّتي يحيا بها داخل نفسه لا يمكن أن تتطابق أبداً مع الطّريقة الّتي احتاج إلى العيش بها. لقد أردت أكثر ممّا ينبغي من الأشياء، وساورتني رغبات أكثر ممّا ينبغي، وقد عشت في قبضة الواقع المباشر على نحو أكثر امتلاء بحيث لم أستطع قطّ الوصول إلى تلك اللامبالاة. كان يعنيني أن أنجز على نحو طيّب، وأن أترك أثراً بارزاً في نفوس النّاس من خلال الإشارات الفارغة لطموحي: علامات طيّبة، رسائل الجامعة، جوائز فيما يُتنافس بصدده في ذلك الأسبوع. وقد ظلّ فانشو مبتعداً عن ذلك كلّه دونما اكتراث، وكان يقف هادئاً في ركنه، من غير أن يبدي اهتماماً. وإذا أدّى عملاً على نحو ممتاز فقد كان ذلك رغماً عنه ودونما كبير جهد ولا عناء ولا اكتراث بما قام به. وهذا الوضع يمكن أن يثير الضّيق، وقد استغرقت وقتاً طويلاً في تعلّم أنّ ما هو جيّد بالنّسبة إلى فانشو ليس بالضّرورة جيّداً بالنّسبة إليّ.

غير أنّني لا أريد المبالغة، فلئن كانت لي ولفانشو خلافاتنا بالفعل فإنّ أبرز ما أتذكّره عن طفولتنا هو عنفوان صداقتنا. كنّا جارين،

وفِناء منزل كلّ منّا يمتدّ إلى الآخر ليشكّلا مرجة لا حواجز فيها وامتداداً من الطين والتّراب، كما لو كنّا ننتمي إلى دار واحدة. وكانت أمّانا صديقتين حميمتين وأبوانا لاعبين للتّنس لا يفترقان في لعبهما، ولم يكن لأيّ منّا أخ، وبالتّالي كانت تلك ظروف مثاليّة، إذ لم يكن يقف بيننا شيء. ولم يكن قد فصل بيننا في الميلاد إلّا أسبوع واحد أو أقل، وقد أمضينا طفولتنا في الفِناء معاً، مستكشفينْ العشب زحفاً على أربع، منتزعينْ الزّهور، وواقفين ومنطلقين بخطانا الأولى في اليوم نفسه (هناك صور توثّق هذا). وفي وقت لاحق تعلّمنا البيسبول وكرة القدم في الفناء معاً، وبنينا قلاعنا، ولعبنا ألعابنا، واخترعنا عوالمنا في الْفِناء، وعقب ذلك كانت هناك جولاتنا في أرجاء البلدة، والأصائل الّتي انطلقنا فيها على درّاجتينا، والحوارات الّتي لا تنتهي. وأحسب أنّه سيكون من المستحيل أن أعرف أيّ شخص معرفة وثيقة على نحو ما عرفت فانشو وقتذاك. وتتذكّر أمّي أنّنا كنّا مرتبطين للغاية، إلى حدّ أنّنا عندما كنّا في السّادسة من العمر سألناها عمّا إذا كان بمقدور الرّجال أن يتزوّج أحدهم من الآخر، فقد أردنا أن نعيش معاً عندما نكبر، ومَنْ غير المتزوّجين يمكنهم فعل ذلك؟ كان فانشو يريد أن يكون ملّاحاً فضائيّاً، وأمّا أنا فأردت أن أكون من قُدامى المحاربين. وكنّا نفكّر في دار رحبة، في الرّيف، مكانٍ تغدو فيه السّماء مظلمة للغاية ليلاً، بحيث تمكن رؤية كلّ النّجوم، وتوجد أعداد وفيرة من الحيوانات الّتي يتعيّن رعايتها.

عندما أعود بذاكرتي إلى الوراء أجد من الطّبيعي أن يصبح فانشو كاتباً، فقد بدا أنّ قسوة انسحابه إلى أعماقه توشك أن تقتضي ذلك.

وحتّى في المدرسة الإعداديّة كان يؤلّف قصصاً موجزة، وإنّني لأشكّ في أنّه قد جاء عليه وقت بعد سنّ العاشرة لم ينظر فيه إلى نفسه باعتباره كاتباً. وفي البداية، بالطّبع، لم يَبْدُ أنّ ذلك يعني الكثير. كان پو وستفنسون مثلينْ أعلينْ بالنّسبة إليه، وقد أسفر ذلك عن الهراء الصبياني المعتاد. «ذات ليلة، في عام الربّ واحد وخمسين وسبعمائة وألف، كنت أنطلق في عاصفة ثلجيّة قاتلة نحو دار أسلافي عندما صادفت شخصاً يشبه الشّبح في الجليد» ذلك النّوع من الكتابة، المليء بالعبارات المطّاطة والتحوّلات المبالغ فيها في العقدة. وأذكر في الصفّ السّادس أنّ فانشو كتب رواية تحرٍّ قصيرة تقع في حوالي خمسين صفحة، سمح له المدرّس بقراءتها على مسامعنا في حلقات تستغرق كلّ منها عشر دقائق يوميّاً في نهاية اليوم الدّراسي. وكنّا جميعاً فخورين بفانشو ومندهشين حيال الأسلوب الدّرامي الّذي يقرأ به ممثّلاً كلّ دور من الأدوار الخاصّة بالشخصيّات. وتغيب القصّة عن ذاكرتي الآن، ولكنّني أتذكّر أنّها كانت معقّدة بلا انتهاء، وتتوقّف نهايتها على شيء من قبيل الهويّات المختلطة لزوجين من التوائم.

غير أنّ فانشو لم يكن طفلاً عاكفاً على الكتب، فقد كان أكثر تفوّقاً في الألعاب من أن يصنّف في هذه الفئة، وأكثر تجذّراً في وسطنا من أن ينسحب إلى أعماق ذاته، وطوال كلّ تلك السّنوات الباكرة كان يترك لدى المرء انطباعاً بأنّه لا يوجد شيء لا يُحْسِن القيام به، وما من شيء لا يمكنه القيام به خيراً من أيّ شخص آخر. كان أفضل لاعب بيسبول، وأحسن طالب، وخير من يرعى كلّ الفتية. وكان أيّ شيء من هذه الأمور بمفرده كافياً لجعله يحتلّ مكانة خاصّة، ولكنّها معاً

جعلته يبدو بطوليّاً، فتى مسّته يد ساحرة. غير أنّه رغم تفوّقه الفذّ ظلّ واحداً منّا، لم يكن فتى عبقريّاً أو عصفوراً يغرّد خارج السّرب، فلم تكن له موهبة عجائبيّة من شأنها إبعاده عمّن هم في عمره. كان طفلاً عاديّاً، ولكنّه أكثر من هذا، إن أمكن ذلك، أكثر تناغماً مع نفسه، طفلاً عاديّاً على نحو أكثر مثاليّة بشكل يتجاوز بقيّتنا.

وفي أعماقه لم يكن فانشو الذّي عرفته شخصاً جسوراً. ومع ذلك فقد حلّت أوقات صدمني فيها باستعداده للوثوب إلى مواقف خطرة. ووراء كلّ هذا التّماسك السّطحي بدا أنّ هناك ظلاماً هائلاً، دافعاً لاختبار ذاته، ولخوض غمار المخاطر، وللمضيّ عند حافات الأشياء. وخلال طفولته كان لديه ولع باللّعب حول مناطق البناء، وصعود السّلالم والسقالات والحفاظ على التّوازن فوق أخشاب تمتدّ على هوّة من الماكينات وأكياس الرّمال والأوحال. وكنت أتوفّز قلقاً، بعيداً، فيما فانشو يقوم بهذه المخاطرات، وأتوسّل إليه على نحو صامت أن يتوقّف، ولكنّني لم أقل شيئاً قطّ، وكنت أرغب في المغادرة لكنّني أخشى القيام بذلك خوفاً من سقوطه. ومع مضيّ الوقت أصبحت هذه الدّوافع أكثر تعقيداً، فقد كان يحدّثني عن «تذوّق الحياة». قال إنّ عليّ أن أجعل الحياة شاقّة بالنّسبة إليّ، وأن أبحث عن المجهول. كان هذا هو ما أراده، وقد تزايد ذلك كثيراً مع نموّه. وذات مرّة، عندما كنّا في حوالي الخامسة عشرة من العمر، أقنعني بقضاء نهاية الأسبوع معه في نيويورك، نجوب الشّوارع، وننام على مقعد في محطّة بن العتيقة، ونحادث المشرّدين، ونرى كم نستطيع الصّمود من غير أن نتناول الطّعام. وأذكر أنّني سكرت في السّابعة من صباح يوم أحد

في سنترال بارك، وتقيّأت على العشب في أكثر من موضـع. وقد كـان هذا بالنّسبة إلى فانشو شيئاً جوهريّاً، خطوة أخـرى نحو إثبـات ذاته، ولكنّه لم يكن بالنّسبة إليّ إلا سقوطاً كئيباً بائساً إلى شيء لم أَكُنْه. ومع ذلك فقد واصلت مسايرته، شاهداً مسلوبَ اللبّ، أشارك في السّعي من غير أن أكون جزءاً منه، سانشو في سنّ المراهقة، أمتـطي حماري، وأرقب صديقي وهو يقاتل نفسَه.

بعـد شهر أو شهـرين من عطلة نهايـة الأسبوع التّي أمضينـاهـا في التسكّـع صحبني فانشـو إلى مبغى في نيويـورك (وقد رتّب صـديق له هذه الزّيارة) وهناك خضنا أوّل تجربة جنسيَّة لنا. أتذكّـر شقّة صغـيرة مبنيّـة بالحجـر الرملـيّ الأسمر، في الأپـروست سايـد، قـرب النّهـر، وكانت تضمّ مطبخاً صغيراً، وغرفة نـوم معتمة، وتتـدلّى بينهما ستـارة من نوع رديء. كانت هنـاك في الشقّة امـرأتان زنجيّتـان، إحـداهمـا عجوز بدينة، وأمّا الأخرى فشابّـة وجميلة. ولّما لم يكن أي منّـا يرغب في المرأة الأكثر تقدُّماً في العمر، فقد اضطررنا إلى تحديد أيّنـا سيتقدّم أوّلاً، وما لم تخنّي ذاكرتي فإنّنا مضينا بالفعل إلى البهو، وألقينا بقطعـة نقد في الهواء، كوسيلة للتحديد، وبالطّبع فـاز فانشـو بالـدّور الأوّل، وبعـد دقيقتين وجـدت نفسي جـالسـاً في المـطبخ الصّغـير مـع المـرأة البـدينة. راحت تـدعـوني بكلمـة تحبّب، مـذكّـرة إيّـاي بـين الفينـة والأخـرى بأنّها مـازالت طوع أمـري، إذا غـيّرت رأيي، وكنت أشـدّ عصبيّة من أن أقوم بأيّ شيء غير هزّ رأسي نفياً، ولم أفعـل شيئاً غـير الجلوس هناك مصغياً للهاث فانشو على الجانب الآخر من الستارة. لم يكن في وسعي إلاّ التّفكـير في شيء واحـد: أن عضـوي يـوشـك أن

يمضي إلى الموضع الّذي يقبع فيه عضو فانشو الآن. ثمّ حلّ دوري، وحتّى الآن لست أدري ماذا كان اسم الفتاة. كانت أوّل امرأة عارية رأيتها متجسّدة أمامي، وكانت تأخذ عُرْيَها مأخذ الأمر العاديّ الّذي ينبغي أن يُتقبَّل بودّ، بحيث أنّ الأمور كان يمكن أن تمضي على نحو طيّب، بالنّسبة إليّ، لو أنّ حذاء فانشو لم يشوّش ذهني، وقد بدا ظاهراً في المسافة ما بين السّتارة والأرضيّة، وقد التمع في ضوء المطبخ، وكأنّما انتزع من جسمه. كانت الفتاة رقيقة، وبذلت قصارى جهدها لمساعدتي، ولكنّ الأمر كان صراعاً طويلاً، وحتّى في النّهاية لم أشعر بلذّة حقيقيّة. وفيما بعد، عندما سرت مع فانشو تحت رداء الغسق السّابغ، لم يكن لديّ الكثير ممّا أقوله عن نفسي، غير أنّ فانشو بدا مغتبطاً، كما لو كانت هذه التّجربة قد أكّدت نظريّته عن تذوّق الحياة. وعندئذٍ أدركت أنّ فانشو أكثر جوعاً للحياة ممّا يمكن أن أكون عليه.

عشنا حياة آمنة هناك في الضّواحي. لم تكن نيويورك تبعد إلاّ عشرين ميلاً فحسب، ولكنّها كان يمكن أن تكون بعيدة، كالصّين، بالنّسبة إلى عالمنا الصّغير المؤلّف من المروج والدّور الخشبيّة. وفي وقت بلوغ فانشو الثّالثة عشرة أو الرّابعة عشرة أصبح نوعاً من المنفى الدّاخلي، مسايراً تحرّكات السّلوك الواجب الالتزام به، ولكنّه معزول عمّا يحيط به، وعامر النّفس بالازدراء للحياة التّي أرغم على عيشها. ولم يجعل من نفسه شخصاً عصيّاً أو متمرّداً على نحو ظاهر. وبعد أن حظي بقدر كبير من الاهتمام في طفولته، ووقف على الدّوام في قلب الأشياء، اختفى على وجه التّقريب في الوقت الّذي وصلنا خلاله إلى

مـرحلة الدّراسـة الثّانـويّة، وكـره بؤرة الضوء مفضِّـلاً عليها هـامشيّةً تمسُّك بها في عنـاد. وكنت أعرف أنّـه يعكف على الكتـابة بجِـدِّية في ذلك الوقت (على الرّغم من أنّه كفّ في السّادسة عشرة من عمره عن إطـلاع أحد عـلى عمله) ولكنّني أنـظر إلى ذلـك بـاعتبـاره أقـرب إلى العَرَض منه إلى السَّبب. في العام الأوّل من الدّراسـة الجامعيّـة، على سبيل المثال، كان فانشـو هو الـوحيد في صفّنـا الذّي شقّ طـريقه إلى منتخب الجامعة في البيسبول، وقد لعب بامتياز بالغ لعدّة أسابيع، ثمّ ترك الفريق بلا سبب ظاهر. وأذكر أنّني سمعته يصف الحادثة لي، في اليـوم الـذّي أعقب وقـوعهـا، فقـد مضى إلى مكتب المـدرّب، بعـد التدريب، وأطلّ مرتدياً الزيّ الموحّد. وكـان المدرّب قـد أخذ حمّـامه لتوّه، وعندما دخل فانشو الغرفة كـان المدرّب يقف إلى جـانب مكتبه عـارياً كـما ولدتـه أمّه، وفي فمـه سيجارة وقـد اعتمر قبعـة البيسبـول الخاصّة به. وتلذّذ فانشو بالوصف مركّـزاً على مـا في المشهد من عبث ومجمِّلاً إيّاه بتفاصيل عن جسم المدرّب القصير والبدين وضوء الغـرفة وبُريكة الماء على الأرضيّة الإسمنتيّة الرماديّة، ولكن ذلك كان كلّ مـا في الأمر، مجرّد وصف، سلسلة من الكلمات منفصلة عن أيّ شيء قد يتعلّق بفـانشو نفسـه. وقد شعـرت بخيبة الأمـل لأنّه تـرك الفـريق، ولكن فانشو لم يفسّر لي حقّاً ما فعله، بـاستثناء القـول بأنّـه قد وجـد البيسبول مضجِراً.

وشـأن الكثير من المـوهوبـين، أتت لحظة عـلى فانشـو لم يعد فيهـا راضياً عمّا يواتيه بسهولة. فربّما كان من الطّبيعي بعد أن تملّك ناصيـة كلّ ما طُلب منـه في وقت مبكّر أن يبحث عن التحـدِّيات في مـوضع

آخر. وفي ضوء حدود حياته كطالب مدرسة ثانويّة في بلدة صغيرة فإنّ الحقيقة القائلة بأنّه وجد ذلك الموضع الآخر في أعماق نفسه ليست مدهشة ولا غير مألوفة، ولكنّني أعتقد أنّ في الأمر ما يتجاوز ذلك. فقد حدثت أمور لعائلة فانشو في حوالي ذلك الوقت، ولاشكّ أنّها تركت أثراً كبيراً، وسيكون من الخطأ ألّا نأتي على ذكرها. وكونها قد تركت مثل هذا الأثر الفاصل هو أمر قائم بذاته، ولكنّني أميل إلى الاعتقاد بأنّ لكلّ شيء أهمّيته. ففي نهاية المطاف لا تعدو كلّ حياة أن تكون مجمل حقائق يرتبط بعضها ببعض ويتوقّف عليه، مسلسلاً من تقاطعات واكبتها الصدفة، ومن رميات بغير رامٍ، ومن أحداث عشوائيّة لا تُفصح إلّا عن افتقارها للهدف.

عندما كان فانشو في السّادسة عشرة من عمره اكتشف الأطباء أن أباه مصاب بالسرطان. وعلى امتداد عام ونصف العام شاهده وهو يُحْتَضَر، وخلال ذلك الوقت تفكّكت العائلة ببطء. وربّما كانت أمّ فانشو هي التّي تعرّضت لعناء أكثر من غيرها. فقد حافظت على المظاهر من غير خضوع للانفعالات، وأشرفت على الاستشارات الطبيّة والتّرتيبات الماليّة، وحاولت الحفاظ على الحياة الأسريّة، وراوحت في صورة نوبات بين النّزعة التّفاؤليّة البالغة فيها يتعلّق بفرص الشّفاء وبين نوع من اليأس الذّي يفضي إلى الشلل. وقد قال فانشو إنّها لم تتمكّن قطّ من قبول الحقيقة الحتميّة التّي واصلت الانتصاب أمامها. وكانت تعرف ما يحدث، ولكنّها لم تحظ بالقدرة على الإقرار بأنّها تعرف. وبمضيّ الوقت بدأت تحيا وكأنّها تمسك أنفاسها، وغدا سلوكها متفاقم الغرابة: نوباتٌ من تنظيف الدّار بتوتّر

تدوم اللّيل بكامله، خوفٌ من وجودها بمفردها في الدّار (ويرتبط ذلك بتغيّبات مفاجئة وبلا تفسير عن الدّار) ومدى بكامله من الأوجاع المتخيَّلة (أنواع من الحساسيّة، ارتفاع ضغط الدّم، نوبات الدّوار) وقربَ النّهاية شرعت في الاهتمام بنظريّات شتّى في غرابة الأطوار، وبالتّنجيم، وبالظواهر النّفسيّة وبالمفاهيم الروحانيّة الغامضة، إلى أن أصبح من المستحيل الحديث معها من دون الوصول إلى الصّمت فيما هي تحاضر عن تدهور الجسم البشريّ.

غدت العلاقات بين فانشو وأمّه متوتّرة، فقد تشبّثت به بحثاً عن المساندة، وتصرّفت وكأنّ ألم العائلة من نصيبها وحدها. وتعينّ على فانشو أن يكون العضو المتماسك في العائلة، فلم يكن عليه الاهتمام بنفسه فقط، وإنّما كان عليه تحمّل المسؤوليّة عن أخته التّي لم يتجاوز عمرها الثّانية عشرة وقتذاك. ولكن ذلك جلب معه مجموعة أخرى من المشكلات، ذلك أن إيلين كانت صبيّة تعاني من المتاعب وتفتقر إلى الاتّزان، وفي الفراغ النّابع من غياب الوالدين الذي نتج عن المرض، بدأت بالتّطلع إلى فانشو لإمدادها بكلّ شيء، فأصبح أباها وأمّها ومستودع حكمتها وشعورها بالارتياح. وقد أدرك فانشو الطّابع المرضيّ لاعتمادها عليه، ولكن لم يكن أمامه الكثير ممّا يمكنه القيام به في هذا الشأن، من غير أن يلحق بها الضّرر على نحو لا سبيل إلى إصلاحه. وأذكر كيف كانت أمّي تتحدّث عن جين المسكينة (أي السيّدة فانشو) وكيف كان الأمر بأسره فظيعاً بالنّسبة إلى «الطّفلة». ولكنّني كنت أعرف أنَّ فانشو هو بشكل من الأشكال الذّي عانى أشدّ العناء، وكلّ ما في الأمر أنّه لم تُتح له الفرصة قطّ لإظهار ذلك.

وأمّا فيما يتعلّق بوالد فـانشو فهنـاك القليل ممّـا أستطيـع قولـه بأيّ درجة من التيقّن. وقد كان بالنّسبة إليّ صفراً، رجـلاً صموتـاً، رقيق الحاشية، ولم أعرفه بصـورة جيّدة قطّ. وبينـما كان أبي يميـل إلى البقاء في الدّار كثيراً، ولاسيّما في نهاية الأسبوع، فإنّ والد فانشـو كان نـادراً ما يراه أحد. وكان محامياً على درجة من البروز، وكانت لديه في وقت من الأوقات مطامح سياسيّة، ولكن هذه المـطامح انتهت بسلسلة من خيبـة الآمال. وغـالباً مـا كان يعمـل حتّى وقت متـأخّـر من اللّيـل، ويتوقّف بسيّارته في المرآب في الثّامنة أو التّـاسعة صبـاحاً، وغـالباً مـا أمضى يوم السّبت وجزءاً من يوم الأحد في مكتبه. وإنّني لأشكّ في أن يكون قد عرف تماماً ما يتعينّ عليه القيام به تجـاه ابنه، ذلـك أنّه بـدا رجلاً لا يكنّ كثيراً من المشاعر نحو أبنائه، وشخصاً لم يعد يذكر شيئاً عن طفـولته. لقـد كان السيّـد فانشـو منتمياً إلى عـالم الكبـار تمـامـاً، منغمساً أشدّ الانغماس في موضـوعات جـادّة خاصّـة بالكبـار، بحيث أنّني أتصوّر أنّه كان من المتعذّر عليه ألاّ ينظر إلينا باعتبـارنا مخلوقـات من عالم آخر.

لم يكن قد بلغ الخمسين من عمره عندما لفظ آخر أنفاسه. وعـلى امتـداد الأشهر السـتّـة الأخيرة من عمـره، وبعد أن تخـلّى الأطباء عن الأمل في إنقاذه، رقد في غرفة النّوم الإضافيّة في دار آل فانشو، مطلاً على الفناء عبر النّافـذة، عاكفـاً على قـراءة كتاب وصـل إليه عَـرَضاً، ومتناولاً المسكّنات، ومغالباً النّعـاس. وفي ذلك الـوقت أمضى فانشـو معظم وقت فراغه معه. وعلى الرّغم من أنّني لا أستطيع إلاّ تخمين ما حدث، فإنّني أحسب أنّ الأمور قد تغـيّرت بينهما. وعـلى الأقل فـإنّني

أعرف كيف عمل بجدٍ في هذا الشأن، وتغيّب عن المدرسة في كثير من الأحيان ليكون معه، محاولاً جعل نفسه شخصاً لا سبيل إلى الاستغناء عنه، إذ كان يرعاه باهتمام لا يكلّ. وقد كان ذلك شيئاً شديد الكآبة بالنّسبة إليه، وربّما أقوى من قدرته على الاحتمال. وعلى الرّغم من أنّه قد بدا كمن تلقّى الأمر بروح طيّبة، واستجمع أطراف شجاعة لا تتأتّى إلّا لصغار السنّ، فإنّني أتساءل في بعض الأحيان عمّا إذا كان قد قُدِّر له أن يجتاز هذه المحنة على الإطلاق.

هناك شيء واحد آخر أريد أن أذكره هنا. ففي نهاية هذه الفترة ـ في النّهاية ذاتها، عندما لم يكن أحد يتوقّع أن يظلّ والد فانشو على قيد الحياة أكثر من أيّام معدودات ـ مضيت مع فانشو في نزهة بالسيّارة بعد المدرسة. وكان ذلك في شباط (فبراير). وبعد بضع دقائق من انطلاقنا، بدأ ثلج خفيف بالتّساقط، وانطلقنا بلا هدف محدّد عبر عدد من البلدات المجاورة، من غير أن نكترث كثيراً بالموضع الذّي نصل إليه. وبعد فترة أوقفنا السيّارة، وشرعنا في التجوّل سيراً على الأقدام، وقرأنا كتابات نقشت على الأحجار، ورحنا نخمّن ما يمكن أن تكون عليه حياة أولئك الذّين نقشوها، وعمّنا الصّمت، وأوغلنا في المسير، وتبادلنا الحديث، وعدنا إلى الصّمت من جديد. وكان الثّلج قد أخذ يتساقط ثقيلاً في ذلك الوقت، وراحت الأرض تكتسي بالبياض. وفي موضع ما وسط المقبرة كان هناك قبر حفر حديثاً. وتوقّفت مع فانشو عند حافته، وأطللنا إلى أعماقه. وبمقدوري أن أتذكّر كم كان هادئاً، وكم بدا العالم بعيداً عنّا. وعلى امتداد وقت طويل لم يتحدّث أيّ منّا، ثمّ قال فانشو إنّه يريد أن يرى كيف يبدو

القبر عند أسفله. ومددت له يـدي، وأمسكته بـإحكام وهـو يهبط إلى قاع القبر. وعندما لمست قدماه الأرض نـظر إليّ وعلى شفتيـه لمحة من ابتسامة، ثمّ رقد على ظهره، وكأنّه يتظاهر بأنّه ميت. ومازال المشهـد ينبض بالحياة بـالنّسبة إليّ: التـطلّع إلى فانشـو وهو ينـظر إلى السّماء، وعيناه تطرفان، فيما الثّلج يهمي على وجهه.

من خلال انديـاح غامض لـلأفكار أعـادني ذلك إلى وقت كنّـا فيه صغـاراً للغايـة، ربّما إلى الـرّابعة أو الخـامسة من العمـر. كان والـدا فانشو قد ابتاعا جهازاً جـديداً من الأجهـزة المنزليّـة، ربّما كـان جهاز تلفزيون، وعلى امتداد عدّة شهور احتفظ فانشو بالصّندوق الورقي في غرفته. وكان سخيّاً على الدّوام في السّماح بمشاركتي له في لعبه، ولكن هذا الصندوق كـان ممّا لا تبلغـه يداي، ولم يسمـح لي قطّ بدخـوله، وأبلغني بأنّه مكانه السرّي وأنّه عندما يجلس بداخله ويغلقه حوله فإنّه بمقدوره الذّهـاب إلى حيث يريـد، ويمكنه الـوجود في المـوضع الـذّي يريده، ولكن لو أنّ شخصاً آخر دخل صنـدوقه فـإنّ سحره يمكن أن يضيـع إلى الأبد. وقـد صدّقت هـذه القصّة، ولم أضغط عليـه لأخذ دوري بدخول الصّندوق، على الـرّغم من أنّ ذلك أوشـك أن يكسر خاطري. وكان يلعب في غرفته واضعاً في هدوء دمى في هيئة جنود أو يرسم صوراً، ثمّ يعلن فجأة وبلا مقدّمات أنّه سيمضي إلى صندوقه، وأحاول المضيّ بما كنت أفعله قُـدُماً، ولكن ذلـك لم يكن يجدي فتيـلاً قطّ، فلم يكن هنـاك ما يثـير اهتمامي قـدر ما يحـدث لفانشـو داخـل الصّنـدوق، وكنت أُمضي تلك الـدّقـائق محـاولاً عـلى نحـو يـائس أن أتصوّر المغامرات التّي يقوم بهـا، ولكنّي لم أتعلّم قطّ هذه المغـامرات،

إذ كان ممّا يخالف القواعد بالنّسبة إلى فانشو أن يتحدّث عنها وهو يخرج من الصّندوق.

الآن كان هناك شيء مماثل يجري في ذلك القبر المفتوح تحت الثّلج المتساقط. كان فانشو وحده هناك، عاكفاً على أفكاره، يحيا تلك اللّحظات وحيداً وعلى الرّغم من أنّني كنت موجوداً إلاّ أنّني معزول عنه، وكأنّي لم أكن هناك حقّاً على الإطلاق. ومن جديد كان الأمر متعلّقاً بالصّدفة الخالصة: فالقبر مفتوح هناك، وقد شعر فانشو بأنّه يناديه. لقد قال أحدهم ذات مرّة إنّ القصص تحدث لأولئك الذّين يستطيعون روايتها فقط. وربّما بالطّريقة نفسها فإنّ التّجارب لا تقدّم نفسها إلاّ لأولئك الذّين يمكنهم تملّك ناصيتها فقط. ولكن تلك نقطة صعبة، ولا يمكنني التّأكّد منها. لقد وقفت هنالك بانتظار نهوض فانشو، محاولاً تصوّر ما يفكّر فيه، وللحظة قصيرة محاولاً رؤية ما يراه، ثمّ رفعت وجهي نحو السّماء الشتائيّة الضّاربة إلى القتام، وكان كلّ شيء عماء من الثّلج يندفع هابطاً فوقي.

عندما شرعنا في السّير عائدين إلى السيّارة، كانت الشّمس قد غربت، وشققنا طريقنا متعثّرين عبر المقبرة، من غير أن يحدّث أحدنا الآخر بشيء. وكانت بضع بوصات من الثّلج قد تراكمت على الأرض، وواصل الثّلج التّساقط بثقل متفاقم وكأنّه لن يتوقّف أبداً. وبلغنا السيّارة، وركبناها، وعندئذٍ، وخلافاً لكلّ توقّعاتنا، لم نستطيع الانطلاق بها، فقد غاص الإطاران الخلفيّان في حفرة ضحلة، ولم يُجْدِ ما قمنا به فتيلاً. ورحنا ندفعها، ونحاول تحريكها، ومع ذلك واصل الإطاران الدّوران بضجّة رهيبة لا طائل من ورائها. وانقضت ثلاثون

دقيقـة، وعندئـذٍ استسلمنا، وقـرّرنا متـردّدْين التّخـلّيَ عن السّيـارة.
وركبنا سيّارات عابرة إلى دارينا في قلب العاصفة، وانقضت ساعتـان قبل أن نفلح أخيراً في العودة، وعندئذٍ فحسب علمنا أنّ والد فانشـو قد مات في الأصيل.

- ٣ -

انقضت عـدّة أيّـام قبـل أن أستجمـع الشّجـاعـة الكـافيـة لفتـح الحقيبتينْ. وقد فرغت من المقال الذّي عكفت على إنجـازه، وتردّدت على دور السينما، وقبلت الدّعوات التّي أعتذر عادة عن عـدم تلبيتها، غير أنّ هذه الأساليب لم تخدعني، فقد كان هناك الكثير ممّا يتوقّف على ردّي، وكـانت إمكـانيّــة التعـرّض لخيبــة الأمـل شيئـاً لا أرغب في مـواجهته. ولم يكن هنـاك فارق في ذهني بـين إصدار الأمـر بـإتـلاف أعمال فانشـو وقتله بيديّ. فقـد خُوِّلْتُ سلطة التّشـويه، سلطة سرقـة جثّـة من قبرهـا وتمزيقهـا إرباً. وكـان وضعاً لايـطاق وأردت ألاّ أجد نفسي فيه. ومادمتُ قـد تركت الحقيبتـين على حـالهما فـإنّ ضميري لا يثقله شيء. ومن ناحية أخرى فقد قدّمت وعداً وكنت أعلم أنّـه ليس في وسعي التّأجيل إلى الأبد. وعند هذا المنعطف على وجه الدّقة (أي التـأهّب والاستعداد لإنجـاز الأمر) سيـطر عليّ تخـوّف جديـد. فقـد اكتشفت أنّني إذا كنت لا أرغب في أن تكون أعمال فانشو سيّئـة فإنّني كذلك لا أريدها أن تكون جيّدة. وهذا شعور يتعـذّر عليّ إيضـاحه، ولا شكّ في أنّ للمنافسات العتيقة علاقة بـه، رغبة في ألاّ يـزيحني إلى الهامش تألّق فانشو، ولكن كان هناك شعور بأنّني أتعرّض لفخّ. لقـد قدّمت وعداً، وما إن أفتح الحقيبتين حتّى أغدو متحدّثاً باسم فانشـو، وسأواصـل الحـديث بـاسمــه شئت ذلـك أم أبيت. وقــد أخـافني الاحتمالان كلاهما، فإصدار حكم الإعدام أمر سيّئٌ بما فيـه الكفايـة، ولكنّ العمل لحساب ميت لم يبدُ أمراً أفضل. وعلى امتـداد عدّة أيّـام راوحت بين هذين الخوفين عاجزاً عن تحـديد أيّهـما أسوأ من الآخـر.

وفي النّهاية، بالطّبع، فتحت الحقيبتين. ولكنّ الأمر بحلول ذلك الوقت كان متعلّقاً بصوفي أكثر من اتّصاله بفانشو، فقد أردت رؤيتها مجدّداً، وكلّما سارعت بالعمل عجّلت بالحصول على مبرر للاتّصال بها هاتفيّاً.

لست أعتزم الخوض في أيّة تفصيلات هنا، فالجميع الآن يعلم طبيعة أعمال فانشو، إذ قرئت، ونوقشت، وهناك كثير من المقالات والدّراسات عنها، وقد أصبحت ملكاً للجمهور. وإذا كان هناك ما يقال فإنّه لا يعدو أنّ الأمر قد استغرق منّي ساعة أو ساعتين لأدرك أنّ مشاعري لا علاقة لها بما هو مناط الاهتمام، فقد فاق الاهتمام بالكلمات والانغماس فيما هو مكتوب والإيمان بقوّة الكتب كلّ شيء آخر، وإلى جواره تغدو حياة المرء شيئاً شديد الضآلة. ولست أقول هذا في معرض تهنئة نفسي أو لوضع أعمالي تحت ضوء أفضل. فلقد كنت الأوّل، ولكنّني بخلاف ذلك لا أرى شيئاً يميّزني عن أيّ شخص آخر. ولو أنّ أعمال فانشو كانت أقلّ ممّا هي عليه لكان دوري مختلفاً، وربّما أكثر أهميّة وأعظم تأثيراً بالنّسبة إلى خاتمة القصّة. ولكن حسبما سار الأمر فإنّني لم أكن أكثر من أداة خفيّة. فلقد حدث شيء، وحتّى لو أنكرته، حتّى لو تظاهرت بأنّني لم أفتح الحقيبتين، فإنّه سيمضي في الحدوث مكتسحاً كلّ ما يقف في طريقه، ومندداحاً بقوّة دفع نابعة من أعماقه.

اقتضى منّي الأمر أسبوعاً لاستيعاب المادّة وتنظيمها، وللفصل بين الأعمال المكتملة والمسوّدات، ولتصنيف المخطوطات فيما يشبه التّرتيب الزّمني لإنجازها. وكانت أقدم القطع قصيدة تعود إلى ١٩٦٣ (عندما

كان فانشو في السّادسة عشرة من عمره). وأمّا القطعة الأخيرة فتعود إلى ١٩٧٦ (قبل اختفائه بشهر واحد). وإجمالاً كانت هناك مائة قصيدة أو يزيد، وثلاث روايات (اثنتان منها قصيرتان وواحدة طويلة) وخمس مسرحيّات من ذوات الفصل الواحد، وكذلك ثلاث عشرة كرّاسة ضمّت عدداً من القطع التّي لم يتمّ المضيّ بها قُدُماً، والصّور القلميّة، والمذكّرات الموجزة، والملاحظات على كتب كان فانشو يقرأها، وأفكار لمشروعات مستقبليّة. ولم تكن هناك رسائل ولا مذكّرات ولا لمحات من حياة فانشو الخاصّة. ولكن ذلك كان ممّا توقّعته، فالمرء لا يقضي حياته مختبئاً من العالم من غير أن يتمكّن من إخفاء آثاره. ومع ذلك فقد حسبت أنّني سوف أجد في أحد المواضع وسط كلّ هذه الأوراق إتياناً على ذكري، حتّى وإن كان لا يعدو رسالة تضمّ تعليمات أو مادّة في كرّاسة تعيّنني وكيله الأدبي. ولكن لم يكن هناك شيء فقد تركني فانشو أعتمد تماماً على نفسي.

اتّصلت هاتفيًا بصوفي، ورتّبت تناول طعام العشاء معها في اللّيلة التّالية، وأعتقد أنّها تمكّنت من تخمين ردّ فعلي حيال أعمال فانشو لأنّني اقترحت الذّهاب إلى مطعم فرنسي حديث الطراز (يتجاوز بكثير ما يمكنني التردّد عليه). ولكنّني لم أقل إلاّ أدنى قدر ممكن بخلاف هذه الإيماءة الاحتفاليّة، فقد أردت لكلّ شيء أن يمضي بمعدّله العاديّ، بلا تحرّكات فجائيّة، ومن غير إشارات سابقة لأوانها. وكنت على تمام الثّقة بالفعل فيما يتعلّق بأعمال فانشو، ولكنّني خشيت مغبّة التعجّل فيما يتعلّق بصوفي، فقد كان الكثير يتوقّف على طريقة تصرّفي، والكثير يتعرّض للضرر بالتخبّط عند البداية. وسواء أعلمت صوفي

ذلك أم لم تعلمه فقد كان هناك ما يربطنا الآن، ولو بالقدر الذّي يمكّننا من الترويج معاً لأعمال فانشو، ولكنّني أردت أكثر من ذلك، وأردت أن تريده صوفي أيضاً. ورحت أقاوم لهفتي وأحثّ نفسي على التزام الحذر والتطلّع إلى المستقبل.

كانت ترتدي ثوباً حريريّاً أسود وتتجمّل بزوج من الأقراط الفضيّة الصّغيرة، وقد ردّت شعرها إلى الوراء ليبين جيدها الأتلع. وعندما دلفت إلى المطعم، ولمحتني جالساً عند البار منحتني ابتسامة دافئة، متواطئة، وكأنّها تحدّثني بأنّها تعلم كم هي جميلة، ولكنّها تعقّب في الوقت نفسه على غرابة المناسبة مستمتعة بها على نحو من الأنحاء، مدركة بجلاء العواقب غير المألوفة المترتّبة على هذه اللّحظة. وقلت لها إنّ جمالها يأخذ بالألباب، وردّت بوحي اللّحظة على وجه التقريب قائلة إنّ تلك هي اللّيلة الأولى التيّ تخرج فيها منذ ولد بن، وأنّها أرادت أن «تبدو مختلفة». وبعد ذلك التزمتُ بالجانب العملي محاولاً الارتداد إلى أعماقي، وعندما أرشدنا النّادل إلى مائدتنا، وقدّم لنا مقعدينا (غطاء أبيض للمائدة، أدوات مائدة مطليّة طلاء سميكاً بالفضّة، وزهرة خزامى في المزهريّة الرشيقة بيننا) استجبت لابتسامتها الثّانية بالحديث عن فانشو.

لم تبدُ عليها الدّهشة من جرّاء أيّ شيء قلته، فقد كان أمراً مألوفاً بالنّسبة إليها، حقيقة تعايشت معها بالفعل، ولم يؤدِّ ما قلته إلاّ إلى تأكيد ما كانت تعرفه طوال الوقت، ومن الغريب أنّه لم يُثِر اهتمامها. وكان في موقفها حذر أثار حيرتي، ولعدّة لحظات شعرت بالضّياع، ثمّ بدأت أدرك على مهل أن مشاعرها لا تختلف كثيراً عن مشاعري. لقد

اختفى فانشو من حياتها، وأدركت أنّه قد يكون لديها سبب وجيه للضّيق بالعبء الذي ألقاه على كاهلها، فهي من خلال نشر أعماله وتكريس نفسها لرجل لم يعد له وجود سترغم على العيش في الماضي، والمستقبل الذّي تريد بناءه لنفسها سيفسده الدّور الذّي يتعينّ عليها القيام به، دور الأرملة الرزينة، ملهمة الكاتب الراحل، البطلة الجميلة في قصّة مأساويّة. وما من أحد يريد أن يكون جزءاً من روائي، وتقلّ رغبته إذا كان هذا العمل واقعيّاً. لم يكن عُمْر صوفي أكثر من ستّة وعشرين عاماً، وكانت أصغر من أن تعيش من خلال شخص آخر، وأشدّ ذكاء من ألاّ ترغب في حياة من صنعها بصورة كاملة. ولم تكن الحقيقة القائلة بأنّها أحبّت فانشو هي الشّيء الجوهري، فقد مات فانشو، وقد حان الوقت لكي تتركه وراءها.

لم يُطْرَح أيّ شيء من هذه المعاني بمثل هذا التّفصيل، ولكنّ الإحساس كان هنالك، وسيكون من العبث تجاهله. وفي ضوء تحفّظاتي كان من الغريب أن أغدو حامل المشعل، ولكنّني أدركت أنّني ما لم أبادر بحمله والانطلاق قُدُماً فإنّ المهمّة لن يُقدَّر لها أبداً أن تؤدّى.

قلت:

ـ ليست بك حاجة إلى الانغماس في الأمر حقّاً، وسيتعينّ علينا، بالطّبع، أن نستشير أحداً، ولكن ذلك لا ينبغي أن يستغرق الكثير من وقتك. وإذا كنت على استعداد لترك الأمر لي فإنّني لا أحسب أنّه سيكون سيّئاً للغاية على الإطلاق.

قالت:

ـ بالطّبع، سأترك الأمور لك؛ فلست أعرف البديهيّات عن أيّ شيء من هذا القبيل، ولو أنّني حاولت إنجاز الأمر بنفسي لضللت طريقي خلال خمس دقائق.

قلت:

ـ الشّيء المهمّ هو العلم بأنّنا نقف في صفّ واحد، ففي نهاية المطاف يعتبر خلاصة الموقف، فيما أحسب، هو ما إذا كان بمقدورك الوثوق بي أو لا.

قالت:

ـ إنّني أثق بك.

قلت:

ـ لم أقدِّم لك ما يدعو لذلك. ليس بعد، على أيّة حال.

ـ أعلم ذلك، ولكنّني أثق بك في كلّ الأحوال.

ـ هكذا؟

ـ نعم، هكذا.

ابتسمت لي مجدّداً، وطَوال ما بقي من وقت العشاء لم نقل شيئاً آخر عن أعمال فانشو. كنت أعتزم مناقشة الأمر بالتفصيل ـ ما هي خير بداية، مَنْ هم النّاشرون الذّين قد يُبدون اهتمامهم، بمن نتّصل، وما إلى ذلك ـ لكنّ هذا لم تَعُدْ تبدو له أهميّة، فقد كانت صوفي مغتبطة بعدم التّفكير فيه، والآن وقد طمأنتها إلى أنّها ليست مضطّرة لذلك، فقد عاد إليها مرحها تدريجيّاً، فبعد أشهر طويلة عسيرة، أتيحت لها أخيراً الفرصة لنسيان جانب من الأمر لبعض الوقت، وكان في وسعي أن أدرك مدى تصميمها على أن تنسى نفسها في غمرة

المسرّات البسيطة التي منحتها إيّاها هذه اللّحظة: المطعم، الطّعام، ضحك من يحيطون بنا، الحقيقة القائلة بأنّها ها هنا وليس في أيّ مكان آخر. لقد أرادت الانغماس في هذا كلّه. وممَّ أكون أنا حتّى لا أسايرها؟

كنت في حالة مزاجيّة طيّبة في تلك اللّيلة. فقد ألهمتني صوفي، ولم يَطُل الوقت بي قبل أن أتألّق بالحيويّة، فمضيت ألقي بالنّكات، وأسرد القصص، وأقوم بحيل صغيرة بأدوات المائدة. وكانت المرأة بارعة الجمال بحيث تعذّر عليّ إبعاد عينيّ عنها. لقد أردت أن أراها وهي تضحك، أن أشاهد كيف يستجيب محيّاها لما أقوله، أن أرقب عينيها، وأن أدرس إشاراتها. والله يعلم أيَّ عبثيّات قلتها، ولكنّني بذلت قصارى جهدي لإبعاد ذاتي، ولدفن دوافعي الحقيقيّة تحت فيض من الجاذبيّة. وقد كان ذلك هو الجزء الشّاقّ، وقد عرفت أنّ صوفي وحيدة، وأنّها تريد السّكينة المنبعثة من جسم دافئ إلى جوارها، ولكنّني لم أكن أسعى إلى إرضاء نزوة عابرة، ولو أنّني تحرّكت بسرعة أكبر ممّا ينبغي فربّما لم يكن الأمر ليتجاوز ذلك. ففي هذه المرحلة المبكرة كان فانشو مايزال هنالك معنا، الصّلة الصّامتة، والقوّة الخفيّة التي جمعتنا معاً، ولسوف ينقضي بعض الوقت قبل أن يختفي، وإلى أن يحدث ذلك فقد ألفيت نفسي على استعداد للانتظار.

بعد العشاء، سرنا معاً حوالي ثلث السّاعة في ظلام أواخر تشرين الثّاني (نوفمبر)، ثمّ اختتمنا الأمسية بتناول المشروبات في حانة بقلب المدينة. دخّنت سيجارة بعد الأخرى، ولكن ذلك كان المؤشّر الوحيد على ما يدور في أعماقي متدافعاً. وتحدّثت صوفي بعض الوقت عن

عائلتها التّي تقطن مينسوتا، شقيقاتها الثّلاث الأصغر سنّاً، وصولها إلى نيويورك قبل ثماني سنوات، موسيقاها، تدريسها، اعتزامها العودة إلى التّدريس في الخريف المقبل. ولكنّنا غرقنا بشدّة في مزاجنا المازح في ذلك الوقت بحيث أنّ كلّ ملاحظة غدت مبرّراً لمزيد من الضّحك. وكان يمكن أن يستمرّ هذا، ولكن كان لا بدّ من أخذ جليسة الطّفل في الاعتبار، وهكذا اقتضبنا سهرتنا عند منتصف اللّيل تقريباً، وصحبتها إلى باب شقّتها، وبذلت جهدي الكبير الأخير في تلك الأمسية.

قالت صوفي:

ـ شكراً، يا دكتور، كانت العمليّة الجراحيّة ناجحة.

قلت:

ـ مرضاي يشفون دائماً، والفضل يعود إلى غاز الضحك، وما عليّ إلاّ فتح الصِمام وشيئاً فشيئاً يتحسّنون.

ـ لا بدّ أنّ هذا الغاز ممّا يؤدّي إلى الإدمان.

ـ هذا هو جوهر الموضوع، فالمرضى يواصلون العودة لتلقّي المزيد، وفي بعض الأحيان تجري لهم عمليّتان أو ثلاث في الأسبوع. كيف تعتقدين أنّني أدفع تكاليف شقّتي في پارك أڤنيو والمصيف في فرنسا؟

ـ هكذا، هناك دافع خفيّ.

ـ بالتّأكيد، الطّمع هو دافعي.

ـ لا بدّ أن نشاطك العلاجيّ في ازدهار.

ـ كان كذلك، لكنّني الآن متقاعد بشكل أو بآخر، وهذه الأيّام انخفض معدّل عملي إلى مريضة واحدة ـ ولست على يقين ممّا إذا كانت ستعود ثانية.

قالت صوفي وعلى شفتيها أشدّ الابتسامات التي رأيتها في حياتي خفراً وإشراقاً:

ـ ستعود، يمكنك التأكّد من هذا تماماً.

قلت:

ـ يسعدني سماع ذلك، سأجعل سكرتيري يتّصل بها لتحديد الموعد التّالي.

ـ كلّما كان أسرع كان ذلك أفضل، ففي هذه العلاجات الطّويلة المدى لا يمكنك إهدار لحظة واحدة.

ـ نصيحة ممتازة، سأتذكّر طلب كميّة جديدة من غاز الضّحك.

ـ عليك بالقيام بذلك، يا دكتور، فأنا أعتقد حقّاً أنّني بحاجة إليه.

ابتسم أحدنا للآخر مجدّداً، ثمّ ضممتها في عناق حارّ، وقبّلتها قبلة لم تدم طويلاً، وهبطتّ الدّرج بأقصى ما استطعت من سرعة.

مضيت إلى الدّار مباشرة، وأدركت أنّ النّوم من رابع المستحيلات، ثمّ أمضيت ساعتين في مشاهدة برامج التلفزيون، ولاسيّما عرض فيلم عن ماركو پولو. وأخيرَاً أويت إلى فراشي في حوالي السّاعة الرّابعة وسط إعادة عرض فيلم «منطقة الغسق».

كانت خطوتي الأولى هي الاتّصال بستيوارت جرين المحرّر بإحدى دور النّشر الكبرى. ولم أكن على معرفة وثيقة به، ولكنّنا نشأنا في بلدة واحدة، ودرس أخوه الأصغر، روجر، معي ومع فانشو في مدرسة واحدة. وغلب على ظنّي أنّ ستيوارت سيتذكّر من هو فانشو، وبدا ذلك بمثابة مدخل طيّب للبداية. وكنت قد صادفت ستيوارت في عدد

من التجمّعات على امتداد عدّة سنوات، ربّما ثـلاث مرّات أو أربعـاً، وكان ودوداً على الـدّوام، ويتحدّث عن الأيّـام الخوالي (عـلى نحو مـا كان يدعوها) ويَعِدُ دائماً بأن يبلّغ تحيّاتي إلى روجـر في لقائهـما المقبل. ولم أكن أدري ما الذّي يمكن توقّعه من ستيـوارت، ولكنّه بـدا سعيداً من خلال نبرة صوته عندما اتّصلت به هاتفيّاً، وتواعدنا على اللّقاء في مكتبه في أحد الأصائل من ذلك الأسبوع.

استغرق تذكّر فانشـو بضع دقـائق من ستيوارت، وقـال إنّ الإسم مألوف لديه، ولكنّه لم يدرِ مصدر هذه الألفة، وقمت بتنشيط ذاكرتـه قليلاً، وذكرت روجر وأصدقاءه، وعندئـذٍ تذكّـره ستيوارت، فجـأة، وقال:

ـ نعم، نعم، بالطّبع، الصّبي الفذّ، لقـد اعتاد روجـر تأكيـد أنّه سيصبح رئيساً، عندما يكبر.

ـ ذاك هو.

قلتها، وأبلغته بالقصّة.

كان ستيوارت شخصـاً يصعب إرضاؤه، من نـوع خرّيجي جـامعة هـارڤارد، يـرتدي سـترات من التويـد، ويضـع ربـطة عنق فـراشيّـة الشّكل، وعلى الرّغم من أنّه في أعماقه لم يتجـاوز كثيراً أن يكـون من نوع موظفي الشّركات، إلاّ أنّه في عالم النّشر كان يعتـبر من المثقّفين، وقد قطع في مسيرته العمليّة شوطاً طيّباً حتّى الآن، فغـدا محرّراً بـارزاً وهـو في أوائل الثّـلاثينـات من عمـره، واعتـبر من العـاملين الشبّـان المجتهدين والمتمتّعين بالشّعور بـالمسؤوليّة، ولم يكن هنـاك شكّ في أنّ مستقبلاً باهراً ينتظره. وأقول هذا كلّه لأبرهن على أنّه لم يكن بالّـذي

يتحمّل أن تحدث معه تلقائياً القصّة التّي أرويها. فلم يكن فيه الكثير من الرُّوح الرومانسيّة، ولا مجال عنده إلّا للحذر والطّابع العمليّ، ولكنّني كان بمقدوري الشّعور بأنّه مهتم بما أطرحه، بل إنّه بدا منفعلاً خلال مواصلتي الحديث.

لم يكن هناك ما يخسره، بالطّبع، فإذا لم تعجبه أعمال فانشو فإنّ بمقدوره رفضها دونما كبير عناء؛ فقد كانت عمليّات الرّفض هي جوهر عمله، وما كان ليتردّد في القيام بها. ومن ناحية أخرى فإنّه إذا كان فانشو كاتباً جديراً بالصّفات التّي أطلقتها عليه، فإنّ نشر أعماله من شأنه أن يؤدّي إلى زيادة شهرة ستيوارت، ولسوف يشارك في المجد النّابع من اكتشاف كاتب عبقري أمريكي مجهول، وسيتمكّن من العيش على هذه الضربة الموفّقة سنوات طويلة.

سلّمته مخطوط رواية فانشو الكبرى، وقلت إنّه سيتعيّن في نهاية الأمر أن تكون المعادلة: إمّا كلّ شيء وإمّا لاشيء، القصائد، المسرحيّات، والرّوايتان الأخريان، ولكن هذا هو عمل فانشو الأكبر، ومن المنطقي أن يصدر أوّلاً، وكنت بذلك أشير، بالطّبع إلى رواية «أرض المستحيل». وقال ستيوارت إنّ هذا العنوان قد أعجبه، ولكنّه عندما طلب منّي وصف الرّواية، قلت إنّني أوثر عدم القيام بذلك، وأظنّ أنّه من الأفضل أن يكتشفها بنفسه. وفي معرض الاستجابة لذلك رفع أحد حاجبيه (حيلة ربّما تعلّمها خلال العام الدّراسي الذّي أمضاه في أكسفورد) وكأنّه يشير ضمناً إلى أنّني لا ينبغي أن أعابثه. وبقدر ما يمكنني القول فإنّني لم أكن بصدد المعابثة، وكلّ ما هنالك أنّني لم أُرِدْ فرض الأمور عليه فرضاً، فالكتاب هو الذّي يمكنه القيام

بذلك، ولم أجد ما يدعوني إلى حرمانه من الضرب في مجهوله بلا خريطة، وبغير بوصلة، وفي غياب من يمسك بيده ويقود خطاه.

استغرق الأمر ثلاثة أسابيع قبل أن يتّصل بي. ولم يكن النّبأ الذّي حمله إليّ طيباً ولا سيّئاً، ولكنّه يدعو للأمل، فقد قال إنّ هناك من التّأييد في صفوف المحرّرين ما يكفي لإصدار الكتاب، ولكنّهم قبل الوصول إلى قرار نهائيّ أرادوا أن يلقوا نظرة على المواد الأخرى. وقد كنت أتوقّع ذلك - في ضوء قدر من الحكمة والاحتفاظ بالأوراق غير بعيدة عن اليد - فأبلغت ستيوارت بأنّني سأحضر إلى مكتبه لأجلب له معي المخطوطات في أصيل اليوم التّالي.

قال ستيوارت مشيراً إلى نسخة رواية «أرض المستحيل» الموضوعة على مكتبه:

- إنّه كتاب غريب، فهو كما تعلم ليس من نوع الرّوايات التّي تميل إليها، بل لا ينتمي إلى أيّ نوع على الإطلاق. ومايزال من غير الواضح ما إذا كنّا سنمضي قُدُماً بنشره، ولكنّنا إذا قمنا بذلك فإنّه سيكون على شيء من المخاطرة.

قلت:

- أعرف ذلك، ولكن هذا هو ما يجعله مثيراً للاهتمام.

- الأمر المثير للإشفاق حقّاً هو أنّ فانشو ليس موجوداً، أتمنّى لو كان بمقدوري العمل معه، وأحسب أنّ هناك أشياء في الكتاب ينبغي تغييرها، فقرات يتعينّ حذفها، وذلك من شأنه جعل الكتاب أقوى.

- ذلك هو ما يعتزّ به المحرّر، فمن الصّعب عليك أن ترى مخطوطاً من غير أن ترغب في الانقضاض عليه بقلم أحمر. والحقيقة هي أنّني

أعتقد أنّ الأجزاء الّتي تعترض عليها الآن ستبدو لك معقولة بالفعل في وقت لاحق، وسيسعدك أنّك لم تتمكّن من المساس بها.

قال ستيوارت الّذي لم يكن على استعداد للتّسليم بهذه النّقطة:

ـ سيحدّد الزّمن ذلك.

وأضاف:

ـ ولكن ليس هناك مجال، ليس هناك مجال للتّشكيك في قدرة الرّجل على الإبداع. لقد قرأت الكتاب قبل ما يزيد عن أسبوعين، وقد لازمني منذ ذلك الحين، وليس بمقدوري انتزاعه من ذهني، فهو يواصل الإلحاح على ذاكرتي، ودائماً في أغرب اللّحظات، عندما أخرج من الحمّام عقب الاستحمام، وخلال السّير في الشّارع، وحينما ألوذ بفراشي ليلاً، وعندما لا أفكّر بصورة واعية في شيء بعينه. وكما تعلم فإنّ ذلك لا يحدث معظم الوقت، ولكن كتاب فانشو يفرض نفسه. هناك شيء قويّ فيه، وأغرب ما في الأمر أنّني لا أعرف ما هو هذا الشيء.

قلت:

ـ ربّما كان هذا هو الاختبار الحقيقيّ، وقد حدث الشيء نفسه لي، فالكتاب يعلق في موضع من المخّ، وليس في وسعك التخلّص منه.

ـ وماذا عن المواد الأخرى؟

قلت:

ـ ينطبق عليها القول نفسه، فليس بمقدورك التوقّف عن التّفكير فيها.

هزّ ستيوارت رأسه، وللمرّة الأولى أدركت أنّه كان قد تأثّر

بالكتاب، على نحو صادق، ولم يَدُمْ ذلك إلاّ لحظة، ولكن في تلك اللّحظة تبدّد الصلف والتّعالي، وأوشكت أن أجد بنفسي رغبة في أن أحبّه.

قال:

ـ أحسب أنّنا قد وقعنا على شيء يُعْتَدّ به. وإذا صحّ ما تقول فإنّي أعتقد حقّاً أنّنا أمام شيء يُعْتَدّ به.

وقد كنّا كذلك، بل وكما أوضحت الأحداث كنّا بإزاء ما يفوق بكثير ما تصوّره ستيورات. وقد قبلت رواية «أرض المستحيل» في وقت لاحق من ذلك الشّهر، مع فتح المجال لنشر باقي الكتب كذلك. وكانت نسبة الرّبع الّتي حصلت عليها من المبلغ المدفوع مقدّماً من دار النّشر كافية لتفرّغي لبعض الوقت، وقد استخدمتها في توفير المجال للعمل على إعداد طبعة للقصائد، كما طرقت عدداً من السّبل لتبيّن ما إذا كان هناك اهتمام بتقديم المسرحيّات على خشبة المسرح، وقد عاد هذا الجهد بثمرته كذلك، وتمّ الإعداد لتقديم ثلاث من المسرحيّات ذوات الفصل الواحد في مسرح صغير بقلب المدينة، على أن يبدأ العرض بعد حوالي الشّهر ونصف الشّهر من صدور رواية «أرض المستحيل». وفي غضون ذلك أقنعت رئيس تحرير مجلة من أكبر المجلاّت الّتي أكتب لها بين الحين والآخر بأن تتيح لي المجال لكتابة مقال عن فانشو. وقد جاء عملاً ضافياً وفريداً من نوعه. وفي ذلك الوقت شعرت بأنّه من أفضل ما كتبت، وقد أدرج المقال بحيث ينشر قبل شهرين من صدور «أرض المستحيل»، وبدا فجأة كما لو أنّ كلّ شيء يقع في وقت واحد.

أعـترف بأنّني نسيت نفسي في غـمار هذا كلّه، وأفضى الأمـر إلى ما يليه، وقبل أن أدري بما يجري كانت سلسلة من الأعمال قد انطلقت، وأحسب أنّ ذلك كان نوعاً من الهـذيان، وسـاورني شعور بـأنّني أشبه مهندساً يضغط عـلى الأزرار ويجذب عِصيّ تحـريك الـروافع، منتقـلاً على عجل من غرف الصِمامات إلى علب الدّوائـر، معدِّلاً جـزءاً هنا، ومُـدْخِلاً تحسينـاً هناك، ومُصْغِيـاً لطنـين ودويّ ودمدمـة أداة غـريبـة الشّكل، غافلاً عن كلّ شيء، إلاّ عن جلبة ما ابتكرته. وكنت شبيهاً بعالم مجنون اخترع الآلة العجائبيَّة الكبرى، وكلّما اندفع منها المزيد من الدّخان زادت الضّجة الّتي تصدر عنها، وتعاظمت سعادتي.

ربّمـا كان ذلـك أمراً حتميّـاً، وربّمـا احتجت إلى شيء من الجنـون لتحقيق مـرحلة البدء. وفي ضـوء عناء تحقيق التـأقلم بيني وبين هـذا المشروع، فربّما كان من الضّروري بالنّسبة إليّ أن أجعل نجاح فانشـو معـادلاً لنجاحي. لقـد وقعت مصادفـة على قضيّـة، على شيء جعـل وجــودي مـبرّراً، وجعلني أشعــر بـأهميّتي، وكلّما اختفيت في غمــرة طمـوحاتي المكـرَّسة لأعـمال فانشـو ازدادت حـدّة تـوحُّـدِي مـع ذاتي وتـوافقي معها. وليس هـذا بالعـذر الّذي ألتمسـه لنفسي، وإنّما هـو وصف لمــا حـدث فحسب. ويحــدِّثني شيء بــأنّني كنت أسعى وراء المشكـلات، ولكنّني لم أكن أدري في ذلـك الـوقت بشيء من هـذا، والأمر الأكثر أهميّـة هو أنّني حتّى لـو علمت بذلـك فإنّني أشـكّ في أنّ ذلك كان سيجعل الأمر مختلفاً عمّا صار إليه.

وراء هذا كلّه قبعت الرّغبة في البقاء على اتّصال بصوفي؛ ذلك أنّه بمرور الوقت أصبح من الطّبيعي تماماً بالنّسبة إليّ أنّ أتّصل بها هـاتفياً

ثلاث مرّات او أربعاً كلّ أسبوع، وأنّ أتناول طعام الغداء معها، وأمرّ بها للقيام بجولة مع بن في الأصيل في أرجاء الحيّ. وقمت بتعريفها بستيوارت جرين، ودعوتها للقاء المخرج المسرحيّ، ووجدت لها محامياً يعالج أمور العقود والشؤون القانونيّة الأخرى. وقد تلقّت صوفي هذا كلّه دونما صعوبة أو تردّد، وتعاملت مع هذه اللقاءات وكأنّها مناسبات اجتماعيّة أكثر ممّا هي أحاديث عمل، وأوضحتْ لمن التقيناهم أنّني المسؤول عن الأمر برمّته، وشعرتُ بأنّها قد عقدت العزم على ألاّ تحسّ بأنّها مدينة لفانشو، وأنّه أيّاً كان ما سيحدث أو لا يحدث فإنّها ستواصل الحفاظ على المسافة الّتي تفصلها عنه. وبالطّبع أسعدها الحصول على المال، ولكنّها لم تربطه قطّ بصورة حقيقيّة بأعمال فانشو فقد كان هبة لم تخطر على البال أو بطاقة يانصيب رابحة هبطت عليها من السّماء، وذلك هو كلّ ما هناك. وقد أدركت العبثيّة الأساسيّة في الموقف، ولأنّها لم تكن امرأة طمّاعة، ولم يكن لديها دافع يدعوها لتحويل الموقف إلى كسب خاصّ بها، فإنّها لم تفقد بصيرتها.

بذلت جهداً في التّودد إليها، ولاشكّ أنّ دوافعي كانت جليّة، ولكن ربّما كان ذلك رصيداً إيجابيّاً، فقد كانت تعرف أنّني وقعت في هواها، وربّما شكّلت الحقيقة القائلة بأنّني لم أتعجّلها ولم أجبرها على أن تعلن مشاعرها نحوي، ثقلاً أكبر في إقناعها بجدّيتي من أيّ شيء آخر. ومع ذلك فلم يكن بمقدوري الانتظار إلى لأبد. فللحذر دوره ولكنّ الكثير منه يمكن أن يكون قاتلاً. وقد جاءت لحظة كان بمقدوري فيها الشّعور بأنّنا لم نعد نتصارع، وإنّما الأمور بيننا قد استقرّت. وعندما أفكّر في هذه اللّحظة الآن فإنّني أميل إلى استخدام

لغة الحبّ التقليديّة. أريد أن أتحدّث بلغة مجازيّة قوامها السّخونة، والاحتراق، والحواجز الّتي تنصهر في مواجهة العواصف الّتي لا تقاوم، وإنّني أدرك كيف أنّ هذه التّعبيرات قد تبدو مبالغاً فيها، ولكنّني أعتقد أنّها دقيقة في نهاية المطاف، فقد تغيّر كلّ شيء بالنّسبة إليّ، والكلمات الّتي لم يسبق لي أن فهمتها قطّ بدأت فجأة تكتسب معنى. وقد جاء هذا بمثابة اكتشاف لي، وعندما أتيح لي أخيراً الوقت لاستيعابه، رحت أتساءل كيف عشت كلّ هذا العمر من غير أن أتعلّم هذا الشيء البسيط. ولست أتحدّث عن الرّغبة بقدر ما أتحدّث عن المعرفة، عن اكتشاف أن شخصين يمكنهما، من خلال الرّغبة، أن يخلقا شيئاً أعظم قوّة ممّا يمكن لأي منهما أن يخلقه منفرداً. وأحسب أنّ هذه المعرفة قد غيّرتني، وجعلتني بالفعل أشعر بإنسانيّتي على نحو أكبر. ومن خلال الانتماء إلى صوفي بدأت أشعر وكأنّي كنت أنتمي إلى الجميع كذلك. وتبيّن لي أنّ مكاني الحقيقي في الدّنيا هو موضع يتجاوز نفسي، وإذا كان هذا الموضع في أعماقي فإنّه كذلك يستعصي عليّ التّحديد. لقد كان هذا هو الفاصل الصّغير بين الذّات واللاّذات، وللمرّة الأولى في حياتي رأيت هذا اللاّمكان باعتباره قلب الدّنيا تماماً.

وتصادف أنّ حلّ عيد ميلادي الثّلاثين، وكنت قد عرفت صوفي منذ ثلاثة أشهر بحلول ذلك اليوم، وأصرّت على الاحتفال بعيد ميلادي في تلك اللّيلة. وقد تردّدت في البداية، إذ لم أكترث بأعياد الميلاد من قبل قطّ، ولكنّ إحساس صوفي بالمناسبة أقنعني في نهاية المطاف. وقد ابتاعت لي نسخة مصوّرة غالية الثّمن من رواية «موبي ديك» وصحبتني لتناول طعام العشاء في مطعم راقٍ، ثمّ انطلقت بي

لشهود أداء بوريس جودونوف في مسرح المتروبوليتـان. وتركت لنفسي في تلك المرّة العنان في الانسياق مع الحدث، من غير أن أحاول وضع سعادتي موضـع التّساؤل، ومن غـير أن أحاول استبـاق نفسي ومناورة مشاعري. وربما كنت قد بدأت في تلّمس جرأة جديدة لـدى صوفي، ربّمـا كانت تبلّغني بـأنّها قد حسمت الأمـر بالنّسبـة لنفسها، وأنّ أوان التّراجع قد فات بالنّسبة لكلينـا. وأيّاً مـا كان الأمـر فقد كـانت تلك هي اللّيلة الّتي تغيّر فيها كلّ شيء، والّتي لم يعد فيهـا شكّ فيـما نحن بصدده. عدنا إلى شقّتها في حـوالي الحاديـة عشرة والنّصف، ودفعت صوفي لجليسة الطّفل الّتي راحت تدفع النّـوم دفعاً أجـرتها، ثمّ سرنـا على أطراف أصابعنا إلى غرفة بن، ووقفنـا هناك بعض الـوقت نرقبـه وهو غارق في النّـوم في سريره الصّغـير. وأذكر بـوضوح أنّ أيّـاً منّا لم يقل شيئاً، وأنّ الصـوت الوحيـد الّذي استـطعت سماعـه هو صـوت تنفّس بن. وانحنينا على الأعمدة المحيطة بسريـره، ورحنا نمعن النّـظر في الجسم الصّغير الّذي رقد صاحبه على بطنه وقد طوى ساقيه تحتـه، ودسّ إصبعـين أو ثلاثـة أصابـع في فمـه. بـدا أنّ ذلـك قـد استمـرّ طويلاً، ولكنّني أشكّ أن يكون قد تجاوز دقيقة أو اثنتين، ثمّ، ودونمـا سابق إنذار، استقام جسدانا، والتفت أحدنا نحو الآخر، وشرعنا في تبادل القبل. وبعد ذلك يصعب علـيَّ الحديث عـمّا وقع، فمثـل هذه الأمور محدودة العلاقة بـالكلمات، بل إنّها في الحقيقـة محدودة العـلاقة بهـا للغايـة، بحيث أنه لا طـائل تقـريباً من وراء التّعبـير عنها. ولئن قلت شيئاً في هذا الصدد فإنّني مكتفٍ بالقول إنّنـا تهاوينـا أحدنـا على الآخر، تهاوينـا بسرعة بـالغة وبعمق مـوغل، بحيث أنّـه ما من شيء كان يمكن أن يلحق بنا. ومن جديد أنزلق إلى التّعبير بـالمجاز، ولكن

هذا ربّما كان يتجاوز قلب الأمور وجوهرها، فكَوْني أستطيع الحديث عمّا جرى أو أعجز عن ذلك لا يغيّر من حقيقة ما حدث شيئاً. والحقيقة أنّه لم يقدَّر لمثل هذه القبلة أن توجد من قبل قطّ، وإنّني لأشكّ في أنّه يمكن أن توجد مثل هذه القبلة في حياتي بأسرها.

- ٤ -

أمضيت تلك اللّيلة في فراش صوفي، ومنذ ذلك الحين فصاعداً أصبح من المستحيل هجرانه. كنت أعود إلى شقّتي خلال النّهار للعمل، ولكنّني أعود كلّ مساء إلى صوفي، وغدوت جزءاً من أهل الدّار - أتسوّق مواد طعام العشاء، وأبدل حفاضات بن، وأحمل القمامة إلى الخارج - وأعيش مع إنسانة أخرى على نحو أكثر حميميّة ممّا حدث طوال عمري. انقضت الشّهور، واكتشفت لدهشتي الّتي لم تنحسر أنّني أتمتّع بموهبة هذا النّوع من الحياة. لقد ولدت لكي أحيا مع صوفي، وشيئاً فشيئاً أصبح بمقدوري الشّعور بأنّني أصبح أقوى، وبوسعي الإحساس بها وهي تجعلني أفضل ممّا كنت. كانت غريبة تلك الكيفيّة الّتي جمعنا بها فانشو معاً، فلو أنّه اختفى لما حدث شيء من هذا، إنّني مدين له، ولكنّني لم تتح لي الفرصة لردّ هذا الدّين له باستثناء ما أقوم به من أجل أعماله.

نشر مقالي، وبدا أنّه أحدث التأثير المطلوب؛ فقد اتصل بي ستيورات جرين ليقول إنّه «دفعة كبيرة إلى الأمام» الأمر الّذي خمّنت أنّه يعني أنّه أكثر اطمئناناً الآن إلى قراره بقبول نشر الكتاب. ففي ضوء كلّ الاهتمام الّذي أثاره المقال، لم يعد فانشو يبدو بعيداً إلى حدّ كبير عن ذهن النّاس، ثمّ صدرت رواية «أرض المستحيل» وكانت العروض كلّها بلا استثناء جيّدة، بل وبعضها متميّز. كان هذا هو كلّ ما يمكن أن يأمل المرء فيه. وكانت هذه هي القصّة الخياليّة الّتي تراود أحلام كلّ الكتّاب. وأقرّ بأنّني قد صدمت قليلاً، فمثل هذه

الأمور لا يفترض أن تحدث في عالم الـواقع. وبعـد أسابيـع قليلة من الإصدار تجاوزت المبيعات ما كـان متوقّعـاً بالنّسبـة إلى الطّبعـة الأولى بكـاملها، ودفـع إلى المطبعـة بطبعـة ثانيـة، كما نشرت إعـلانـات في الجـرائد والمجـلات، ثمّ بيـع الكتـاب لشركـة متخصّصـة في إصـدار الـطّبعات ذات الأغلفـة الورقيّـة لإصـداره في العـام المقبـل. ولست أقصـد الإيحاء بـأن الكتاب كـان من أفضـل الكتب مبيعـاً بـالمعـايـير التجـاريّـة، أو أنّ صـوفي كـانت بسبيلهـا إلى أن تصبـح من ذوي الملايين، ولكن في ضوء جديّة أعمال فانشو وصعوبتها، وفي ضوء ميل الجمهور إلى الابتعاد عن مثـل هذه الأعـمال فقد كُلِّل الكتـاب بنجاح يتجاوز ما تصوّرنا أنّه بالإمكان.

هـذا هو المـوضع الّـذي يجب، بمعنى من المعاني، أن تنتهي عنـده القصّـة. العبقري الشّـاب مـات، ولكنّ أعـمالـه تـواصـل خلودهـا، ولسوف يُتَذَكَّر اسمُه على امتداد سنوات كثيرة تالية، وقد أنقذ صـديق طفولته الأرملة الجميلة الشّابة، وسوف يحبّ أحدهما الآخر إلى الأبد. ولسوف يبدو ذلك إنهاء للأمر، ولا يبقى إلّا أن يُسْدَل السِّتار الأخير، ولكن يتّضح أنّ ذلك ليس إلّا البـداية، فـما كتبته حتّى الآن لا يعـدو أن يكون مقدّمة، موجزاً سريعاً لكـلّ ما جـاء قبل القصّـة الّتي يتعيّن عـليّ أن أرويها، فـإذا لم يكن هناك إلّا هـذا لما كـان هنـاك شيء عـلى الإطـلاق ـ فما كـان يمكن أن يجبرني شيء عـلى البدء. الـظّلام وحـده يحظى بالقدرة على جعـل الإنسان يفتـح قلبه للدنيـا، والظّلام هـو ما يحيطني عندما أفكّر في ما حدث، ولو كانت الحاجة تمسّ إلى الشّجاعة من أجل الكتابة عنه. وإنّني لأعلم كذلك أنّ الكتابة عنه هي الفرصة الوحيدة المتـاحة لي لـلإفلات، ولكنّني أشـكّ في أن ذلك سيحـدث،

حتى ولو أفلحت في قول الحقيقة. والقصص الّتي لا نهاية لها لا يمكنها القيام بشيء إلاّ الاستمرار إلى الأبد، والوقوع في أسر إحداها يعني أنّك ينبغي أن تموت قبل انتهاء أداء دورك، وأملي الوحيد هو أن تكون هناك نهاية لما أوشك على قوله، وإنّني في موضعٍ ما سأجد انقطاعاً في الظّلام، وهذا الأمل هو ما أنظر إليه باعتباره شجاعة، ولكن مسألة وجود سبب يدعو للأمل هى مسألة مختلفة تماماً.

كان ذلك بعد حوالي ثلاثة أسابيع من بدء عرض المسرحيّات. فقد أمضيت اللّيلة في شقّة صوفي، كالمعتاد، وفي الصّباح مضيت مبتعداً عن قلب المدينة إلى شقّتي للقيام ببعض الأعمال. وأذكر أنّه كان يفترض أن أنتهي من كتابة مقال عن أربعة دواوين أو خمسة، إحدى تلك المراجعات المؤلّفة من خليط من المواد. وقد وجدت بعض الصّعوبة في التّركيز، فقد واصل ذهني الشّرود بعيداً عن الكتب الموضوعة على مكتبي، وكنت أنهض من مقعدي كلّ خمس دقائق أو نحو ذلك وأذرع الغرفة، فقد روى لي ستيورات جرين أوّل أمس قصّة غريبة، وكان من المتعذّر عليّ التّوقف عن التّفكير فيها. قال ستيورات إنّ النّاس قد بدأوا يقولون إنّه لا وجود لشخص يدعى فانشو. وقالوا إنّه من بنات أفكاري، وأنّني ابتكرته للقيام بخدعة، وأنّني كتبت هذه الكتب بالفعل. وكان ردّ فعلي الأوّل هو الضحك، وإلقاء بعض النّكات عن أنّ شكسبير بدوره لم يكتب أيّة مسرحيّات، ولكنّني الآن وبعد أن فكّرت في الأمر مليّاً، لم أدرِ هل أشعر بالإهانة أم بإرضاء كبريائي إزاء هذا الحديث. ألم يثق النّاس في إبلاغي إيّاهم بالحقيقة؟ لماذا أكلّف نفسي عناء إبداع كلّ هذا الكمّ المتكامل من الأعمال ثمّ بعد ذلك أرفض ربط اسمي به؟ ومع ذلك هل اعتقد

النّاس بأنّني قادر على تأليف كتاب في جودة «أرض المستحيل»؟ أدركت أنّه ما إنّ تنشر كلّ مخطوطات فانشو حتّى يكون بمقدوري تماماً أن أكتب كتاباً أو كتابين تحت اسمه، أن أقوم بإنجاز العمل بنفسي، ومع ذلك أستطيع تمريره على أنّه عمله. ولم أكن أعتزم بالطّبع القيام بهذا، ولكنّ مجرَّد الفكرة فتحت آفاق مفاهيم غامضة ومثيرة للاهتمام أمامي: ما الّذي يعنيه أن يقوم كاتب بوضع اسمه على كتاب؟ لماذا يختار بعض الكتّاب الاختباء وراء أسماء مستعارة؟ هل للكاتب حياة حقيقيَّة على أيٍّ حال؟ بدا لي أنّ الكتابة تحت اسم شخص آخر قد تكون ممّا استمتع به - أن أخترع هويَّة سرِّيّة لنفسي - ورحت أتساءل عن السّرّ في أنّني وجدت هذه الفكرة جذّابة. واصلت الفكرة المضيّ بي إلى الأخرى، وفي وقت استنفادي هذا الموضوع اكتشفت أنّني قد أهدرت معظم فترة الصّباح.

بلغت السّاعة الحادية عشرة والنّصف - ساعة توزيع البريد - وقمت برحلتي الطقوسيّة، هبوطاً باستخدام المصعد، لأرى ما إذا كان هناك أيّ شيء في صندوق بريدي. وكانت تلك على الدّوام لحظةً على جانب من الأهميّة خلال النّهار بالنّسبة إليّ، ووجدت أنّه من الصّعب عليّ الدنوّ منه في هدوء، فقد كان هناك على الدّوام احتمال ورود أنباء طيّبة - شيك غير متوقّع، عرض للعمل، رسالة ستغيّر حياتي على نحو من الأنحاء - وفي ذلك الوقت كانت عادة التوقّع قد أصبحت جزءاً لا يتجزّأ منّي، بحيث أنّني لم يكن بمقدوري النّظر إلى صندوق بريدي من غير الاندفاع إليه. وكان هذا هو مكاني الخفيّ، البقعة الوحيدة الّتي تخصّني تماماً، ومع ذلك كانت تربطني

بباقي العالم. وفي ظلامها السّحريّ كمنت القدرة على جعل الأشياء تحدث.

لم تكن هناك إلاّ رسالة واحدة لي في ذلك اليوم، وقد جاءت من طيّ مغلّف أبيض عاديّ يحمل خاتم بريد نيويورك، ولا يحمل عنوان المُرسِل. ولم يبد البنط الّذي كتب به العنوان مألوفاً بالنّسبة إليّ (كان اسمي وعنواني مكتوبين بحروف كبيرة باستخدام آلة ناسخة) ولم أستطع مجرّد البدء بتخمين مَنْ بعث بهذه الرّسالة إليّ. وفضضت المغلّف في المصعد، وعندئذٍ وفيما كنت أقف هنالك، والمصعد ينطلق إلى الطّابق التّاسع، انقلبت الدّنيا رأساً على عقب بالنّسبة إليّ.

استُهِلّت الرّسالة على هذا النحو: «لا تغضب منّي لكتابتي هذه الرّسالة لك؛ فقد أردت أن أبعث لك، متجشّماً المخاطرة بتعريضك لأزمة قلبيّة، كلمة أخيرة، وأن أشكرك على قمت به، فقد عرفت أنّك الشّخص الّذي ينبغي أن أتوجّه إليه بطلبي، ولكن الأمور تبيّن أنّها أفضل ممّا يرجوه المرء، فقد تجاوزت حدود الممكن، وإنّي مدين لك. لسوف يلقى صوفي والطّفل الرّعاية، ولهذا فإنّ بمقدوري الحياة بضمير لا يثقله عبء.

لن أوضّح لك موقفي هنا، وعلى الرّغم من هذه الرّسالة فإنّني أريدك أن تواصل النّظر إليّ باعتباري ميتاً، فلا شيء أكثر أهميّة من ذلك، ويتعينّ الاّ تبلّغ احداً بأنّك تلقيّت رسالة مني، فلن يعثر عليّ أحد، والحديث عن هذه الرّسالة لن يؤدّي إلاّ إلى مشكلات لا طائل من وراء إثارتها. وأريدك في المقام الأوّل ألاّ تذكر شيئاً لصوفي، اجعلها تطلب الطلاق، ثمّ تزوّجها بأسرع ما يمكنك، وإنّني لأثق

بأنّك ستقوم بذلك، وأبارك خطوتك هذه. إنّ الطّفل بحاجة إلى أبّ، وأنت الوحيد الّذي يمكنني الاعتماد عليه في القيام بهذه المهمّة.

أريدك أن تدرك أنّني لم أُجَنّ، فقد اتّخذت قرارات معيّنة كانت ضروريّة، وعلى الرّغم من أنّ أناساً قد عانوا من جرّاء ذلك فإنّ الرّحيل كان أفضل وأرقّ شيء قمت به على الإطلاق.

وعندما يحلّ العام السّابع على اختفائي سيكون ذلك هو يوم موتي، فقد أصدرت حكماً على نفسي، ولن يتمّ استئناف هذا الحكم.

أُناشدك ألّا تبحث عنّي؛ فليست لديّ رغبة في أن يعثر أحد عليّ، ويبدو لي أنّ من حقّي أن أعيش ما بقي من عمري على نحو ما يناسبني. والتّهديدات تعدّ شيئاً مقزّزاً بالنّسبة إليّ، ولكن ليس أمامي خيار في توجيه هذا التّحذير إليك: إذا نجحت بفضل معجزة من المعجزات في اقتفاء أثري والوصول إليّ فإنّني قاتلك.

أسعدني أنّ أعمالي قد أثارت كلّ هذا الاهتمام، ولم يخطر ببالي أنّ شيئاً من هذا القبيل يمكن أن يحدث، لكنّ كلّ هذا يبدو بعيداً للغاية عنّي الآن، فتأليف الكتب ينتمي إلى حياة أخرى مفارقة بالنسبة إليّ، والتّفكير فيه الآن لا يثير حماسي، ولن أحاول أبداً المطالبة بأيّة أموال، وأنا أعطيك وصوفي إيّاها عن طيب خاطر. فقد كانت الكتابة بالنّسبة إليّ مرضاً دهمني ولزمني وقتاً طويلاً، ولكنّني شفيت الآن منه.

كن على يقين من أنّني لن أتّصل بك ثانية، وها قد تحرّرتَ منّي الآن، وإنّني لأتمنّى لك حياة مديدة وسعيدة. ما أجمل وصول كلّ شيء إلى ما صار عليه الحال الآن. إنّك صديقي، وأملي الوحيد أنّك

ستكون على الدّوام ما أنت عليه. وأمّا عن حالي فهذا حـديث آخر، ولعلّك تتمنّى لي حظّاً طيّباً».

لم يكن هناك توقيع في أسفل الرّسالة. وطوال السّاعة أو السّـاعتين اللّتين أعقبتا ذلك حاولت إقناع نفسي بأنّ تلك ليست إلاّ مزحة، فلو أنّ فانشو كان كاتبها فلماذا أغفل توقيعها بـاسمه؟ رحت أتشبّث بهـذا على أنّه دليل على وجود حيلة، باحثاً في يأس عن عذر يتيح لي إنكـار ما حدث. ولكنّ هـذه النّزعـة للتّفاؤل لم تـدم طويـلاً، وشيئاً فشيئـاً أرغمت نفسي على مواجهة الواقع. فقد كان في الوسع أن يوجـد عدد لانهائيّ من الأسباب الدّاعية لإغفال الاسم في الرّسالة، وكلّما أمعنت التّفكير في الأمر بدا لي بقدر أكبر من الوضوح أنّ ذلك هـو على وجـه الدّقة السرّ في أنّ الرّسالة ينبغي أن تعتبر أصيلة وبعيدة عن الزيف أو الاحتيـال، فمن شأن من يـريد القيـام بحيلة أن يحـرص عـلى إدراج الاسم، ولكنّ الشّخص الحقيقيّ لن يفكّـر مرّتـين في القيام بـذلـك. ومن ينطلق للقيام بحيلة هو وحده الّذي ستتاح له الثّقة بـالنّفس الّتي تدفعه لارتكاب مثل هذا الخطأ الصّارخ، ثمّ هناك الجمـل الأخيرة في الرّسالة «ستكون على الدّوام ما أنت عليه، أمّا عن حالي فهذا حديث آخر». هل كان معنى ذلك أنّ فانشو أصبح شخصاً آخـر؟ لاشكّ في أنّه كان ينتحل اسماً آخر ـ ولكن على أيّ نحو كان يعيش ـ وأين؟ ربّما كان خاتم مكتب بـريد نيـويورك بمثـابة مؤشر أوّلي، ولكنّـه في الوقت نفسـه كان يمكن أن يكـون جزئيّـة من معلومات زائفـة لإبعـادي عن اقتفاء أثره. وقد كان فانشو شديد الحذر. وقد قـرأت الرّسـالة مـراراً وتكـراراً، محاولاً تفكيـك جزئيّـاتها، وبـاحثاً عن مـدخل إليهـا، عن

طريقة لقراءة ما بين السّطور، ولكنّ ذلك لم يُفْضِ إلى شيء. فقد كانت الرّسالة غامضة، كتلة من الظّلام تتحدّى المحاولات للولوج إلى أعماقها. وفي نهاية المطاف استسلمت ووضعت الرّسالة في جارور مكتبي، وأقررت بأنّني حرت في أمري، وأنّه ما من شيء سيكون بالنّسبة إليّ ما اعتدته من قبل.

أعتقد أنّ أكثر ما يضايقني كان غبائي، وعندما أعود بناظري إلى الأمر الآن أدرك أنّ كلّ الحقائق قد طرحت أمامي منذ البداية، عند لقائي الأوّل مع صوفي. فعلى امتداد سنوات لا ينشر فانشو شيئاً من أعماله، ثمّ يبلّغ زوجته بما يتعينّ عليها القيام به إذا حدث شيء (أن تتصّل بي، ويدفع عمله للنّشر) ثمّ يختفي. كان الأمر كلّه بالغ الوضوح، فقد أراد الرّجل الرَّحيل، وقد رحل. لقد نهض ذات يوم وهجر زوجته الحامل، ولأنّها وثقت به، ولأنّها لم تتصوّر أنّ بمقدوره القيام بشيء من هذا القبيل فإنّه لم يكن أمامها خيار إلاّ الاعتقاد بأنّه لقي حتفه. لقد ضُلِّلت صوفي نفسُها، ولكن في ضوء طبيعة الموقف كان من الصَّعب تصوّر إمكانيّة تصرّفها على نحو آخر. وأمّا أنا فلم يكن لديّ مثل هذا العذر، فلم يحدث منذ البداية ذاتها أن قمت بالنّفاذ إلى قلب الأشياء، وقفزت إلى قلب الموقف مع صوفي، وابتهجت بقراءتها الخاطئة للحقائق، ثمّ توقّفت عن التّفكير كلّية، وقد أُعدِم أناسٌ جزاءً وفاقاً لجرائم أقلّ جسامة من تلك الجريمة.

مرّت الأيّام، وأوحت لي كلّ غرائزي بالوثوق بصوفي، وأن أطلعها على الرِّسالة، ولكنّني لم أستطع حمل نفسي على القيام بذلك، فقد كنت شديد الخوف وبعيداً عن التيقُّن من الكيفيّة التي سيكون

عليها ردّ فعلها. وفي حالاتي المزاجيّة الأكثر تماسكاً كنت أجادل نفسي بالقول إنّ التزام الصّمت هو السّبيل الوحيد لحماية صوفي. فأيّ خير يجلبه لها العلم بأنّ فانشو قد هجرها؟ لسوف تلوم نفسها على ما حدث، ولم أرغب في أن يحلّ مكروه بساحتها. غير أنّه تحت هذا الصّمت النبيل كَمَنَ صمت الفزع والخوف. كان فانشو على قيد الحياة، وإذا تركت صوفي تعلم بذلك فما الّذي ستفعله هذه المعرفة بنا؟ كانت الفكرة القائلة بأنّ صوفي قد ترغب في أن يعود فانشو إليها أقوى من أن أحتملها، ولم تكن لديّ الشّجاعة للمخاطرة باكتشاف جليّة هذا الأمر. وربّما كان هذا أعظم فشل مُنيت به، ولو أنّني آمنت بحبّ صوفي لي بقوّة لرغبت في المخاطرة بأيّ شيء. ولكن في ذلك الوقت لم يبد أنّ هناك خياراً آخر، وهكذا قمت بما طلبه فانشو منّي، لا من أجله، وإنّما من أجلي. كتمت السرّ وتعلّمت أن ألزم الصّمت.

مرّت أيّام قليلة أخرى، ثمّ تقدّمت لخطبة صوفي، وكنّا قد تحدّثنا عن الزواج من قبل، ولكنّني في هذه المرّة أخرجت الأمر من دائرة الحديث وأوضحت لها أنّني جادّ في إنجازه. وكنت أدرك أنّني أتصرّف على نحو لا يتفقّ مع ما درجت عليه (إذ خلا سلوكي من المرح والمرونة) ولكنّني لم أستطع تجنّب ذلك، فقد كان من المستحيل التعايش مع غموض الموقف، وشعرت بأنّني يتعيّن عليّ أن أحسم الأمور في التوّ. وقد لاحظت صوفي هذا التغيّر فيّ، بالطّبع، ولكنّها إذ لم تكن تدري بسببه فقد فسّرته على أنّه ناجم من فرط العاطفة، وعلى أنه سلوك ذَكَر عصبيّ شديد العناد، يلهث في غمار مطاردته لما

يريده على نحو يفوق أيّ شيء آخر (وهو ما كان صحيحاً كذلك).
قالت: نعم، إنّها ستتزوّجني. ترى هل اعتقدتُ حقّاً أنّها سترفضني؟
قلت:
- إنّني أرغب في تبنّي بن كذلك، أريده أن يحمل اسمي، من المهمّ أن يكبر وهو يعتقد أنّني أبوه.

ردّت صوفي بأنّها ما كانت لترغب في أن يكون الأمر على خلاف ذلك، وأنّ ذلك هو الشيء الوحيد يفرض حضوره بالنّسبة إلينا ثلاثتنا.

واصلت حديثي قائلاً:

وأريد أن يتمّ ذلك سريعاً، بأسرع ما يمكن. في نيويورك لا يمكنك إتمام إجراءات الطّلاق في غضون عام، وهذا وقت طويل للغاية. وليس بمقدوري تحمّل الانتظار كلّ هذا الوقت، ولكن هناك أماكن أخرى. الأباما، نيفادا، مكسيكو، والله وحده يعلم أين، يمكننا الانطلاق إلى هناك لقضاء عطلة، ولدى عودتك ستكونين حرّة في الزواج منّي.

قالت صوفي إنّها تحبّ رنين قولي هذا «حرّة في الزّواج منّي». قالت إنّه إذا كان ذلك يعني الذهاب إلى مكان ما لبعض الوقت فإنّها ستذهب إلى أيّ مكان أريده.

قلت:

- لقد غاب لأكثر من عام الآن، في نهاية المطاف، عام ونصف العام تقريباً. والأمر يقتضي انقضاء سبع سنوات قبل أن يُعتبر ميتَ مكتسِباً لهذه الصِّفة رسمياً. والأشياء تحدث، والحياة تواصل مسيرتها، فكّري فقط في أنّنا قد عرف أحدنا الآخر طوال عام تقريباً.

ردّت صوفي:

ـ إذا شئت الـدّقـة، فقـد دخلت من هـذا البـاب لأول مـرّة في الخـامس والعشرين من تشرين الثـاني (نـوفمـبر) ١٩٧٦، وستكتمـل المدّة عاماً في غضون ثمانية أيّام بالضبّط.

إنّك تتذكّرين.

بالطّبع، أتذكّر. فقد كان أهمّ يوم في حياتي.

استقللنا طائرة إلى برمنجهام في ولاية ألاباما، في الخامس والعشرين من تشرين الثاني (نوفمبر) وعدنـا إلى نيويـورك في الأسبوع الأوّل من كانون الأوّل (ديسمبر). وفي الحادي عشر من كانون الأوّل (ديسمـبر) تزوّجنا في قاعة المدينة، وبعد ذلك مضينا إلى حفل عشـاء سالت فيـه الخمور مع حـوالي عشرين صديقـاً، وأمضينا تلك الّليلة في البـلازا، وطلبنا إفطاراً حمله إلى غرفتنا مسؤولو خدمة الغرف في الصبـاح، وفي وقت لاحق من ذلك اليوم انطلقنا بالطّائـرة إلى مينسوتـا مع بن. وفي الثـامن عشر من كانـون الأوّل (ديسمبر) أقـام لنا والـدا صوفي حفـل زفاف في دارهما، وفي ليلة الرّابع والعشرين احتفلنـا بعيد الميـلاد على الـطريقة النـرويجيَّة، وبعـد ذلك بيـومين غـادرتُ وصوفي الجليـد إلى برمودا لقضـاء أسبوع ونصف الأسبـوع هناك، ثمّ عـدنا إلى مينسـوتا لينضمّ إلينـا بن. وقد اعـتزمنا البـدء بالبحث عن شقّـة جديـدة فـور عـودتنا إلى نيـويورك. وفي منـطقة تقـع غربي بنسلفانيا. وبـعد حوالي ساعة من الطيران تبوّل بن من خلال حفاضاته على حجري، وعندما أريته البقعة القائمة الكبيرة على سروالي، ضحك، وصفّق، ثمّ نظر إلى عينيّ مباشرة، ودعاني أباه للمرّة الأولى.

أتمسّك بالحاضر. فقد مرّت عدّة شهور، وشيئاً فشيئاً بدأ يتضّح لي أنّ في وسعي مواصلة الحياة. وكانت تلك حياة في حفرة مناوشة، ولكنّ صوفي وبن كانا في قرار الحفرة معي، وكان هذا حقّاً ما أردته، ومادمتُ أتذكّر ألاّ أنظر عالياً خارج الحفرة فما كان بمقدور الخطر أن يمسّنا.

انتقلنا إلى شقّة في ريفر سايد درايف في شباط (فبراير)، واستغرق منّا الاستقرار حتّى منتصف الرّبيع ولم تُتَحْ لي إلاّ فرصة محدودة للتّركيز على موضوع فانشو. وإذا كانت الرِّسالة لم تختفِ من خواطري كلّية فإنّها لم تعد تشكّل الخطر نفسه. وكنت أحسّ بالأمن مع صوفي، وشعرت بأنّه ما من شيء يمكن أن يفرّق بيننا، وليس ذلك بمقدور فانشو كذلك، أو هذا هو ما بدا لي · حنيذاك لدى تفكيري في الأمر. وإنّني لأدرك الآن مدى سوء خداعي لنفسي، ولكنّني لم أكتشف هذا إلاّ بعد ذلك بوقت طويل. فالفكرة هي بحكم تعريفها أمر يدركه المرء ويعيه. والحقيقة هي أنّني لم أتوقّف مرّة واحدة عن التفكير في فانشو، ولم أكن أدري في ذلك الوقت أنه كان قابعاً في أعماقي طوال تلك الشُّهور. وإذا لم تكن تعي وجود فكرة لديك فهل من المشروع القول بأنّك تفكّر؟ ربمّا كان يطاردني شيءٍ ما، وربمّا وصل إلى حدّ الاستحواذ عليّ، ولكن لم تكن هناك مؤشّرات تدلّ على ذلك ولا عناصر أوّليَّة تُبلّغني بما يحدث.

كانت الحياة اليوميّة حافلة بالنّسبة إليّ وقتذاك، ولم ألحظ أنّني أنجز عملاً يقلّ عمّا كنت أنجزه في سنوات. لم تكن لديّ وظيفة أمضي

إليهـا صباحـاً، ولمّـا كـانت صـوفي وبن في الشَّقّـة معي فلم يكن من المتعـذّر كثيراً العثـور على أعـذار لتجنّب الجلوس إلى مكتبي. وازداد تراخي جدول أعمالي، وبدلاً من البدء في التَّاسعة من صباح كـلّ يوم تماماً لم أكن أشقّ طريقي إلى غرفتي الصغـيرة في بعض الأحيان إلاّ في الحـادية عشرة أو الحـادية عشرة والنّصف. وفـوق ذلك، كـان وجـود صوفي في البيت عنصر إغواء دائم، فقد كان بن مايزال يغرق في النوم طويلاً مرّة أو مرَّتين يومياً. وفي تلك السَّاعات الهادئة، وبينما هـو يغطّ في النّوم، كان من العسير عليّ عـدم التَّفكير في جسمهـا، وكان الأمـر ينتهي في غالب الأحوال بأن نتضاجع. وكانت صـوفي جائعـة لذلـك مثلي تماماً ومع مضيّ الأسابيع اتّخـذ البيت على مهـل طابعـاً شهوانيـاً، وتحوّل إلى مجال من الاحتمالات الجنسيّة، فنهض العالم السفليّ صاعداً إلى السّطح، واكتسبت كلّ غرفة ذاكرتها الخـاصّة، واستحضرت كـلّ بقعـة لحظة مختلفـة، بحيث أنّه حتّى في هـدأة الحيـاة العمليَّـة لم تكن قطعة بعينهـا من السجّاد، مثـلاً، أو عتبة بـاب بذاتـه شيئاً عـلى وجه التَّحديد وإنّما شعوراً، صـدىً لحياتنـا الشهوانيّـة، كنّا قـد ولجنا لغـز الـرّغبة، وكـان احتياج أحـدنا إلى الآخـر لا تنقع غلّتـه، وكلّما ازداد تحقّقاً بدا أنّه يزداد نموّاً.

كـانت صوفي تتحـدّث بين الحـين والآخـر عن الالتحـاق بعمـل، ولكنّ أيّاً منّا لم يشعر بأنّ ذلك أمر عاجل، فقـد كانت أمـوالنا تكفينـا بصورة طيّبة، بل وأفلحنا في أدّخار القليل. وكان كتاب فانشو التـالي بعنـوان «معجـزات» في مـرحلة الإعـداد للصّـدور. وكـان المقـدَّم المنصـوص عليه في العقـد المبرم مـع النَّاشر أكـبر من نظيره في حـالـة

«أرض المستحيل» ووفقاً للجدول الزمنيّ الّذي وضعته بالاشتراك مع ستيوارت، ستصدر القصائد بعد ستّة أشهر من صدور «معجزات» ثمّ أولى روايات فانشو، وهي بعنوان «إظلام»، وفي النهاية تأتي المسرحيّات. وقد بدأت عوائد حقوق نشر «أرض المستحيل» بالوصول في شهر آذار (مارس) ذلك، وتبخّرت كلّ المشكلات المالية مع قدوم شيكات عن هذا العمل أو ذلك بشكل مفاجئ. وشأن كلّ شيء آخر بدا أنّه يحدث، كان ذلك تجربة جديدة بالنّسبة إليّ، فعلى امتداد السنوات الثماني أو التّسع الماضيّة كانت حياتي كسباً للرّزق بصعوبة، واندفاعاً مضطرباً من مقال رديء إلى آخر، وكنت أعتبر نفسي محظوظاً أستطيع التّخطيط لما يزيد عن شهر أو شهرين. كان التحسُّب مغروساً في أعماقي، ويسري مسرى الدّم منّي، وجزءاً من خلاياي، ولم أكن أدري ما يعنيه التّنفّس من دون التّساؤل عمّا إذا كان بمقدوري دفع فاتورة الغاز. وأمّا الآن، وللمرّة الأولى منذ اعتمدت ماليّاً على نفسي، فقد أدركت أنّني لم أعد مضّطراً للتّفكير في هذه الأمور. وذات صباح، فيما كنت أجلس إلى مكتبي عاكفاً في عناء على كتابة الجملة الأخيرة في مقال، باحثاً عن عبارة لا وجود لها في ذهني، تبينّ لي تدريجيّاً أنّني قد أتيحت لي فرصة ثانية. ففي وسعي التوقّف عن ذلك والبدء من جديد، ولم أعد مضّطراً لكتابة المقالات. كان بمقدوري الانتقال إلى أمور أخرى، والبدء بالقيام بالأعمال التي أردت دائماً إنجازها. كانت تلك فرصتي لإنقاذ نفسي، ووصلت إلى أنّني سأكون أحمق إن لم أنتهزها.

انقضت أسابيع أخرى، وكنت أمضي إلى غرفتي كلّ يوم، ولكن

شيئاً لم يحدث، وساورني، نظريّاً، شعور بالإلهام، وعندما لا أعكف على الكتابة كان رأسي يحتشد بالأفكار، ولكنّني في كلّ مرّة كنت أجلس فيها لأضع شيئاً على الورق كانت أفكاري تبدو لي وكأنّها قد اختفت. فقد كانت الكلمات تموت عندما أرفع قلمي، وبدأت عددا من المشروعات، ولكن شيئاً لم يتماسك بصورة حقيقيّة، وتساقطت المشروعات واحداً بعد الآخر، ورحت أبحث عن الأعذار لأفسّر بها السِّرّ في أنّني لم أستطع المضيّ قُدُماً. لم تكن تلك مشكلة، وقبل أن ينقضي وقت طويل خرجت بمجموعة بكاملها من الأعذار: التأقلم مع الحياة الزوجيّة، مسؤوليّات الأبوّة، غرفة عملي الجديدة (التي بدت ضيّقة أكثر من اللازم) العادة القديمة المتمثّلة في الكتابة وفقاً لموعد نهائيّ للتّسليم، جسم صوفي، المال الّذي جاء على غير انتظار - كلّ شي. وطوال عدّة أيّام راودتني فكرة كتابة رواية بوليسيَّة، ولكنّني صادفت تعقيدات في العقدة ولم أستطع تجميع الجزئيّات معاً. وتركت ذهني يشرد دونما هدف، على أمل إقناع نفسي بأنّ الكسل برهان على استجماع القوّة ومؤشّر على شيء يوشك أن يحدث. وعلى امتداد ما يزيد على شهر كان كلّ ما فعلته هو استنساخ فقرات من كتب. وكانت إحداها مقتطفاً من سبينوزا ألصقته على الحائط: «وعندما يحلم بأنّه لا يرغب في الكتابة فإنّه لا يملك القدرة على الحلم بأنّه يرغب في الكتابة، وعندما يحلم بأنَّه يرغب في الكتابة فإنَّه لا يملك القدرة على الحلم بأنّه لا يرغب في الكتابة».

من الممكن أنّني سأشّق طريقي خارجاً من هذه الورطة. ولكنّه مايزال من غير الواضح لي ما إذا كانت حالة دائمة أو مرحلة عابرة.

وإحساسي الدَّاخلي يوحي لي بأنّني لبعض الوقت كنت ضائعاً، أتعثّر في يأس داخل ذاتي، ولكنّني لا أحسب أنّ ذلك يعني أنّ حالتي لا أمل فيها، فقد كانت أشياء تحدث لي، وكنت أجتاز تحوّلات كبيرة، وكان الوقت مايزال مبكراً للحكم بالاتّجاه الّذي ستمضي فيه هذه التحوّلات ثمّ طَرَحَ حلٌّ نفسَه فجأة، وإذا كانت تلك كلمة مواتية أكثر من اللازم فإنّني سأدعوه بالحلّ الوسط، وأيّاً ما كان فإنّني لم أقاومه كثيراً، فقد جاء في وقت ضعفٍ بالنّسبة إليّ، وكان حكمي أبعد ما يكون عمّا ينبغي. وكان ذلك هو خطأي الجوهري الثاني، وقد انبثق مباشرة عن الخطأ الأوّل.

كنت أتناول طعام الغداء ذات يوم مع ستيوارت قرب مكتبه في أبر إيست سايد. وفي منتصف الوجبة طرح من جديد الشائعات الخاصّة بفانشو، وخطر ببالي للمرّة الأولى أنّ الشّكوك قد بدأت تراوده بالفعل فقد كان الموضوع أكثر فتنة بالنّسبة إليه من أن يدعه وشأنه. وكان أسلوبه خبيثاً وتآمريّاً على نحو ساخر، ولكن تحت هذا المظهر شرعت في الشكّ في أنّه يحاول استدراجي إلى فخّ الاعتراف. وقد جاريته لبعض الوقت، ثمّ عندما سئمت اللّعبة قلت إنّ الأسلوب السّهل لحسم هذه المسألة هو التّكليف بإعداد سيرة حياة لفانشو. وقد طرحت هذه الملاحظة ببراءة تامّة (باعتبارها نقطة منطقيّة لا اقتراحاً أقدّمه) ولكنّها بدت لستيوارت فكرة رائعة فاندفع في الحديث قائلاً:

ـ بالطّبع، بالطّبع، تفسير أسطورة فانشو، واضح للغاية، بالطّبع، القصّة الحقيقيّة في نهاية الأمر.

وفي لحظاتٍ تصوَّر ستيوارت المسألة بكاملها، لسوف أقوم بتأليف

الكتـاب، وسوف يـظهر بعـد صدور كـلّ أعمال فـانشو، وبمقـدوري الحصول على مـا أشاء من وقت، عـلى عامـين أو ثلاثـة أو ما أشـاء.
وأضاف أنّه يتعينّ أن يكون كتاباً فـذّاً، كتابـاً معادلاً لفـانشو نفسـه، ولكنّه يثق بي أعظم الثّقة، وهو يعلم أنّ بمقدوري إنجاز هذه المهمّة.
وقد أخذني الاقـتراح على غـرّة، وتعاملت معـه باعتبـاره نكتة، ولكنّ ستيوارت كان جادّاً، وما كان ليتيح لي رفض الأمر. قال:
ـ فكّر في الموضوع، ثمّ حدّثني بشعورك.

وظللت على شكّي، ولكنّني من قبيل التّهذيب أبلغته بأنّني سأفكّـر في الاقتراح. واتفقنا على أن أوافيه بردّ نهائيّ في نهاية الشهر.

ناقشت الموضوع في تلك اللّيلة مع صوفي، وإذ لم أستطع الحـديث معها بأمانة فإنّ الحوار لم يمدّ لي يد المساعدة.
قالت:
ـ الأمر راجع إليـك. وأحسب أنّك إذا كنت تـريد القيـام به فـإنّ عليك المضيّ قُدُماً.
ـ ألا يضايقك ذلك؟

ـ كلا، على الأقل لا أعتقد ذلك. وقد خطر لي بالفعل أنّه عاجلاً أو آجلاً سيصدر كتاب عنه، وإذا كان ذلك أمراً لا بدّ منه فمن الأفضل أن يكون من تأليفك أنت لا بقلم شخص آخر.
ـ سأضطّر للكتابة عنك وعن فانشو، وقد يبدو ذلك غريباً.
ـ ستكون صفحاتٌ قليلةٌ شيئـاً كافيـاً، ومادمت أنت منْ سيكتبهـا فليس في هذا ما يدعوني للقلق حقّاً.
قلت من غير أن أدري كيف أواصل الحديث:

ـ ربمّا، ولكنّني أحسب أنّ المسألـة الأكثر صعـوبة هي مـا إذا كنت أرغب بـالتورّط في التّفكـير في فانشـو، فربمّـا كـان الـوقت قـد حـان ليختفي تدريجيّاً.

ـ إنّه قرارك، ولكنّ الحقيقة هي أنّ بمقدورك تـأليف هذا الكتـاب أفضل من أيّ شخص آخر، ولا يتعينّ أن يكون سيرة حياة مبـاشرة، بمقدورك كتابة شيء أكثر إثارة للاهتمام.

ـ مثل ماذا؟

ـ لا أعرف، شيء أكثر اتّساماً بالطّابع الشّخصيّ، أكثر قـوّة، قصّة صداقتكما، يمكن أن يكون عنك بقدر ما هو عنه.

ـ ربمّا، إنّها فكرة عـلى الأقلّ، والشيء الّـذي يثير حـيرتي هو كيف يمكنك أن تكوني بمثل هذا الهدوء حِيال الموضوع.

ـ لأنّـك زوجي ولأنّني أحبّك، هـذا هو السَّبب، وإذا قـرّرت أنّـه شيء تريد القيام به فإنّني أسانـده فأنـا في نهاية المـطاف لست عمياء، وأعرف أنّك تصادف مشكلات في عملك، وأحسّ في بعض الأحيـان أنّني أتحمّل اللوم على ذلك. وربّما كان ذلك هو المشروع الّذي تحتـاج إليه للبدء من جديد.

كنت أعتمد على صوفي في قرارة نفسي لتتّخـذ لي القرار، مفـترضاً أنّها ستعـترض، وأنّنا سنتحـدّث عن الموضـوع مرّة، وتكـون في ذلك نهايته، ولكن عكس ذلك تماماً هـو ما حـدث، لقد دفعتُ بنفسي إلى مـأزق، وفجأة خـانتني شجاعتي فـتركت يـومـين ينقضيـان، ثمّ قمت بزيارة لستيوارت، وأبلغته بأنّني سأقـوم بتأليف الكتـاب. وقد تكفّـل

ماركات أصلية	استبدال مجاني	توصيل مجاني	الدفع نقداً عن الإستلام

أحذية رياضية من الماركة العالمية ReeBok



توصيل مجاني لباب بيتك

منتجات أصلية 100 %

تخفيضات كبيرة وعروض مميزة

وسائل دفع متعددة منها الدفع عند الإستلام

أستبدال مجاني خلال 14 يوم

أضغط هنا للدخول على الموقع

رشاقة وأناقة مع أفضل مجموعة رياضية اخترناها لك من ماركة ريبوك



ذلك بأن يتيح لي غداء مجانياً، وبعد ذلك حملت الأمر على كاهلي وحدي.

لم يكن ذكر الحقيقة مطروحاً قطّ، ذلك أنّ فانشو يتعينّ أن يكون ميتاً، وإلّا فإنّه لن يكون للكتاب معنى، ولن يتعينّ عليّ فقط أن أكتم أمر الرّسالة، وإنّما سأكون مرغماً كذلك على التّظاهر بأنّها لم تكتب قطّ، ولم تساورني أوهام عمّا أعتزم القيام به، فقد كان واضحاً منذ البداية ما سأفعله، وقد انغمست فيه والخديعة في قرارة نفسي. لقد كان الكتاب عملاً من نسج الخيال، وعلى الرّغم من أنّه يقوم على أساس الحقائق إلاّ أنّه ما كان يمكن أن يسرد إلّا الأكاذيب. وقد وقّعت عقد تأليفه، وفيما بعد ساورني شعور مَنْ وقّع عقداً يقضي ببيع روحه.

رحت أضرب في أرض التّفكير طوال عدّة أسابيع، باحثاً عن سبيل للبدء وواصلت القول لنفسي إنّ كلّ حياة هي شيء غير قابل للتفّسير، فأيّاً كان عدد الحقائق التي تُقال، وأيّاً كان عدد التّفاصيل التي تُطرح فإنّ الشيء الجوهريّ يقاوم الإفصاح عنه. والقول إنّ فلاناً قد ولد هنا ومضى إلى هناك، وأنّه قد قام بهذا وبذاك، وأنّه تزوّج هذه المرأة وأنجب هؤلاء الأبناء، وأنّه قد عاش، ومات، وترك وراءه هذه الكتب أو هذه المعركة أو ذلك الجسر - ما من شيء من ذلك يحدّثنا بالكثير، فنحن جميعاً نريد أن تحكى لنا قصص، ونحن نصغي إليها على نحو ما كنّا نصغي ونحن صغار، وتتصوّر القصص الحقيقيّة في إهاب الكلمات، ومن أجل القيام بهذا فإنّنا نضع أنفسنا موضع الشّخص الموجوزد في القصّة، متظاهرين بأنّ في وسعنا أن نفهمه لأنّنا

نفهم أنفسنا، وتلك خديعة، فنحن قد نـوجد من أجـل أنفسنا، بـل وفي بعض الأوقـات ندرك من نكـون، ولكنّنا في النهـاية لا نستـطيـع التيقّن، ومـع استمرر حيـاتنا فـإنّنا نصبـح أكثر غمـوضاً بـالنّسبة إلى أنفسنا، ونغدو أكثر وعياً بعدم تماسكنا. وما من شخص يمكنه أن يَعْبُر الحاجز إلى آخر، وذلك لسبب بسيط هـو أنّه مـا من أحد يمكنـه أن يصل إلى ذاته.

عدت بذهني إلى شيء كان قد وقع لي قبل ثماني سنوات في حزيران (يونيو) ١٩٧٠. فقد كنت بلا نقود، ومجرّداً من الإمكـانيات لمـواجهة الصّيف، فـالتحقت بوظيفـة مؤقتـة كمـوظّف في الإحصـاء الـرّسمي للسّكان في هارلم. وكـان في المجموعـة عشرون موظّفـاً هم أقرب إلى مجموعة من العاملين الميدانيـين الّذين لا يتـردّدون في الهجوم ومتـابعة الّذين لم يردّوا على الاستبيانات المرسلة إليهم بالبريد. وقد تدرّبنا عدّة أيّام في علّية مُتْرِبة بالطّابق الثاني أمام مسرح أبولو، ثمّ بعـد أن تملّكنا ناصية التقعيدات المتعلّقة بـالاستمارات، والقـواعد الأسـاسيّة للسلوك المهذّب لموظّف الإحصاء، تفرّقنا في الحيّ وعلى أكتافنا الحقـائب ذات الألـوان الأحمـر والأبيض والأزرق لنـطرق الأبـواب ونــطرح الأسئلة ونعـود بالحقـائق. وقد تبـيّن أنّ أوّل مكـان تـوجّهت إليـه كـان المقـرّ الرّئيسي لعمليّة إعداد برامج ترفيهيّة. وفتح الباب قليلاً، وأطلّ رأس ووراءه كـان بمقدوري أن أرى اثني عشر رجـلاً في غرفـة جـرداء، وهم يكتبون على موائد ممّا يستخدم في النزهات) وقيل لي بأدب إنّهم ليسوا مهتمّين. وقد بدا أنّ ذلك يحدّد الطّابع العام لما سألقـاه، ففي إحدى الشّقق تحـدّثت مع امـرأة شبه ضريـرة كان أبـواها من العبيـد. وبعد

ثلث ساعة من بدء الحوار معها اتّضح لها أخيراً أنّني لست من السّود، وبدأت بالضّحك بصورة متقطّعة، وقالت إنّها شكّت في ذلك طوال الوقت لأنّ صوتي كان غريباً، ولكنّها لم تستطع تصديق ذلك في يُسر، فقد كنت أوّل شخص أبيض يطأ بيتها. وفي شقّة أخرى صادفت عائلة مؤلّفة من أحد عشر شخصاً ليس فيهم من يتجاوز عمره إثنين وعشرين عاماً، ولكن في غالبية الوقت لم يكن أحد هناك، وعندما يصلون فإنّهم يرفضون الحديث معي أو إدخالي شقّتهم. وأقبل الصّيف، وتفاقم حرّ الشّوارع ورطوبتها، وغدت لا تطاق على نحو لا يمكن أن يحدث إلا في نيويورك وحدها. وكنت أستهل جولاتي في وقت مبكر، متخبّطاً في غباء من دار إلى أخرى، وقد تفاقم شعوري بأنّني أُشبه رجلاً هبط من القمر. وفي نهاية المطاف تحدّثت مع المشرف (وهو رجل أسود سريع الحديث، يضع عقدة عنق حريريّة عريضة الطّرفين، ويتجمّل بخاتم ذي ياقوتة زرقاء) وشرحت له مشكلتي، وعندئذٍ تعلّمت ما هو مطلوب منّي حقّاً. لقد كان هذا الرّجل يتلقّى مبلغاً معيّناً مقابل كلّ استمارة يحضرها عضو من أعضاء فريق عمله، وكلّما كانت نتائجنا أفضل زادت النّقود التي تشقّ طريقها إلى جيبه. قال: «إنّني لا أُملي عليك ما يتعينّ أن تقوم به، ولكنْ يبدو لي أنّك إذا قمت بمحاولة مخلصة فإنّك لا ينبغي أن تغلب عليك المشاعر السيّئة».

تساءلت:

ـ هل استسلم إذن؟

قال وقد شابت نغمة التأمّل الفلسفي حديثه:

ـ ومن ناحية أخرى فإنّ الحكومة تريد استمارات مُسْتَكْمَلة، وكلّما زادت الاستمارت الّتي يحصلون عليها غدت مشاعرهم أفضل. إنّني أعرف الآن أنّك فتى ذكيّ، وأعرف أنّ اثنين عندما يضافان إلى اثنين لا يكون حاصل جمعهما خمسة. وكون باب بعينه لا يفتح عندما تطرقه لا يعني أنّه ليس هناك أحد بالّداخل. عليك أن تستخدم خيالك، يا صديقي، فنحن في نهاية المطاف لا نرغب في أن تشعر الحكومة بالتّعاسة. هل تلك هي رغبتنا؟

غدا العمل أكثر سهولة إلى حدٍّ كبير بعد ذلك، ولكنّه لم يَعُد العملَ نفسَه. فقد تحوّل عملي الميدانيّ إلَى عمل كتابي، وبدلاً من قيامي بدور المحقِّق غدوت مُبتكِراً. وكلّ يوم أو يومين أمضي إلى المكتب وأتلقّى رزمة جديدة من الاستمارات، وأسلّم الاستمارات الّتي فرغتُ من استكمالها، ولكنّني بخلاف ذلك لم أكن مضّطراً لمغادرة شقّتي. ولست أدري كم من النّاس اخترعت وجودهم، ولكن لا بدّ أنّ عددهم كان يقدَّر بالمئات، بل بالآلاف. كنت أجلس في غرفتي والهواء الّذي تحرّكه المروحة يهبُّ على وجهي، وقد لففت منشفة باردة حول عنقي، وعكفت على استكمال الاستبيانات بأسرع ما تستطيع يدي الكتابة. كنت أميل إلى العائلات الكبيرة العدد الّتي تضمّ ستّة أطفال أو ثمانية أو عشرة، وازدهاني أن أخترع شبكات غريبة ومعقّدة من العلاقات، وأن أطرح كلّ الإمكانيّات المحتملة، الآباء، الأطفال، أبناء العمومة، الأعمام، العمّات، الأجداد، الأقارب بالمصاهرة، الأبناء بالتّبنّي، الإخوة غير الأشقّاء، الأخوات غير الشّقيقات، الأصدقاء. وكانت هناك في المقام الأوّل متعة اختراع

الأسماء. وفي بعض الأوقات كان عليَّ أن أقمع الدّافع الّذي يحدوني إلى اختيار الغريب من الأسماء، والطّريف بشدّة، والمتضمِّن تورية، والمحتوي على إسقاط جنسي، ولكنّني كنت في معظم الأوقات أكتفي بالبقاء في حدود الواقعيّة، وعندما كان خيالي يخذلني كانت هناك ابتكارات آليّة يمكن اللُّجوء إليها: الألوان (براون، وايت، بلاك، جرين، جراي، بلو) الرؤساء (واشنطن، أدامز، جيفرسون، فيلمور، بيرس) الشّخصيّات الخياليّة (فين، ستاربك، ديمزديل، بادّ) وأحببت الأسماء المرتبطة بالسّماء (أورفيل رايت، إميليا إيرهارت) وبالمرح الصّامت (كيتون، لاندون، لويد) وبالمقاطع الطّويلة (كيلبرو، مانتل، ماين) وبالموسيقى (شوبرت، إيفز، أرمسترونج) وبين الحين والآخر أستعين بأسماء الأقارب البعيدين، أو أصدقاء الدّراسة القدامى، بل استخدمت ذات مرّة جناساً تصحيفيّاً لاسمي.

كان القيامُ به شيئاً صبيانيّاً، ولكنّني لم يكن لديّ ما أشكو منه، كما لم يكن من الصّعب تبرير هذا، ولم يكن المشرف يبدي اعتراضاً، ولم يكن النّاس الّذين يقيمون بالفعل في العناوين المذكورة في الاستمارت يعترضون (لم يكونوا يرغبون في مضايقتهم، ولاسيّما من قبل فتى أبيض يتلصّص على شؤونهم الشّخصيّة) والحكومة لا تعترض، لأنّ ما لا تعرفه لا يضيرها، وبالتّأكيد لن يلحق الضرر بها بأكثر ممّا تضرّ نفسَها، بل إنّني مضيت للدّفاع عن تفضيلي للعائلات الكبيرة على أسس سياسيّة: فكلّما عظم عدد السّكان الفقراء زاد التزام الحكومة بإنفاق الأموال عليهم. وكان ذلك هو مشروع رعاية الأرواح البائسة مع لمسة أمريكيّة، وكان ضميري صافياً.

ذلك كان على أحد المستويات. وفي قرارة الأمر كمنت الحقيقة البسيطة القائلة بأنّني كنت أستمتع بما أقوم به. فقد أسعدني أن أبتكر الأسماء من عدم، وأن أخترع حياة لم يقدَّر لها الوجود قطّ، ولن توجد أبداً. لم يكن ذلك مشابهاً على وجه الدّقة لرسم الشخصيّات في قصّة، ولكنّه كان شيئاً أعظم، شيئاً أكثر إثارة للاضطراب. والجميع يعلم أنّ القصص خياليّة، وأيّاً كان أثرها علينا فإنّنا نعلم أنّها ليست حقيقيّة، حتّى حين تحدّثنا بحقائق أكثر أهميّة من الحقائق الّتي يستطيع المرء العثور عليها في موضع آخر. وفي مقابل كاتب القصّة كنت أطرح إبداعاتي مباشرة على العالم الواقعي، ومن ثَمّ بدا لي أنّه من الممكن أن تؤثّر هذه الإبداعات بطريقة واقعيّة، وأنّها يمكن أن تكون جزءاً من الواقعي ذاته. وما من كاتب يمكن أن يَنْشُد أكثر من ذلك.

عاد هذا كلّه إلى ذهني عندما جلست لأكتب عن فانشو. لقد منحت الحياة ذات يوم لآلاف الأرواح. وأمّا الآن، وبعد ثماني سنوات، فقد كنت على وشك الإمساك برجل حيّ، ودفنه في قبره. كنت صاحب النّصيب الأكبر من الحداد والكاهن المتولّي أمور القدّاس، في هذه الجنازة الزّائفة، وكان عملي هو نطق الكلمات المناسبة، وقول الشيء الّذي يرغب الجميع في سماعه، وكان العملان متعارضينْ ومتطابقينْ وكأنّهما صورتان انعكستا على صقال المرآة. ولكنّ ذلك لم يُدْخِل العزاء على نفسي. فقد كان الخداع الأوّل مزحة، ولا يعدو أن يكون مغامرة شابّة، بينما كان الخداع الثّاني شيئاً جادّاً، ومظلماً، ومخيفاً. لقد كنت في نهاية المطاف أحفر قبراً، وكانت هناك أوقات بدأتُ خلالها بالتّساؤل عمّا إذا لم أكن أحفر قبري.

جادلت بالقول إنّ حياة البشر لا معنى لها، فالإنسان يحيا ثمّ يموت، وما يحدث بين الأمرين لا معنى له. وفكّرت في قصّة «لاشير»، جندي شارك في حملة من الحملات الفرنسيّة الأولى المتّجهة إلى أمريكا. كان جان ريبو قد غادر في ١٥٦٢ م بورت رويال، مخلّفاً وراءه عدداً من الرّجال (قرب رأس هيلتون، في ساوث كارولينا) تحت قيادة ألبير دي بييرا، وهو رجل مجنون حكم بالحديد والنّار. وقد كتب فرانسيس باركمان يقول: «لقد شنق بيديه ضارباً على الطّبل لم يعجبه أداؤه، ونفى جندياً يُدعى لاشير إلى جزيرة منعزلة على بعد ثلاثة فراسخ من القلعة وتركه يتضوّر جوعاً». وقد قتل ألبير في انتفاضة قام بها جنوده، وتمّ انقاذ لاشير شبه الميت من الجزيرة. ولسوف يظنّ المرء أنّ لاشير قد غدا آمناً، وأنّه بعد أن نجا من العقاب الرهيب سيعفى من المزيد من الكوارث، ولكن ما من شيء على هذا القدر من البساطة، فليست هناك غرائب يتعينّ تجاوزها، وما من قواعد تُفْرَض على سوء الطّالع، وفي كلّ لحظة نبدأ من جديد ونكون عرضة لتلقّي ضربة قاصمة على نحو ما كنّا قبل لحظة. وقد تداعت الأمور في المستوطنة، ولم تكن لدى الرّجال موهبة التّعامل مع البريّة، وسيطرت المجاعة والحنين المَرَضيّ للوطن، وباستخدام أدوات قليلة أنفقوا كلّ الطّاقات المتاحة لهم في بناء سفينة «من النّوع الّذي يمكن لروبنسون كروزو إنجازه» للعودة بهم إلى فرنسا. وفي عُرْض المحيط الأطلسي حلّت كارثة أخرى: لم تكن هناك ريح، ونفِد طعامهم وما لديهم من ماء فشرعوا يأكلون أحذيتهم وستراتهم الجلديّة، وفي غمار اليأس شرب بعضهم ماء المحيط، ومات الكثيرون منهم، ثمّ حلّ الانحدار الحتميّ لأكل اللّحم البشري. وكتب باركمان يقول:

«أجريت القرعة، وكان الدّور من نصيب لاشير، ذلك التعس نفسه الّذي حكم عليه ألبير بالموت جوعاً على جزيرة منعزلة، فقتلوه، واقتسموا لحمه بحيويّة شرسة. وقد أبقاهم هذا الطّعام الرهيب على قيد الحياة إلى أن لاحت الأرض لعيونهم، وقد قيل إنّهم في جنون الفرح لم يعد بمقدورهم تسيير السّفينة، وإنّما تركوها لتمضي مع المدّ، فانقضت سفينة بريطانيّة ذات ثلاثة صوارٍ عليهم، ونقلهم رجالها إلى متنها، وبعد أن تركوا على الأرض أكثرهم ضعفاً، حملوا الباقين أسرى إلى الملكة اليزابيث».

إنّني أضرب لاشير مثالاً فحسب، وفميا يتعلّق بالمصائر فإنّ من المؤكّد أنّ مصيره غريب، وربّما كان أقلّ ضراوة من معظم المصائر، فهو على الأقلّ قد مضى في خطّ مستقيم، وذلك في حدّ ذاته أمر نادر يوشك أن يكون نعمة وبركة. وبصفة عامّة فإنّ حياة البشر تمضي، فيما يبدو، في مسيرة منقطعة من شيء إلى آخر، وتضطّرب، وتصطدم، وتمضي نافذة فالشّخص يمضي في اتجاه ثمّ ينحرف بحدّة وسط مساره، ويتجمّد في موضعه، ويمضي ضائعاً، ثمّ يبدأ السّير من جديد. وما من شيء يُعرف أبداً، ومن المحتّم أن نصل إلى مكان مختلف تماماً عن المكان الّذي انطلقنا منه. وفي عامي الدراسيّ الأوّل في كولومبيا سرت إلى جوار تمثال نصفي للورنزو دابونتي، في كلّ يوم خلال توجّهي للصّف الدراسيّ. وكنت أعرفه بصورة غامضة باعتباره كاتب نصوص أوبرات موزار، ولكنّني ما لبثت أن علمت أنّه كان كذلك أوّل أستاذ إيطالي في جامعة كولومبيا، وبدا لي أنّ الأمرين بعيدان عن أن يتّفق أحدهما مع الآخر، وهكذا قرّرت البحث في

الأمر، وقد استبدّ بي الفضول والرّغبة في معرفة كيف أمكن لرجل واحد أن ينتهي به الأمر إلى أن يعيش مثل هاتين الحياتين المختلفتين. وقد تبينّ لي أنّ دابونتي قد عاش خمس حيوات مختلفة أو ستّاً، فقد دُعي باسم إمانويل كونجليانو لدى ميلاده في ١٧٤٩ م ابناً لتاجر جلود يهوديّ. وبعد موت أمّه تزوّج أبوه امرأة كاثوليكيّة، وخلص إلى أنّه ينبغي تعميده مع أبنائه، وقد برز الفتى إمانويل باعتباره مشروع مثقّف واعد، ولدى بلوغه الرّابعة عشرة من عمره قام الأسقف سينادا (مونسنيور دابونتي) برعايته، ودفع كلّ نفقات تعليمه ليغدو كاهناً. وكما جرى العرف في ذلك الوقت فقد خلع على التّابع لقب راعيه. وقد رُسم دابونتي كاهناً في ١٧٧٣ م وأصبح أستاذاً في معهد لاهوتي، يبدي اهتماماً خاصّاً بالأدب اللاتيني والإيطالي والفرنسي. وبالإضافة إلى تحوّله لأحد أتباع التّيار التنويري فقد انغمس في عدد من قصص الحبّ المعقّدة، وتعلّق فؤاده بإحدى نبيلات البندقيّة وأنجب منها طفلاً تحت ستار من السرِّيّة. وفي ١٧٧٦ م شمل برعايته ندوة عامَّة في المعهد اللاهوتي في تريفيسو طرحت التساؤل حول ما إذا كانت الحضارة قد أفلحت في جعل الإنسان أكثر سعادة. ونظراً لهذه الصفعة الموجّهة للمبادئ الكنسيّة فقد أجبر على الهرب إلى البندقيّة أوّلاً، ثمّ إلى جوريزيا، وأخيراً إلى درسدن حيث بدأ حياته المهنيّة كمؤلّف لكلمات الأوبرا. وفي ١٧٨٢ م مضى إلى ڤينّا حاملاً خطاب توصية إلى ساليري، وبالفعل تمّ إلحاقه بالعمل باعتباره «شاعر المسرح الإمبراطوري» وهو منصب شغله على امتداد عقد من الزمان تقريباً. وخلال هذه الفترة التقى بموزار وتعاون معه في إنجاز ثلاث أوبرات حفظت اسمه من الانديساح إلى النسيان. غير أنّه في

١٧٩٠ م، عندما قام ليوبولد الثّاني بتقليص الأنشطة في ڤيِنّا بسبب الحرب التركيّة، وجد دابونتي نفسه عاطلاً عن العمل فمضى إلى تريستا حيث وقع في غرام امرأة إنجليزيّة تدعى نانسي جرال أو كرال (لايزال الاسم موضع خلاف). ومن هناك مضيا كلاهما إلى باريس، ومنها إلى لندن حيث مكثا ثلاثة عشر عاماً، واقتصرت أعمال دابونتي الموسيقيّة على كتابة عدد محدود من الأوبرات لمؤلّفين موسيقيّين غير بارزين. وفي ١٨٠٥ م هاجر مع نانسي إلى أمريكا حيث عاش الأعوام الثلاثة والثّلاثين الأخيرة من عمره، وعمل لبعض الوقت كصاحب حانوت في نيوجيرسي وبنسلفانيا، ومات عن تسعة وثمانين عاماً، ليكون بذلك واحداً من أوائل الإيطاليين الّذين دُفنوا في العالم الجديد. وشيئاً فشيئاً تغيّر كلّ شيء بالنّسبة إليه. وقد تحوّل من العاشق المتأنّق المداهِن الّذي كان في شبابه، والانتهازي الغارق في المؤمرات السّياسيّة في الكنيسة والبلاط معاً، فغدا مواطناً عاديّاً تماماً من مواطني نيويورك الّتي من المحقّق أنّها بدت له في ١٨٠٥ م وكأنّها نهاية العالم. ومن كلّ ذلك انتقل إلى هذا: أستاذ جامعي جادّ في عمله، وزوج مخلص، وأب لأربعة أبناء. ويقال إنّه عندما مات أحد أبنائه استبدّ به الحزن حتّى إنّه رفض مغادرة الدّار لمدّة عام تقريباً. وفي نهاية المطاف فإنّ المعنى المقصود هنا هو أنّ كلّ حياة لا يمكن تقليصها إلّا إلى ذاتها، وهو ما يماثل القول بأنّ حياة البشر لا معنى لها.

لست أقصد العزف على أيّ وتر من هذه الأوتار، ولكنّ الظروف الّتي تغيّر حياة البشر مسارها في ظلّها هي من التنوّع بحيث يبدو من

المستحيـل قول أيّ شيء عن إنسـان إلاّ بعد أن يمـوت. فليس الموت الحَكَمَ الحقّ على السّعادة فحسب (ذلك من أقوال سـولون) وإنّمـا هو المقياس الوحيد الّذي يمكننا به أن نحكم على الحياة ذاتها. وقد عرفت يـوماً متشرِّداً يتحـدّث وكأنّـه ممثّل في مسرحيّـة لشكسبـير، وقـد كـان سكّيـراً بائسـاً في أواسط العمـر يتّخذ من الشّـارع فراشـاً لـه، وتعلو النـدوب وجهه، ويـرتدي خـرقاً، وكـان يستجـدي النّقـود منّي عـلى الدّوام، ومع ذلك فقد كان صاحب معـرض فنّي في ماديسـون أفنيو. وكان هناك رجل آخر عرفته كان يُعتبر ذات يوم أبرز الرِّوائيين الشبَّان في أمريكا، وعندما قابلته كان قد ورث لتوّه عن أبيه خمسـة عشر ألف دولار، وكان يقف في ركن بأحد شوارع نيويورك وهـو يوزّع الأوراق المـاليّة من ذات المـائة دولار عـلى الغربـاء. وكان ذلـك كلّه جزءاً من خطّة للقضاء على النّظامٍ الاقتصادي للولايات المتَّحدة، حسبما أوضح لي. فكِّر فيما حدث، فكِّر في الكيفيّـة الّتي تتمزّق فيهـا حياة النّـاس! على سبيل المثـال، هناك جـوفي ووِيلي، وهمـا اثنان من القضـاة الّذين أصـدروا حكم الإعـدام عـلى تـشـارلـز الأوّل، فقـد جـاء إلى كونكتيكيوت بعـد عودة الملكيّة، وأمضيا حيـاتهما في كهف. أو هنـاك السّيـدة ونشستر، أرملة صـانع البنـادق الّتي كانت تخاف من أشبـاح أولئـك الّذين قُتلوا ببنـادق زوجها واحتـمال إطبـاقهم عليهـا لانـتزاع روحهـا، ومن هنا فقـد واصلت باستمـرار إضافـة غرف جـديدة إلى دارها، صانعة بذلك متاهة رهيبة من الممرّات والمخابئ، بحيث يمكنها النّوم في غرفة مختلفة كلّ ليلة، وبذلك تراوغ الأشباح. والمفارقـة هي أنّها خـلال الـزلـزال الّـذي ضرب سـان فـرانسيسكـو في ١٩٠٦ م احتجزت في إحدى تلك الغرف، وأوشكت على المـوت جوعـاً، إذ لم

يستطع خدمها العثور عليها. وهناك كذلك م.م. باختين النّاقد والفيلسوف ذو النّزعة الأدبيّة، فخلال الغزو الألماني لروسيا في الحرب العالميّة الثّانية قام بتدخين النّسخة الوحيدة من أحد مخطوطاته، وكانت دراسة بحجم كتاب للرّواية الألمانيّة استغرق إنجازها سنوات منه، وقد انتزع الأوراق، واحدة إثر الأخرى من المخطوط واستخدم الورق في لف سجائره، ودخّن كلّ يوم جانباً من الكتاب إلى أن أفناه. وتلك قصص حقيقيّة، وربّما هي أيضاً قصص رمزيّة، ولكنّها تعني ما تعنيه لا لشيء إلاّ لأنها حقيقيّة.

ويظهر فانشو في أعماله ولعاً خاصّاً بالقصص المنتمية إلى هذه النّوعيّة، وهناك، بصفة خاصّة في كرّاساته إعادة سرد لنوادر صغيرة، ولأنّها شديدة التواتر، وبخاصّة في النّهاية، فإنّ المرء يبدأ بالتشكّك في أنّ فانشو قد شعر على نحو من الأنحاء بأنّ بمقدورها أن تساعده على فهم نفسه. وتبدو لي نادرة من النّوادر الأخيرة (تعود إلى شباط (فبراير) ١٩٧٦ م قبل شهرين من اختفائه) على جانب كبير من الأهميّة.

كتب فانشو يقول: «في كتاب قرأته ذات يوم من تأليف بيتر فرويتشن، يصف مستكشف القطب الشهير وقوعه في قبضة عاصفة ثلجيّة في شمالي جرنيلاند. وإذ وجد نفسه وحيداً وقد راحت مؤنه تتناقص فقد قرّر أن يبني كوخاً قُبِّياً من الجليد وينتظر انتهاء العاصفة. وانقضت عدّة أيّام، واستبدّ به الخوف من أن تهاجمه الذئاب، إذ سمعها تعوّي على نحو يوحي بالسَغَب على سقف كوخه القُبِّيّ، وكان يخرج بين الحين والآخر، ويُنْشِد بأعلى صوته ليُخيفها

ويطردها بعيداً، ولكنّ الرّياح كانت تهبّ بوحشيّة، وأيّاً كانت قوّة إنشاده فإنّ الرّيح كانت الشيء الوحيد الّذي استمع إليه. غير أنّه إذا كانت تلك مشكلة خطيرة فقد كان الكوخ القُبِّيّ نفسه مشكلة أخطر كثيراً، ذلك أنّ فرويتشن بدأ يلاحظ أنّ جدران ملجأه الصّغير تطبق عليه تدريجيّاً، فبسبب الظّروف المناخيَّة الخاصَّة خارج الكوخ كان نَفَسُه يتجمّد بالمعنى الحرفي للكلمة على الجدران، ومع كلّ نَفَس كانت الجدران تغدو أكثر سَمْكاً، ويصبح الكوخ أصغر بالقدر نفسه، إلى أن أوشك ألاّ يكون هناك فراغ لجسمه. ومن المؤكّد أنّه أمر مخيف أن تتخيّل أنّك تدفع ذاتك من خلال تنفُّسك إلى قبر من الجليد، وفي اعتقادي أنّ ذلك أكثر قوّة وتأثيراً من عمل إدجار آلان پو الموسوم «الحفرة والبندول». ففي هذه الحالة يُعَدُّ الرّجل نفسُه هو وسيط دماره، بل وأداة هذا الدّمار هي الشيء الّذي يحتاج إليه ليواصل البقاء على قيد الحياة، ذلك أنّه من المؤكّد أنّ الإنسان لا يستطيع الحياة إذا لم يتنفّس، ولكنّه في الوقت نفسه لن يستطيع الحياة إذا تنفّس. ومن الغريب أنّني لا أذكر كيف أفلح فرويتشن في التّخلّص من هذه الورطة، ولكنْ غنيّ عن البيان أنّه أفلح في ذلك. وكان عنوان الكتاب، ما لم تخنّي ذاكرتي، هو «مغامرة قطبيّة». وقد نفِدت نسخة منذ عدّة سنوات».

انـطلقت مـع صـوفي وبن في حـزيـران (يـونيـو) من ذلـك العـام (١٩٧٨ م) إلى نيـوجيرسي لـزيارة والـدة فانشـو. ولم يعد أبـواي من جيرانها (فقد انتقلا بعد التّقاعد إلى فلوريـدا) ولم أقم بزيـارة المنطقـة منذ سنوات. وقد ظلّت السيّدة فانشو على اتّصال بنا، باعتبارها جدّة بن، ولكنّ العلاقات كانت إلى حدّ ما على درجة من الصّعوبـة، فقد بـدا أنّ هناك تيّـاراً سُفليّاً من العـداء في موقفهـا من صـوفي، وكـأنّها كانت تلومها في قرارة نفسها على اختفاء فـانشو. وكـان هذا الاستيـاء يطفو على السّطح بين الحين والآخر، في عبارة عرضيّة غـير مقصودة. وكنت وصوفي ندعوها عبر فترات معقـولة، ولكنّهـا لم تكن تقبل هـذه الـدّعـوات إلاّ نـادراً، وعنـدمـا كـانت تجيء فإنّها تجلس متململة، ومبتسمـة، ومتحـدّثـة بتلك الـطّريقـة الّتي درجت عليهـا ويمـازجهـا الانفعـال السّريع، متـظاهرة بـالإعجاب بـالطّفـل، ومبديـة لصـوفي مجاملات لا يقتضيها المقام، ومُشِيدة بحظّها المتألّق، ثمّ ترحل مبكرة، ناهضة دائماً وسط الحوار، ومدمدمـة بأنّها قـد نسيت موعـداً في مكان آخر. ومع ذلك فقد كـان من الصّعب أن تؤاخذ عـلى ذلك، فـما من شيء سار على نحو طيّب في حياتها، وقد كفّت الآن بشكـل أو بآخـر عن تعليق الآمال على حدوث ذلك. فقد مات زوجها واجتازت ابنتها سلاسل ممتدّة من الانهيارات الذهنيّة، وهي تعيش الآن على المهدّئات في دار بعيـدة للعلاج، واختفى ابنهـا. وكانت مـاتزال تتمتّـع بجمالهـا رغم بلوغها الخمسين من العمر (عندما كنت صبيّاً كنت أحدّث نفسي بأنّها أكثر من رأيت من النّساء فتنة). وقـد واصلت مسيرتهـا في الحياة

بعدد من العلاقات العاطفيّة المتشابكة (كانت قائمة الرّجال في حياتها وفيرة دائماً) وبجولات محمومة من التسوّق في نيويورك، وبعشق رياضة الجولف. وقد جاء النّجاح الأدبي الّذي أحرزته أعمال فانشو مفاجأة لها، ولكنّها كانت الآن وقد تأقلمت مع هذا النّجاح على استعداد تام لتحمّل مسؤوليّة كونها أمّ كاتب عبقريّ. وعندما اتّصلت بها لأبلاغها بأمر سيرة حياة فانشو بدا أنّها متلهّفة للمساعدة في هذا الشأن، وقالت إنّ لديها رسائل وصوراً ووثائق، وستطلعني على أيّ شيء أرغب في رؤيته.

وصلنا إلى هناك عند الضّحى، وبعد بداية شابها الارتباك وأعقبها تناول قدح من القهوة في المطبخ، وحديث طويل عن الطّقس، تمّ اصطحابنا إلى غرفة فانشو العتيقة بالطّابق العلويّ. وكانت السّيدة فانشو قد استعدّت لي بدقّة بالغة، وقد وضعت المواد كافّة في أكوام منمّقة على ما كان مكتب فانشو. وقد أذهلني هذا التّراكم، وإذ أرتج عليّ فإنّي لم أجد إلاّ أن أشكرها على مساعدتها الكبيرة، ولكن ساورني في حقيقة الأمر شعور بالخوف، وأذهلني الكمّ الهائل لما كان هناك. وبعد دقائق قليلة هبطت السيّدة فانشو إلى الطّابق السُّفلي وخرجت إلى الفناء الخلفي مع صوفي وبن (وكان اليوم دافئاً ومشرقاً) وتُركتُ هنالك وحدي. وأتذكّر أنّني تطلّعت من النّافذة ولمحت بن وهو يمضي متعثّراً عبر العشب في حلّته الّتي تعلو حفاضاته، وهو يصرخ ويشير بيديه فيما كان طائر أبي الحنّاء يرفّ مبتعداً فوق الرؤوس. ونقرت على النّافذة، وعندما التفتت صوفي وتطلّعت إلى أعلى لوّحت لها فابتسمت، وبعثت إليّ بقبلة على جناحي النّسيم، ثمّ مضت مبتعدة

لتفحص أحد أحواض الزّهور مع السيِّدة فانشو.

جلست إلى المكتب. وكان الجلوس في تلك الغرفة شيئاً رهيباً، ولم أدرِ إلى أيّ مدى كان يمكنني الصّمود هناك. كان قفّاز فانشو الّذي استخدمه في لعب البيسبول موضوعاً على الرّف وبداخله كرة بيسبول بالية، وعلى الرفوف فوقها وأسفلها قبعت الكتب الّتي قرأها في طفولته، وخلفي مباشرة كان هناك الفراش بالغطاء ذي المربّعات الزرقاء والبيضاء الّذي أذكره منذ سنوات خلت. وكان ذلك هو الدّليل الملموس، بقايا عالم طواه الموت. لقد دلفت إلى متحف ماضيَّ الخاصّ، وأوشك ما ألفيته هناك أن يسحقني.

تراكمت في كومة واحدة شهادة ميلاد فانشو، وبطاقات تقاريره المدرسيّة وشاراته في أشبال الكشّافة وشهادة إتمام الدّراسة الثّانويّة. وفي كومة أخرى كانت هناك صور فوتوغرافيّة، ألبوم لصور فانشو الوليد، وألبوم له ولأخته، وألبوم للعائلة (فانشو في الثّانية من عمره بين ذراعي أبيه، وقد بدا مبتسماً، فانشو وإيلين وهما يحتضنان أمّهما على أرجوحة الفِناء الخلفيّ، فانشو وقد التفّ حوله أبناء عمومته) ثمّ هناك الصور الّتي لا تضمّها ألبومات ـ في مغلّفات ومظاريف وعلب صغيرة، عشرات من الصّور لي مع فانشو (ونحن نستحمّ، ونلعب، ونركب الدرّاجات، ونلهو في الفِناء، وقد بدا أبي وهو يحملنا معاً على كاهله، الشّعر القصير، السراويل الجينز المنتفخة، السيّارات العتيقة الّتي تبدو وراءنا: سيّارة باكار، سيّارة دي سوتو، فورد ستيشن ذات حزام بطانيّ من الخشب) صور للصّف الدراسي، صور لفريق

الألعاب، صور للمخيّمات، صور للسباقات، ولـلألعاب، صـور لنا وقـد جلسنا في زورق سبـاق، وقد رحنـا نلعب لعبة شـدّ الحبل، ثمّ قرابة أسفل الكومة صور أحدث عهداً، وقد بدا فيها فانشو في هيئة لم يسبق لي قطّ أن رأيته عليها. صور له وهو في فناء هارڤارد، وهو يقف أمـام نافـورة حجريّـة، وأخيراً صـورة تجمعه وصـوفي ـ وقد بـدا فيها فانشو أكثر تقدّماً في العمر وأشدّ جهامة، وظهرت صوفي صغيرة السّن عـلى نحو ملحـوظ، وبالغـة الجمال، ولكنّهـا مشـوّشـة عـلى نحـو من الأنحاء وكأنّها عاجزة عن التّفكـير. والتقطتُ نفسـاً عميقاً ثمّ شرعت في البكـاء فجأة من غـير أن أدرك حتّى اللّحظة الأخـيرة أنّ كلّ هـذه الدّموع كانت متجمّعة في أعماقي. ورحت أنتحب، وقد اهـتزّ كياني، ودفنت وجهي في كفيّ.

امتلأ صندوق إلى يمين الصّور بالرسائل، مائة رسـالة عـلى الأقلّ، ابتداء من سنّ الثّامنة (خط طفل، علامات القلم الرّصاص المتّسخـة والأجزاء الممحوّة) وتستمر وصولاً إلى أوائل السّبعينات. وكانت هناك رسـائل مبعـوثة من الكليّـة، وأخرى من السّفينـة، وطائفـة ثالثـة من فرنسا، وقد وجّه معظمها إلى إيلين، والكثير منها كان ضافياً. وعرفت في التّو أنّها رسائل ثمينة، وأنّها ولاشـكّ أكثر قيمـة من أيّ شيء آخر في الغرفة، ولكنّ نفسي لم تطاوعني على قراءتها هنـاك. وانتظرت عشر دقائق أو ربع ساعة، ثمّ هبطت الدّرج للانضمام إلى الآخرين.

لم تـرغب السيّدة فـانشو في أن تفـارق الرّسـائل الأصليّـة الـدّار، ولكنّها لم يكن لديها اعتراض على نسخها، وعرضت عليّ القيام بذلك

بنفسها، ولكنّني حدّثتها بأنّ عليهـا ألاّ تزعـج نفسها فسـوف أعود في يوم آخر وأقوم بإنجاز ذلك.

تناولنا طعام غداء ممّا يُصطحب في النزهات، وذلك في فِناء الدّار، وسيطر بن على السّاحة بالاندفاع إلى الزّهـور والتّراجـع عنها بـين كلّ قضمة من شطيرته وأخرى، ومع حلول السّاعة الثانيّـة كنّا قـد تأهبّنـا للعـودة إلى البيت. ومضت بنـا السيّـدة فـانشـو بسيّـارتهـا إلى محـطّة الحافلات وقبّلتنا ثلاثتنا مودِّعة ومُبْدِية عاطفة تفوق مـا أظهرتـه في أيّ وقت آخر خلال الزيارة، وبعد خمس دقائق من انطلاق الحافلة أغفى بن في حجري وأمسكت صوفي بيدي.

قالت:

ـ لم يكن يوماً مُغرِقاً في السَّعادة. أليس كذلك؟

قلت:

ـ إنّه يوم من أسوأ الأيّام.

ـ تصوّر الاضّطرار للحديث مع تلك المرأة طوال أربـع ساعـات.

ولم أجد ما نتحدّث فيه لحظة وصولنا إلى هناك.

ـ ربمّا كانت لا تكنّ الكثير من مشاعر الودّ لنا.

ـ لا، لا أعتقد أنَّ الأمر كذلك.

ـ لكن هذا أقلّ ما يقال.

ـ كان من الصعب أن تكون هناك وحدك. أليس كذلك؟

ـ صعب للغاية.

ـ هل تفكّر في إعادة النّظر بالأمر؟

ـ أخشى أن يكون الوضع كذلك.

ـ لست ألومك على ذلك، فالأمر بأسره يغدو شديد الوطأة كلّما أوغلتَ فيه.

ـ سيتعينّ عليّ التّفكير بدّقة في الأمر من جديد، في التوّ، فقد بدأ يساورني شعور بأنّني ارتكبت خطأً كبيراً.

بعد ذلك بأربعة أيّام اتّصلت بي السيّدة فانشو هاتفيّاً لتقول إنّها ذاهبة إلى أوروبا لقضاء شهر هناك، وأنّها قد تكون فكرة جيّدة أن نعكف على عملنا الآن (تلك هي كلماتها). وكنت أعتزم ترك الأمر ينزلق إلى هوَّة النّسيان، ولكنّني قبل أن أتمكّن من التّفكير في عذر ملائم يتيح لي عدم الذهاب إلى هناك، سمعت نفسي وأنا أدلي بموافقتي على القيام بالرِّحلة يوم الاثنين المقبل. وتراجعت صوفي عن فكرة مصاحبتي إلى هناك، فلم أضغط عليها لتعدِل عن موقفها. وساورنا معاً الشّعور بأنَّ في زيارة عائليَّة واحدة كفاية.

قابلتني جين فانشو عند محطّة الحافلات بمزيد من الابتسامات والتحيّات المفعمة بالعاطفة. ومنذ اللّحظة الّتي ركبت فيها سيّارتها ساورني شعور بأنَّ الأمور ستكون مختلفة هذه المرّة. وكانت قد بذلت جهداً لتبدو في أفضل مظهر (ارتدت سروالاً أبيض وقميصاً خارجيّاً من الحرير الأحمر، بدا منه جيدها الّذي لوّحته الشّمس ولم تعرف التّجاعيد طريقها إليه) وكان من المتعذّر أن يخالجني الشّعور بأنّها تغويني بالنّظر إليها، وبالإقرار بالحقيقة القائلة بأنّها ماتزال جميلة، ولكنْ كان في الأمر ما يتجاوز ذلك: نغمة متملِّقة على نحو غامض تشوب صوتها، وافتراض بأنّنا كنّا على نحو من الأنحاء صديقين قديمين، على قدم المساواة بشكل حميم بسبب الماضي، وأنَّه ألم يكن من قبيل الحظّ

المواتي أنْ جئت بمفردي، لأنّنا الآن حرّان في الحديث معاً بصراحة. وقد وجدت هذا كلّه ممّا لا يُستساغ، ولم أتلفّظ بشيء يتجاوز ما اضّطررت لقوله.

قالت، وهي تلتفت نحوي لدى توقّفنا عند إشارة مرور حمراء:

- إنّها عائلة صغيرة، لطيفة، تلك الّتي تعيش في كنفك هناك.

قلت:

- نعم، عائلة صغيرة، لطيفة.

- الصّغير يدعو للإعجاب، بالطّبع، وهو من النّوع الذي يأخذ بمجامع القلب، ولكنّه أكثر ميلاً إلى النّوع الجامح. ألا تشاطرني الرأي؟

- إنّه لم يتجاوز الثانيّة من عمره، ومعظم الأطفال يميلون إلى الانطلاق المرح في هذه المرحلة من العمر.

- بالطّبع، ولكنّني أعتقد أنّه شغف صوفي حبّاً، وهي تبدو مستغرقة في الضّحك طوال الوقت، إذا لم يفتك ما أعني، ولست أعارض الضّحك، ولكنّ قليلاً من الانضباط سيكون شيئاً لا بأس به كذلك.

قلت:

- صوفي تتصرّف على هذا النحو مع الجميع، فالمرأة الّتي تضجّ بالحيوية من شأنها أن تكون أُمّاً متدفّقة الحيويّة، وبقدر علمي فإنّه ليس لدى بن ما يشكو منه.

ساد صمت قصير، ثمّ إنّنا فيما كنّا نشرع في الانطلاق ماضينْ في شارع تجاري متّسع، أضافت جين فانشو:

- إنّها فتاة محظوظة، صوفي تلك، محظوظة لسقوطها واقفة على قدميها، ومحظوظة لعثورها على رجل مثلك.

قلت:

- إنّني أفكّر عادة في أنّني أنا المحظوظ.

- لا ينبغي أن تكون متواضعاً على هذا النحو.

- لست متواضعاً، وكلّ ما هنالك أنّني أعرف عمّ أتحدّث. وحتّى الآن كان الحظّ كلّه إلى جانبي.

ابتسمت لهذا القول ابتسامة عجلى، وعلى نحو غامض وكأنّها تحكم عليّ بالحمق، ومع ذلك تسلم على نحو من الأنحاء بصحّة ما قلته، مدركة أنّني لن أتيح لها منفذاً تهاجمني منه. ولدى وصولنا إلى دارها، بعد دقائق قليلة، بدا أنّها قد تخلّت عن أساليبها الأولى، فلم تعد تأتي على ذكر صوفي وبن، وغدت مثالاً للعناية المفرطة، ومضت تحدّثني بمدى سعادتها لتأليفي هذا الكتاب عن فانشو، متصرّفة في غضون ذلك وكأنّ لتشجيعها تأثيراً حقيقيّاً، نوعاً من الموافقة المطلقة لا تشمل الكتاب وحده فحسب، وإنّما تشمل كذلك هويّتي. ثمّ سلّمتني مفاتيح سيّارتها وأبلغتني بكيفيّة الوصول إلى أقرب حانوت لاستنساخ الوثائق، وقالت إنّ طعام الغداء سيكون بانتظاري لدى عودتي.

استغرق استنساخ الرّسائل أكثر من ساعتين، الأمر الّذي جعل السّاعة تصل إلى الواحدة تقريباً لدى عودتي إلى الدّار. وكان طعام الغداء هنالك حقّاً، وكانت وجبة رائعة مؤلّفة من الهليون والسلمون البارد والجبن والنبيذ الأبيض والمعجّنات. وقد وضع هذا كلّه على

مـائدة الـطّعام مصحـوباً بـالزهـور وهو مـا بدا بـوضوح أنّـه أفضـل الأطباق. ولا بدّ أنّ تأثير المفاجأة قد بدا جليّاً على محيّاي.
قالت السيّدة فانشو:

- أردت جعل الغداء ذا طابع احتفالي، فلست تدري كم أسعـدني حضورك إلى هنا. كلّ الذّكريات الّتي عادت من جديد، ويبدو الأمـر كما لو أنّ الأمور السيّئة لم تقع قطّ.

سـاورني شكّ في أنّها قـد بدأت بـاحتساء الشراب خـلال غيـابي. ورغم أنّها كانت ماتـزال تسيّطر عـلى نفسها وتتّسم حـركاتهـا بالثّبـات والتـماسـك، إلّا أنّـه كـان هنـاك قـدر معـينٌ من التثـاقـل زحف إلى صورتها، وسمة من الإسراف المتأرجح في التّعبير عن العـاطفة لم يكن لهـا وجـود من قبـل. وفيـما جلسنـا إلى المـائـدة رحت أحـدّث نفسي بضرورة التزام الحذر منها. لقد صبّ النبيذ بوفرة، وعندما رأيتها تبدي من الاهتمام بقدحها ما يفوق اهتمامها بطبقهـا، مكتفية بتنـاول القليل من الـطعـام، بـل ومتجـاهلة إيّـاه كلّيـة، شرعت في تـوقّـع أســوأ الاحتمالات. وبعد بعض الحديث الفاتر عن أبويّ وأختيّ الصُّغْرَيْن، تحوّل الحوار إلى حديث من طرف واحد.
قالت:

- أمـر غريب، ذلـك النحو الّـذي تمضي به أمـور الحياة، ومـا بين لحـظة وأخرى فـإنّك لا تـدري مـا سيحـدث أبـداً. هـا أنت، الفتى الصّغير الّذي كان يقطن بجـوارنا، إنّـك الشّخص نفسه الّـذي اعتاد أن يعدو في أرجاء هذه الدّار والطّين يكسو نعليـه، وقد كـبرت الآن، وغدوت رجلاً. إنّك والد حفيدي. أتدرك ذلك؟ ومتزوّج من زوجـة

ولـدي. لو أنَّ أحـداً أبلغني قبل عشر سنـوات أنَّ هذا هـو المستقبـل لضحكت من قوله. ذلك هو ما نتعلّمه من الحياة في نهاية المطاف: ما أغرب ذلك! ليس بمقدورك التأقلم مع ما يجري، بل إنّك لا تستطيع حتّى أن تتصوّره.

لعلّك تعلم أنك تبدو مثله. كان ذلك هو الحال دائماً، أنت وهو، كأخويْن، بل كتوأميْن. أذكر عندما كنتـما كلاكـما صغيرين كيف كنت أخلط بينكما عن بعد، بل ولم يكن بمقدوري أن أحدّد أيّكما لي.

أعرف مدى حبّك الكبير له، وكيف كنت تنظر نـظرة ساميـة إليه، ولكن دعني أقـل لك شيئـاً، يا عـزيزي. إنّـه لم يكن نصف ما كنت عليه. كان بـارداً في أعماقـه. كان ميتـاً في داخله، ولست أحسب أنّه قد أحبّ أحداً قطّ ـ لا أحد على الإطلاق، لم يحدث ذلك مرّة واحدة في حيـاته. كنتُ في بعض الأحيـان أرقبك وأمَّـك عبر الفِنـاء ـ النحو الّذي كنت تعدو به وراءها، وتلقي بذراعيك حول عنقها، والـطريقة الّتي تـدعها تقبّلك بهـا ـ وعندهـا مباشرة تقبّلهـا بقوّة أمـامي. كـان بمقـدوري أن أرى كلّ شيء لم أحظ بـه مع ابني. وكـما تعرف فـإنّه لم يكن يتيح لي لمسه، وبعد الرابعة أو الخامسـة من عمره كـان ينكمش مبتعداً في كلّ مرّة أقترب فيها منه. كيف في اعتقادك كان تـأثير ذلـك عـلى مشاعـر المرأة ـ أن يـزدريها ابنهـا؟ كنت صغيرة في السّن للغـايـة وقتـذاك، بل لم أكن قـد بلغت العشرين عنـدمـا وُلِـد. تصـوّر كيف سيكون أثر رفضك على ذلك النحو عليك!

لست أقـول إنّه كـان شيئاً. وإنّمـا كان مخلوقـاً منفصلاً، طفـلاً بلا أبوين. فما من شيء قلتـه أثّر فيـه. والأمر نفسـه بالنّسبـة لأبيه. فقـد

رفض أن يتعلّم أيّ شيء منّا. وحاول روبـرت مراراً وتكـراراً، ولكنّه لم يستطع النفاذ إلى الفتى قطّ. ولكنّك لا تستطيع أن تعاقب شخصـاً لافتقاره إلى العاطفة. هل بمقدورك ذلك؟ ليس بـوسعك إجبـار طفل على أن يحبّك لا لشيء إلاّ لأنَّه ابنك.

كانت هناك إيلين، بالطّبع، يا لإيلين المسكينة المعذّبـة! كان طيّبـاً معها، كلانا يعرف ذلك، ولكنّه كان طيّباً أكثر ممّا ينبغي على نحو من الأنحـاء، وفي نهاية المـطاف لم يكن ذلك في صـالحها عـلى الإطلاق. فقد قام بعمليّـة غسيل لمخّهـا، وجعلها شـديدة الاعتـماد عليه بحيث أنَّها كـانت تتـردّد في الالتفـات إلينـا. كان هـو من يفهمهــا، ومن ينصحها، ومن يستطيع حلّ مشكلاتها. ولم أكن وروبـرت إلاّ فزّاعتيْ حقل، وفيما يتعلّق بـالطّفلين فـإنّهما كانـا ينظران إلينـا وكأنّمـا لا وجود لنا. وقد وثقت إيلين بـأخيها أعـظم الثّقة، أسلمتـه في نهاية المـطاف عنان روحها، لست أذهب إلى القول بأنَّه كان على علم بما يقـوم به، ولكنّني لايـزال يتعينّ عـليّ التعايش مـع النتـائـج. فقـد بلغت الفتـاة السَّـابعة والعشرين من عمـرهـا، ولكنهـا تتصرّف وكـأنَّها مـاتـزال في الرابعة عشرة، وذلـك عندمـا تكون في أفضـل حالاتهـا. إنّها شديـدة الاضّطراب، وشديدة الفزع في أعـماقها، فيـوماً تـظن أنّني بسببلي إلى القضاء عليها، وفي اليوم التالي تتّصل بي هاتفيّاً ثلاثين مـرّة. ثلاثـون مرّة. ليس بمقدورك حتّى أن تبدأ بتصوّر ما يبدو الأمر عليه.

وكـما تعلم فإنَّ إيلين هي السَّبب في أنّـه لم ينشر قطّ أعمالـه. وهي السَّبب في أنّه ترك الدراسة في هـارڤارد بعـد عامـه الثاني هنـاك. كان ينظم الشعر حينـذاك، ويرسـل كلّ بضعـة أسابيـع إليها مجمـوعة من

المخطوطات. وأنت تعلم طبيعة تلك القصائد، فمن المستحيل فهمها على وجه التّقريب، وهي، بالطّبع، متوهّجة بالعاطفة، وتحفل بكلّ تلك العواطف الفارغة والعظات، ولكنّها من الغموض بحيث تعتقد أنّها مكتوبة بشفرة خاصّة. وكانت إيلين تمضي ساعات تتأمّلها على نحوٍ حائر، وتتصرّف وكأنَّ حياتها تتوقّف عليها، وتعاملها وكأنّها رسائل سرّيّة، ونبوءات كتبت لها مباشرة. ولست أحسب أنّه كان يدري ما يحدث. وكما تدرك فإنَّ أخاها قد مضى، وهذه القصائد هي كلّ ما خلّفه لها. يا للفتاة المسكينة! لم يكن عمرها آنذاك قد تجاوز الخامسة عشرة، وراحت تتداعى بالفعل. كانت تعكف على تلك الصّفحات إلى أن تجعّدت واتّسخت، وكانت تحملها معها حيثما مضت، وعندما ساءت حالتها حقّاً كانت تمضي إلى أناس غرباء عنها تماماً، في الحافلة، وتدسّها في أيديهم قائلة: «اقرأ هذه القصائد فسوف تنقذ حياتك!».

وبالطّبع، تعرّضت لذلك الانهيار الأوّل، ومضت تتحوّل ذات يوم، على غير هدى، مبتعدة عنّي، في السوبر ماركت، وقبل أن أدري من جليّة الأمر شيئاً، راحت تنتزع عن الرفّ زجاجات عصير التّفاح الكبيرة تلك وتهوي بها محطّمة إيّاها على الأرض. ومضت تفعل ذلك، مهشّمة زجاجة بعد الأخرى، وكأنّها شخص في غيبوبة، واقفة وسط كلّ ذلك الزجاج المكسور، والدّم يشخب من كاحليها، والعصير يتدفّق في كلّ مكان. وكان مشهداً رهيباً، وقد استبدّ بها الهياج حتّى اقتضى الأمر قيام ثلاثة رجال بكبح جماحها وحملها بعيداً.

لست أذهب إلى القول بأنَّ أخاها كان مسؤولاً عن ذلك، ولكن تلك القصائد اللّعينة لم تساعد في تهدئة الموقف بالتّأكيد، وقد لام نفسه على ذلك، سواء عن حقّ أو عن خطأ، ومنذ ذلك الوقت لم يحاول قطّ أن ينشر أيّ شيء. وقد جاء لزيارة إيلين في المستشفى، وأعتقد أنَّ الأمر كان أقوى من احتماله حين رآها على ذلك النحو، وقد جُنّت تماماً، وراحت تصرخ به، وتتّهمه بأنّه يكرهها. وكما تعلم فقد كان ذلك انهياراً انفصامياً حقيقيّاً، ولم يكن بمقدوره التّعامل معه، وفي ذلك الحين أقسم ألّا ينشر شيئاً. وأحسب أنَّ ذلك كان نوعاً من التّكفير عمّا جنته يداه. وقد التزم بما أقسم عليه طوال ما بقي من حياته. أليس كذلك؟ لقد برّ بقسمه بطريقته العنيدة الوحشيّة تلك، حتّى النهاية.

بعد ذلك بشهرين، تلقّيت رسالة منه يبلّغني فيها بأنّه ترك الدِّراسة في الكليّة. وتذكُر أنّه لم يطلب النصيحة منّي، وإنّما كان يبلّغني بما فعله. أمّي العزيزة، الأمر كذا وكيت، كلّ شيء يبدو نبيلاً ومؤثّراً، لقد انقطعت عن الدِّراسة لأخفّف عنك العبء المالي الخاصّ بإعالتي، وفي ضوء حالة إيلين والتّكاليف الكبيرة للرعاية الطبيّة، وكذا وكيت.

لقد استشطت غضباً، فتى كهذا يضرب بفرصة تعليمه عُرْض الحائط بلا مبرّر. كان ذلك عملاً تخريبيّاً، ولكنْ لم يكن بمقدوري القيام بشيء حِيال ذلك؛ إذ كان قد ترك الدراسة بالفعل. كانت لوالد أحد أصدقائه صلة بعالم الشحن البحري - أظن أنّه كان يمثّل نقابة البحّارة أو شيئاً من هذا القبيل - وقد أفلح في إعداد أوراقه عن طريق ذلك الرّجل. وفي وقت وصول الرّسالة إليّ كان في مكان ما

من ولاية تكساس، وكان ذلك كلّ ما في الأمر. ولم أره مرّة أخرى طوال خمس سنوات.

في كلّ شهر، أو نحو ذلك، كانت رسالة أو بطاقة بريد تصل إلى إيلين، ولكن لم يكن هناك قطّ عنوان للردّ عليه. باريس، جنوب فرنسا، والله وحده يدري أين، ولكنّه كان دائماً يحرص على ألّا يكون هناك سبيل لقيامنا بالاتّصال به. وقد وجدت هذا السُّلوك جديراً بالازدراء. إنّه سلوك متّسم بالجبن وجدير بالازدراء. لا تسلني عن السِّرّ في احتفاظي بالرّسائل. ويؤسفني أنّني لم أقم بإحراقها، فذلك ما كان يجب أن أقوم به، إحراقها، كلّها، بأسرها.

استمرّت في الحديث على هذا المنوال أكثر من ساعة وقد راحت كلماتها توغل تدريجيّاً في المرارة، ووصلت عند منعطف من الحديث إلى لحظة الوضوح الّذي يستديم ذاته، ثمَّ في أعقاب قدح النبيذ التالي فقدت كلماتها تماسكها تدريجيّاً. كان صوتها كصوت شخص منوَّم تنويماً مغناطيسيّاً. وإذ مضت في الحديث فقد ساورني الشُّعور بأنَّه ما من شيء يمكن أن يمسّني بعد الآن. كان هناك شعور بالحصانة، إحساس بأنَّ الكلمات الّتي تصدر عن شفتيها تحميني. ولم أكد أهتمّ بالاستماع إليها، فقد كنت أطفو في قلب ذلك الصّوت، وكان يحطيني ويجعلني بإلحاحه أطفو ذاهباً مع دفق المقاطع، مع الصُّعود والهبوط، مع الأمواج. ومع تدفّق ضياء الأصيل عبر النَّوافذ إلى المائدة، وتألّقه على الأطباق والزبد الذائب، وزجاجات النبيذ الخضراء اللّون، غدا كلّ شيء في الغرفة وهّاجاً وساكناً إلى حدّ كبير، حتّى إنّني بدأت أجد أنَّه من غير الواقعي أن أجلس هنالك داخل إهابي. وقلت لنفسي إنّني

أذوب، فيما كنت أرقب الزبد وهو يلين في الطَّبق، بل لقد فكّرت مرّة أو مرَّتين في إنّني ينبغي ألاّ أدعِ هذا يستمرّ، وأنَّ عليَّ ألاّ أسمح لهـذه الّلحظة بأن تنـزلق منّي. ولكنّني في نهاية المطاف لم أُحِرْ شيئاً في هذا الصدد، إذ ساورني الشّعور على نحوٍ ما بأنَّ ذلك ليس بمقدوري.

لست أنتحل لنفسي الأعذار عمّا حدث، فالسّكر لا يعدو أن يكون عـرضاً وليس سبباً مطلقاً، وإنّني لأدرك أنّـه سيكـون من الخـطأ أن أحاول الدّفاع عن نفسي. ومع ذلك فهناك على الأقلّ إمكـانيّة تقـديم إيضاح للأمر. وإنّني الآن على تمـام اليقين من أنَّ الأمـور الّتي أعقبت ذلك كانت لها علاقة بالماضي بقدر ما كان لهـا ارتباط بالحـاضر، وأجد الآن، وقد ابتعدت بعض الشيء عمّا وقع، أنّـه من الغريب أن نـرى كيف أنَّ عـدداً من المشاعـر البعيدة العهـد قد أطبقت عـليَّ أخيـراً في ذلك الأصيل. كان من الصَّعب عليَّ خلال جلوسي هناك مصغياً إلى السيّدة فانشو ألاّ أتذكّـر كيف كنت أراها خـلال صباي، ومـا إن بدأ ذلك بالحدوث حتّى ألفيت نفسي أصطدم بالصُّور الّتي لم تَلُحْ لناظري منذ سنين. وكانت هناك صـورة عادت إليَّ بقـوّة هائلة: ذات أصيـل من شهر آب (أغسطس)، وكنت في الثّـالثة عشرة أو الـرَّابعة عشرة، أطللت من نافذة غرفة نومي على الفِناء المجاور، ورأيت السيّدة فانشو تخرج من الدّار مرتدية ثوب استحمام أحمر اللّون مؤلّف مـن قطعتين، وتنزع القطعة العلويّة عـلى نحو عَـرَضي وترقـد مديـرة ظهرهـا لأشعة الشّمس عـلى مقعد ممّـا يستخدم في المـرجة. حـدث هذا كلّه بمحضّ الصدفة. وكنت أجلس قرب نافذتي غارقاً في أحلام اليقـظة، ثمَّ تأتي على غير انتظار امرأة جميلة متهاديةً إلى مجال رؤيتي، وهي تكاد تكـون

عارية، وغير مدركة لوجودي، وكأنَّما استحضرتها إلى هناك بفعل سحر قمت بممارسته بنفسي. وقد رافقتني هذه الصُّورة طويلاً، وغالباً ما عدت إليها خلال مراهقتي: شهوة فتى يافع، وسرعة خيالات أواخر اللّيل. والآن، وفيما هذه المرأة على نحو ما يبدو في غمرة عمليَّة إغوائي، لم أدرِ ما عساني أفعل، فمن ناحية وجدت المشهد شديد الغرابة، ومن ناحية أخرى كان هناك شيء طبيعي، بل ومنطقي، يلفّه. وأحسّست بأنّني لم أستخدم كلّ قوتي لمحاربته، وبأنّي كنت بسبيلي إلى السَّماح له بالحدوث.

ليس هناك شكّ في أنَّها جعلتني أشفق عليها. كانت رؤيتها لفانشو حافلة بالعذاب وغارقة في مؤشّرات التَّعاسة الحقيقيّة، بحيث ضعفتُ تدريجيّاً في مواجهتها، ووقعت في الشَرَك الّذي نصبته. غير أنَّ الأمر الّذي مازلت بعيداً عن فهمه هو إلى أيّ حدّ كانت مدركة ما تقوم به. هل خطّطت للأمر مسبّقاً أم أنَّه حدث من تلقاء ذاته فحسب؟ هل كان حديثها غير المترابط وسيلة لإضعاف مقاومتي أم انطلاقة عفويّة لمشاعرها الحقيقيّة؟ إنّني أتشكّك في أنَّها كانت تحدّثني بالحقيقة فيما يتعلّق بفانشو، وحقيقتها الخاصَّة على أيّة حال. ولكنَّ ذلك ليس كافياً لإقناعي، ذلك أنَّه حتّى الطّفل يعلم أنَّ الحقيقة يمكن استخدامها من أجل أغراض المراوغة. وهناك، وهو الأمر الأكثر أهمّية، موضوع الدّافع. فبعد قرابة ستّ سنوات من تلك الحقيقة مازلت بعيداً عن وضع يدي على إجابة. والقول بأنَّها وجدتني رجلاً لا يُقاوَم سيكون من قبيل التزيد، ولست على استعداد لتضليل نفسي في هذا الشأن. لكأنَّ الأمر أعمق كثيراً وأشدّ فظاعة. وقد بدأت

مؤخّراً بالتساؤل عمّا إذا لم تكن قد استشعرت فيّ على نحو من الأنحاء كراهية لفانشو تعادل في قوتها كراهيتها له. وربّما أحسّت بهذه الصلة الصامتة بيننا، وربما كانت من ذلك النّوع من الصلات الّتي لا سبيل إلى البرهنة عليها إلّا بعمل مرتكس ومبالغ في الإسراف. ومن شأن مضاجعتي أن تكون شبيهة بمضاجعة لفانشو - شبيهة بمضاجعة لابنها - وفي ظلام هذه الخطيئة سيتاح لها امتلاكه من جديد، ولكن لا لشيء إلّا لتقضي عليه. انتقام رهيب. وإذا صحّ ذلك فإنّني لا أملك رفاهيَّة وصف نفسي بأنّني ضحيّتها. وإذا لم يكن لي بدّ من صفة فقد كنت متواطئاً معها.

بدأ الأمر، بعد وقت قصير من شروعها في البكاء، عندما استنزفت قواها أخيراً، وتناثرت الكلمات منهمرة في صورة دموع. فلقد نهضت وقد سيّطر عليّ الخمار، وأُفعِمت نفسي انفعالاً، وسرتُ إلى حيث كانت جالسة، واحتضنتها في بادرة لمواساتها، واجتاز هذا بنا العتبة، فقد كان مجرّد الاتّصال كافياً لإطلاق عنان استجابة جنسيّة، ذكرى ضريرة لأجسام أخرى، لعناقات أخرى، وبعد لحظة كنّا نتبادل القبل، ثمّ بعد ذلك بدقائق قليلة رقدنا عاريين في الفراش في الطّابق العلوي.

على الرّغم من أنّني كنت قد سكرت إلّا أنّني لم أكن قد أوغلت في الخمار بحيث أجهل ما كنت أقوم به. ولكن حتّى الشّعور بالذنب لم يكن كافياً لإيقافي. وقد قلت لنفسي إنّ هذه اللّحظة ستنتهي، ولن يُحيق بأحد ضرر، فليست لها صلة بحياتي، ولا علاقة لها بصوفي. ولكنّني عندئذٍ، وفيما كان الأمر يحدث، اكتشفت أنّ هنلك ما هو أكثر

من هذا، ذلك أنَّ الحقيقة هي أنّني أحببت مضاجعة أم فانشو، ولكن على نحو لا علاقة له باللّذة. كانت قوّة ما تعصف بي، وللمرّة الأولى في حياتي لم أجد رقّة في أعماقي. كنت أضاجع بدافع من المقت، وقد حوّلتُ المضاجعة إلى عمل من أعمال العنف، ورحت أسحق هذه المرأة، موغلاً، وكأنّما أردت أن أقضي عليها. كنت قد ولجت ظلامي، وهناك تعلّمت الشيء الوحيد الّذي كان أكثر فظاعة من أيّ شيء آخر: أنَّ الرغبة الجنسيّة يمكن أن تكون كذلك رغبة في القتل، وأنّه تحلّ لحظة يمكن فيها أن يختار رجلٌ الموتَ مؤثراً إيّاه على الحياة. لقد أرادتني هذه المرة أن أُلْحِقَ الأذى بها، وقد ألحقته بها، ووجدت نفسي منتشياً في غمار ضراوتي، ولكن حتّى ذلك الحين كنت قد عرفت أنّني في منتصف الطّريق إلى مقصدي، وأنّها لم تكن إلاّ ظلاً، وأنّني أستخدمها للهجوم على فانشو نفسه فيما كان بذاري يتدفّق فيها للمرّة الثانية ـ وقد كسانا العرق معاً، ورحنا نئنّ كمخلوقيْن في غمار كابوس ـ فهمت هذا أخيراً. لقد أردت أن أقتل فانشو. أردت أن يموت فانشو، وكنت بسبيلي إلى القيام بهذا، كنت بسبيلي إلى ترصّده وقتله.

تركتها غافية في الفراش وانسللت من الغرفة، واستدعيت سيّارة أجرة باستخدام الهاتف في الطّابق السُّفلي. وبعد نصف ساعة كنت استقلّ الحافلة عائداً إلى نيويورك. وفي محطّة هيئة الميناء الّتي تشكّل نهاية الخطّ، مضيت إلى مرحاض الرّجال، وغسلت يديّ ووجهي، ثمَّ استقللت قطار الأنفاق مبتعداً عن قلب المدينة، ووصلت إلى الدّار في حين كانت صوفي تعدّ المائدة لطعام العشاء.

بدأ أسوأ ما في الأمر في ذلك الوقت. فقد كان هناك عدد من الأمور التي يتعينّ حجبها عن صوفي، بحيث أكاد أستطيع إظهار نفسي لها، وغدوت عصبيّاً، وشارداً، وأغلقت عليّ باب غرفة عملي الصّغيرة، من غير أن أتوق إلى شيء غير العزلة. وعلى امتداد وقت طويل تحمّلتني صوفي، وتصرّفتْ بالاستعانة بصبر ما كان لي الحقّ في توقّعه، ولكنّها بدأت في نهاية المطاف تضيق بي ذرعاً، وفي منتصف الصّيف شرعنا في التّشاجر، وأخذ أحدنا يهاجم الآخر، ويرتفع صوتنا عالياً في أمور لا معنى لها. وذات يوم دلفت إلى البيت فألفيتها تبكي في الفراش، وعندئذ علمت أنني على وشك تحطيم حياتي.

كانت المشكلة، بالنّسبة إلى صوفي، هي الكتاب، فلو أنّني كففت عن العمل فيه لعادت الأمور إلى ما كانت عليه. وقالت إنّني قد تعجّلت الأمر، وأنّ هذا المشروع كان خطأً، وأنه لا ينبغي أن أكون عنيداً، وعليّ أن أقرّ بذلك. وقد كانت على حقّ، بالطّبع، ولكنّني واصلت الجدل أمامها فيما يتعلّق بالجانب الآخر؛ فقد التزمت بتأليف الكتاب، ووقّعت عقداً يقضي بإنجازه، وسيكون من الجبن أن أتراجع الآن. وما لم أقله لها هو أنّه لم تعد لديّ نيّة في تأليف هذا الكتاب، فهو موجود الآن بالنّسبة إليّ بقدر ما يفضي بي إلى فانشو فقط، وأمّا فيما يتجاوز ذلك فلا وجود له. لقد أصبح من منظوري موضوعاً خاصّاً، شيئاً لم يعُد يتعلّق بالكتابة. فكلّ البحث المكرّس لسيرة الحياة، كلّ الحقائق التي سأكشف النقاب عنها فيما أواصل التنقيب في أغوار ماضيه، كلّ العمل الذي بدا أنّه ينتمي إلى

الكتاب ـ هذه كلُّها كانت الأشياء التي سأستغلّها لاكتشاف مكانه. يا لصوفي المسكينة! لم تكن تدرك بالمرّة ما كنت أعدّ له، فما كنت أزعم أنّني عاكف على القيام به كان بالفعل مختلفاً عمّا أقوم به. كنت أضمّ جزئيّات حياة إنسان معاً، وأجمع المعلومات وألملم الأسماء والأماكن والتّواريخ وأضع سرداً زمنيّاً لمسيرة الأحداث. ومازال السرّ في إصراري على المضيّ قدماً على هذا النحو يثير حيرتي، فقد تمّ التدنّي بكلّ شيء إلى دافع واحد هو العثور على فانشو، والحديث معه، ومواجهته مرّة أخيرة. ولكنّني لم أستطع المضيّ بالأمر إلى أبعد من ذلك، ولم أتمكّن من وضع يدي على تصوّر لما كنت آمل في تحقيقه من وراء مثل هذه المواجهة. لقد كتب فانشو يقول إنّه سيقتلني، ولكنّ هذا التهديد لم يُثِرْ خوفي؛ فقد كنت أعلم أنّه يتعينّ عليّ أن أعثر عليه، وأنّه ما من شيء سيمكن حسمه إلى أن أقوم بذلك، وقد كان ذلك هو المبدأ الأوّل المطروح، لغز اليقين، وإنّني لأقرّ بذلك، ولكنّني لم أكترث بوضعه موضع التّساؤل.

ولا أعتقد في نهاية المطاف أنّني قد اعتزمت قتله حقاً، فالرؤية القاتلة التي ارتسمت أمامي عندما كنت مع السيِّدة فانشو لم تدم طويلاً، على أيّ مستوى واعٍ على الأقل. وقد حلّت أوقات كانت فيها مشاهد محدودة تلتمع في ذهني، مشاهد خنق فانشو، طعنه بخنجر، إطلاق النّار على قلبه، ولكنّ آخرين لقوا مصارع مماثلة في ذهني على مرّ السنين، ولم أكترث لذلك كثيراً. ولم يكن الأمر الغريب هو أنّني ربّما أردت قتل فانشو، وإنّما كان تصوّري في بعض الأحيان أنّني «أدرت» قتله. وقد حدث ذلك مرّة أو مرّتين ـ في لحظات وضوح

الـرؤية التَّـام ـ وقـد أصبحت مقتنعـاً بـأنَّ هـذا هـو المعنى الصحيـح للرسالة التي كتبهـا لي. لقد كـان فانشـو ينتظرني، إذ اختـارني جلّاداً له، وكان يعلـم أنَّ بمقدوره التيقّن من أنَّني سأنجز هذه المهمَّة. ولكن ذلك على وجـه الدقَّـة كان السَّببَ في أنَّني لن أقـوم بها، فقـوَّة فانشـو يتعينّ القضاء عليها لا الخضوع لها. وكان جوهر الأمـر أن أبرهن لـه عـلى أنَّني لم أعـد أكـترث. وقـد كـانت تلك هي المشكلة المحيّرة في الأمر: التعامل معه على أنَّه ميت على الرّغم من أنَّـه حي. ولكن قبل البرهنة على هذا لفـانشو تعـينّ عليّ أن أثبتـه لنفسي. وكانت الحقيقـة القائلة بأنَّني بحـاجة إلى الـبرهنة هي بـذاتها بـرهان عـلى أنَّني مازلت أهتمّ أكثر من اللازم. فلم يكن كافياً بالنّسبة إليّ أن أدع الأمور تجري في أعنتهـا، وإنّما كـان عليّ أن أهـزّها هـزّاً، وأن أدفعها إلى الأمـام، ولأنَّـني كنـت مـاأزال أشـكّ في نفسي فـقـد احـتجت إلى ركـوب المخـاطرات، وإلى اختبـار نفسي في مواجهـة أكـبر خـطر ممكن، ومن شأن قتل فانشو أن يكون عبثيّاً، فجوهر الأمـر هو العثـور عليه حيّـاً، ثمَّ الابتعاد عنه والحياة ملء العروق.

كانت الرّسائل التي بعث بها فانشو إلى إيلين مفيدة، فعـلى العكس من الكرّاسات التي مالت إلى الطّابـع التأمّـلي وتجرّدت من التفـاصيل فقد كانت الرسائل محدّدة بدرجة كبيرة. وقد أحسست بأنَّ فانشو كان يبـذل جهداً في الـتّرفيه عن أختـه، ورفع روحهـا المعنويـة بـالقصص المسلّية، وبالتالي كانت الإشارات أكثر اتّسـاماً بـالطّابـع الشخصي من نظيرتها في أيّ موضع آخر. فعلى سبيل المثال، غالباً ما ذكرت أسماء، كـأسماء زمـلاء الدراسـة بالكليَّـة، ورفاق العمـل على متن السفينـة،

ومعارف في فرنسا. وإذا لم تكن هناك عناوين للردّ عليها مكتوبة على مغلّفات الرّسائل فقد كانت هناك على الرّغم من ذلك أماكن كثيرة جرت مناقشتها: بيتاون، كوربوس، كريستي، تشارلستون، باتون روج، تامبا، أحياء مختلفة في باريس، وقرية في جنوبي فرنسا. وقد كانت هذه الأشياء كافية لدفعي إلى البدء، ولعدّة أسابيع جلست في غرفتي أعدّ القوائم، وأربط النّاس بالأماكن، والأماكن بالأزمنة، والأزمنة بالنّاس، وأرسم الخرائط والتقاويم، وأنقّب عن العناوين، وأدبّج الرسائل. لقد كنت أسعى وراء بدايات الخيوط، وأي شيء قد يحمل أدنى أمل لم أتردّد في متابعته. وكان افتراضي هو أنّه في موضع ما ارتكب فانشو خطأ، وأنّ أحدهم يعرف مكان وجوده، وأنّ شخصاً ينتمي إلى الماضي قد رآه. ولم يكن هذا شيئاً مؤكّداً، ولكنّه بدا لي الطّريق الوحيد المحتمل الذي يمكن البدء بالسّير فيه.

تتّسم رسائل مرحلة الكليّة بأنّها مكتوبة على مهل وتفيض بالإخلاص - صور لكتب قرئت، مناقشات مع الأصدقاء، توصيفات للحياة في السّكن الدّاخلي بالجامعة - ولكن هذه الرسائل تعود إلى مرحلة ما قبل الانهيار الذي تعرّضت له إيلين، وتغلب عليها السمة الحميمة والمفعمة بالثّقة التي غابت عن الرسائل التي ستلي ذلك. فعلى متن السّفينة، مثلاً، نادراً ما يقول فانشو أيّ شيء عن نفسه، ما لم يتصادف أن يتعلّق ذلك بطُرفة اختار أن يحكيها. ونراه يحاول أن يندمج مع العناصر الجديدة المحيطة به، فيلعب الورق في قاعة المراقبة النّهاريّة مع البحّار المسؤول عن تزييت الماكينات، وهو من لويزيانا (ويفوز)، ويلعب البليارد في عدد من المشارب الوضيعة على الشّاطئ

(ويفوز)، ثمَّ يفسّر فوزه بأنَّه جاء رمية من غير رامٍ حين يقول: «لقد تحمَّست بحيث لم يقدَّر لي السُّقوط، وتجاوزت قدراتي، وأعتقد أنَّ ذلك راجع لفيض من الادرينالين». وترد في الرسائل توصيفات للعمل في وقت إضافي بغرفة المحرّكات «قفزت الحرارة إلى مائة وأربعين درجة، إذا كان يمكنك تصديق ذلك، وامتلأ حذائي بعرق غزير حتى إنَّه أحدث صوتاً وأنَّني أخوض في بُريكات من الماء» وعن قيام طبيب سكّير في بيتاون بولاية تكساس بنزع ضرس العقل من فمه «تناثر الدّم في أرجاء المكان، وبقي نثار من الضرس في الثقب الخالي في لثتي طوال أسبوع». وقد انتقل فانشو، باعتباره من حديثي العهد بالعمل في البحر وممَّن تنقصهم الخبرة، من عمل إلى عمل. وفي كلّ مرفأ كان هناك أعضاء في طاقم العاملين على متن السَّفينة يغادرونها ويعودون إلى بلادهم ويحلّ آخرون محلّهم. وإذا كان أحد هؤلاء القادمين الجدد يفضّل القيام بعمل فانشو على القيام بالعمل المتاح فإنَّ «الفتى» (وهو اللَّقب الذي أطلق على فانشو) يُنقل إلى عمل آخر. ومن هنا فقد عمل فانشو بصورة متنوِّعة كبحّار عادي (يقوم بتنظيف سطح السَّفينة وطلائه) وكعامل في أداء الخدمات (مسح الأرضيَّات وترتيب الأسرّة وتنظيف المراحيض) وكعامل في المطعم (تقديم الطَّعام وغسل الأطباق). وقد كان هذا العمل الأخير هو الأكثر مشقّة، ولكنَّه كان كذلك الأكثر إثارة للاهتمام لأنَّ الحياة على متن السَّفينة تدور أساساً حول موضوع الطَّعام، فقد كان الضَّجر يثير الشهيَّات المفتوحة، وكان الرِّجال يعيشون بالمعنى الحرفي منتقلين من وجبة إلى أخرى، وتلفت النَّظر الرهافة المذهلة التي يتمتع بها بعضهم (رجال مترهّلون، خشنون، يحكمون على الأطباق بتعالي الذوقات

الفرنسيين في القرن الثامن عشر وأنفتهم) ولكنّ فانشو تلقّى نصيحة طيّبة من بحّار مخضرم في يوم التحاقه بالعمل إذ قال له: «لا تبتلع إهانة من أحد، وإذا أبدى أحدهم شكواه من الطّعام فقل له إنَّ عليه أن يلزم الصَّمت، وإذا واصل الشكوى فما عليك إلاَّ أن تتصرّف وكأنَّه لا وجود له، وليكن آخر من تقدّم له الطّعام. وإذا لم يُجْدِ ذلك نفعاً فقل له إنَّك ستضع ماء مثلجاً في حسائه في المرَّة المقبلة، بل الأفضل من ذلك أن تقول له إنَّك ستتبوّل في حسائه، وعليك أن تدعهم يعرفون من هو صاحب الكلمة الأخيرة».

ونرى فانشو يحمل إلى القبطان طعام إفطاره ذات صباح، بعد ليلة من العواصف الضّارية أمام كيب هاتيراس، يضع فانشو الجريب فروت والبيض المخفوق المقليّ وشرائح الخبز على الصّحفة، ويلفّ هذه الأخيرة بورق التغليف المفضفض، ثمَّ يلفّها فضلاً عن ذلك في عدَّة مناشف، على أمل أن لا تهوى الأطباق إلى الماء عندما يصل إلى منصّة القبطان (كانت الرِّيح تواصل الهبوب بسرعة سبعين ميلاً في السّاعة) ثمَّ يرتقي فانشو الدَّرج، ويخطو خطواته الأولى على المنصّة، وعندئذٍ، وعلى حين غرّة، وفيما تلطمه الرِّيح دائرة حول نفسها على نحو وحشيّ، ويندفع الهواء المزمجر تحت الصَّحفة، ويجذب ذراعيه عالياً فوق رأسه وكأنَّه يتدلّى من آلة بدائيَّة للطيران، ويوشك أن يلقي بنفسه إلى الماء، وإذ يستجمع كلّ قوته ليجذب الصَّحفة إلى أسفل، يصارعها معيداً إيَّاها في نهاية المطاف إلى الوضع المسطّح بإزاء صدره، من غير أن تنزلق محتويات الأطباق بمعجزة من المعجزات، ثمَّ من خلال المضيّ مكافحاً خطوة وراء أخرى، قاطعاً امتداد المنصّة

وهو يبدو للعيان شبحاً ضئيلاً من جرّاء عصف الرِّيح حـوله، ويقـول فانشو بعد عدد لا يستطيع أحد تقديـره من الدقـائق، ولدى وصـوله إلى الجـانب الآخر ودخـولـه إلى أعـلى مقـدَّم السُّفينـة، وعثـوره عـلى القبطان البدين وراء الدَّفة: «طعامك، يا سيِّدي القبـطان!» ويلتفت القبـطان ملقياً عليـه أقصر نـظرات التعـرّف، وبجيبـاً بصـوت يعكس الشُّرود: «شكراً، يا فتى ما عليك إلاَّ أن تضعه على المائدة هناك».

غير أنَّ صفة الطرافة لم تنصرف إلى كلّ شيء بالنِّسبـة إلى فانشـو، فهناك ذكر لمشاجرة (دون إيراد التَّفاصيل) يبدو أنَّها قد أزعجته، جنبـاً إلى جنب مع عدد من المشـاهد البشعـة التي شاهـدها عـلى الشّاطئ، فعـلى سبيل المثـال هناك نمـوذج لتعذيب زنجي في مشرب في تـامپـا، حيث يتكـالب حشد من السكـارى على زنجي عجـوز دخلِ المشرب حـاملاً علماً أمـريكيّاً كبيـراً ـ أراد أن يبيعـه ـ ويقـوم أول سكّـير بنشر العلم، قـائلاً إنّـه لا يضمّ عـدداً كـافيـاً من النجـوم ـ «هـذا العمـل مزوّر» ـ وينفي العجوز هذا، وهو يكاد يتداعى طالباً الـرحمة، ويبـدأ السكارى الآخرون بالزمجرة تأييـداً للسكّير الأوّل، وينتهي الأمـر كلّه عندما يُدفع العجوز إلى خارج البـاب فيتهاوى عنـد المدخـل، ويومئُ السكارى إعرابـاً عن موافقتهم، مبعـدين الأمر بعـدّة تعليقات حـول جعل العالم مكاناً يتّصف بالأمان، أجل الديمقراطيّة. وقد كتب فانشو يقول: «لقد سـاورني شعور بـالإذلال، وخجلت من نفسي لوجـودي هناك».

ومع ذلك فقد كانت الرسائل مازحـة (وقد استُهِلَّت إحـداها عـلى هذا النحو «ناديني ريدبيرن») وفي النهايـة يستشعر المـرء أنَّ فانشـو قد

أفلح في أن يثبت لنفسه شيئاً، فالسَّفينة ليست إلاَّ مجرّد تَعِلّة أو حجَّة، آخَريّة مفروضة، سبيل لاختبار الذَّات في مواجهة المجهول. وكما هو الحال في مرحلة الاستهلال فإنَّ الاستمرار على قيد الحياة هو الانتصار. وما يبدأ باعتباره ميزة محتملة، تعلُّمه في هارڤارد، خلفيَّته الراجعة لانتمائه للطبقة الوسطى، يحوِّله بالفعل إلى شيء يقف لصالحه، وفي نهاية جولته يتمّ إقراره بحسبانه العقل المفكِّر للطاقم، فلا يُطلق عليه «الفتى»، بل، وفي أحيان كثيرة، يُطلق عليه «البروفسور»، وتتمّ الاستعانة به للتحكيم في المنازعات (من كان الرئيسَ الثَّالث والعشرين للولايات المتَّحدة، ما هو عدد سكان فلوريدا، من الذي لعب جناحاً أيسر لفريق «الجاينتس» في١٩٤٧ م). ويتمّ الرجوع إليه بانتظام باعتباره مصدراً لإلقاء الضوء على المعلومات الغامضة. ويطلب منه أعضاء الطَّاقم المساعدة في الردّ على الاستمارات البيروقراطيَّة (الجداول الزمنيَّة لدفع الضرائب، استمارات التَّأمين، تقارير الحوادث) بل إنَّ بعضهم طلبوا منه أن يكتب رسائل على لسانهم (في إحدى الحالات كتب سبع عشرة رسالة على لسان أوتيس سمارت موجَّهة إلى صديقته سو ـ آن في ديدو بولاية لويزيانا الأمريكيَّة) ولا تكمن النقطة الجوهريَّة في أن يصبح فانشو محور الاهتمام، وإنَّما في أن ينجح في التأقلم، وفي العثور على مكان لنفسه، فالاختبار الحقيقيّ هو في نهاية المطاف أن تكون كالآخرين، وما إن يحدث ذلك حتّى لا يعود مضطراً إلى وضع تفرّده موضع التَّساؤل، إنَّه متحرِّر لا من الآخرين فحسب، وإنَّما من ذاته كذلك، وأحسب أنَّ الدّليل المطلق على هذا هو أنَّه عندما ترك السَّفينة لم يودّع أحداً، وإنما

وقّع وثائق ترك العمل ذات ليلة في تشارلستون، وتسلّم مستحقّاته من القبطان، ثمَّ اختفى، وبعد أسبوعين يصل إلى باريس.

انقطعت رسائله مدّة شهرين، ثمَّ طوال الأشهر الثلاثة التالية لم يرسل إلَّا بطاقات بريديَّة، كلمات مقتضبة، يدوّنها مسرعاً على ظهر لقطات سياحيَّة عاديَّة: الساكريه كير، برج إيفل، الكونسيرجري. وعندما تبدأ الرسائل بالوصول فإنَّها ترد على نحو متقطّع، ولا تتضمّن شيئاً له أهميَّة تُذكر، ونحن نعلم أنَّه بحلول ذلك الوقت كان فانشو قد استغرق في إنجاز أعماله (كثير من القصائد الأولى والمسوّدة الأولى لرواية «إظلام») ولكنَّ الرسائل لا توحي بالمعنى الحقيقي لحياته، ويساور المرء شعور بأنَّه يخوض غمار صراع، وأنَّه غير واثق من نفسه فيما يتعلّق بإيلين، فهو لا يرغب في انقطاع الاتّصال بها، ومع ذلك يعجز عن تقرير مقدار ما يستطيع أن يحدّثها به (والحقيقة هي أنَّ إيلين لم تقرأ معظم هذه الرسائل، فقد أرسلت إلى الدَّار الواقعة في نيو جيرسي، وبالطَّبع فتحتها السيِّدة فانشو التي قامت بفحصها قبل إطلاع ابنتها عليها ـ وغالباً ما كانت تحجب عن إيلين، وأحسب أنَّ فانشو قد اعتقد أنَّ ذلك سيقع حتماً، أو على الأقلّ شكّ في ذلك، الأمر الذي يعقّد الموضوع بصورة إضافيَّة ـ وبما أنَّ هذه الرسائل لم تكتب لإيلين على الإطلاق بشكل من الأشكال، فإنَّ إيلين في النهاية ليست إلَّا أداة بلاغيَّة، الوسيط الذي من خلاله يتواصل فانشو مع أبيه، ومن هنا جاء غضب هذه الأخيرة، ذلك أنَّه حتى عندما يخاطبها فإنَّه يتظاهر بتجاهلها).

على امتداد حوالي العام تُركِّز الرسائل، على وجه الحصر تقريباً،

على أشياء (المباني، الشّوارع، عمليّات وصف لباريس) مكرَّرة، قائمة ضافية من الأشياء المرئيَّة والمسموعة، ولكن فانشو نفسه ليس موجوداً إلّا لماماً، ثمَّ نبدأ تدريجيّاً برؤية بعض معارفه، ونلمس انجذاباً بطيئاً نحو الطّرائف ـ ولكن رغم ذلك فإنَّ القصص تبدو منقطعة الصلة بأيّ سياق، الأمر الذي يُضفي عليها سمة منداحة وغير متجسِّدة، فنحن نرى، على سبيل المثال، مؤلِّفاً موسيقيّاً عجوزاً يُدعى إيفان فوشنجرادسكي ـ بلغ الآن الثّمانين من عمره تقريباً ـ وقد حلّ به الفقر وماتت زوجته، وأقام وحيداً في شقّة بائسة تطلّ على شارع مدموازيل. ويقول عنه فانشو «إنّني أرى هذا الرَّجل أكثر من أيّ شخص آخر» ثمَّ لا ترد كلمة واحدة عن صداقتهما، ولا نلمح حتّى إضاءة عجلى لما يتبادلانه من حديث، وبدلاً من ذلك يرد وصف طويل لآلة البيانو القابعة في الشقَّة بحجمها الهائل ومفاتيحها الكثيرة (وقد صنعت خصيصاً لفوشنجرادسكي في براغ قبل خمسين عاماً، وتعدّ آلة من ثلاث في أوروبا يُعزف عليها ربعُ النَّغم) ثمَّ ترد، ودونما إشارات أخرى إلى أعمال المؤلِّف الموسيقي، قصَّة إعطاء فانشو ثلاَّجة للعجوز. فهو يقول في رسائله: «كنت في غمرة عمليَّة الانتقال إلى الشقَّة الجديدة، وبما أنَّ المكان كان يضم في أثاثه ثلاَّجة جديدة، فقد قرّرت إهداء الثلاَّجة القديمة لإيفان. وشأن الكثيرين في باريس فإنَّه لم تكن لديه ثلاجة قطّ، وكان يضع طعامه طوال كلّ هذه السّنين في صندوق صغير في جدار مطبخه، وقد بدا مسروراً تماماً من هذا العرض، وأجريت التّرتيبات اللاَّزمة لنقلها إلى داره ـ حملتُها صاعداً الدَّرج بمساعدة سائق الشاحنة التي نقلتها، وقد حيّا إيفان وصول ثلاجته باعتباره حدثاً مهمّاً في حياته، مغمغماً وكأنَّه طفل صغير ـ ومع

ذلـك فقـد كـان بمقـدوري أن أرى أنَّـه قلق، بـل وعـلى شيء من الانـزعاج، إذ لم يكن عـلى يقين ممّـا يفعله بهـذا الشيء الغـريب «إنها كبـيرة للغـايـة»، هكـذا واصـل القـول فيـما نحن نضعهـا في مكـان مناسب، ثمَّ عندمـا وصلناهـا بالتيّـار الكهربـائي، وشرع المحرّك في الدوران، قال «يا لها من ضجَّـة!» وقد افـترضت أنَّه سيعتـاد عليها، مشيراً إلى كلّ مزايا هذا الجهاز الحـديث، وكلّ السُّبـل التي ستتحسّن بها حياته، وأحسست بأنَّني أشبـه مبشِّراً: الكـاهن الكبير الـذي يعلم كـلّ شيء، محرِّراً حيـاة رجل العصر الحجـري بإطـلاعه عـلى الـدِّين الحقّ. وانقضى أسبـوع أو نحو ذلـك، وكان إيفـان يتّصـل بي يـوميّـاً تقريباً ليحدِّثني بمدى سعادته بالثلّاجة، واضعاً كـلّ الأطعمة الجـديدة التي كان في وسعه أن يشـتريها ويحفـظها في داره. ثمَّ حلّت الكـارثة، فقـد قال لي ذات يـوم وقد بـدا عليه الضِّيق الشـديـد: «أحسب أنَّها كسرت»، ويبدو أنَّ الفريزر الصغير الموجود في أعلى الثلّاجة قد امتلأ بالثلج، ولما كان لا يعرف كيف يتخلّص منـه فقد استخـدم مطرقـة، وانهال بها لا على الثلج وحده وإنَّما على الأنابيب الملتفّـة تحته، وقـال: «يا صديقي العزيز، إنِّني آسف للغاية»، فأبلغته بألَّا ينزعـج، وبأنَّني سأجد عاملاً لإصلاحها. وساد صمت طويـل على الـطَّرف الآخر من الخطّ، وقال إيفان أخيـراً: «طيِّب، أعتقد أنَّ الأمـر أفضل عـلى هذا النحو، فالضَّجة التي تحدثها تجعل التَّركيز بالغ الصعوبة، لقـد عشت طويلاً بـذلك الصنـدوق الصغير في الحـائط، وأحسب أنَّني مرتبط بـه للغاية، فلا تغضب يا صديقي العزيز، فأنا أعتقد أنَّـه ليس هناك مـا يمكن القيام به حِيال رجل عجوز مثلي، فأنت تصل إلى مـرحلة معيّنة في الحياة، ثمَّ يكون الوقت قد فات بالنِّسبة إلى التغيير».

وتواصل رسائل أخرى السَّير في هذا الاتجاه، مع ورود أسماء كثيرة والإشارة إلى أعمال متنوِّعة، وأحسب أنَّ المال الذي كسبه فانشو خلال عمله على متن السَّفينة قد بقي قرابة العام، وأنَّه تدبّر أمره بعد ذلك على أفضل نحو يستطيعه، ويبدو أنَّه قام لبعض الوقت بترجمة سلسلة من كتب الفنّ، وهناك دليل على أنَّه عمل في وقت آخر مدرِّساً للُّغة الإنجليزيَّة لعدد من طلاَّب المرحلة الثانويَّة، ويبدو مرَّة أخرى أنَّه عمل في نوبة العمل الهادئة كعامل بدّالة ذات صيف في مكتب صحيفة نيويورك تايمز في باريس (الأمر الذي يشير، إذا لم يكن هناك شيء آخر يؤكِّد ذلك، إلى أنَّه أصبح يتحدث الفرنسيَّة بطلاقة) ثمَّ هناك فترة مثيرة للفضول إلى حدٍّ كبيرٍ عمل فيها بين الحين والآخر لحساب منتج سينمائي، يراجع المعالجات الدّراميَّة، ويقوم بأعمال الترجمة وإعداد ملخَّصات السِّيناريو. وعلى الرّغم من وجود إشارات قليلة للغاية تتعلّق بسيرة الحياة في أيّ من أعمال فانشو فإنَّني أعتقد أنَّ عدَّة أحداث في رواية «أرض المستحيل» يمكن ردّها إلى هذه التجربة الأخيرة (دار المونتاج في الفصل السَّابع، وحلم الفيضان في الفصل الثلاثين) ويقول فانشو (مشيراً إلى المنتج السِّينمائي في إحدى رسائله) «الأمر الغريب في هذا الرّجل هو أنَّه بينما تقترب معاملاته الماليَّة مع الأغنياء من حدود الأعمال الإجراميَّة (تكتيكات الابتزاز، والكذب الصَّريح) فإنَّه مع من خانهم الحظّ يلزم رقّة الحاشية، فنادراً ما يقاضي من يدينهم بالمال، وإنَّما تتاح لهم فرصة العمل لتسديد ديونهم من خلال تقديم خدمات له، فسائق سيارته، على سبيل المثال، هو ماركيز مفلس ينطلق بسيارة بيضاء من طراز مرسيدس، وهناك بارون عجوز لا يصنع شيئاً إلّا استنساخ الأوراق، وفي كلّ مرَّة أزور شقَّته

لتسليم عملي أجد بائساً جديداً في أحد الأركان أو نبيلاً معوزاً يختفي خلف السّتائر، أو متموّلاً متألّقاً سرعان ما يتبيّن أنّه يعمل كفتى في توصيل الرسائل، وما من شيء يذهب هدراً، فعندما انتحر المخرج السّابق الذي يقطن غرفة الخادم في الطّابق السّادس خلال الشّهر الماضي، ورثت معطفه، ومازلت أرتديه منذ ذلك الحين، وهو معطف طويل، أسود يصل إلى كاحليّ تقريباً، ويجعلني أبدو كالجاسوس».

أمّا فيما يتعلّق بحياة فانشو الخاصّة فليس هناك إلاّ أشدّ التّلميحات غموضاً، إذ يُشار إلى حفل عشاء، ويتمّ وصف مرسم فنان مصوِّر، ويتسلّل اسم «آن» مرّة أو مرّتين، لكن طبيعة هذه الصّلات تظلّ غامضة. غير أنّ هذا كان ما أحتاج إليه، ومن خلال القيام بالأعمال التمهيديّة والانطلاق وطرح الأسئلة وصلت إلى أنّني سيكون بمقدوري الوصول إلى بعض هؤلاء الأشخاص.

يبدو أنّ فانشو قد ظلّ في مكانه بشكل أو بآخر، باستثناء رحلة استغرقت ثلاثة أسابيع إلى إيرلندا (دبلن، كورك، ليمريك، سليجو). وقد تمّ إكمال المسودّة النّهائيّة لرواية «إظلام» خلال عامه الثّاني في باريس. وأمّا رواية «معجزات» فقد كتبت خلال العام الثّالث جنباً إلى جنب مع أربعين أو خمسين قصيدة قصيرة. كلّ هذا يسهل تحديده. لأنّه في حوالي ذلك الوقت نشأت لدى فانشو عادة كتابة مواعيد إنجاز أعماله. ومازال الغموض يلفّ اللّحظة المحددّة الّتي غادر فيها باريس إلى الرّيف، ولكنّني أعتقد أنّها تعود إلى وقت ما بين حزيران (يونيو) وأيلول (سبتمبر) ١٩٧١ م، وحوالي ذلك الوقت غدت الرسائل قليلة ومتباعدة، وحتّى الكرّاسات لا تقدّم إلاّ قائمة

بالكتب الّتي كان يقرأها («تاريخ العالم» لراليج و«الرّحلات» لِكابيزا دي ڤاكا) ولكن بمجرّد استقراره في البيت الرّيفي فإنّه يرسم صورة مفصّلة إلى حدّ كبير عن كيفيّة وصوله إلى هناك، والتّفاصيل في ذاتها لا أهميّة لها، ولكنّ شيئاً مهمّاً يبرز: خلال إقامته في فرنسا لم يُخْفِ فانشو حقيقة كونه كاتباً، فقد كان أصدقاؤه يعلمون بأمر أعماله، وإذا كان هناك سرّ على الإطلاق، فقد قصدت به عائلته، وقد كانت تلك زلّة قدم من جانبه، فهي المرّة الوحيدة في أيّ رسالة من رسائله الّتي يشي فيها بنفسه، فقد كتب يقول: «ليس بمقدور آل ديدمون، وهما زوجان عرفتهما في باريس أن يزورا بيتهما بالرّيف في العام المقبل (سيذهبان إلى اليابان) ولمّا كان اللصوص قد اقتحموا المكان مرّة أو مرّتين، فقد تردّدا في تركه خاوياً، وعرضا عليّ وظيفة الإشراف عليه. وهكذا لم أحصل عليه دون إيجار فقط، وإنّما أتيح لي كذلك استخدام سيّارة، وأُعطِيتُ راتباً صغيراً (يكفل لي تدبّر أموري إذا لزمت الحرص)، وهذه ضربة حظّ موفّقة. وقد قالا إنّهما يُؤْثران أن يدفعا لي راتباً مدّة عام لسكني البيت والكتابة على تأجيره لغرباء». وربّما كانت تلك جزئيّة محدودة، ولكنّني عندما صادفتها في الرّسالة وجدتها شيئاً مشجّعاً، فقد تخلّى فانشو للحظة عن حذره، وإذا كان هذا قد حدث مرّة فليس هناك ما يحول دون افتراض أنّه يمكن أن يحدث مرّة أخرى.

وكأمثلة على الأعمال الكتابيّة فإنّ الرّسائل الّتي بعث بها من الرّيف تجاوز الرّسائل الأخرى كافّة، ذلك أنّه بحلول هذا الوقت كانت عين فانشو قد أصبحت حادّة، على نحو لا يصدّق، ويحسّ المرء بأنّ

الكلمات تواتيه طائعة وكأنّما ضاقت المسافة بين الرؤية والكتابة، وأصبح الفعلان متطابقين تقريباً، وجزءاً من إيماءة واحدة. وتشغل الطبيعة فانشو فيواصل العودة إليها، ويتأمّلها بلا انتهاء، ويسجّل تغييراتها بلا توقّف، ولا يتراجع صبره حيال هذه الأمور عن مستوى التّميز، وهناك فقرات من الكتاب عن الطّبيعة في رسائله وكرّاساته على السّواء تُعدّ من أكثر ما قرأت إشراقاً، وقد بنى المنزل الحجريّ الّذي يقطنه (ولا تقلّ الجدران في سمكها عن قدمين) خلال الثّورة، وعلى أحد جانبيها كرمة صغيرة، وعلى الجانب الأخضر مرج معشب ترعى فيه الماعز، وثمّة غابة وراء ذلك (طيور العقعق، غربان القيظ، الخنازير البريّة) وأمامه، عبر الطّريق، تقع الصخور الّتي تُفضي إلى القرية (الّتي يبلغ عدد سكانها أربعين شخصاً) وعلى هذه الصّخور نفسها، ومحتجبة وسط عناق الأشجار والشّجيرات تلوح أطلال كنيسة عادت ذات يوم إلى «فرسان المعبد». الوَزّال، الزعتر، البلّوط الخفيض، التربة الحمراء، الصلصال الأشهب، المسترال - يعيش فانشو في قلب هذه الأشياء لأكثر من عام، وشيئاً فشيئاً يبدو أنّها تفلح في تغييره، وفي غرسه بمزيد من العمق في ذاته، وإنّني لأتردّد في الحديث عن تجربة دينيّة أو صوفيّة (فهذان التّعبيران لا يعنيان شيئاً بالنّسبة إليّ) ولكن يبدو من خلال كلّ الأدلّة أنّ فانشو كان وحيداً طوال الوقت، ويكاد لا يرى أحداً، وقد أدّت صرامة هذه الحياة إلى انضباطه، وغدت العزلة ممرّاً يُفضي إلى ذاته، وأداة للاكتشاف. وعلى الرّغم من أنّه كان مايزال في مقتبل العمر وقتذاك فإنّني أعتقد أنّ هذه الفترة شكّلت بداية نضجة باعتباره كاتباً، فمنذ هذه الفترة تتجاوز أعماله كونها شيئاً واعداً لتغدو شيئاً متحقّقاً، ومُنْجَزاً يُنتمي إليه على

نحـو لا يحتمل اللّبس. ويبـدو فانشـو وقـد بلغ تمـام ازدهـاره، بـدءاً بـالفيض المتتابـع من القصـائـد الّتي نـظّمهـا في الـرّيف (والّتي يمكن اعتبارها بمثابة الأعمال التّمهيديّـة) ثمّ انطلاقـاً عبر المسرحيّـات ورواية «أرض المستحيل» (وقد كتبت كلّهـا في نيويـورك). ويبحث المرء عن آثار للجنون، عن مؤشّرات للتّفكير الّذي سيقلبه على نفسه بالفعـل، ولكنّ الأعـمال لا تكشف عن شيء من هـذا النّـوع. ولاشـكّ في أنّ فانشو ليس بالشّخص العاديّ، ولكنّـه عاقـل بحسب ما تفـرضه كـلّ المـظاهر، وعنـدما يعـود إلى أمريكـا في خريف ١٩٧٢ م فـإنّـه يبـدو مالكاً لزمام نفسه تماماً.

جاءت ردودي الأولى من أناس كان فانشو قد عرفهم في هارڤارد، وبـدا أنّ كلمتَيْ «سيرة حيـاة» تفتحـان لي الأبـواب، ولم أَلْقَ عنتـاً في تحديد مواعيد لمقابلة معظمهم. وقد قابلت زميله في الإقـامة بـالمدينـة الجامعيّة في السّنة الأولى، ورأيت كثيراً من أصدقائه، والتقيت باثنتين أو ثـلاث من فتيـات رادكليف الـلاّتي كـان يقـابلهنّ، غـير أنّ ذلـك لم يُسْفِر عن كثير، فمن بين جميع من التقيتهم لم يقـل إلاّ شخص واحد أيّ شيء جدير بالاهتمام، وكان هذا الشّخص الواحد هـو بول شيف الّذي قام أبوه بإجراء التّرتيبات الضّروريّة لحصـول فانشـو على عمـل عـلى متن النّـاقلة. وقـد غـدا شيف الآن طبيبـاً متخصّصـاً في عـلاج الأطفال في مقاطعة وستشستر، وقد تجاذبنـا أطراف الحـديث في عيادتـه ذات مساء حتّى وقت متأخّر، وكانت فيه جِدّية حبّبته إلى نفسي (كـان رجلاً صغيراً في حجمه، متوفّزاً، وقد شرع شعره في التّساقط، وتتميّز عيناه بالنّفاذ، ويتردّد صوته لَدِناً رقيقاً) وقد تحدّث بصراحة، ومن غير

أن استحثّه في هذا الصّدد. لقد كان فانشو شخصاً مهمّاً في حياته، وهو يذكر صداقتهما جيّداً. وقال: «كنت فتى مجتهداً، منكبّاً على العمل، مطيعاً، دونما نصيب كبير من الخيال، ولم تكن جامعة هارڤارد قد أثّرت كثيراً في نفس فانشو كما أثّرت في بقيّتنا، وأعتقد أنّ ذلك قد بهرني، وكان قد قرأ أكثر ممّا قرأه أيّ شخص آخر، قرأ المزيد من الشعراء، والمزيد من الفلاسفة، والمزيد من الرّوائيين، ولكنّ العمل الدّراسي بدا وكأنّه يصيبه بالضّجر، ولم يكترث بالدّرجات، وتغيّب عن المحاضرات كثيراً، وبدا وكأنّه يمضي في طريق خاص به. وفي العام الدّراسي الأوّل كنّا نقطن على جانبيْ قاعة واحدة، ولسبب لا أدريه اختارني لأكون صديقه، وبعد ذلك كنت كمن التصق به التصاقاً، وكانت لديه أفكار كثيرة عن كلّ شيء، وأعقتد أنّني تعلّمت منه أكثر ممّا تعلّمت من أيّ صفّ دراسيّ درست فيه، وأحسب أنّ تلك كانت حالة سيّئة من حالات عبادة البطل، ولكنّ فانشو ساعدني، ولم أنسَ ذلك. لقد كان هو من علّمني أن أفكّر لنفسي، وأن أقوم باختياراتي النّابعة منّي، ولولاه لما أصبحت طبيباً. وقد انتقلت إلى دراسة الطبّ لأنّه أقنعني بالقيام بما أردته، ومازلت ممتنّاً له على ذلك.

في منتصف عامنا الدّراسي الثّاني أبلغني فانشو بأنّه سيهجر الدّراسة، ولم يدهشني ذلك حقّاً، فلم تكن الجامعة هي المكان الصّحيح لفانشو، وكنت أعلم أنّه قلق ويتوق إلى الرّحيل. وقد حدّثت أبي الّذي كان يمثّل نقابة البحّارة فتوصّل إلى توفير ذلك العمل على متن السّفينة لفانشو، وتمّ ترتيب الأمر على نحو حاذق، وتمّ

تمرير فانشو سريعاً عبر تحضير كافّة الأوراق المطلوبة، وبعد أسابيع قليلة كان قد انطلق. وقد بلغتني أخباره عدّة مرّات، وتلقّيت منه بطاقات بريديّة من هنا وهناك، يكتب فيها أموراً من قبيل: كيف حالك، وما إلى ذلك. وقد أسعدني أن أتمكّن من مساعدته، ثمّ انفجرت كلّ هذه المشاعر الطيّبة بالفعل في وجهي. فقد كنت في المدينة ذات يوم، قبل أربع سنوات، أسير في فيفث أفنيو، وصادفت فانشو هنالك في الشّارع مباشرة، وأسعدني أن أراه، وكنت مندهشاً حقّاً وسعيداً، ولكنّه لم يكلّف نفسه حتّى عناء محادثتي. لقد كان الأمر كما لو أنّه نسي من عساني أكون، وبدا متصلّباً، ويوشك أن يكون وقحاً، واضطررت إلى دفع بطاقة تحمل عنواني ورقم هاتفي في يده دفعاً، ووعد بالاتّصال بي، ولكنّه بالطّبع، لم يتّصل بي قطّ، وبمقدوري القول إنّ ذلك قد آلمني كثيراً، ورحت أحدّث نفسي قائلاً، يا لابن الكلبة ذاك! من يحسب نفسه؟ بل إنّه لم يحدّثني بما يفعله، وإنّما تجنّب أسئلتي، وانطلق مبتعداً، فحدّثت نفسي قائلاً: وداعاً لعهد الكليّة، وداعاً للصداقة! وقد خلّف ذلك مذاقاً مريراً في فمي. وقد اشترت زوجتي أحد كتبه، وقدّمته إليّ هديّة في عيد ميلادي، وإنّني لأعرف أنّ ما فعلته سلوك طفوليّ، ولكنّ قلبي لم يطاوعني على فتحه. وإنّما قبع هنالك على الرّف ليتراكم عليه الغبار. إنّه أمر غريب، أليس كذلك؟ الجميع يقول إنّه من روائع الأعمال ولكنّني لا أستطيع الاعتقاد بأنّه سيكون بمقدوري إرغام نفسي على قراءته».

كان هذا هو التّعقيب الأكثر وضوحاً الّذي انتزعته من كلّ من

قابلتهم، وكان لدى بعض العاملين على متن النّاقلة ما يقولـه، ولكن ما من شيء أفاد مقاصدي بصـورة حقيقيّة، فعـلى سبيل المثـال تذكّـر أوتيس سمارت الرّسائل العاطفيّة الّتي كتبها فانشو على لسانه، وعندما اتّصلت به هاتفيّاً في باتون روج، تحدّث عنها باستفـاضة بـالغة، بـل واقتطف بعض العبارات الّتي ابتكـرها فـانشو (عـزيزتي ذات الأقـدام المتألّقة الأصابع، امرأتي الّتي تشبه القرع المهروس، شرّيرتي الّتي تشبه صفصافة الأحـلام، وما إلى ذلـك) وراح يُغْرِب في الضّحـك، خلال حديثه، وقال إنّ الشّيء اللّعين حقّـاً هو أنّ سـو آن بينها كـان يرسـل إليها هذه الخطابات كانت تبادل شخصاً آخر الحبّ، ويـوم عاد إليهـا بـادرته بـإعلان أنّها بسبيلهـا إلى الزّواج، وأضـاف إنّ ذلك كـان من محاسن الصّدف، «فقد قابلت سـو آن في بلدتي خلال العـام الماضي، فإذا بوزنها قد وصل إلى حـوالي ثلاثـمائة رطـل الآن، وهي تبدو مثـل امـرأة بـدينـة في رسم كـاريكـاتـيري ـ تتبخـتر في الشّـارع في سروال بـرتقالي، وقـد تـدلّت كتـل الشّحم حـولها، وقـد أضحكني ذلـك، أضحكني أن أتذكّر الـرّسائـل، لقد أطـراني فانشـو ذاك كثيراً، وكـان يُسمعني بعض سطوره تلك، فإذا بي أشرع في التّدحرج عـلى الأرض كالقرد من فرط الضّحك. إنّه أمر مؤسف ما حدث لـه، فالمـرء يكره أن يسمع بشخص أفسد بطاقة سفره في الدّنيا قبل الأوان».

وكان جيفري بـراون الّذي يعمـل الآن كبيراً للطّهـاة في مطعم في هيـوستون، مسـاعداً للطّاهي عـلى متن السّفينة، وقـد تذكّـر فـانشـو باعتباره عضو الطّاقم الأبيض الوحيد الّذي تعامل معه بروح الصداقة والودّ. قال براون: «لم يكن الأمر سهلاً، فقد كان الطّاقم في معـظمه

من أجلاف الجنوب، وكان أحدهم يوشك أن يبصق عليَّ في معرض تحيّتي، ولكن فانشو وقف إلى جانبي، ولم يُبْدِ اكتراثاً بما يقولونه، وعندما كنّا نصل إلى بيتاون وأماكن من هذا القبيل، كنّا نمضي إلى الشّاطئ لتناول بعض الشّراب، ولمصاحبة الفتيات، وما إلى ذلك، وكنت أعرف هذه البلدات أفضل من معرفة فانشو، وقد أبلغته بأنّه إذا أراد البقاء معي فليس بمقدورنا ارتياد مشرب البحّارة المعتاد، وكنت أعرف ما سيصير إليه أمري في أماكن من ذلك النّوع، ولم أرد الوقوع في المشكلات، قال فانشو: لا مشكلة هناك، وكنّا ننطلق إلى الأحياء الزنّجيّة من غير مشكلات على الإطلاق. وفي معظم الوقت كانت الأمور بالغة الهدوء على متن السّفينة، بلا مشكلات على الإطلاق، فما من شيء لا أستطيع تدبّر أمره، ولكن جاء ذلك العميل الخشن لقضاء عدّة أسابيع، رجل يدعى كتبيرت، إذا كنت تصدِّق وجود هذه الاسم، روي كتبيرت. كان عامل صيانة لآلات السّفينة، غبيّاً، صخّاباً، طُرد في نهاية المطاف من السّفينة عندما قَدَّر كبير المهندسين أنّه لا يؤدّي واجبه في العناية بالمحرّكات لأنّه لا يعرف عنها شيئاً. وقد عمد إلى الغشّ في الاختبار للحصول على هذا العمل، وهو الرّجل المناسب لوضعه في قاعة المحرّكات إذا كنت تريد نسف السّفينة. كان هذا الكتبيرت غبيّاً، خسيساً وغبيّاً، ولديه ذلك الوشم على ظاهر أصابع يده: م. ح. ب. ة على اليد اليمنى وم. ق. ت على اليد اليسرى. وعندما ترى هذا النّوع من الهراء الأبله فإنّك ترغب في الابتعاد عنه. وقد تباهى هذا الرّجل أمام فانشو بأنّه قد اعتاد قضاء أمسيات السّبت في بلدته بولاية ألاباما جالساً على أحد التلال الفاصلة بين ولايتين ومطلقاً النّار على السيّارات. ولاشكّ

أنّه رجل جذّاب أيّاً كان الشّكل الّـذي تعبّر بـه عن الأمر، ثمّ هنـاك عينه تلك، البالغة الاحمرار والمشـوّهة، ولكنّـه كان يحبّ التبـاهي فيما يتعلّق بهذا الأمر أيضاً، ويبدو أنّ إصابته قد حدثت ذات يـوم عندمـا أصابتها شظيّة زجاج، وقال إنّ ذلك قد وقع في سيلما بينما كـان يلقي بالزّجاجات على مارتن لوثر كينج. ولست بحاجة إلى أن أحدّثـك بأنّ كتبـيرت ذلك لم يكن من النّـوع الأثير عنـدي، وقد اعتـاد أن يرمقني بنظرات طويلة مدمدمـاً بما لا يتبـيّن ومشيراً لنفسـه، ولكنّني لم أكترث به. وسارت الأمور على هذا النحو لبعض الوقت، ثمّ جرّب حظّه مع فانشو، وحدث ذلك عـلى نحو أكـثر وضوحـاً من أن يتجاهله فـانشو الّـذي يتوقّف، ويلتفت إلى كتبـيرت ويقـول: «مـاذا قلت؟» ويقـول كتبـيرت الّذي تبـدو عليه الجـلافة والصّـلابة شيئـاً من قبيـل: «كنت أتساءل متى تعتزم أنت وأرنب الأدغال الزواج، يا عزيزي؟!» طيّب، لقد كان فانشو مسالماً وودوداً، وسيّداً مهذّبـاً حقّاً، إذا كنت تـدرك ما أعنيه، ولذا لم أكن متوقّعاً ما حدث. كان الأمر يشبه مشاهدة الرّجـل الأخضر على شاشة التلفزيون، الرّجل الّذي يتحوّل إلى وحش، أعني أنّـه يغضب فجأة، ويـنـدفع حـانقاً، وقـد استبدّ بـه الغضب فتجـاوز حـدوده، أمسك بكتبـيرت من ياقـة قميصه، وألقى بـه إلى الحـائط، وألصقه به، وضغط عليه، وراحت أنفاسه تتردّد حِيـال وجه الآخـر، ويقول فانشو وقد اتّقدت النّار في عينيه: «لا تقل ذلك ثانيـة أبداً، لا تقل ذلك ثانية أبداً وإلاّ قتلتك». ولتحلّ بك اللّعنة إذا لم تصدّقه فيما هو يقول ذلـك، فقد كـان على استعـداد للقتل، وقـد عرف كتبـيرت ذلـك، فـإذا بـه يقـول: «كنت أمـزح، كنت أُلقي مـزحـة صغـيرة فحسب». عندئذٍ انتهى الأمر بسرعة بالغة. لم يدم الحادث بكامله إلاّ

أقلّ من نصف طرفة عين، وبعد يومين فُصل كتبيرت من عمله. وكان ذلك بمثابة ضربة حظ أيضاً، فلو أنّه بقي وقتاً أطول فما من أحد كان يمكن أن يعرف ما سيحدث».

تلقّيت عشرات الإفادات من هذا النّوع، من الرّسائل، من المحادثات الهاتفيّة، من المقابلات. واستمرّ الأمر شهوراً، وفي كلّ يوم كان نطاق المادّة يتوسّع، وينمو بمتواليات هندسيَّة مراكماً المزيد والمزيد من العناصر المرتبطة به، سلسلة من الاتصالات التي اكتسبت بالفعل حياة خاصّة بها. كانت المادّة كائناً عضوياً جائعاً بلا انتهاء، وفي النهاية أدركت أنّه ما من شيء يحول دون أن تصبح في ضخامة العالم ذاته، فحياة تمسّ حياة أخرى وهذه بدورها تمسّ ثالثة، وبسرعة أخرى تغدو الاتصالات ممّا يستعصي إحصاؤه. لقد علمت بأمر امرأة بدينة في بلدة صغيرة في لويزيانا، وعلمت بعنصريّ مجنون يعلو الوشم أصابعه وله اسم يتحدّى الفهم، وعلمت بأمر عشرات الأشخاص الّذين لم أسمع عنهم شيئاً من قبل قطّ، وكلّ منّهم كان جزءاً من حياة فانشو. وربّما كان كلّ ذلك على مايرام، وربّما كان بمقدور المرء أن يقول إنّ فائض المعرفة ذلك هو على وجه التّحديد الشيء الذي يبرهن على أنّني وصلت إلى موضعٍ ما. فقد كنت، في نهاية المطاف، تحرّياً، وعملي هو البحث عن بدايات الخيوط، وإذ جوبهت بمليون جزئيّة من المعلومات العشوائيّة الزائفة، واجتُذبت خطاي إلى مليون درب من دروب التّحقيق الزّائفة، فقد تعيّن عليّ العثور على الدّرب الّذي سيفضي بي إلى حيث أريد الذّهاب. وحتى الآن كانت الحقيقة الأساسيَّة هي أنّني لم أعثر على ذلك الدّرب. فلم

يكن أيّ من هؤلاء النَّاس قد رأى فـانشو أو تلقَّى اتصـالاً منه خـلال سنـوات، وما لم أشـكّ في ما أبلغني بـه الجميع، ومـا لم أبدأ بـإجـراء تحقيق عن كلّ منهم، فقد كان عليّ الافتراض بأنّهم يقولون الحقيقة.

أعتقد أنّ ما وصل إليه الأمر كان مسألة منهـاج، وبمعنى من المعاني كنت أعرف كلّ شيء يتعينّ العلم به فيما يتعلّق بفانشـو، والأمور التي علمت بهـا لم تُعْلِمني أيّ شيء له أهميتـه، ولم تتجـاوز أيّـاً من الأمـور التي كنت أعرفها بالفعل، أو إذا شئنا التَّعبير عن الأمر بصورة مختلفـة قلنا إنّ فانشو الّذي عرفته لم يكن هو نفسه فانشو الّذي أبحث عنه، فقد كان هناك انقطاع في مـوضعٍ مـا، انقطاع مفـاجئ يستعصي على الفهم، ولم تبرّر الأمور التي قالها لي مختلف الأشخاص الّذين طـرحت عليهم الأسئلة هـذا الانقطاع. وفي النهـاية فـإنّ إفاداتهم قـد أكّـدت فحسب أنّ ما حدث ما كان يمكن أن يحدث. إنّ فانشو كان عـطوفاً، أنّـه كان قـاسياً، تلك كـانت قصّة قـديمة، وكنت أعـرفها عـن ظهـر قلب. وما كنت أبحث عنه كان شيئاً مختلفاً، شيئاً مـا كان بمقـدوري حتّى تخيّله: فعلاً لاعقلانيّاً تمامـاً، شيئاً يتنـاقض مع شخصيّتـه كلّية، تنـاقضاً مـع كلّ مـا كان عليـه فانشـو حتّى لحظة اختفـائه. وواصلت محاولة القفز إلى المجهول، ولكنّني في كلّ مرّة هبـطت فيها كنت أجـد نفسي في أرض مألوفة لديّ، محاطاً بما هو أكثر ألفة عندي.

كلّما أوغلت في المسـير ضاقت الاحتـمالات، وربمّا كـان ذلك أمـراً جيّداً، لست أدري. وقد عرفت أنّني في كلّ مـرّة أُمنى فيها بـالفشل، فإنّ ذلك ـ إنّ لم يسفر عن أيّ شيء آخر ـ يؤدّي إلى أن تنقص أماكن البحث مكاناً. وقد مرّت الشهـور، شهور أكـثر ممّا أودّ أن أُقـرّ به. وفي

شباط (فبراير) وآذار (مارس) أمضيت معظم وقتي باحثاً عن كوين، التحرّي الخاصّ الّذي عمل لحساب صوفي، ومن الغريب أنّني لم أستطع العثور على أثر له، ويبدو أنّه لم يَعُدْ يمارس عمله، لا في نيويورك ولا في أيّ مكان آخر. ولبعض الوقت تحرّيت تقارير الجثث التي لم يتقدّم أحد للتعرّف على هوية أصحابها، ورحت أطرح الأسئلة على العاملين في معرض جثث المدينة، وحاولت اقتفاء أثر أعضاء عائلته، ولكنّ ذلك لم يسفر عن شيء. وكملاذ أخير بحثت إمكانية الاستعانة بتحرٍّ خاصّ آخر للبحث عنه، ثمّ قرّرت ألّا أفعل ذلك، فقد شعرت بأنّ في رجل مفقود واحد كفاية، وشيئاً فشيئاً استنفدت الاحتمالات الباقية. وفي منتصف نيسان (أبريل) وصلت إلى الاحتمال الأخير. انتظرت بضعة أيّام أخرى، على أن يحلّ الحظ بساحتي، ولكنّ شيئاً لم يحدث، وفي صبيحة الحادي والعشرين من نيسان (أبريل)، مضيت في نهاية المطاف إلى وكالة سفريات وحجزت مقعداً على متن الطّائرة المتّجهة إلى باريس.

كان يفترض أن أرحل يوم الجمعة. وفي يوم الثلاثاء مضيت مع صوفي لشراء جهاز لتشغيل الأسطوانات. وكانت إحدى شقيقاتها الأصغر سنّاً توشك على الانتقال إلى نيويورك، وكنّا نعتزم إهداءها جهاز تشغيل أسطواناتنا القديم، وكانت فكرة شراء جهاز جديد تراودنا منذ عدّة أشهر، وقد منحنا هذا عذراً للانطلاق للحصول على الجهاز الجديد. وهكذا مضينا إلى قلب المدينة في يوم الثلاثاء ذاك، وابتعنا الجهاز، ثمّ حملناه إلى الدّار في سيّارة أجرة، وعلّقناه في الموضع الّذي كان يشغله الجهاز القديم، ثمّ وضعنا الجهاز القديم في

الصّندوق الجديد، ورحنا نحدّث أنفسنا بأنّ في ذلك حلاًّ حاذقاً. وكانت كارين ستصل في أيّار (مايو)، وفي غضون ذلك أردنا أن نبقي الجهاز القديم بعيداً عن العيان، وعند ذلك صادفتنا مشكلة.

كان مجال التخزين محدوداً، كما هو الحال في معظم شقق نيويورك، وقد بدا أنّه لم يعد لدينا فراغ يذكر. وكانت الخزانة الوحيدة التي يمكن أن يعلّق عليها أيّ أمل موجودة في غرفة النّوم، ولكنّ الغرفة كانت بالفعل مليئة بالصناديق، ثلاثة عميقة وثلاثة مرتفعة وأربعة تمتدّ بالعرض، ولم يكن هناك مجال على الرفّ في الأعلى. وكانت تلك هي الصناديق الورقيّة التي تضمّ متعلّقات فانشو (الملابس والكتب وغير ذلك من الأشياء) وقد كانت هناك منذ انتقالنا، ولم أدرِ أنا وصوفي ما الّذي يتعينّ علينا القيام به حِيالها منذ قامت بتنظيف شقّتها القديمة، ولم نرغب في أن تحيط بنا ذكريات فانشو في حياتنا الجديدة، ولكن في الوقت نفسه بدا أنّ من الخطأ الاكتفاء بإلقاء هذه الأشياء بعيداً، وكانت الصناديق بمثابة نوع من الحلّ الوسط. وبالفعل فقد بدا أنّنا لم نلحظها، وقد أصبحت جزءاً من الطّابع العام للمنزل، مثل ألواح الأرضيّة المكسورة تحت سجّادة غرفة الجلوس، وشأن الشقّ في الجدار فوق فراشنا، وغدت خفيّة في غمرة حياتنا اليوميّة. وأمّا الآن، وفيما فتحت صوفي باب الخزانة، فقد تغيّرت حالتها المزاجيّة فجأة.

ـ كفانا من هذا!

قالتها صوفي وهي تجلس على أرضيّة الخزانة، ونحّت الملابس التي تغطّي الصناديق متدلّية فوقها، وجعلت حمالات الملابس تقرقع،

وباعدت ما بين الأشياء في إحباط، وكـان ذلك غضبـاً مفاجئـاً، وبدا موجَّهاً إليها أكثر ممّا هو موجّه إليّ.
كنت أقف إلى الجانب الآخر من الفراش، أتطلّع إلى ظهرها:
ـ كفانا مِمَّ؟
قالت، وهي ماتزال تحرّك الثياب جيئة وذهاباً:
ـ من الأمر بأسره، كفى من فانشو وصناديقه!
ـ ما الّذي تريدين عمله بها؟
جلست على الفراش، ورحت أنتـظر ردّاً، ولكنّها لم تقـل أيّ شيء فعدت إلى التساؤل من جديد:
ـ ما الّذي تريدين عمله بها يا صوفي؟!
التفتت، وواجهتـني، وكـان بمقـدوري إدراك أنّها عـلى وشـك الانخراط في البكاء. قالت:
ـ ما جدوى الخزانة إذا لم يكن بمقدورك استخدامها؟
تردّد صوتها مرتجفاً، وقد فقدت سيطرتها عليه، وأضافت:
ـ أعني أنّه ميت. أليس كذلك؟ وإذا كان قد مات، فلماذا نحتـاج إلى كلّ هذه... وكلّ هذه النفاية. الأمر يشبه العيش مع جثّة.
قالتها مشيرة إلى الصناديق، ومدّققة في كلماتها.
قلت:
ـ بمقـدورنا أذا أردت أن نتّصـل بجيش الخلاص اليـوم للتبرّع بهـا له.
ـ اتّصل بهم الآن، قبل أن تقول كلمة أخرى.
ـ سـأفعـل ذلـك، ولكن سيتعـينّ علينـا أوّلاً أن نفتـح الصنـاديق ونصنّف محتوياتها.

ـ لا، أريد التخلّص من كلّ شيء، كلّ شيء في الحال.

قلت:

ـ ذلك أمر طيّب، بالنّسبة إلى الملابس، لكنّني أردت الإبقاء على الكتب لبعض الوقت، فقد كنت أعتزم إعداد قائمة بها، والتدقيق فيما يتعلّق بوجود ملاحظات على الهوامش، وبمقدوري الفراغ من ذلك في غضون نصف ساعة.

نظرت إليّ صوفي غير مصدّقة، وقالت:

ـ إنّك لا تفهم أيّ شيء، أليس كذلك؟

وعندئذٍ، وفيما هي تنهض واقفة، فاضت الدّموع من عينيها، دموع طفلة، دموع لا تحتجز شيئاً وتنساب على وجنتيها وكأنّها لا تعرف بوجودها. وأضافت:

ـ لم يعد بمقدوري الوصول إليك، إنّك لا تسمع ما أقول.

ـ إنّني أبذل قصارى جهدي، يا صوفي!

ـ لا، إنّك لا تفعل هذا، تعتقد ذلك، ولكنّك لا تفعله، ألا تدرك ما يجري، إنّك تعيده إلى الحياة.

ـ إنّني أقوم بتأليف كتاب، ذلك هو كلّ ما هنالك، مجرّد كتاب، ولكنّني إذا لم أحمل الأمر على محمل الجِدّ، فكيف لي أن آمل في إنجازه؟

ـ ليس الأمر مقتصراً على ذلك، إنّني أعرف هذا، وبمقدوري أن أشعر به، إذا أريد لنا أن نعيش فينبغي أن يموت هو. ألا تفهم ذلك؟ وحتّى إذا كان على قيد الحياة فإنّه ينبغي أن يموت.

ـ عمَّ تتحدّثين؟ إنّه ميّت، بالطّبع.

ـ لن يـظلّ كذلـك طـويـلاً، لن يـظلّ مـا دمتَ تُبقي الأمـر عـلى توهُّجه.

ـ ولكنّك أنتِ من دفعني إلى البدء به، لقد أردت أن أقـوم بإنجـاز الكتاب.

ـ ذلك كان منذ مائة عام، يا عزيـزي، إنّني خائفـة للغايـة من أن أفقدك، لن أستطيع تحمّل حدوث ذلك.

ـ لقد أوشـك الأمر على الانتهاء، كوني على يقين من ذلك، وهذه الرحلة هي الخطوة الأخيرة.

ـ ثمّ ماذا بعد ذلك؟

ـ لسوف نرى. ليس بمقدوري أن أعرف ما أنا بسبيلي إليه إلاّ بعد أن أبلغه.

ـ ذلك ما كنت أخشاه.

ـ في وسعك الذّهاب معي.

ـ إلى باريس؟

ـ إلى باريس، في وسعنا نحن الثلاثة أن نذهب معاً.

ـ لا أعتقـد ذلك. ليس والأمـور عـلى مـا هي عليـه الآن، اذهب وحدك، فعلى الأقلّ إذا ما عدت سيكون ذلك لأنّك أردت العودة.

ـ ماذا تعنين بقولك «إذا»؟

ـ عنيت ما قلت. «إذا»، كما في القول «إذا ما عدت»

ـ ليس بمقدورك تصديق ذلك.

ـ لكنّني أصـدّقـه. إذا مضت الأمـور عـلى هـذه الشـاكلة فسـوف أفقدك.

ـ لا تتحدّثي على هذا النحو، يا صوفي!

ـ لست أستطيع لذلك دفعاً، إنّك شديد القرب من الذهاب.

بالفعل، وفي بعض الأحيان أستطيع أن أراك وأنت تختفي أمام ناظريّ.

ـ ذلك هراء.

ـ أنت مخطئ، إنّنا نقترب من النهاية، يا عزيزي، ولست تدري بذلك، لسوف تختفي، ولن تُقَدَّر لي رؤيتك مرّة أخرى.

- ٨ -

بدت الأشياء أكبر على نحو غريب بالنّسبة إليّ في باريس. كانت السّماء أكثر حضوراً منها في نيويورك، وتقلّباتها أكثر هشّاشة، ووجدت نفسي منّجذباً إليها. وطَوال اليوم أو اليومين الأوّلين رحت أرقبها على الدّوام جالساً في غرفتي بالفندق، ومتأمّلاً السُّحب، ومنتظراً حدوث شيء ما. تلك كانت سحباً شماليّة، سحب الأحلام التي تتبدّل على الدّوام، متجمّعة على هيئة جبال رماديّة هائلة، تنهمر منها زخّات قصيرة تتفرّق ثمّ تتجمّع من جديد؛ تتدحرج عبر الشّمس وينعكس عنها الضوء على أشكال تبدو مختلفة دائماً. ولسماء باريس قوانينها، وهي تسري على نحو منفصل عن المدينة الواقعة تحتها. وإذا كانت المباني تبدو ثابتة ومستقرّة على الأرض ولا سبيل إلى تدميرها فإنّ السّماء تلوح رحبة وغير منتظمة ومتعرّضة لاضطراب دائب. وطَوال الأسبوع الأوّل ساورني شعور بأنّي قُلبتُ رأساً على عقب. كانت تلك مدينة تنتمي إلى العالم القديم، وليس لها علاقة بنيويورك، بسمائها الوئيدة الحركة، وشوارعها الفوضويّة، وسحبها الرقيقة، ومبانيها العدوانيّة. لقد شُرِّدتُ، وجعلني ذلك، على نحو مفاجئ، بعيداً عن الثّقة بنفسي، فأحسّست بقبضتي تتفكّك، وتعينّ عليّ أن أقوم مرّة على الأقلّ كلّ ساعة بتذكير نفسي بسبب وجودي هنا.

لم تكن لغتي الفرنسيّة جيّدة، كما أنّها لم تكن رديئة، فلديّ من المفردات ما أتفهّم به ما يقوله النّاس لي، ولكنّ الحديث كان صعباً، وحلّت أوقات لم أكن أتلفّظ فيها بكلمة عندما أغالب نفسي لأقول أبسط الأشياء. وأعتقد أنّه كان في ذلك سرور خاصّ، سرور معايشة

اللّغة كمجموعة من الأصوات، والإجبار على التحليق إلى سطح الكلمات حيث تختفي المعاني، فلكي أفهم ما يقوله النّاس كان عليّ أن أترجم كلّ شيء في صمت الانجليزيّة، الأمر الّذي كان معناه أنّني حتّى عندما أفهم فإنّ فهمي كان على مبعدة، إذ أقوم بالعمل مرّتين، وأحصل على نصف نتيجة. فقد ضاعت منّي فروق المعاني، والارتباطات الشّعوريّة، والتيارات الباطنيّة. وفي النهاية قد لا يكون من قبيل الخطأ القول بأنّ كلّ شيء كان يضيع منّي.

ومع ذلك فقد مضيت قُدُماً، واستغرق منّي البدء بالتّحقيق عدّة أيّام، ولكن بمجرّد قيامي بإتّصالي الأوّل تتابعت الاتصالات الأخرى. غير أنّه كان هناك عدد من خيبات الأمل، فقد توفي فيشنجرادسكي، وعجزت عن تحديد مقرّ إقامة أيّ من التّلاميذ الّذين قام فانشو بتدريس اللّغة الإنجليزية لهم، ورحلت المرأة التي قامت بتشغيل فانشو في صحيفة «النيويورك تايمز» ولم تَعُدْ تعمل هناك منذ سنوات. وكانت مثل هذه الأمور في عداد المتوقّع ولكنّني لم أتقبّلها في يسر، إذ كنت أعرف أنّه حتّى أصغر ثغرة يمكن أن تكون قاتلة، وكانت تلك بالنّسبة إليّ فراغات خاوية، مساحات بيضاء في الصّورة، وأيّاً كان مدى نجاحي في تغطية مناطق أخرى فإنّ الشكوك ستظلّ قائمة، الأمر الّذي كان معناه استحالة انتهاء العمل بصورة حقيقيّة.

تحدثت مع آل ديدمون، ومع ناشري كتب الفنّ الّذين عمل فانشو لديهم، ومع المرأة التي تُدعى آن (اتّضح أنّها كانت صديقة لفانشو). وتحدّثت مع المنتج السينمائي فقال لي بإنجليزية تشوبها لكنة روسيّة: «أعمال عَرَضيّة، هذا هو ما كان يقوم به، ترجمات،

ملخّصات للسيناريوهات، بعض الكتابات التي تضع زوجتي اسمها عليها. كان فتى لمّاحاً ولكنّه أكثر تصلّباً ممّا ينبغي، مغرقاً في نزعته الأدبيَّة، إذا كنت تعرف معنى ما أقوله. أردت منحه فرصة للتّمثيل، بل وعرضت عليه إعطاءه دروساً في ركوب الجياد واجتياز الحواجز تمهيداً لفيلم كنّا سنقوم بتصويره. فلقد أحببت ملامحه، وحدّثت نفسي بأنّ بمقدورنا أن نصنعِ منه شيئاً، ولكنّه لم يكن مهتمّاً، وقال لي إنَّ لديه بيضات أخرى يتعيَّن عليه قليها، أو شيئاً من هذا القبيل، ولم تكن لذلك أهميَّة، فالفيلم كان يدرّ الملايين، وفيمَ اكتراثي بما إذا كان الفتى يرغب في التّمثيل أو لا؟

كان هناك شيء يتعينّ تتبُّعه هنا، ولكنّني جلست مع هذا الرّجل في شقّته التي تشبه القصر في هنري مارتان أڤنيو، منتظراً كلّ جملة من قصّته التي رواها بين المحادثات الهاتفيّة، وفجأة أدركت أنّني لست بحاجة إلى سماع المزيد. كان هناك سؤال واحد له أهميّته ولم يكن بمقدور هذا الرّجل أن يردّ عليه. ولئن بقيت وأصغيت إلى ما يقوله فإنّني سأحصل على المزيد من التّفاصيل، والمزيد من الأمور التي لا أهميَّة لها، وكومة أخرى من الملاحظات التي لا جدوى منها. لقد كنت أتظاهر بتأليف كتاب منذ وقت طويل، وشيئاً فشيئاً نسيت الغرض الّذي أرمي إليه، وقلت لنفسي مردِّداً على نحو واعٍ صدى ما قالته صوفي: كفى! كفى من هذا! ثمّ نهضتُ واقفاً وغادرتُ المكان.

كانت النقطة الجوهريَّة أنّ أحداً لم يَعُدْ يراقبني ولم يَعُدْ يتعينّ عليّ التّظاهر، على نحو ما كنت أفعل في البيت، لم يَعُدْ من الواجب عليّ

تضليل صوفي بـاختلاق عمـل أشغل بـه نفسي بلا انتهاء. لقد انتهت التمثيليّة، وبمقدوري في النّهاية أن أنحّي جـانباً كتـابي الّذي لا وجـود له. وعلى امتـداد نحو عشر دقـائق، خلال عـودتي إلى الفندق الّـذي أقيم بـه على الجـانب الآخـر من النّهـر، أحسست بسعـادة تفـوق مـا شعرت به على امتداد شهور فلقد تمّ تبسيط الأمـور، والهبوط بهـا إلى وضوح المشكلة الواحدة، ولكنْ عندئـذٍ، وفي اللّحظة التي استـوعبت فيها هذه الخاطرة، أدركت مدى سوء المـوقف حقّاً. لقـد كنت بسبيلي إلى الوصول للنّهاية الآن، ومازلت بعيداً عن العثـور عليه. ولم تـطفُ عـلى السّطح قطُّ الغلطة التي كنت أبحث عنها. لم تكن هنـاك بـدايـة خيـوط ولا مؤشّرات ولا طرق للسّـير فيها فلقـد دُفن فانشـو في مكانٍ مـا، ودُفنت حياتـه معـه، ومـا لم يكن راغبـاً في أن يتمّ العثـور عليـه فليست أمامي أدنى فرصة للقيام بذلك.

ورغم ذلـك فقد مضيت قُـدُماً محـاولاً الوصـول إلى النّهـايـة، إلى النّهاية ذاتها، مضّطرباً في عماء عبر اللّقاءات الأخـيرة، ومن غير رغبـة في الاستسـلام إلاّ بعد أن أقـابل الجميـع. وأردت الاتّصـال هـاتفيـاً بصوفي، بل ومضيت في أحد الأيّام إلى حدّ الذهاب إلى مكتب البريد والانتظار في الصّف أمام موظف الاتصالات بالخارج، ولكنّني لم أنجز الأمـر، فقد كـانت الكلمات تعوزني بـاستمرار الآن، وأفـزعتني فكرة فقدان أعصابي خلال الاتّصال الهاتفي. فما الّذي يفترض أن أقوله في نهاية المطاف؟ وبدلاً من ذلك بعثت إليهـا ببطاقـة بريـد تحمل صـورة لوريل وهـاردي، وكتبت على ظهـرها «الـزّيجات الحقيقيّـة لا معنى لها على الإطلاق، انظري إلى الثنائي على الجانب الآخر! إنّه برهان عـلى

أنّ كلّ شيء ممكن. أليس كذلك؟ ربمّا كان علينا البدء باعتبار قبُّعات الدربي. على الأقلّ تذكّري تنظيف الخزانة قبل عودتي. قبلاتي لِبن».

قابلت آن ميشو في أصيل اليوم التّالي. وقد ندت عنها إيماءة تدلّ على الفزع عندما ولجت المقهى الّذي اتّفقنا على اللّقاء فيه (مقهى لوروكيه في بوليڤار سان جرمان) وما قالته لي عن فانشو لم يكن مهمّاً: أيّهما قبّل الآخر، ما الّذي حدث وأين كان ذلك، من قال ماذا وما إلى ذلك. وخلاصة الأمر أنّه مزيد من الأشياء عينها. ولكنّ ما سأذكره هو أنّ شعورها الأوّلي المزدوج بالمفاجأة كان السّبب فيه الحقيقة القائلة إنّها حسبتني فانشو. وكما عبّرت عن الأمر فقد ساورها الشّعور بذلك لجزء ضئيل من الثانية ثمّ انحسر عنها. ولقد لوحظ هذا التّشابه من قبل، بالطّبع، ولكن ليس بمثل هذا العمق وبهذا التّأثير الفوري. ولا بدّ أنّني قد أفصحت عن ردّ فعلي، لأنّها سارعت إلى الاعتذار (كأنّما أخطأت في شيء) وعادت إلى هذه النقطة عدّة مرّات خلال السّاعتين أو السّاعات الثلاث التي أمضيناها معاً، بل خرجت ذات مرّة عن سياق حديثها لتناقض نفسها: «لم أدرِ فيم كنت أفكّر. إنّك لا تبدو شبيهاً به على الإطلاق، لا بدّ أنّه الجانب الأمريكيّ فيكما معاً».

ومع ذلك فقد وجدت الأمر مثيراً للقلق، ولم أستطع الحيلولة دون شعوري بالذّهول، فلقد كان شيء رهيب يشقّ طريقه إلى الحدوث، ولم تعد لي سيطرة عليه. كانت السّماء تعتم في الأعماق، وكان هذا أمراً مؤكّداً، وكانت الأرض تهتزّ، ووجدت من المتعذّر عليّ الجلوس ساكناً، ومن الصّعب التحرّك، وبدا أنّني من لحظة إلى أخرى في

مكـــان مختلف، وأنّني أنسى أين كنت. ورحت أحـــدّث نـفسي بـــأنّ الأفكار تتوقّف حيثـما يبدأ العـالم، ورددت على نفسي بـأنّ النفس هي في العالم أيضاً، وبالمثل الأفكار التي تصدر عنهـا. وكانت المشكلة هي أنّني لم أعـد قادراً عـلى القيام بضروب التمّييـز الصّحيحـة. فهـذا لا يمكن قطّ أن يكـون ذاك، والتفّاحـات ليست برتقـالات والخـوخـات ليست برقوقات، وأنت تشعر بـالفارق عـلى لسانـك، ثمّ تعلم بجليّة الأمر وكأنّه يجري في أعماقك. ولكن كلّ شيء كان قـد بدأ بـاكتساب المذاق نفسـه بالنّسبة إليّ، ولم أعد أحسّ بالجـوع، ولم يعد بمقـدوري إجبار نفسي على الأكل.

وفيما يتعلّق بآل ديدمون فربمّا كان هناك قـدر أقلّ ممّـا يمكن قولـه، ولم يكن بمقدور فانشو أن يختار راعيين أفضل مـواءمة منّهـما، ومن بين جميع من قابلتهم في باريس كانا الأكثر رقّة والأشدّ تراحماً. لقـد وجّها إليّ الـدّعوة لـزيـارتهـما في شقّتهـما، وتنـاول بعض الشراب، ومكثت لتناول العشاء، ثمّ عنـدما حـلّ وقت تناولنـا الطّبق الثـاني من قائمـة الـطّعام كـانا يحثّـانني على زيـارة بيتمها في «فـار»، وهو البيت الّـذي سكنه فانشو، وقالا إنّه لا يتعينّ أن تكون زيارتي له زيارة قصيرة لأنّهما لا يعتزمان الذّهاب إلى هنـاك إلاّ في آب (أغسطس). وقـالت السيّدة ديدمون إنّه كان مكـاناً مهـمّاً بالنّسبـة إلى فانشـو وأعمالـه، ولاشكّ أنّ آفاق كتابي ستّتســع إذا ما رأيتـه بنفسي. ولم أستطع مخـالفتهما، ومـا إن ندت عنّي هذه الكلمات حتّى نهضت السيّدة ديدمون لإصدار تعليماتها بإجراء التّرتيبات الضّرورية لي بفرنسيتها الدقيقة والمتألّقة.

لم يَعُـدْ هنـاك مـا يبقيني في بـاريس، وهكـذا استقللت القـطار في

أصيل اليوم التالي. وكانت تلك هي نهاية المسار بالنّسبة إليّ، مساري الجنوبي إلى النسيان. ولدى وصولي إلى البيت تبخّر الأمل الّذي كنت أعلّقه (الاحتمال الواهن المتمثّل في أنّ فانشو قد عاد إلى فرنسا والخاطرة المجافية للمنطق والقائلة بأنّه قد لاذ بالمكان نفسه مرّتين).
كان البيت خاوياً، ولا وجود لأثر أحد. وفي اليوم الثاني، ولدى فحصي الغرف الواقعة في الطّابق العلّويّ صادفت قصيدة قصيرة كان فانشو قد سطّرها على الحائط، ولكنّني كنت أعرف هذه القصيدة بالفعل، وتحتها كان هناك تاريخ هو: ٢٥ آب (أغسطس) ١٩٧٢ م. إنّه لم يَعُدْ إلى هنا قطّ ولقد ساورني الآن شعور بالحماقة لتفكيري في ذلك.

ونظراً لعدم توافر ما هو أفضل فقد أمضيت أيّاماً كثيرة في الحديث مع النّاس بالمنطقة، المزارعين القريبين، القرويين، أناس من البلدات المجاورة، وقدّمت نفسي بإطلاعهم على صورة لفانشو، متظاهراً بأنّني أخوه، وإن كان قد ساورني شعور بأنّني تحرٍّ سرّيّ بالمعنى الواضح والبسيط، مهرّج يتشبثّ مستميتاً بقشّات. وقد تذكّره بعضهم ولم يتذكّره آخرون، بينما ذكر فريق ثالث أنّه ليس متأكّداً، ولم يكن لذلك من أثر، وقد وجدت لكنة الجنوب ممّا يستحيل اختراقه (بِراءاتِها المتدحرجة ونهاياتها الأنفيَّة) وبمشقّة كنت أدرك ما يقال لي. ومن بين جميع من رأيتهم كان شخص واحد قد اتّصل به منذ رحيله. كان هذا الشّخص هو الجار الأدنى، وهو مزارع من مستأجري الأرض يقيم على بعد قرابة ميل على امتداد الطّريق، وكان رجلاً عجيباً، ضئيل الجرم، في نحو الأربعين من العمر، وأكثر قذارة من أيّ شخص قابلته في حياتي، وكان بيته بناء رطباً متداعياً يعود إلى القرن

السَّابع عشر، وبدا أنّه يقيم هناك بمفرده، بلا رفيق سوى كلب وبندقية صيد، وكان من الجليّ أنّه فخور بأنّه كان صديق فانشو، ولكي يبرهن لي على صداقتهما الحميمة أطلعني على قبّعة رعاة بقر بيضاء أرسلها إليه فانشو بعد عودته إلى أمريكا. ولم يكن هناك مبرّر يدعو إلى عدم تصديق هذه القصّة التي رواها. وكانت القبّعة ماتزال في صندوقها الأصلي، ولم يعتمرها الرّجل فيما يبدو قطّ، وأوضح لي أنّه يدّخرها للّحظة المناسبة، ثمّ انطلق في فيض من حديث سياسي واجهت صعوبة في ملاحقته. قال إنّ الثّورة آتية، وعندما تحلّ فإنّه سيشتري جواداً أبيض وبندقيّة آليَّة، ويعتمر قبّعته، وينطلق عدواً على الطّريق الرئيسي في البلدة، مطلقاً النَّار على جميع أصحاب الحوانيت الّذين تعاملوا مع الألمان خلال الحرب، وأضاف أنّ ذلك سيحدث تماماً كما في أمريكا. وعندما سألته عمّا يعنيه ألقى عليّ محاضرة مليئة بالدمدمة والهلوسة عن رعاة البقر والهنود. وقلت محاولاً مقاطعته: ولكنّ ذلك حدث منذ وقت بعيد. قال مصّراً، لا، لا، إنّه مايزال يحدث اليوم، ألم أسمع بحوادث إطلاق النّار في فيفث أفنيو؟ ألم أسمع بالأباشي؟ كان الجدل أمراً لا طائل وراءه، ودفاعاً عن جهلي حدَّثته بأنّني أقيم في حيّ آخر.

ظللت في البيت بضعة أيّام أخرى. وكنت أعتزم عدم القيام بشيءٍ أطول وقت ممكن، وأن أنال قسطاً من الرَّاحة، فقد كنت مرهقاً، وكنت بحاجة إلى استجماع قواي قبل العودة إلى باريس. وانقضى يومان، ورحت أتريّض في الحقول، وأتجوّل في الغابات، وأجلس في الشّمس عاكفاً على قراءة ترجمات فرنسيّة لروايات تحرٍّ أمريكيَّة. وكان

ينبغي أن يكون ذلك خير علاج، إذ مكثت في مكان ناءٍ، تاركاً نفسي أطفو حرّاً، ولكن ما من شيء من هذا قدّم يد المساعدة لي، فالبيت ما كان ليترك مجالاً لي، إذ بحلول اليوم الثّالث شعرت بأنّني لست وحدي، وأنّه ليس بمقدوري أن أغدو بمفردي في ذلك المكان. لقد كان فانشو هنالك، وأيّاً كان دأبي في محاولة عدم التّفكير فيه فإنّني لم أوفّق في الهرب، وقد كان هذا شيئاً غير متوقّع، ومثيراً للحنق. فالآن، وقد كففت عن البحث عنه غدا أكثر حضوراً بالنّسبة إليّ عن ذي قبل، وانقلبت العمليّة كلّها رأساً على عقب، فبعد كلّ هذه الشّهور التي أمضيتها في محاولة العثور عليه، ساورني شعور بأنّي الشّخص الّذي تمّ العثور عليه، وبدلاً من البحث عن فانشو كنت بالفعل ألوذ بالهرب منه، والعمل الّذي حدّدته لنفسي ـ الكتاب الزائف والجولات اللّانهائيّة ـ لم يكن إلّا محاولة لإبعاده، ذريعة لإبقائه بعيداً عنّي بقدر الإمكان، ذلك أنّه إذا كان بمقدوري إقناع نفسي بأنّني أبحث عنه فإنّه ينبني على ذلك أنّه في موضعٍ آخر، موضع آخر بعيد عنّي، بعيد عن الحدود القصوى لحياتي. ولكنّني كنت على خطأ، فقد كان فانشو موجوداً على وجه الدّقة في الموضع الّذي أوجد فيه، وقد كان هنالك منذ البداية، ومنذ اللّحظة التي وصلت فيها رسالته كنت أكافح لأتصوّره، لأراه على نحو ما كان يمكن أن يكون، ولكن ذهني كان على الدّوام يستحضر فراغاً خاوياً، وفي أفضل الأحوال كانت هناك الصّورة المُحَسَّنة: باب غرفة مغلقة، ذلك كان مدى الأمر: فانشو وحده في تلك الغرفة، وقد حُكم عليه بالعزلة الصّوفيّة ـ ربّما كان يحيا، ربّما كان يتنفّس، يحلم، والله وحده يدري ماذا أيضاً. لقد اكتشفت الآن أنّ هذه الغرفة موقعها داخل جمجمتي.

حدثت لي أمور بعد ذلك، فقد عدت إلى باريس، ولكنّني عندما وصلت إلى هناك لم أجد ما أقوم به، ولم أرغب في مقابلة الّذين سبقت لي رؤيتهم، ولم تواتني الشّجاعة للعودة إلى نيويورك، وأصابني الجمود، وهو شيء لا سبيل إلى التخلّص منه. وشيئاً فشيئاً لم أعُدْ أدري أين أنا. وإذا كان بمقدوري قول أيّ شيء عن هذه الفترة على الإطلاق، فإنّ ذلك يرجع إلى أنّ لديّ أدلّة وثائقيّة تساعدني في ذلك، فهناك على سبيل المثال أختام سمة الدّخول والخروج في جواز سفري وبطاقة الطّائرة وفاتورة فندقي وما إلى ذلك، وهذه الأشياء تبرهن لي أنّني مكثت في باريس ما يزيد على الشّهر، ولكن ذلك أمر مختلف للغاية عن التذكّر، وعلى الرّغم ممّا أعرفه فإنّني مازلت أجده مستحيلاً. إنّني أرى الأمور التي حدثت، وتتراءى لي صور لنفسي في أماكن شتّى، ولكن من بعيد فحسب، وكأنّما كنت أراقب شخصاً آخر. وما من شيء من ذلك يساورني الشّعور بأنّه من ذكرياتي، وهي شيء يغوص في الأعماق دائماً. وأمّا هذه الأشياء فهي هناك في البعيد، أبعد ممّا بمقدوري أن أشعر به أو ألمسه، أبعد من أيّ شيء له علاقة بي. لقد فقدت شهراً من عمري، وحتّى الآن فإنّه من المتعذّر عليّ الاعتراف بذلك، وهو أمر يفعمني بالشّعور بالخجل.

يُعَدّ الشّهر وقتاً طويلاً، وأكثر من الكفاية لكي يتداعى إنسان فيه. وتعاودني هاتيك الأيّام نثاراً إذا ما عادت إلى ذاكرتي على الإطلاق، نتفاً وأجزاء تأبى أن ينضمّ أحدها إلى الآخر. أرى نفسي متهاوياً وقد استبدّ بي السّكر في الشّارع ذات ليلة، ثمّ أنهض مترنّحاً مادّاً يدي إلى أحد أعمدة الإنارة، ثمّ أفرغ ما بجوفي على حذائي.

وأشاهد نفسي جالساً في دار سينما والأنوار مضاءة وقد التفّ حولي جمع من النّاس، عاجزاً عن تذكُّر الفيلم الّذي رأيته لتوّي، وألمح نفسي ضارباً في شارع سان دنيس ملتقطاً عاهرات لمضاجعتهن، ورأسي يتّقد بتذكُّر الأجسام، حشد لا نهاية له من النهود العارية والأفخاذ العارية والمؤخّرات العارية، أرى عضوي يُمصّ، وألمح نفسي في فراش مع فتاتين تقبّل إحداهما الأخرى، أرى امرأة زنجيّة هائلة الجرم تباعد ما بين ساقيها فوق مرحاض وتغسل فرجها. لن أحاول القول بأنّ هذه الأشياء ليست حقيقيَّة، أو أنّها لم تحدث، وكلّ ما في الأمر أنّني لا أستطيع تبريرها، كنت أضاجع إلى حدّ تفجير مخّي، وأغرق في الشراب إلى حدّ الرَّحيل لعالم آخر. وإذا كان المقصود هو تشويه فانشو فإنّ مرحي الصَّاخب قد تُوِّج بالنّجاح. فلقد مضى - ومعه مضيت.

غير أنّ النِّهاية واضحة بالنّسبة إليّ، إذ لم يُقَدَّر لي نسيانها، ويساورني الشّعور بأنّني محظوظ لتذكّري هذا القدر، فالقصّة بأسرها جوهرها هو ما حدث في النِّهاية، ولولا هذه النِّهاية القابعة في أعماقي الآن لما كان بمقدوري الشروع في تأليف هذا الكتاب، والأمر نفسه ينطبق على الكتابين اللّذين سبقاه، «مدينة الزجاج» و«الأشباح». فهذه القصص الثلاث هي في نهاية المطاف القصّة نفسها، ولكن كلّ قصّة منها تمثّل مرحلة مختلفة في وعيي بما تدور حوله. ولست أزعم أنّني قد حللت أيّة مشكلات، وكلّ ما أشير إليه هو أنّه قد حلّت لحظة لم يعد يخيفني فيها أن أُلقي نظرة على ما حدث، وإذا كانت الكلمات قد جاءت في أعقاب ذلك فإنّ هذا لا يرجع إلي شيء إلّا إلى أنّني لم يكن أمامي خيار إلّا قبولها، وتحمُّل مسؤوليتها والمضيّ إلى

حيث أرادت لي الـذّهـاب. ولكنّ ذلـك لا يجعـل الكلمات مهمّـة بالضّرورة، فقد كنت أبذل قصارى جهدي لوقت طويل لأقـول وداعاً لشيءٍ مـا، وهذا الجهـد هو كـلّ ما يهمّ، فـالقصّة ليست في الكلمات وإنّما في الجهد.

ذات ليلة ألفيت نفسي في حـانة قـرب ميدان البيجـال، و«ألفيت» هو التّعبير الّذي أودّ استخدامـه، ذلك أنّني لست أدري كيف وصلت إلى هناك، ولست أذكر أنّني دخلت هذا المكان على الإطلاق. كـانت واحدة من تلك الحانات السيّئة الصّيت المـألوفـة في ذلك الحيّ: ست فتيـات أو ثمانٍ عنـد البار، وفـرصة للجلوس إلى إحـدى الموائـد مع إحداهن، وابتياع زجاجة شمبانيا بثمن بـاهظ، ثمّ إذا كان المـرء يميل إلى ذلك فهناك إمكـانيّة الـوصول إلى اتّفـاق مالي معيّن والاختفاء في غرفة بالفندق المجاور مع الفتاة. ويبدأ المشهد بالنّسبة إليّ وأنا جـالس إلي إحـدى الموائـد مع فتـاة، بعد أن تلقينـا لتّونـا الدّلـو الـذي يضمّ زجاجة الشمبانيا، وأذكر أنّ الفتاة كـانت من بنات تـاهيتي، وترتـدي فستاناً من نسيج أبيض شبكيّ لا شيء تحتـه، أسلاك متقـاطعة فـوق بشرتها السّمراء النـاعمة، وكـان التّأثـير الّذي يـتركه مثيـراً على نحـو رائـع، وأذكر نهديهـا المستديـرين وقد لاحـا من الفتحـات التي تشبـه الماس، والنعومة الغلاّبة لجيدها عندما انحنيت فوقـه وقبّلته. وأبلغتني باسمها، ولكنّني أصررت على مناداتها فايـاواي، وقلت لها إنّها منفيّـة من تايبيه، وأنا هرمـان ملفيل، بحّـار أمريكي قـطع الطّريق الـطّويل الممتّـد من نيويـورك لإنقاذهـا، ولم تكن لديهـا أدنى فكرة عـمّا أتحدّث عنه، ولكنّها واصلت الابتسام، ولاشكّ في أنها كـانت تحسبني مجنونـاً

وأنا أواصل الثرثرة بفرنسيتي المختلطة، بينما لم تكترث هي، وراحت تضحك عندما أضحك، وتسمح لي بتقبيلها حيثما أردت.

كنّا نجلس في جزء غائر بزاوية الحانة، وكان بمقدوري أن ألمح من مجلسي باقي القاعة. وأقبل الرِّجال وانصرفوا، أطلّ بعضهم برأسه عبر الباب ومضى لشأنه، وبقي بعضهم لتناول قدح من الشراب عند البار، ومضى واحد أو إثنان إلى مائدة على نحو ما فعلت. وبعد حوالي ربع السّاعة أقبل شاب كان من الواضح أنّه أمريكي، وبدا لي عصبيّاً، وكأنّه لم يلج مثل هذا المكان من قبل قطّ. ولكن فرنسيّته كان جيّدة على نحو مدهش، وفيما هو يطلب بصورة بليغة قدحاً من الويسكي عند البار ويشرع في الحديث مع إحدى الفتيات، أدركت أنّه يعتزم البقاء بعض الوقت. ورحت أرقبه من ركني المنعزل، مواصلاً تلمّس ساق فاياواي بيدي، وإسناد وجهي في سكون وَدَعة عليها، ولكن كلّما طال وقوفه هناك زاد تشتّتي. كان طويل القامة، رياضي التّركيب، له شعر بولن الرِّمال، وأسلوب صريح، وصبياني إلى حدٍّ ما، وخمّنت أنّه في حوالي السّادسة والعشرين أو السّابعة والعشرين، وأنّه ربمّا كان خريج إحدى الجامعات، وإلاّ فإنّه محام شاب يعمل لحساب إحدى الشركات الأمريكيّة في باريس. ولم أكن قد رأيته من قبل، ومع ذلك كان هناك أمر مألوف فيما يتعلّق به، شيء حال بيني وبين صرفي اهتمامي عنه: نفحة قصيرة، نقطة تشابك غريبة قوامها التعرّف. وجرّبت مطابقة عدّة أسماء عليه، ومررت به في رحلة عبر الماضي، وفككت بَكْرَة المعارف، ولكن ما من شيء طفا على السّطح، فقلت لنفسي مستسلماً في النِّهاية: إنّه لا أحد. وعندئذٍ

ومن قلب المجهول، ومن خلال سلسلة متشابكة من التّداعيات أنهيت الخاطرة مضيفاً: وإذا كان لا أحد، فلا بدّ أنّه فانشو. وضحكت بصوت عال إزاء نكتتي هذه فضحكت معي فاياواي المتيقّظة دائماً. وكنت أعرف أنّه ما من شيء يمكن أن يكون أكثر عبثاً، ولكنّني قلتها مرّة أخرى: فانشو، ثمّ قلتها من جديد: فانشو. وكلّما قلتها أسعدني قولها أكثر، وفي كلّ مرّة كانت تخرج فيها الكلمة من فمي تتبعها ضحكة من القلب. وأسكرني رنين الكلمة ودفعني إلى الضّحك عالياً، وشيئاً فشيئاً بدا أنّ الحيرة تسيطر على فاياواي، وربّما ظنّت أنّني أشير إلى ممارسة جنسيّة بعينها، طارحاً نكتة لم تستطع فهمها. ولكن تكراري الكلمة سلبها معناها، وبدأت تسمعها وكأنّها تهديد. وتطلّعتُ إلى الرّجل عبر القاعة ونطقت الكلمة مجدّداً. كانت سعادتي ممّا لا يقاس، وانتشيت بزيف يقيني ذاته، محتفلاً بالقوّة الجديدة التي أضفيتها على نفسي لتوّي. كنت الكيميائي الرّفيع القدر الّذي يمكنه تغيير العالم حسب رغبته. إنّ هذا الرّجل هو فانشو لأنّني قلت إنّه كذلك، وذلك هو كلّ ما في الأمر. ولم يعد ثمّة ما يوقفني. ومن غير أن أتوقّف لأفكّر في الأمر همست في أذن فاياواي بأنّني سأعود توّاً، وانتزعت نفسي من ذراعيْها الرائعتين وانطلقت إلى شبيه فانشو عند البار. وفي أفضل تقليد للهجة أكسفورد قلت:

ـ طيّب، أيّها العجوز، تخيّل ذلك، ها نحن نلتقي من جديد!

التفت نحوي، ونظر إليّ مدقّقاً، وانحسرت الابتسامة التي كانت ترتسم على شفتيه متحوّلة إلى تقطيبة. وفي النّهاية تساءل:

ـ هل لي بك معرفة؟

قلت، وكلّي مرح:
ـ طبعاً، تعرفني. اسمي ملفيل، هنري ملفيل، ربمّا قرأت بعض كتبي.
لم يدرِ هل يعاملني على أنّني سكّير تعتعه السّكر أم على أنّني مجرم خطر، وظهرت الحيرة على ملامحه. وكانت حيرة رائعة، وقد استمتعت بها تماماً.
قال في نهاية الأمر مغتصباً ابتسامة واهنة:
ـ طيّب، ربمّا قرأت كتاباً أو كتابين.
ـ لاشكّ أنّه الكتاب الّذي يدور حول الحوت.
ـ نعم، الكتاب الّذي يدور حول الحوت.
قلت بإيماءة يداخلها السّرور:
ـ يُسعدني سماع ذلك.
ثمّ وضعت ذراعي حول كتفه، وقلت:
ـ وهكذا، يا فانشو، ما الّذي جاء بك إلى باريس في هذا الوقت من العام؟
ـ عفواً، لم أسمع الاسم.
ـ فانشو.
ـ فانشو؟
ـ فانشو. ف ـ ا ـ ن ـ ش ـ و.
قال، مسترخياً، ومفترّاً عن ابتسامة عريضة، وقد عادت إليه ثقته بنفسه مجدّداً:
ـ طيّب، ذلك هو منبع المشكلة، لقد ظننتني شخصاً آخر. ليس اسمي فانشو، وإنّما ستلمان، بيتر ستلمان.

أجبت ضاغطاً عليه قليلاً:

ـ لا مشكلة هنالك، إذا أردت أن تسمّي نفسك ستلمان فلا مانع عندي، فالأسماء ليست مهمّة في نهاية المطاف، وإنّما المهمّ هو أنّني أعرف من أنت حقّاً. أنت فانشو، وقد عرفت ذلك في اللّحظة التي دخلت فيها هذا المكان، وقلت لنفسي: «هوذا الشيطان العجوز نفسه، ترى ما الّذي يفعله في مكان من هذا القبيل؟»

كان الآن قد بدأ يضيق ذرعاً بي فنحّى ذراعي عن كتفه وتراجع إلى الوارء، وقال:

ـ يكفي هذا، لقد أخطأت، فدع الأمر يقف عند هذا الحدّ، فلم أعد أرغب في المزيد من الحديث معك.

قلت:

ـ فات الأوان، وذاع سرّك، أيّها الصّديق، وما من سبيل أمامك للاختباء منّي الآن.

قال مبدياً الغضب للمرّة الأولى:

ـ دعني وشأني. إنّني لا أحادث المجانين، دعني وشأني وإلاّ فلن تسلم العاقبة!

لم يستطع الآخرون في الحانة فهم ما كنّا نقوله، ولكنّ التوتّر غدا جليّاً، وكان بمقدوري الشّعور بالعيون وهي ترقبني، وباستطاعتي الإحساس بالحالة المزاجيّة وهي تتبّدل من حولي. وبدا ستلمان وقد أصيب بالذّعر فجأة، فألقى نظرة عجلى على المرأة وراء البار، وتتطلّع في خشية إلى المرأة الجالسة بجواره، ثمّ اتّخذ قراراً عاجلاً بمغادرة المكان، ونحّاني عن طريقه وشرع في السّير نحو الباب. وكان

بمقدوري ترك الأمر ينتهي عند هذا الحدّ، ولكنّني لم أفعل، فقد بدأ الدفء يدبُّ في عروقي ولم أرغب في أن يذهب إلهامي هدراً. وعدت إلى حيث كانت فاياواي جالسة، ووضعت عدّة مئات من الفرنكات على المائدة. وقد ادّعت الاستياء في معرض الردّ على هذا، فقلت: «هذا أخي، إنه أحمق، سألحق به»، وفيما هي تمدّ يدها إلى النقود أرسلت إليها قبلة عبر الهواء، واستدرت، وغادرت المكان.

كان ستلمان يتقدّمني بعشرين متراً أو ثلاثين، وهو يغذّ السَّير موغلاً في الشّارع، فمضيت بالسّرعة نفسها، متمهّلاً لأتجنّب رصدي، ولكن من غير أن أدعه يغيب عن ناظري، وبين الحين والآخر كان يلتفت إلى الوراء وكأنّه يتوقّع أن أكون هناك، ولكنّني لا أعتقد أنّه رآني إلاّ بعد خروجنا من الحيّ بمسافة، وقد غدونا بعيدَيْن عن الزحام والضّجيج، وانطلقنا عبر قلب الضّفة اليمنى الهادئ والمعتّم. وكانت المواجهة قد جعلته يجفل، وراح يتصرّف شأن رجل يعدو إنقاذاً لحياته، ولكن ذلك لم يكن بالأمر المتعذّر الفهم؛ فقد كنت الشيء الّذي نرهبه جميعاً: الغريب العدواني الّذي تلفظه الظِّلال، الخنجر الّذي يصيبنا في الظَّهر، السيّارة المسرعة التي تصدمنا حتّى الموت. وقد كان محقّاً في الهرب، ولكن خوفه لم يُسْفر إلاّ عن جعلي أتمسّك بما اعتزمته، وأغراني بمطاردته، وجعلني أصمّم على ذلك إلى حدّ السعار. ولم تكن لديّ خطّة ولا فكرة واضحة عمّا سأقوم به، ولكنّني تعقّبته دونما أدنى شكّ، مدركاً أنّ حياتي بأسرها متوقّفة على ذلك. ومن المهمّ التأكيد على أنّه بحلول ذلك الوقت كنت قد غدوت صافي الذهن، لا تذبذب، ولا خُمار، وإنّما وضوح الذهن كلّه.

وأدركت أنّني أتصرّف على نحو مـذهل في ضراوتـه. وكنت أعرف أنّ ستلمان ليس فانشو. وكان بمثابة اختيار تعسّفي، وكان بريئـاً تمامـاً ولا دراية له بشيء. ولكنّ ذلك كان هـو الّذي أفعمني بهجـة، عشوائيّتـه وطابعه الّذي تدور لـه الرؤوس وهـو نابـع من الصدفـة المحضّ. ولم يكن له معنى، وبسبب هذا كان حافلاً بكلّ معاني الدّنيا.

حلّت لحـظة كانت الأصـوات الوحيـدة التي تتـردّد فيهـا هي وقـع أقدامنا. ونظر ستلمان إلى الوراء من جديد، ورآني آخر الأمر، وشرع في التحـرّك بمزيـد من السرعة منـدفعـاً في صـورة هـرولـة ونـاديتـه: «فانشو!» وناديته ثانية: «فات الأوان، إنّني أعرفـك يا فانشو!» ثمّ في الشّارع التّالي: «انتهى كلّ شيء، يافـانشو! لن تبتعـد أبداً». لم يقـل ستلمان شيئـاً في معـرض الـردّ، بـل لم يكـترث بـالالتفــات. وأردت مواصلة محادثتـه، ولكنّه الآن كـان يعدو، ولـو أنّني حاولت الحـديث فلن يؤدّي ذلـك إلاّ إلى التّقليل من سرعتي، فتخلّيت عن تـوبيخـاتي السّاخرة، وانطلقت في إثره. ولست أدري أيّ مسافة قطعناها في غمار العدو، ولكن بدا أنّها استمرّت طوال ساعات، وقـد كان أصغـر منّي سنّاً، أصغر منّي سنّاً وأكثر قوّة، وأوشك على الإفلات منّي، وأوشكت أنّ أكلّل بالإخفاق، فدفعت نفسي منطلقـاً في شارع مـظلم، متجاوزاً مرحلة التّداعي والغثيان ملقياً نفسي عليـه في توتّـر محتدم من غـير أن أسمح لنفسي بالتوقّف. وقبـل أن أصل إليه بـوقت طويـل، بل قبـل أن أعرف أنّني بسبيلي إليه بوقت طويل، شعرت بأنّني لم أعـد بداخـل نفسي، وأنّـه ليس بمقـدوري التّفكـير في طـريقـة أخـرى للتّعبـير عن الأمر. فلم أعد أستطيع الشّعـور بنفسي على الإطـلاق. وانحسر عنّي

الشُّعور بالحياة، وحلّ مكانه إحساس عجائبي بـالنّشاط والخفّـة، سمٌّ عذب ينداح في دمي، رائحة العدم التي لا سبيل إلى إنكارها. وقلت محدّثاً نفسي إنّ هذه هي لحظة الموت، وهذا هـو الوقت الّـذي سألقى فيـه حتفي. وبعـد ثـانيـة واحــدة لحقت بستلمان، وأمسكت بـه من ظهره، وارتطمنـا بالـرّصيف وكلانـا ينخر كـالخنزيـر لدى السُّقـوط. وكنت قد استنفدت كلّ قواي، والآن غدت أنفاسي أكـثر تقطّعـاً من أن أدافع عن نفسي، وأكثر استنـزافاً من أن أقتحم غـمار الصّراع. ولم يتفوّه أحدنا بكلمة واحدة، ولعدّة ثـوانٍ اشتبكنا في الممشى الجـانبي، ولكنّــه أفلح عنـدئـذٍ في التملّص من قبضتي، وبعـد ذلـك لم يكن بمقدوري القيام بشيء. وبـدأ بلكمي بقبضيته وركـلي بمقدِّمَيْ حـذائه وضربي في كـلّ أنحـاء جسمي، وأذكـر أنّني حـاولت حـمـايـة وجهي بكفيّ، وأذكـر الألم وكيف أذهلني، وإلى أيّ حـدٍّ شعـرت بهذا الألم، وكيف أنّني أردت يائساً ألاّ أحسّ بـه. ولكن لا يمكن أن يكون الأمـر قد دام طويلاً، ذلك أنّه ما من شيء آخر تعود إليّ ذكراه. فلقد مزّقني ستلمان إرباً، وعندما فرغ منّي كانت البرودة قد دبّت إليّ. وفي وسعي تذكّر الاستيقاظ في الممشى الجانبي، وشعـوري بالـدُّهشة لأنّ الـوقت مايزال ليلاً، ولكنّ ذلك هو كلّ ما هنالك، وقد تبدّد كلّ ما عداه.

لم أتحرَّك من غرفتي بالفندق طوال الأيّام الثلاثة التي أعقبت ذلك. ولم تكن صدمتي راجعة لشعـوري بالألم، وإنّمـا لأنّ الألم لم يكن بالغـاً بحيث يُفضي بي إلى المــوت. وقـد أدركت هــذا في اليـوم الثــاني أو الثالث. وفي لحظة معيّنة أدركت، فيما كنت راقـداً في الفراش أحـدّق في خشب مصاريع النّافذة الموصدة، أنّني قد اجتزت الأمر حيّاً. وبـدا

الشُّعور بالبقاء على قيد الحياة غريباً، وغير مفهوم تقريباً. وكان أحد أصابعي قد كسر، وجرح جانبا رأسي كلاهما جراحاً بليغة، وحتّى التنفّس كان يثير الشُّعور بالألم. ولكنّ ذلك لم يكن جوهر الأمر، فقد كنت على قيد الحياة، وكلّما أمعنت التّفكير في الأمر قلّ فهمي له، ولم يَبْدُ ممكناً أنّني قد نجوت بحياتي.

في وقت لاحق من تلك اللّيلة عينها أبرقت لصوفي بأنّني في طريق العودة.

- ٩ -

أوشك على الوصول إلى النّهاية، وهناك شيء واحد لم أذكره، ولكنّه لم يقع إلاّ في وقت لاحق، بعد أن انقضت ثلاث سنوات. وفي غضون ذلك تعدّدت الصعوبات والمآسي، ولكنّني لا أعتقد أنّها تنتمي إلى القصّة التي أحاول أن أرويها. فبعد عودتي إلى نيويورك افترقت عن صوفي حوالي العام، وأقام كلّ منّا بمفرده، وكانت قد يئست منّي، وامتدّت شهور من الحيرة والاضطراب قبل أن أستعيدها في نهاية المطاف. ومن المنظور المتقدّم لتلك اللّحظة (أيار (مايو) ١٩٨٤ م) فإنّ ذلك كان الشيء الوحيد المهمّ. وفيما عداه فإنّ حقائق حياتي كانت أموراً عرضيّة بصورة خالصة.

في ٢٣ شباط (فبراير) ١٩٨١ م ولد أخ لبن أسميناه بول إحياء لذكرى جدّ صوفي، وبعد عدّة أشهر (في تموز (يوليو)) انتقلنا إلى موضع آخر عبر النّهر حيث استأجرنا الطابقين العلويين من مبنى حَجَريّ في بروكلين. وفي أيلول (سبتمبر) بدأ بن بالذهاب إلى الحضانة، وذهبنا جميعاً إلى مينسوتا لقضاء عيد الميلاد هناك. ولدى عودتنا كان بول يسير على قدميه بمفرده، وزعم بن الّذي كان يطويه تحت جناحيه تدريجيّاً أنّه المسؤول كلّية عن هذا التطوّر.

أمّا فيما يتعلّق بفانشو فلم آتِ وصوفي على ذكره قطّ، وكان هذا اتّفاقا صامتاً أبرمناه معاً، وكلّما طال امتناعنا عن الحديث عنه زادت قوّة برهنة أحدنا على ولائه للآخر. وبعد إعادتي المبلغ الّذي كان قد دفع تحت الحساب، إلى ستيوارت جرين وتوقّفي رسميّاً عن كتابة سيرة حياة فانشو، لم نأتِ على ذكره إلاّ مرّة. وقد حدث ذلك يوم

عقدنا العزم على أن نقطن معاً من جديد، وكان ذلك على أسس عمليّة بصورة صارمة. وقد واصلت كتب فانشو ومسرحيّاته جلب دخل جيّد. وقالت صوفي إنّنا إذا أردنا أن نظلّ متزوّجين فإنّ استخدام هذا المال لأنفسنا ينبغي أن يكون أمراً مستبعداً. وقد وافقتها على ذلك، ووجدنا سبلاً أخرى لكسب ما نحتاج إليه، ووضعنا عوائد حقوق النّشر في وديعة لحساب بن، ثمّ في وقت لاحق لحساب بول كذلك، وكخطوة أخيرة في هذا الاتّجاه استعنّا بوكيل أدبي لإدارة شؤون أعمال فانشو، مثل طلبات عرض المسرحيّات ومفاوضات إعادة الإصدار والعقود وكافّة ما ينبغي عمله في هذا الشأن. وقد تصرّفنا بقدر استطاعتنا، ولئن كان بمقدور فانشو أن يقضي علينا فإنّ ذلك لن يكون لأنّنا أردناه أن يفعل ذلك، بل لأنّنا أردنا نحن أن نقضي على أنفسنا. وقد كان ذلك هو السرّ في أنّني لم أكترث قطّ بإطلاع صوفي على الحقيقة، لا لأنّ الحقيقة تخيفني وإنّما لأنّه لم تَعُدْ لها أهميّة. وكانت قوّتنا تكمن في صمتنا، ولم تكن لديّ نيّة القضاء على هذه القوّة.

ورغم ذلك فقد كنت أعرف أنّ القصّة لم تنتهِ، إذ تعلّمت ذلك من الشهر الأخير الّذي أمضيته في باريس، وتعلّمت شيئاً فشيئاً القبول به. ولم تكن المسألة إلاّ مسألة وقت ينقضي قبل أن يقع الشيء الّذي سيعقب ذلك. وبدا لي هذا حتميّاً، وبدلاً من محاولة الاستمرار في إنكاره، وبدلاً من تضليل نفسي بالفكرة القائلة بأنّ في وسعي التخلّص من فانشو، فقد حاولت أن أُعِدّ نفسي للأمر، حاولت أن أجعل نفسي متأهّباً لأيّ شيء، وأعتقد أنّ قوّة هذا «الأيّ شيء» هي

التي جعلت من الصَّعب سرد القصّة، ذلك أنّه عندما يمكن لأيّ شيء أن يحدث فإنّ تلك هي على وجه الدّقة اللّحظة التي تبدأ الكلمات خلالها بالتعثُّر، وبقدر ما غدا فانشو حتميّاً فإنّه لم يعد موجوداً. وقد تعلّمت تقبُّل هذا، تعلّمت معايشته على النحو الّذي أتعايش به مع فكرة موتي. ولم يكن فانشو نفسه موتي، ولكنّه كان كالموت، وقد أدّى وظيفة الكلمة المجازيَّة التي ترمز للموت في أعماقي، ولولا انهياري في باريس لما فهمت هذا، فأنا لم أمت هناك، ولكنّني دنوت من الموت، وحانت لحظة، وربّما لحظات، ذقت فيها الموت، ورأيت نفسي ميتاً. وليس هناك علاج لمثل هذا الصدام، ذلك أنّه ما إن يحدث حتّى يواصل الحدوث، وتظلّ تحيا معه طوال عمرك.

وصلت الرِّسالة في أوائل ربيع ١٩٨٢ م. وفي هذه المرّة كانت تحمل خاتم بريد بوسطن، وكان مضمونها موجزاً وحادّاً وأكثر تعجّلاً من ذي قبل، فقد جاء فيها: «مستحيل أن أواصل الصّمود أكثر من هذا، لا بدّ من محادثتك. ٩ ميدان كولومبوس، بوسطن؛ أول نيسان (أبريل). هذه هي النِّهاية، أعدك بذلك».

كان أمامي أقلّ من أسبوع لألتمس عذراً للذهاب إلى بوسطن، وقد تبيّن أنّ ذلك أكثر صعوبة ممّا ينبغي أن يكون عليه، وعلى الرّغم من أنّني أصررت على الرغبة في ألاّ تعرف صوفي أيّ شيء (إذ شعرت بأنّ ذلك هو أقلّ ما يمكنني القيام به من أجلها) إلاّ أنّني أحجمت فجأة، وعلى نحوٍ ما، عن الإدلاء بكذبة أخرى، على الرّغم من أنّه كان من المتعيّن القيام بذلك. انقضى يومان أو ثلاثة دون تحقيق أيّ تقدّم، وفي النِّهاية ابتكرت قصّة تعوزها البراعة عن اضطراري إلى

مراجعة بعض الأوراق في مكتبة جامعة هارفارد، وليس بمقدوري أن أتذكّر أيّ أوراق كان يُفترض أنَّ عليّ مراجعتها، وأحسب أنّني قلت إنّها تتعلّق بمقال كنت بسبيلي إلى كتابته، ولكنّ ذلك يمكن ألّا يكون ما قلته، والأمر المهمّ هو أنّ صوفي لم تُثِرْ أيّة اعتراضات. قالت: جميل، امضِ قدماً! وما إلى ذلك. وأوحى لي شعور غريزي بأنّها تشكّ في أنّ شيئاً بسبيله إلى الحدوث، ولكنّ ذلك ليس إلّا مجرَّد شعور، وسيكون ممّا لا طائل وراءه أن تتكهّن بصدده هنا. وفيما يتعلّق بصوفي فإنّني أميل إلى الاعتقاد بأنّه ما من شيء جرى إخفاؤه.

حجزت مقعداً على القطار المتّجه إلى بوسطن في وقت مبكر من أوّل نيسان (أبريل). وصبيحة رحيلي نهض بول من فراشه قبل الخامسة بقليل ودلف إلى فراشنا. وانتشلت نفسي بعد ساعة، وخرجت دونما صوت من الغرفة، وتوقّفت لدى الباب قليلاً لألقي نظرة على صوفي والصّغير في الضّوء الرّمادي الكابي. إنّهما الجسمان الّذي أنتمي إليهما وقد تمدّدا وغفلا عن كلّ شيء. وكان بن في مطبخ الطّابق العلوي، وقد ارتدى ملابسه، يتناول موزة ويرسم صوراً. وقمت بقلي البيض لنا معاً، وأبلغته بأنّني أوشك على ركوب القطار المنطلق إلى بوسطن، وأراد أن يعرف أين تقع هذه المدينة.

قلت:

ـ إنّها على بعد حوالي مائتي ميل من هنا.

ـ هل هذه مسافة بعيدة كالفضاء؟

ـ إذا مضيت صُعُداً في خط مستقيم فإنّك ستكون قريباً من الفضاء.

ـ أعتقد أنّك يجب أن تذهب إلى القمر، فالمركبة الفضائيّة أفضل من القطار.

ـ سأقوم بهذا في طريق العودة، فلديهم رحلات منتظمة من بوسطن إلى القمر في أيّام الجمعة، وسأحجز مقعداً لحظة وصولي إلى هناك.

ـ طيّب، ويمكنك عندئذٍ أن تحكي لي عن الرحلة.

ـ إذا عثرت على حجر قمريّ فسوف أحضره لك.

ـ وماذا عن بول؟

ـ سأحضر له حجراً قمريّاً كذلك.

ـ كلا، شكراً لك.

ـ ما معنى ذلك؟

ـ لست أريد حجراً قمريّاً، فبول يمكن أن يضعه في فمه، ويختنق.

ـ ماذا تريد بدلاً منه؟

ـ أريد فيلاً.

ـ ليست هناك أيّة فيلة في الفضاء.

ـ أعرف ذلك. ولكنّك لن تذهب إلى الفضاء.

ـ صحيح.

ـ وأراهن أنّ هناك فيلة في بوسطن.

ـ ربّما كنت على حقّ. هل تريد فيلاً ورديّاً أم فيلاً أبيض؟

ـ أريد فيلاً رماديّاً، فيلاً مكتنزاً به كثير من التجاعيد.

ـ لابأس، ذلك هو أيسرُ ما يُعثر عليه من الفيلة. هل تريده ملفوفاً في علبة أم ينبغي أن أحضره إلى الدّار مشدوداً بِمقْوَد؟

ـ أحسب أنّ عليك أن تعود راكباً على ظهره إلى الدّار، جالساً على قمّته، وقد وضعت تاجاً على رأسك، مثل الإمبراطور تماماً.

ـ إمبراطور ماذا؟

ـ إمبراطور الأطفال الصِّغار.

ـ هل ينبغي أن تكون لديّ إمبراطورة؟

ـ بالطّبع. أمّي هي الإمبراطورة، لسوف تحبّ الأمر وقد ينبغي أن نوقظها ونبلّغها بذلك.

ـ دعنا لا نوقظها، فأنا أفضّل أن يكون الأمر مفاجأة لها عند عودتي إلى الدّار.

ـ فكرة جيّدة، وعلى أيّة حال فهي لن تصدّقها إلاّ عندما تراها.

ـ بالضّبط. ولسنا نرغب في أن تحسّ بخيبة الأمل في حالة عدم عثوري على الفيل.

ـ آه، لسوف تعثر عليه، يا أبي، لا تقلق في هذا الشأن.

ـ كيف يمكنك أن تكون واثقاً للغاية على هذا النحو؟

ـ لأنّك الإمبراطور، والإمبراطور يحصل على أيّ شيء يريده.

ظلّ المطر يهمي طوال اليوم، بل لقد أنذرت السّماء بتساقط الثّلج لدى بلوغنا بروفيدانس. وفي بوسطن ابتعت لنفسي مظلّة، وقطعت الميلين أو الأميال الثلاثة الأخيرة سيراً على الأقدام. ولاحت الشّوارع كئيبة في الهواء الرمادي الضّارب إلى الصّفرة، وفيها انطلقت إلى ساوث إند لم أكد أقابل أحداً، إلاّ أحد السكارى ومجموعة من المراهقين وعامل إصلاح الهواتف وكلبين أو ثلاثة من الكلاب الضّالة. وكان ميدان كولومبوس يتألّف من عشر دور أو اثنتي عشرة

داراً في صفّ واحد تطلّ على جزيرة مكسوّة بالحصى تعزلها عن الشّارع العام. وكان المنزل رقم تسعة هو أكثرها تداعياً، وكان يتألّف من أربعة طوابق، شأن المنازل الأخرى، ولكنّه متهالك تبرز ألواحه الخشبيَّة من الرواق، وتمسّ حاجة واجهته الحجريَّة إلى الترميم. ورغم ذلك فقد كانت فيه متانة مؤثّرة في النّفس وروعة تعود إلى القرن التّاسع عشر وقد واصلت الإطلال من صدوعه. وقد تصوّرت بداخله حجرات رحبة ذات سقوف عالية وأفاريز مريحة المنظر بجوار النوافذ المطلّة على الخليج، وزخارف صيغت من الجصّ، ولكنّني لم يقدَّر لي أن أرى أيّاً من هذه الأشياء، ذلك أنّني لم أتجاوز قطّ القاعة الأماميّة.

كان هناك مصفق معدنيّ صدئ في الباب، عبارة عن نصف كرة في محورها مقبض، وعندما رفعت المقبض أحدث صوتاً يحاكي صوت شخص يحاول التقيّؤ، صوتاً مكتوماً، مختنقاً، لم يمض ِ إلى بعيد. وانتظرت، ولكنّ شيئاً لم يحدث. واستخدمت المصفق مرّة أخرى، ولكنّ أحداً لم يجئ، ثمّ اختبرت الباب بيدي فأدركت أنّه ليس موصداً، ودفعته فانفتح، وتوقّفت، ثمّ دلفت إلى الدّاخل. كانت القاعة الأماميّة خاوية، وإلى اليمين كان هناك درج بدرابزينه المصنوع من خشب الماهوجني وبدرجاته الخشبيّة العاديَّة، وإلى يساري كانت غرفتان مزدوجتان موصدتان تضمّان ما لاأشكّ في أنّه قاعة استقبال، وإلى الأمام مباشرة كان باب آخر، موصد بدوره، وربّما كان يفضي إلى المطبخ. وتردّدت لحظة ثمّ قرّرت صعود الدَّرج، وكنت على وشك الصّعود عندما سمعت شيئاً من وراء الغرفتين، طَرْقاً واهناً تبعه

صوت لم أستطع تبيّنه. والتفتّ مبتعداً عن الدُّرج وتطلّعت إلى الباب، وأصخت السّمع للصّوت من جديد، فلم يحدث شيء.

ساد صمت طويل، ثمّ تناهى الصّوت من جديد، في همس تقريباً:

ـ ها هنا!

مضيت إلى البابين وألصقت أذني بالشقّ الممتدّ بينهما، وقلت:

ـ هل هذا فانشو؟

تردّد الصّوت أكثر وضوحاً هذه المرّة:

ـ لا تستخدم ذلك الاسم! لن أسمح لك باستخدامه.

كان فم الشّخص الموجود بالدّاخل قريباً على نحو مباشر من أذني، ولم يفصل بيننا إلّا الباب وحده، وكنّا قريبين للغاية، إلى حدّ أنّه ساورني شعور بأنّ الكلمات كانت تنصبّ في رأسي صبّاً. لقد كان الأمر شبيهاً بالإصغاء إلى وجيب قلب رجل وهو يتردّد في صدره، كالبحث في جسم عن نبض. وتوقّف عن الحديث، وكان بمقدوري الشّعور بنَفَسه وهو ينفذ عبر الشقّ.

قلت:

ـ دعني أدخل، افتحِ الباب ودعني أدخل!

تناهى الصّوت مجيباً:

ـ ليس ذلك بمقدوري، علينا أن نتحدّث على هذه الشاكلة.

أحكمت قبضتي على مقبض الباب وهززت البابين في إحباط وقلت:

ـ افتح الباب وإلّا حطّمته!

تناهى الصّوت:

ـ لا، سيظلّ الباب موصداً.

كنت قد اقتنعت بأنّ فانشو هو القابع في الدّاخل، وقد تمنّيت لو أنّه كان شخصاً ينتحل شخصيّة فانشو، ولكنّني تعرّفت في الصّوت ما يجعل الادّعاء بأنّه لأيّ شخص آخر أمراً غير وارد. قال:

ـ إنّني أقف هنا ومعي مسدّس؛ وهو موجّه إليك مباشرة، وإذا اقتحمت الباب عنوة فإنّني سأطلق النّار عليك.

ـ لست أصدّقك.

ـ استمع إلى هذا!

قالها، ثمّ سمعته يبتعد عن الباب، وبعد ثانية انطلقت رصاصة من مسدّس، وتبع ذلك صوت تهاوي الجصّ على الأرض. وحاولت التّحديق عبر الشقّ الموجود بالباب، في غضون ذلك، على أمل اختلاس نظرة إلى الغرفة، ولكنّ الفراغ كان أضيق من أن يسمح بهذا، ولم أتمكّن إلاّ من رؤية خيط من الضوء، شعاع رمادي واحد، ثمّ عاد الفم إلى موضعه ولم يعد بإمكاني حتّى رؤية خيط الضوء ذاك.

قلت:

ـ ليكن! لديك مسدّس، ولكن إذا لم تدعني أشاهدك فمن أين لي أن أعرف أنّك من تزعم؟

ـ لم أقل من أنا.

ـ دعني أعبّر عن الأمر بطريقة أخرى. كيف أعرف أنّني أحادث الشّخص المقصود؟

ـ يتعيّن عليك الوثوق بي.

ـ الثّقة، في هذا الوقت المتأخّر، هي آخر ما يمكنك توقّعه منّي.
ـ أقول لك إنّني الشّخص المقصود، وينبغي أن يكون ذلك كافياً، لقد جئت إلى المكان المضبوط، وأنا الشّخص المقصود.
ـ حسبت أنّك تريد رؤيتي، ذلك هو ما قلته في رسالتك.
ـ قلت إنّني أريد الحديث معك، وهناك فرق بين الأمرين.
ـ دعنا نبتعد عن مناقشة التّفاصيل الصّغيرة.
ـ إنّني أذكّرك بما كتبته فحسب.
ـ لا تدفعني إلى أبعد ممّا يجب، يا فانشو، فليس هناك ما يحول بيني وبين الانصراف.
سمعت التقاط نَفَس مفاجئ، ثمّ لُطِمَتْ يد الباب في عنف:
ـ لا تقل فانشو، لا تقل فانشو مرّة أخرى أبداً!
تركت بضع لحظات تمضي، إذ لم أرغب في تفجير اندفاع آخر للمشاعر. وانسحب الفم مبتعداً عن الشقّ، وخيّل إليّ أنّني أسمع تأوّهات ألم من موضع في منتصف الغرفة. تأوّهات أو نشيج، لم أستطع أن أحدّد أيّهما كان ما سمعته. ووقفت هنالك منتظراً من غير أن أدري ما عساي أقول عقب ذلك. وعاد الفم بالفعل إلى موضعه، وبعد صمت طويل قال فانشو:
ـ أمازلت هناك؟
ـ أجل.
ـ عفواً، لم أُرِد البدء على هذا النحو.
قلت:
ـ ما عليك إلاّ أن تتذكّر أنّني جئت إلى هنا لا لشيء إلاّ لأنّك طلبت منّي الحضور.

ـ أعرف ذلك، وأنا ممتنّ لك عليه.
ـ قد يكون عوناً أن توضح السَّبب في دعوتك لي إلى الحضور.
ـ فيما بعد، فلست راغباً بعدُ في الحديث عن ذلك.
ـ ماذا إذن؟
ـ أمور أخرى، الأمور التي حدثت.
ـ إنّني مُصغٍ.
ـ لأنّني لا أريدك أن تكرهني. هل بمقدورك فهم ذلك؟
ـ لست أكرهك. كان هناك وقت كرهتك فيـه، ولكنّ ذلك انتهى الآن.
ـ غداً هو آخر أيّامي. وكان عليّ التأكّد.
ـ هل كنت هنا طوال الوقت؟
ـ أعتقد أنّني جئت إلى هنا منذ عامين.
ـ وقبل ذلك؟

ـ هنا وهناك، فقد كان ذلك الرّجل يطاردني، وكان عليّ الاستمرار في التنقّـل، ومنحني ذلك ميـلاً إلى السّفر، ميـلاً حقيقيّاً إليـه، وكـان ذلك بعيداً تماماً عـمّا توقّعتـه، فقد كـانت خطّتي هي أن أقبـع ساكنـاً وأدع الوقت يمضي.
ـ إنّك تتحدّث عن كوين؟
ـ نعم، التحرّي الخاصّ.
ـ هل عثر عليك؟
ـ مرّتين، إحداهما في نيويورك، والأخرى في الجنوب.
ـ ولماذا كذب في هذا الشأن؟

ـ لأنّني أخفته حتّى الموت، وكان يعرف ما سيحدث له إذا اكتشف أحد جليّة الأمر.

ـ لقد اختفى، ولم أستطع العثور له على أثر.

ـ إنّه في مكان ما، ليس ذلك بالأمر المهمّ.

ـ كيف أفلحت في التخلّص منه؟

ـ قلبت كلّ شيء رأساً على عقب. كان يحسب أنّه يتعقّبني، ولكنّني في الحقيقة كنت أنا أتعقّبه. وقد عثر عليّ في نيويورك، بالطّبع، ولكنّني أفلتّ منه، هارباً من بين ذراعيه. وبعد ذلك غدا الأمر كالقيام بلعبة، فقد انطلقت أمامه تاركاً أطراف خيوط له في كلّ مكان، وجعلت من المستحيل عليه أن يجدني، ولكنّني كنت أراقبه طَوال الوقت، وعندما حان الوقت أوقعته في الشرَك، وقد مضى إليه قُدُماً.

ـ يا للبراعة!

لا، كان ذلك غباء. ولكن لم يكن أمامي أيّ خيار آخر، فإمّا أن أقوم بذلك وإمّا أن تتمّ إعادتي رغماً عنّي، الأمر الّذي كان يعني أن أعامل على أنّني مجنون. وقد كرهت نفسي لقيامي بذلك، فقد كان يقوم بواجبه فحسب، في نهاية المطاف، وقد جعلني ذلك أشعر بالأسف عليه. والشفقة تثير اشمئزازي ولاسيّما عندما أجدها في أعماق نفسي.

ـ ثمّ؟

ـ لم أستطع التيقّن ممّا إذا كانت حيلتي قد آتت أكلها أو لا، وحسبت أنّ كوين قد يطاردني من جديد، وهكذا واصلت الانتقال،

حتّى عندما لم أكن مضّطراً لذلك. وقد فقـدت عامـاً من عمري عـلى هذا النحو.

ـ إلى أين مضيت؟

ـ إلى الجنـوب، الجنـوب الغـربي، أردت البقـاء حيث الـدفء، ورحلت سيراً على الأقدام، ورقدت في العراء، وحاولت الذهاب إلى حيث لا يوجد الكثـيرون. إنّها بلاد هـائلة، مثيرة للذهـول على نحـو مـطلق. وفي وقت من الأوقات أقمت في الصَّحـراء حوالي شهـرين، وفي وقت لاحق سكنت في كوخ عند أطراف محميّة هوبي في أريزونـا. وقد عقد الهنود مجلس القبائل قبل السَّماح لي بالسّكن هناك.

ـ إنّك تُلفِّق ما تقول.

ـ لست أطلب منّك تصديقي، وإنّمـا أحدّثـك بجليّة الأمـر، ذلك كلّ ما هنالك. وبوسعك أن تعتقد ما تشاء.

ـ وبعد ذلك؟

ـ كنت في مـوضع مـا من نيـومكسيكـو. وتـوجّهت ذات يـوم إلى مطعم على طـريق للحصول على ما أتبلّغ به. وكان أحدهم قد تـرك صحيفة على النّضدّ، فالتقطتها وقرأتها، وعنـد ذلك اكتشفت صـدور أحد كتبي.

ـ هل دهشت لذلك؟

ـ ليس هذا هو التّعبير الّذي أوثِر استخدامه.

ـ ماذا إذن؟

ـ لست أدري. أحسب أنّني غضبت، وأصابني الضّيق.

ـ لست أفهم ما تقصد.

ـ غضبت لأنّ الكتاب كان نفاية.

ـ الكتّاب لا يعرفون كيف يقيّمون أعمالهم.

ـ لا، كان الكتاب نفاية، صدّقني، كلّ ما أنجزته كان نفاية.

ـ إذن، لماذا لم تتخلّص منه بإتلافه؟

ـ كنت أكثر ارتباطاً به من أن أفعل، ولكنّ ذلك لا يجعله جيّداً، فالصّغير يرتبط بفضلاته، ولكنّ أحداً لا يثير ضجّة حول الأمر، فذلك شأنه هو وحده.

ـ إذن، لماذا جعلت صوفي تعدك بأن تطلعني على أعمالي؟

ـ لتهدئتها، ولكنّك تعلم ذلك بالفعل، ولا بدّ أنّك خمّنته منذ وقت طويل، ذلك كان العذر الّذي لجأت إلى انتحاله، وأمّا السّبب الحقيقي فهو العثور على زوج جديد لها.

ـ وقد نجح ذلك.

ـ لم يكن بدّ من أن ينجح، فأنا لم أخْتَرْ أيّ شخص، كما تعرف.

ـ والمخطوطات؟

ـ حسبت أنّك ستلقي بها، فلم يخطر ببالي قطّ أنّ أحداً سيحمل هذه الأعمال محمل الجدّ.

ـ ماذا فعلت بعد أَن قرأت أنّ الكتاب قد صدر.

ـ عدت إلى نيويورك. لقد كان من العبث القيام بذلك، ولكنّني كنت منفعلاً أكثر ممّا يجب بعض الشيء، ولم أعد أفكّر بذهن صافٍ، واستدرجني الكتاب إلى ما فعلته، وكان عليّ أن أصارعه من جديد، فبمجرّد صدور الكتاب لم يعد بمقدوري التّراجع.

ـ حسبت أنّك لقيت حتفك.

ـ هـذا ما كـان يفترض أن تعتقـده، وإذا لم يؤدِّ إلى أيّ شيء آخـر فإنّه برهن لي على أنّ كوين لم يعد مشكلة قائمة، ولكنّ هـذه المشكلة الجديدة كانت أسوأ بكثير. كان ذلك عندما كتبت لك تلك الرّسالة.

ـ كان عملاً أثيماً إقدامك على كتابة تلك الرّسالة.

ـ كنت غـاضبـاً منّـك، وأردتـك أن تعـرف طعم العـذاب، وأن تعايش الأمور التي أعايشها، وفي اللّحظة التي أعقبت إلقائي للرّسـالة في صندوق البريد ندمت على كتابتها.

ـ كان الأوان قد فات.

ـ نعم، كان قد فات.

ـ هل طالت إقامتك في نيويورك؟

ـ لست أدري، ربمّا ستّة أشهر أو ثمانية، فيما أظن.

ـ وكيف كنت تحيا؟ من أين لك المال لتواصل العيش؟

ـ كنت أسرق الأشياء.

ـ لم لا تقول الحقيقة؟

ـ إنّني أبذل قصارى جهـدي، وأقول لـك كلّ مـا يمكنني إبلاغـك به.

ـ ماذا فعلت في نيويورك بخلاف ذلك؟

ـ رحت أراقبـك. أراقبك أنت وصـوفي والصّغير، بـل جـاء وقت عسكرت فيه خارج المبنى الّذي تقيمون فيه، لمدّة أسبوعين أو ثلاثـة، وربمّا لمدّة شهر كامل. تعقبّتك حيثـما ذهبت، بل إنّني اصـطدمت بك مـرّة أو مرّتـين في الشّارع، وحـدّقت في عينيـك مبـاشرة، ولكنّـك لم تلحظ ذلك قطّ. لقد كان شيئاً مذهلاً ألاّ تستطيع رؤيتي.

ـ ذلك كلّه من بنات أفكارك.

ـ ربمّا لم أَعُدْ أبدو كما كنت قبلاً.

ـ ليس بوسع أحد أن يتغيّر إلى هذا الحدّ.

ـ أعتقد أنّه ما من أحد يستطيع أن يتعرّف عليّ. ولكنّ ذلك كان من حسن طالعك، فلو حدث شيء فربمّا أقدمت على قتلك. فطوال الوقت الّذي أمضيته في نيويورك كانت خواطر قاتلة تجيش في نفسي، أفكار من النّوع السيّئ. وأوشكت هنالك على الوصول إلى نوع من الرّعب.

ـ ما الّذي أوقفك؟

ـ لقد وجدت في نفسي الشّجاعة للرحيل.

ـ كان ذلك شيئاً نبيلاً منك.

ـ لست أحاول الدّفاع عن نفسي، وكلّ ما هنالك أنّني أحكي لك القصّة.

ـ وبعد ذلك؟

ـ أبحرت إلى الخارج من جديد. كانت ماتزال لديّ بطاقة البحّار الخاصّة بي، ووقّعت عقداً للعمل على متن ناقلة بضائع يونانيّة كانت شيئاً مقزّزاً يثير الغثيان حقّاً من البداية إلى النّهاية. ولكنّني كنت جديراً بذلك، وكان على وجه الدّقة ما أردت. ومضت السّفينة إلى كلّ مكان ـ إلى الهند، اليابان، كافّة أرجاء العالم، ولم أنزل منها مرّة واحدة. ففي كلّ مرّة كنّا نصل فيها إلى مرفأ كنت أمضي إلى قمرتي، وأوصد الباب على نفسي. وقد أمضيت عامين على هذا النحو، من غير أن أرى شيئاً أو أفعل شيئاً، وكنت أحيا وكأنّني ميت.

ـ بينما كنت أحاول كتابة قصّة حياتك.

ـ أهذا ما كنت تفعله؟

ـ هكذا يبدو.

ـ خطأ كبير.

ـ ليس عليك أن تخبرني بذلك، فقد اكتشفته بنفسي.

ـ رست السّفينة في ميناء بوسطن ذات يوم فقرّرت مغادرتها، وكنت قد ادّخرت مبلغاً كبيراً فيه أكثر من الكفاية لشراء هذا المنزل. وقد أقمت هنا منذ ذلك الوقت.

ـ ما هو الاسم الّذي كنت تنتحله؟

ـ هنري دارك، ولكن ما من أحد يعرف مَنْ أكون، فأنا لا أخرج أبداً، وهناك امرأة تأتي مرّتين كلّ أسبوع وتجلب لي ما أحتاج إليه، ولكنّني لم أقابلها قطّ، وإنّما أترك لها كلمة في أسفل الدّرج، مع المال الّذي أدين به لها، وهو ترتيب بسيط وفعّال، وأنت أوّل شخص أحادثه خلال عامين.

ـ هل فكّرت في أنّك قد جننت؟

ـ أعرف أنّ الأمر يبدو كذلك لك، ولكنّني لست مجنوناً، صدّقني، ولست حتّى أرغب في تبديد طاقتي في الحديث عن ذلك، فما أحتاج إليه لنفسي مختلف للغاية عمّا يحتاج إليه الآخرون.

ـ أليس هذا المنزل أكبر ممّا يحتاج إليه شخص واحد؟

ـ أكبر بكثير، فلم أغادر الطّابق الأرضيّ منذ انتقالي إلى هنا.

ـ إذن لماذا اشتريته؟

ـ ثمنه زهيد للغاية، وقد أحببت اسم الشّارع، فهو يخاطب ذوقي.

ـ ميدان كولومبوس؟

ـ نعم.

ـ لست أفهم ما تعني.

ـ لقد بدا فألاً طيّباً. أعود إلى أميركا، ثمّ أعثر على منزل في شارع أُطْلِقَ عليه اسم كولومبوس. كان في ذلك منطق معينّ.

ـ وهذا هو المكان الّذي تعتزم أن تلقى حتفك فيه؟

ـ بالضّبط.

ـ تحدّثت رسالتك الأولى عن سبع سنوات، ومازال أمامك عام تحياه.

ـ لقد برهنت لنفسي على ما أردت، وليست هناك حاجة لإطالة أمد الأمر، فقد نال منّي التعب، وسئمت من كلّ شيء.

ـ هل طلبت منّي القدوم إلى هنا لأنّك حسبت أنّني سأمنعك؟

ـ لا، على الإطلاق، لست أتوقّع أيّ شيء منّك.

ـ ما الّذي تريده إذن؟

ـ لديّ بعض الأشياء يتعينّ أن أعطيها لك. ففي وقت من الأقات أدركت أنّني مدين لك بإيضاح ما فعلته، على الأقلّ محاولة للقيام لذلك، وقد أمضيت الأشهر السّتّة الأخيرة محاولاً كتابة هذا الإيضاح.

ـ حسبت أنّك ودّعت الكتابة إلى الأبد.

ـ هذا شيء مختلف، وليست له صلة بما اعتدت القيام به.

ـ أين هذا الإيضاح؟

ـ وراءك. على أرضيّة الخزانة الموجودة تحت الدّرج، في كرّاسة حمراء.

استدرت، وفتحت باب الخزانة، والتقطت الكرّاسة. وكانت كرّاسة بالحجم المألوف، ذات مشبك جانبي لولبي، تضمّ مائتي صفحة مسطّرة، وألقيت نظرة عجلى على المحتويات فألفيت كلّ الصفحات مليئة بالكتابة: الخطّ المألوف نفسه، الحبر الأسود عينه، والحروف الصغيرة ذاتها. ونهضت وعدت إلى الشقّ بين البابين.

تساءلت:

ـ ماذا تريد الآن؟

ـ امضِ بها إلى الدّار، واقرأها.

ـ ماذا لو لم يكن بمقدوري ذلك؟

ـ احتفظ بها، إذن، للصّغير، فقد يرغب في رؤيتها عندما يكبر.

ـ لست أعتقد أنّ لك أيّ حقّ في طلب ذلك.

ـ إنّه ابني.

ـ لا، ليس كذلك، إنّه ابني أنا.

ـ لن أصرّ على ذلك، فاقرأها أنت إذن. لقد كُتِبَتْ من أجلك على أيّ حال.

ـ وصوفي؟

ـ لا، لا ينبغي أن تبلّغها بالأمر.

ـ ذلك هو ما لن أفهمه أبداً

ـ صوفي؟

ـ كيف أمكنك أن تهجرها على ذلك النّحو؟ ما الّذي فعلته لك؟

ـ لا شي. لم يكن الخطأ خطأها. لابدّ أنّك تعرف ذلك الآن. وكلّ ما في الأمر أنّني لم يُقْصَد بي أن أحيا كالآخرين.

ـ وكيف قُصِدَ بك أن تحيا؟

ـ كلّ ذلك موجود في الكرّاسة. وكلّ ما أفلحت في قوله الآن لن يؤدّي إلاّ إلى تشويه الحقيقة

ـ هل هناك شيء آخر.

ـ لا، لست أعتقد هذا، فقد نكون وصلنا إلى النّهاية.

ـ لست أصدّق أنّ لديك الجرأة على إطلاق النّار عليَّ. ولئن حطّمت الباب الآن فإنّك لن تُحيّر حراكاً.

ـ لا تخاطر بذلك، فلسوف تلقى حتفك للاشيء.

ـ لسوف أنتزع المسدّس من يدك، وألطمك حتّى تغيب عن الوعي.

ـ ليس هناك طائل من وراء ذلك. إنّني ميت، بالفعل، فقد تجرّعت السّم منذ ساعات.

ـ لا أصدّقك.

ـ ربّما ليس بمقدورك أن تعرف ما هو حقّ ممّا هو زائف، ولن يُقَدَّر لك أن تعرف أبداً.

ـ سأستدعي الشرطة، وسيحطّم رجالها الباب، ويجرّونك إلى المستشفى جرّاً.

ـ ما إن يتردّد صوت عند الباب حتّى أطلق رصاصة على رأسي، وليست هناك طريقة تفوز بها.

ـ هل الموت شديد الإغواء؟

ـ لقد عايشته حتّى الآن طويلاً، وهو كلّ ما بقي لي.

لم أعد أدري ما عساي أقول. فقد استنفدني فانشو. وفيما كنت أسمعه وهو يلتقط أنفاسه على الجانب الآخر من الباب ساورني شعور

بأنّ الحياة تُمْتَصّ منّي امتصاصّاً. قلت وقد عجزت عن التَّفكير في أيّ شيء آخر:

ـ أنت أحمق، أنت أحمق، وتستحقّ الموت جزاءً وفاقاً.

عندئذٍ غلبني شعور قاهر بالضّعف والبلاهة، وشرعت في لطم الباب وكأنّني طفل، وقد أخذتني الرّعدة، وأخذت أدمدم باهتياج، وقد أوشكت على الانخراط في البكاء.

قال فانشو:

ـ خير لك أن تذهب الآن، ليس هناك ما يدعو لإطالة هذا الوضع.

قلت:

ـ لست أريد الذهاب، فمازالت لدينا أمور يتعينّ علينا الحديث عنها.

ـ لا، ليس لدينا ما نتحدّث عنه. انتهى الأمر. خذ الكرّاسة وعُدْ إلى نيويورك، هذا هو كلّ ما أطلبه منك.

كان الإعياء قد استبدّ بي حتّى لقد ظننت لوهلة أنّني سأهوي متداعياً، وتشبّثت بمقبض الباب مستنداً إليه، وطغى السّواد داخل رأسي، ورحت أقاوم الإغماء الزاحف. وبعد ذلك لم أعد أذكر ما حدث، فقد ألفيت نفسي في الخارج، أمام المنزل، والمظلّة في إحدى يديّ، والكرّاسة الحمراء في اليد الأخرى. وكانت السّماء قد انقشعت، ولكنّ الهواء كان مايزال رطباً، وكان بمقدوري الشّعور برطوبة جاثمة في رئتيّ. ورحت أرقب شاحنة كبيرة وهي تقرقع قريباً منّي في زحمة حركة المرور. وتابعت بناظري نورها الخلفيّ الأحمر إلى

أن عجزت عن تبيّنه. وعندما رفعت عينيّ عالياً أدركت أنّ اللّيل قد أوشك على أن يسدل أستاره. وشرعت في السّير مبتعداً عن المنزل، واضعاً قدماً أمام الأخرى بصورة آليَّة، وعاجزاً عن التَّركيز في المكان الّذي أمضي إليه. وأظنّني قد سقطت أرضاً مرّة أو مرّتين، وأذكّر أنّي رحت أنتظر عند أحد المنعطفات في محاولة لإيقاف سيّارة أجرة، ولكن ما من سيّارة توقّفت لي. وعقب ذلك بلحظات انزلقت المظلّة من يدي وهوت إلى بُريكة من ماء المطر فلم أكترث لالتقاطها.

كانت السّاعة قد تجاوزت لتوّها السّابعة عندما وصلت إلى محطّة ساوث. وكان قطار المحطّة إلى نيويورك قد غادر قبل ربع ساعة، ولم يكن من المقرّر أن يغادرها قطار آخر إلى نيويورك إلاّ في الثامنة والنّصف، فاقتعدت أحد الكراسي الخشبيّة. والكرّاسة الحمراء على حِجْري. ومضى ركّاب متأخّرون عن مواعيدهم ينتشرون بلا انتظام، وأحد المشرفين على نظافة البوّابات يتحرّك ببطء على الأرضيّة بممسحة للتّنظيف، ورحت أصغي إلى رجلين كانا يتحدّثان عن «الريدسوكس» ورائي، وبعد عشر دقائق من مقاومة حافز يدعوني إلى ذلك فتحت الكرّاسة وقرأت بانتظام مدّة ساعة تقريباً، متنقّلاً في النّص إلى الأمام وإلى الوراء، محاولاً تبيّن مغزى ما كتبه فانشو. وإذا كنت أمتنع عن قول شيء عمّا وجدته هناك فإنّ مردّ ذلك إلى أنّني لم أفهم إلاّ القليل للغاية. لقد كانت كلّ الكلمات مألوفة عندي، ومع ذلك فقد بدا أنّها صيغت معاً على نحو غريب وكأنّما كان الهدف النّهائي أن تلغي إحداها الأخرى. وليس بمقدوري التّفكير في أيّة طريقة أخرى للتّعبير عن الأمر، فكلّ جملة تمحو سابقتها، وكلّ عبارة تجعل العبارة التالية مستحيلة. فمن الغريب، إذن، أن يكون الشّعور

الّذي بقي من هذه الكرّاسة هو شعور بقـدر كبير من صفـاء التّفكير. فقد بدا الأمر كما لـو أنّ فانشـو عرف أنّ عمله الأخـير كان ينبغي أن ينسف كلّ ما أتـوقّعه منـه، فلم تكن هذه كلمات رجـل ندم عـلى أيّ شيء، وقد ردّ على السّؤال بـطرح سؤال آخر، ومن ثمّ فقـد بقي كلّ شيء مفتوحاً، وغير منتهٍ، لكي يتمّ البدء به من جديد. ولقـد فقدت طـريقي بعد الكلمـة الأولى، ومنذ ذلـك المـوضـع فصـاعـداً لم يكن بمقـدوري إلاّ أن أتلمّس ما أمـامي، متعثّـراً في الـظّلام، وقـد أعمى ناظريَّ الكتاب الّذي دُبّج خصّيصاً من أجلي. ومع ذلك فقد شعرت تحت هذه الحيرة بأنّ هناك شيئاً متّسماً بإرادة من طابع معينّ بـأكثر ممّـا ينبغي، شيئاً أكثر كمالاً ممّا ينبغي، وكأنّما كـان الشيء الّذي يـريده في نهاية المطاف حقّاً هو أن يَخْذِل، حتّى ولو مضى إلى حدّ خذلان نفسه. غير أنّني يمكن أن أكون مخطئاً، فلم أكن في حالة تسمح لي بقراءة أيّ شيء في تلك اللّحظة، وأيّ حكم من المحتمل أن يكون الصّواب قد جافاه. لقد كنت هنالك، أقرأ هاتيك الكلمات بعينيَّ، ومع ذلك فإنّي أجد أنّ من الصّعب عليَّ الثّقة بما أقوله.

رحت أتجوّل ضارباً في مسيرتي نحو القضبان. وكان المطر قـد عاد إلى الهطول من جديد، وكان بـوسعي أن أرى نَفَسي في الهواء أمـامي وهو ينطلق من فمي في اندفاعات ضبابيّـة صغيرة. ومـزّقت صفّحات الكـرّاسة صفحـة تِلْوَ الأخرى مكـوِّراً إيّاهـا في يديّ، وألقيت بهـا في سلّة مهملات على الرّصيف. ولقد وصلت إلى الصّفحـة الأخيرة فيـما كان القطار يشرع في مغادرة المحطّة.



. . . هناك الرّجل الذي يمضي في كلّ مكان بمجموعة من عِصيّ قرع الطبول، لاطماً بها الرّصيف بإيقاع طائش، عبثيّ، منحنياً على نحو مرتبك وهو يتقدّم في الشّارع ويقرع الإسمنت مراراً وتكراراً. وربّما كان يحسب أنّه يؤدّي عملاً مهمّاً، ولو لم يقم بما هو عاكف عليه فلربّما انهارت المدينة، وربّما كان القمر سيخرج عن مداره، ويرتطم بالأرض. وهناك من يحادثون

أنفسهم، ومن يدمدمون، ومن يصرخون، ومن يلعنون، ومن يتأوّهون ألماً، ومن يسردون على أنفسهم القصص وكأنّهم يحكونها لشخص آخر. وهناك الرّجل الذي رأيته اليوم جالساً وكأنّه كومة من القمامة أمام محطة جراند سنترال، والحشود

تنطلق متجاوزة إيّاه، وهو يقول بصوت عالٍ مليء بالفزع: «فرقة المارينز الثّالثة... التهام النّحل... النّحل يزحف خارجاً من فمي». أو المرأة التي كانت تهتف برفيق خفيّ: «وماذا إذا لم أكن أريد ذلك! وماذا إذا لم أكن أريد ذلك»!

تصميم الغلاف: نجاح طاهر
عن لوحة لبول روبرتس
دار الآداب
هاتف ٨٠٢٧٧٨-٨٠١٦٣٣
ص.ب ١١-٤١٢٣ بيروت